أعمال موليير الكاملة

المجلد الأول

تعريب:
أنطوان مشاطي

إشراف:
نظير عبود

دار نظير عبود

١٩٩٤

ص.ب : ١١/٨٠٨٦ تلفون : ٩٣٦٧٧٢ـ ٩٢٤٧١٤

المجلد الأول

المجلد الثاني

المجلد الثالث

المجلد الرابع

يحتوي المجلد الأول على :

الطَائِش

أشخاص المسرحية

لالي : إبن بَنْدولْف.
سِيلي : عبدة تُروفَلْدان.
مَسْكاريل : خادم لالي.
هِيبوليت : إبنة أنْسيلْم.
أُنسيلْم : عجوز
تُروفَلْدان : عجوز
بَنْدولْف : عجوز.
ليائدر : إبن أُسْرة.
أُلدريس : رجل مصري.
الْكاسْت : خادم.
ساعي بريد .
فرقتان من المُقَنَّعين.

الأحداث تجري في مسيّنا (إيطاليا)

الفصل الأول

المشهد الأول

لالي.

لالي : هيا، يا ليانْدر. علينا ان نتبارى ونرى من منّا ستكون له الغلبة، ومن منّا سيفوز على خصمه. استعدّ إذاً وابْذُل أقصى جهدك. فأنا من جهتي لن تُثنيني عن انتصاري أية صعوبة.

المشهد الثاني

لالي، ومَسْكاريل

لالي : هيّا، يا مَسكاريل.

مَسْكاريل : ماذا تعني ؟

لالي : أمامي أمور عديدة، وأنا ميّال الى المشاكسة. فإن ليانْدر يحبّ سيلي. وفي هذا الميدان لا يتورّع عن منافستي رغم تمسّكي بنظرتي المتطرّفة الى الامور.

مَسْكاريل : أحقّاً ليانْدر يهوى سيلي ؟

لالي : أؤكد لك أنه يعبدها.
لالي : تباً له.
لالي : نعم، ما أغباه. وهذا يضايقني. على كل حال، أكون مخطئاً ان يَئسْتُ من هذا الوضع المُرْبِك، ما دمتُ أحظى بمساندتك، ويمكنني أن أطمئنّ الى مساعدتك. لأنك ماهر في تدبير المسائل، ولا يعسر عليك حلّ اية عقدة. لذا دُعيتَ حلّال المشاكل، ولا مثيل لك على وجه الأرض.
مَسْكاريل : مهلاً. لماذا كل هذا الاطراء ؟ فعندما اكون انا المسكين ملاذ العاشق المغبون، أكون الصديق العزيز أيضاً. وفي شتّى الظروف حين لا تنتهي المعضلات بواسطتي الى الفرج، أكون أكبر الدجّالين. المحتالين، واستحقّ اقصى الاحتقار.
لالي : انت على ضلال في هذا الاستنتاج الخاطئ. على كل حال تعالَ نعالج مشكلتي. إن كان لا بدّ من اعتبار قضيتي عويصة بالنسبة الى ما أواجهه من العواطف الجامحة، أعتقد أن القَدَر يُخفي عني الكثير من مساوئ مزاحمي ومستواه الوضيع.
مَسْكاريل : انت شاب خيالي، تسعى وراء الاوهام. لكن ماذا يمكن بَنْدولْف ان يفعل في خِضَمّ هذه العراقيل. يقول ابوك في ساعات غيظه، انه يلومك بدون حساب عندما لا يعجبه سلوكك. وهو يتحدث باستمرار إلى أُنْسيلْم في موضوع اقترانك بالصبية هِيبوليت، إذ يعتقد أن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تهدئ روعك، وتعيد اليك رشدك. لأنك في خوض هذه المغامرة الغراميّة التي تسيطر على تفكيرك، تمرّدتَ ولم تعد تنصت الى صوت العقّل، ونبذت النصح والطاعة. والله يعلم كيف ستكون نهايتك المبهمة الحزينة بعد كل المواعظ التي ضربتَ بها عرض الحائط.
لالي : أرجوك أن تهادنني قليلاً وتحجب عني سيل بلاغتك العدائية.
مَسْكاريل : بل عليك أنت أن تبدّل سياستك الفاشلة. لأنها ستؤدّي بك الى أبشع النتائج ...
لالي : إعلم جيداً ان إزعاجي لن يفيدك، وإن إغضابي سيكلّفك غالياً، وان إرشاد الخادم سيّده لا يعطي أية ثمرة.

مَسْكاريل : حنقت، يا سيدي، بسبب ما قلته لك على سبيل المزاح، وأنا احاول أن أعرف حقيقة رأيك. هل يبدو عليّ اني من فئة الساخرين الهازئين ؟ وهل بيني وبينك من خلاف ؟ انت تعلم جيداً اني في الحقيقة بالعكس، من أخلص أصدقائك والمقرّبين اليك، ولا يسعك إلّا ان تعترف بما أمتاز به من الصفات الانسانية. أجل، لا سبيل الى الشكّ بصلاح نصائحي كأني أب عطوف. فاطرد عنك هذه الافكار السخيفة، ودعني أتصرّف لصالحك. لأنك على وشك أن تفقد صوابك، وبمثل هذه القصص البذيئة، تَحْمُل امثالك الشبان على نَبْذ أطايب الحياة الرائعة. وأنت اول من خَبِر مبادئي التي تقوم على بذل قصارى جهدي في خدمتك.

لالي : اراك تحاول كسب عطفي بأحاديثك الطليّة هذه. على كل حال عندما ظهر حبّي للعيان، لم أُغْضِب أحداً. غير أن ليانْدر منذ هنيهة صرّح لي بأنه سيفعل المستحيل لكي ينتزع مني حبيبتي سيلي. لذا عليّ ان استعجل في الاهتداء الى وسيلة فعّالة سريعة لاستمالتها إليّ نهائياً ولو بالحيلة والخداع والمكر والنفاق، وأن لا أَدَع منافسي يتباهى باختطافها منّي.

مَسْكاريل : دعني أفكّر برهةً في هذه القضية الشائكة، وأرى ما باستطاعتي ان ابتكره من ضرب محكم يشيب له الاطفال.

لالي : وما هي هذه الحيلة التي سيتفتّق عنها دهاؤك ؟

مَسْكاريل : كم أنت عَجُول. لا يغربْ عن بالك ان دماغي يعمل دائماً بطريقة موزونة. ها قد وجدت ضالتي المنشودة. لا، لا، انا لا أبالغ. لكنك اذا ذهبتَ ...

لالي : الى اين ؟

مَسْكاريل : هذه خدعة طفيفة. لقد فكّرت بأمر ...

لالي : ما هو ؟

مَسْكاريل : لا، هذا غير ملائم. لكن ألّا يسعك أن ...

لالي : ماذا ؟

مَسْكاريل : ألا يمكنك أن تفعل ذلك ؟ عليك أن تكلّم أَنْسيلْم.

لالي : وماذا أقول له ؟

مَسْكاريل : بالحقيقة، ستنتقل من تحت المزراب الى تحت الشلّال. على كل حال، لا بدّ لي من التغلّب عليه. إذهبْ الى تروفلْدان.

لالي : لأي غرض ؟

مَسْكاريل : لست أدري.

لالي : هذا سخيف. في النهاية أنت تضعني في مأزق حرج مضحك.

مَسْكاريل : لو كان بحوزتك مسدّس، لما احتجنا الآن الى التفكير وعصر الدماغ كي نجد وسيلة مجدية، لا بدّ من الاهتداء اليها، لنتمكّن من شراء هذه العبدة المتنازع عليها، ودرء خطر خصمك العنيد عنك، بالشجاعة اللازمة للاقدام على ردّة فعل عنيفة وإنقاذ الموقف المحيّر. فإنّ تروفلدان خبير بشؤون هؤلاء المصريين، ويعرف من أين تؤكل الكتف عن طريق اغرائهم ببعض المال. وأنا واثق بأنه يعرف جيداً ايضاً كيف يشتريها منهم. فهو ماكر حريص يقبل حتى العار ان كان من ورائه أي ربح مهما كان زهيداً. فالمال في نظره إله فائق القدرة. لكن المصيبة ...

لالي : أية مصيبة ؟

مَسْكاريل : والدك خسيس آخر، لا يدعك تتصرّف بدراهمه على هواك. وانت احوالك الحاضرة هزيلة، لا تتيح لك بأن تنفق مالك في اي سبيل كان. علينا اذاً ان نفاتح سيلي بالموضوع لنعرف رغبتها وما تنوي عمله. ها هي نافذتها أمامنا.

لالي : لكن تروفلْدان يراقبها ليلاً نهاراً. فحذار مَن أن يبصرك.

مَسْكاريل : تعالَ ننتظرها في هذه الزاوية، لعلّها تطلّ علينا.

المشهد الثالث

لالي، وسِيلي، ومسكاريل.

لالي : أَشكر الله الذي منّ عليّ بمشاهدة عينَيْك النجلاوَيْن وملامحك الفاتنة التي يُبهجني أن أمتّع انظاري بحلاوتها.

سيلي : أُذني تهفو الى سماع صوتكَ العذب. وإن بدر مني ما لا يعجب خاطركَ، فكن على يقين بأني لم اقصده مطلقاً.

لالي : انتِ ارفع من ان تسبّبي لي أي إزعاج. فثقي بأن ليس بالامكان ان تضايقيني. واذا ...

مَسْكاريل : انتما تتخاطبان بلهجة لا مسوّغ لتبادلها الآن. فهذه التعابير لا مبرّر لها في وضعنا الحالي. إذْ علينا ان نستفيد من الوقت الذي يداهمنا، لنعرف منها ما ..

ثُروفَلْدان (**يدخل فجأةً**) : يا سيلي ...

مَسْكاريل : ماذا دهاك ؟ ماذا تريد ؟

لالي : ما أقسى هذا اللقاء وأصعبه. هل يجوز لهذا العجوز ان يدخل علينا هكذا كهبوب الريح ويُقلقنا ؟

مَسْكاريل : هيّا انسحبْ أنت من هنا. فأنا أعرف كيف أكلّمه.

المشهد الرابع

تروفلْدان، وسيلي، ومسْكاريل، ولالي

(منفرداً في زاوية).

ثُروفَلْدان (يوجّه كلامه الى سيلي) : ماذا تفعلين خارجاً ؟ وماذا حدا بكِ الى المجيء، وقد منعتك من التحدث الى أحد ؟

سيلي : لقد عرفت هذا الشاب سابقاً، ولا يجمل أن تظن به سوءاً.

مَسْكاريل : هل هذا هو السيد تروفلدان ؟

سيلي : هو بذاته.

مَسْكاريل : انا خادمك الامين، يا سيدي. ويسرّني جداً ان أُحيّي بكل تواضع رجلاً يذكر الجميع اسمه باحترام في كل مكان.

ثُروفَلْدان : بل انا خادمك المتواضع.

مَسْكاريل : يُخيَّل اليّ اني جئت في وقت غير مناسب. لكنني رأيتها في مكان آخر حيث تعرفتُ اليها، وتوسّمتُ فيها المواهب الغزيرة التي تتيح لها معرفة المستقبل، لذا أتيت أحدّثها في بعض الامور.

ثُروفَلْدان : ماذا تقول ؟ هل تهتمّ أنت ببعض أعمال الشيطان ؟

سيلي : كلا، إن جلّ ما أفعله بعض شعوذات غير مؤذية.

مَسْكاريل : اليك ما يهمّني أن أبلغك اياه : سيدي يتوق الى كشف سرّ يريد الاطلاع عليه. فهو يودّ ان يتأمل معجباً بجمال الصبية التي يعبدها. لكن تنّيناً هائلاً يسهر على هذا الكنز النادر، ويمنعه من التطلّع اليها. وما يزعجه الى اقصى حدّ، هو انه اكتشف فيه خصماً لدوداً يحرمه من اي رجاء بتحقيق امنيّته العزيزة على قلبه. لذا جئت استشيرك لتهديني الى وسيلة تنيله مراده.

سيلي : الى أي برج ينتمي مولد سيدك ؟

مَسْكاريل : الى البرج الذي لا يدع حُبّه يتبدّل أبداً.

سيلي : بدون ان تذكر لي اسم من يهفو فؤاده اليها، ينبئني العلم بمعرفته، ويدلّني على اسم هذه الصبية التي تعرف كيف تحافظ على كرامتها حتى في

أصعب ظروفها، وإن لم تسمح لها أوضاعها بالكشف عن سرّ عواطفها. غير أني أعلم مثلها ما تشكو منه من جور الايام، ويمكنني ان اكشف لك مكنونات صدرها بكلمات وجيزة.

مَسْكاريل : ما أعجب فضائل سحرك المدهش.

سيلي : اذا كان هذا بالذات ما يقصده سيدك، وهدفه في هذه البادرة شريف كما يؤكّد، أنا مستعدة لتلبية طلبه، وباستطاعته ان يأمل بالحصول على مبتغاه. لأن وسائلي تساعده فعلاً على نيل المرغوب.

مَسْكاريل : هذا جميل. لكن لا تنسَ ان عناد منافسي يجعل ضالّتي المنشودة صعبة المنال.

سيلي : هذه هي العقدة العسيرة الحلّ.

مَسْكاريل : ليحمل إبليس الى اعماق الجحيم كل من يعرقل الامور.

سيلي : سأعلّمك ما يتحتّم عليك ان تفعله.

لالي (**وهو يقترب من الحاضرين**) لا تقلق، يا تروفلدان، فإن هذا الخادم جاء لمراجعتك .بناءً على أوامري، وليقدّم لك كل خدمة تحتاج اليها، ويكلّمك عنها هي التي يصبح بامكانها ان تتحرّر من قيودها، بيني وبينك، اذا دفعتَ مبلغاً يستحقّ الذكر.

مَسْكاريل : تبّاً لك من طمّاع جشع.

تُروفَلْدان : عجباً، الى أي قولٍ من الإثنين أُصغي ؟ لأن هذا الكلام الاخير يناقض ما تحدّثنا به اوّلاً.

مَسْكاريل : ألا تدري، يا سيدي، ان الهوس مسيطر على تفكير هذا العجوز ؟

تُروفَلْدان : انا أعرف ما أعرف، وأخشى أن يكون في الامر مكيدة. فعُدْ الى من ارسلك، ايها المحتال الخبيث، لاني اعلم جيداً مقدار دهائك ومكرك.

مَسْكاريل : حسناً. انا ايضاً، بدون أن أتبجّح، أدرى الناس بما يحملك على الغش والخداع. لماذا أتظاهر بما ليس فيّ، ونظير الطائش أكذّب بعد لحظة كل ما تلفظت به ؟

لالي : ظننت أن ما فعلته انا جاء في محله.

مَسْكاريل : أجل، قولك صحيح. لكن هذا لا يدهشني. لأنك خصب الخيال

في مثل هذه الظروف المعاكسة الى حدّ ان ابتعاد حلولك عن الواقع لم يعد يذهل أحداً.

لالي : يا إلهي، أراني وقعت في شرّ أعمالي. فهل اقترفتُ ذنباً لا يُغتفر ؟ على كل حال اذا تحققتْ رغبتي في الوصول الى سيلي، عليّ أن أتحسّب كي لا يعترض ليانْدر سبيلي، ويتمكّن من شراء هذه الفتنة. ولكي لا أثير الشبهات بحضوري ها هنا، أجدني مضطرّاً الى المغادرة حالاً.

مَسْكاريل : حسناً تفعل. صدّقني ان قلتُ لك إن المال افضل عامل للنجاح، وانجع علاج لهذه المشكلة، وإن لم اتوفّق بهذه الطريقة، لا بدّ لي من اللجوء الى سواها لنيل مرادي.

المشهد الخامس

أنسيلم، ومسكاريل.

أَنْسيلْم : أُقسم لك بحياتي إن عصرنا الحالي فريد من نوعه. وأنا خجول من شعوري بوفرة أمثال هذا الميل الى أعمال الشعوذة. فالديون في هذه الايام كالاولاد الذين يُحبل بهم بالمسرّة، ويولدون بالمشقّة. هكذا يدخل المال الى الجيب بفرح، لكن تسديده صعب، وردّه الى أصحابه مؤلم. لذا انا لا أصدّق أن مبلغ أَلْفَيْ فرنك أقرضته منذ سنتين كاملتين يُعاد اليّ بما أرجوه من السهولة.

مَسْكاريل : لله درّك من طريدة تُستَهدَف وهي طائرة في الجوّ. وأنا أتساءل إن كان باستطاعتي ان استرجع مالي، وأُناجيه بعبارات حلوة تشرح صدري. منذ لحظة شاهدت، يا انسليم ...

أَنْسيلْم : مَن ؟

مَسْكاريل : صديقتك نيرين.

أَنْسيلْم : وماذا قالت لك عني هذه المجرمة الخائنة ؟

مَسْكاريل : اظن أن قلبها مضطرم بحبك.
أَنْسيلْم : هي ؟
مَسْكاريل : أجل. إنها تهواك الى حد الجنون. وتدلّهها يستدعي الشفقة.
أَنْسيلْم : كم أفرحتني بهذا التصريح.
مَسْكاريل : كادت المسكينة ان تموت من قسوة الهجران، عندما تنهّدت وهتفت : يا حبيبي انسيلم، متى سيجمع عقد الزواج شمل قلبينا، وتتنازل أخيراً الى ارواء ظمأ شوقي اليك ؟
أَنْسيلْم : لماذا لم تبح لي بهواها قبل الآن ؟ ما أغرب عواطف الصبايا المتكتّمات. ما رأيك فيها، يا مسكاريل ؟ أنا من جهتي رغم تقدّمي في السن، أجدني لا أزال قادراً على الفوز بإعجابها.
مَسْكاريل : نعم، حقّاً لا يزال وجهك مُرْضياً، وإن لم يكن أجمل محيّا بين العاشقين. على الأقل، هو مقبول.
أَنْسيلْم : وبالنتيجة ...
مَسْكاريل : هي مغرمة بك، ولا ترى في الدنيا...
أَنْسيلْم : ماذا ؟
مَسْكاريل : زوجاً، أفضل منك. وهي تودّ ...
أَنْسيلْم : أتودّ ان تقترن بي ؟
مَسْكاريل : نعم، مهما كلفها الأمر. لذا عليك أن تفتح محفظتك ...
أَنْسيلْم : ماذا تقول ؟
مَسْكاريل : لكي تنال كامل رضاها.
أَنْسيلْم : أرجوك عندما تراها أن تعدّد لها صفاتي الحميدة.
مَسْكاريل : إطمئنّ من هذه الناحية.
أَنْسيلْم : الى اللقاء.
مَسْكاريل : حفظك الله من كل مكروه.
أَنْسيلْم : في الحقيقة، كدتُ أرتكب حماقة لا تُغتفر، وكان بإمكانك أن تتهمني بالبرود. ألْتمس منك أن تنوب عني في الإفصاح لها عن شدّة إعجابي وتعلّقي بها. ولقاء ما نقلته اليّ من أنباء سارّة، أظلّ عاجزاً عن مكافأتك كما

يجب، على اخلاصك لي. اليك اذاً ما يذكّرك بما عليك ان ...
مَسْكاريل : لا، لا. أرجوك. هذا أقلّ واجباتي.
أنْسيلْم : بربّك، خذْ ولا تتمنّع.
مَسْكاريل : ابداً. انا اتصرّف، ولا غاية لي إلّا رضاك.
أنْسيلْم : انا لا أجهل وفاءك ونزاهتك، مع ذلك ...
مَسْكاريل : لا، لا. قلت لك هذا غير ممكن. فأنا رجل شريف عفيف، ولا أقبل مطلقاً ...
أنْسيلْم : اشكرك، يا مسكاريل، من كل قلبي.
مَسْكاريل : لا شكر على الواجب.
أنْسيلْم : على كل حال، أريد بواسطتك أن أحقّق أُمنيتي. سأعطيك مبلغاً من المال كي تشتري لها خاتماً أو هدية مماثلة حسب ذوقك. وأرجوك أن تقدّمها لها من قِبَلي.
مَسْكاريل : لا لا. أتركْ مالك في جيبك الآن، وكن مرتاح البال. سأقدّم انا الهدية لها، وإن أعجبتها، ستدفع لي بعد ذلك ثمنها.
أنْسيلْم : لا مانع عندي. لكن، لتكن الهدية جميلة تجعلها تفكّر بي بتقدير وحبّ واعجاب.

المشهد السادس

لالي وانسليم، ومسكاريل

لالي : لمن هذه المحفظة ؟
أنْسيلْم : يا إلهي. كيف سقطتْ من جيبي ؟ كنتُ ظننتُ أنها سُرقت مني أنا ممتنّ جداً لأنك وفّرت عليّ قلقاً لا مزيد عليه بردّك اليّ مالي الذي سأخبئه في البيت.
مَسْكاريل : هذا في الحقيقة، عمل إنساني يستحقّ الشكر.

لالي : لولاي لكان فَقَدَ ماله هذا الى الابد.
مَسْكاريل : في الواقع، الضياع مزعج للغاية. وانا الآن مرتاح جداً، وأرى من الواجب أن أشكرك جزيل الشكر على هذا العمل النبيل. عليك أن تثابر على هذه الخطّة من النزاهة والإباء.
لالي : ما الامر ؟ وماذا فعلت ؟
مَسْكاريل : ما أحمقه. أبوه يضيّق عليه الخناق بإمساك ماله عنه، كأنه عدوّه. وحين أحاول ان افتح له باب الفرج، لا أسلم من مجابهة اللوم والعار وحدي.
لالي : لماذا ؟
مَسْكاريل : لشراء العَبْدة، أجتهد للحصول لك على المال، فيحرمنا منه تصرّفك.
لالي : إن كان الأمر كذلك، فأنا مخطئ بدون أن أدري.
مَسْكاريل : على كل حال، لا بدّ من السعي بلينٍ وهدوء.
لالي : كان عليك أن تنبّهني بإشارة منك.
مَسْكاريل : نعم، كان عليّ أن أتصرّف بشكل يبهر عيون الجميع. بحقّ السماء دعني بسلام، ولا تسمعني أقوالاً غير لائقة. بعد هذا الحادث ربّما تعسّر الموضوع. على كل حال، أنا أفكّر بعمل بارع أريد سلفاً أن أتوقّع نتيجته، بشرط أن ...
لالي : لا، لا. أعدك بأن لا أتدخّل بأي أمر. فلن أقول ولن أفعل ...
مَسْكاريل : اذهب من هنا. فمرآك يثير سخطي.
لالي : إستعجل بنوع خاصّ، خوفاً من أن ...
مَسْكاريل : هيّا ابتعدْ، وإلّا استعملتُ يدي. علينا أن ننفّذ هذا المشروع بكل نجاح. فالملعونة ناعمة الملمس، واذا كتب لها التوفيق كما أتصوّر، لا بدّ لنا من ان نمضي ونرى بأمّ عيننا. ها هوذا الرجل الذي انتظره.

المشهد السابع

باندولْف ومسكاريل

بَنْدولْف : مسكاريل.

مَسْكاريل : سيدي.

بَنْدولْف : لنتكلّم بصراحة. انا لست مرتاحاً الى تصرّف إبني.

مَسْكاريل : انت لست المتذمِّر الوحيد من أفعال سيدي. فإن سوء سلوكه لا يُحتمَل، وقد نفد صبري على قبائحه.

بَنْدولْف : كنت أظن أنكما متفاهمان معاً.

مَسْكاريل : انا ؟ أرجوك أن تصحّح تفكيرك. من جهتي، أحاول أن أتمّم واجباتي نحوه، كي يعتقدِ الناس اننا على وفاق. بينما منذ هنيهة إختلفنا وتشاجرنا بسبب زواج هيبوليت الذي يعارضه الجميع لعدم ملاءمته، ولا سيما والده الذي يقلّل احترامه ويهينه.

بَنْدولْف : هل تشاجرا ؟

مَسْكاريل : أجل تشاجرا بوقاحة وعنف.

بَنْدولْف : ما أغباني إذْ ظننت أنك كنت تسانده في كل أعماله.

مَسْكاريل : انا ؟ إليك ما حدث مؤخّراً. أنت تعرف ان البراءة فضيلة مظلومة في هذه الأيام. فاذا ثبتتْ شهامتي، فلأني مرتبط بخدمته وأمين على مصالحه. فهل من واجبي أن اكون له مرشداً ايضاً، أنهيه عن مغامراته وأحرّضه على التعقّل والتروّي ؟ مع ذلك، كم وكم حاولتُ ان أثنيه عن سوء تصرّفه وانقياده الأعمى الى أهوائه. وكم شجّعته على الاقتداء بحكمةِ أبيه العاقل الرزين الذي يحظى باحترام الجميع، وكم دعوته الى الكفّ عن قهره وإذلاله في شيخوخته.

بَنْدولْف : هذا كلام نبيل. وماذا كان ردّه ؟

مَسْكاريل : جوابه ؟ ان هذا، بالنسبة اليه، هراء عديم الفائدة، يعتبره مضيعةً للوقت. وهو لا يقبل الوعظ والنصح من أحد. ولا هدف له في هذه الأيام إلّا

إرضاء حبيبته فقط، والخضوع، إن جاز لي الكلام بحرّيّة، لكل أهوائها بدون أي اعتراض.

بَنْدولْف : أفصح بالتفصيل.

مَسْكاريل : هذا سرّ يهمّني جداً ان لا ينكشف. لكن بالنسبة الى تحفّظك، يسعني أن أبوح به لك بكل إطمئنان.

بَنْدولْف : حسناً تفعل.

مَسْكاريل : اعلم جيداً ان آمالك خائبة بسبب غرام فرضتْه عبدة على إبنك المتهوّر.

بَنْدولْف : لقد بلغني بعض الانتقاد حول تصرفاته الشاذة التي قد أكّدتها أنتَ الآن لي.

مَسْكاريل : أرأيت كيف اني أهل لحفظ سرّك ؟

بَنْدولْف : حقّاً، انا مسرور جداً بأمانتك.

مَسْكاريل : مع ذلك، لا بدّ من تركه يقوم بواجبه ... وأنا أخشى المفاجأة. فماذا يحلّ بي إن اكتشف خطّتي ؟ ولا بدّ أيضاً من شراء هذه العبْدة الحبيبة، ونقلها الى بلاد اخرى بعيدة. لقد لاقى أنسيلم إستحساناً لدى تروفلدان. فليذهبْ ويتوسّطْ أمر شرائها لك منذ هذا الصباح. وإذا شئتَ بعدئذٍ ان تسلّمني اياها، إعلم أني أعرف تاجراً بإمكانه أن يسدّد لك المبلغ المدفوع، ورغماً عن إبنك يُقصيها عنه. حتى اذا صمّم على الاقتران بها تكون قد غابت عن عينَيْه وأمست بعيدة المنال.

بَنْدولْف : هذا حلّ مناسب يعجبني. ومنذ الآن أرى انسيلْم في حيرة من أمره. آنئذ نحصل على العبدة المنحوسة ونضعها بتصرّفك لتُكملَ أنتَ الباقي.

مَسْكاريل : هيّا بنا إذاً نُطلع سيدي على هذه الوسيلة الحاسمة. ولتحيا المكيدة، وسَقْياً للمحتالين الخبثاء.

المشهد الثامن

هيبوليت، ومسكاريل

هِيبوليت : تبّاً لك من خائن. أهكذا تخدمني ؟ ولا تتورّع عن إظهار خبثك. ودهائك، وأنا غافلة عن خساستك ونفاقك. لقد وعدتني، يا جبان، وأنا لا أزال أنتظر وفاء وعدك. فإذا بك تخدم ليانْدر حسب رغبة لالي، وتدّعي انك بذلك تُكرمني، وأنتَ تحرمني وتسعى الى إقصائي عن مشروع والدي. بينما في الحقيقة أنتَ تفعل عكس ما تقول. خسئتَ، فأنا أعرف طريقة أكيدة لانقاذ نفسي من هذه الصفقة التجاريّة التي تعقدها على حسابي وتحاول ان تزجّني فيها. وسأعرف كيف ...

مَسْكاريل : ما أعجلكِ في الاستنتاج المخطئ. ما لكِ تستشيطين غيظاً، وبدون أن يتبيّن لكِ إن كنتُ على صواب أو ضلال، تنظرين اليّ بعين الغضب كأني ابليس اللعين. سأحملك على قول الحقيقة قبل أن أنهي عملي، وأجبركِ على كشف الحقيقة ما دامت نواياكِ غير صافية في معاملتي على هذا النحو.

هِيبوليت : بأي سراب تريد أن تخدع عينيّ، أيها الغدّار ؟ وهل يسعكَ ان تُنكر ما سمعته منك الآن بأذني ؟

مَسْكاريل : لا بدّ لكِ من ان تعرفي أن هذه الخدعة ستكون في صالحك، وان هذه النصيحة السديدة التي تبدو غير مفيدة ستزرع الشقاق في قلب هذَيْن العجوزَيْن معاً. وأنا أتمنّى أن تقع سيلي في يد عاشقها لالي، وتجعل مفعول هذه المكيدة يقلب حبّها رأساً على عقب، فيستاء أنسيلم ممّن يدّعي انه صهره المزعوم ويقع اختياره على الشاب لياندر.

هِيبوليت : هل حقّاً، يا مسكاريل، حوّلتَ الى صالحي أنا، هذا المشروع الذي أغضبني ؟

مَسْكاريل : نعم، نعم، لأجلكِ أنتِ. ولكن، بما أن لا أحد يقدّر خدماتي المخلصة، لا بدّ لي من أن أتحمّل أهواءك. وبدل المكافأة أرى المشاكل

والشتائم والنعوت القبيحة تنهال على رأسي. لذا أريد أن أعوّض عن الخطأ الذي ارتكبته بدون أن أتوقّف عن مواصلة مسعاي.

هِيبوليت (**تمنعه من الذهاب**) : لا تعاملني بهذه القسوة، بل سامحني على فورة انفعالي لأوّل وهلة.

مَسْكاريل : لا، لا. دعيني أتصرّف، إذ بإمكاني أن أردّ كيد خصمك الى نحره. ومن الآن وصاعداً لن تتذمّري من إحاطتك بعنايتي ورعايتي، وأنا أعدك بأنكِ ستقترنين بسيدي حتماً.

هِيبوليت : يا لك من ساذج، أيها الغبي المسكين. خفف من حنقك، فأنا أعترف بأني أسأت الحكم عليك. (**تُخرج محفظتها من جيبها**). غير أني سأعوّض لك عن غلطتي بهذا المبلغ، وأرجو أن تعتبر هكذا أننا تصافينا.

مَسْكاريل : كلّا، كلّا، مهما حاولتِ لن تتوصّلي الى فضّ المسألة على هذا الشكل غير المنصف. ومهما شوّش استعجالك سير الامور، إعلمي أن قلبي النبيل لا يجرحه إلّا الشك بحسن نيّتي.

هِيبوليت : لا أُنكر أني أهنتك بخشونة كلامي، وآمل ان تشفي هذه الليرات الذهبية جراحك سريعاً، لأن الدراهم كالمراهم تُبرئ أبلغ الجراح.

مَسْكاريل : هذا لا يهمّني. فأنا لا أحقد على أحد. وها قد همدتْ فورة غضبي، اذ لا بدّ من إحتمال إساءة الاصحاب والأحباب.

هِيبوليت : هل يسعك أن تنجز ما أقترحته عليك ؟ وهل تجد في نفسك البسالة كي تمهّد لحبّي سبيل التوفيق وتحقيق أحلامي ؟ ما رأيك ؟

مَسْكاريل : لا تقلقي من هذا القبيل. فَلَدَيّ لكل علّة دواء. وحين لا تنجح حيلتي، لا بدّ لي من الاهتداء الى علاج آخر أفضل منه، وما لا أستطيع عمله أنا شخصياً، يقوم به سواه.

هِيبوليت : ثِقْ بأني لن أنسى فضلك ما حييت.

مَسْكاريل : انا لا أنساق وراء الكسب المادّي.

هِيبوليت : سيدكَ يستدعيك، ويريد ان يكلّمك. أنا ذاهبة. إجتهدْ أن تُتقن عمل ما تنوي تنفيذه بدقة.

المشهد التاسع

مسكاريل، ولالي

لالي : ماذا تفعل هنا، أيها الشقي ؟ لقد وعدتني بأن تصنع المعجزات. لكنني أرى أن بطء سعيك لا مثيل له. وأخشى، على هذا المنوال، أن تبدّد كل ما أرجوه من سعادة وصفاء. وهكذا أفقد الأمل والمال، وأُمسي فريسة الخيبة والندم. بالاختصار، لو لم أصادفك، لفاز أنسيلم حتماً بالعبدة التي تكاد تُفلت من يدي. فقد استدرجها منافسي الى منزله. غير أني استدركت الأمر، وفشّلت له خطّته لئلا يحتجزها تروفلدان الخبيث عنده.

مَسْكاريل : نحن الآن ثلاثة، لكن حين نصبح عشرة نشكّل سدّاً منيعاً في وجهه، يعود الفضل فيه لي ولدماغي الخلّاق. لقد توهّم انسيلم ان الصفقة قد تمتّ. فكان علي أن أُمسك زمام الأمر بيدي كي أستلمها أنا. هل يمكن بعد الآن ان يتكلّل سعيه هذا بالنجاح ؟ إني أفضّل ألف مرة أن اكون ضحية، على أن أصبح أداة هدم جهنميّة في قبضة إبليس.

لالي : علينا أن نقودها الى أحد الفنادق، وندع غيظه يتعاظم وينفجر كالقنبلة.

الفصل الثاني
المشهد الأول

مسكاريل، ولالي

مَسْكاريل : كان لا بدّ من مطاوعة تعنّتك. ورغم حلفاني، لم أتمكّن من الامتناع عن صون مصالحك التي نويت أن أتنصّل منها ومن التورّط بمشاكل جديدة. صدّقني، لو جادت الطبيعة عليّ بالمواهب، لكنت أريتك ما باستطاعتي أن أفعل. على كل حال، لا تتوهّم أنك قادر على النيل منّي. فأنا أعتذر من انسيلْم لأني أحاول باستمرار أن أحصل منه على ما أشاء. إلّا اذا أدّتْ بك قلّة تحفّظك الى ضياع كل ما ترجوه وتمنّي به نفسك.

لالي : لا، لا. هذه المرة سأكون حريصاً وشجاعاً. وسترى مني العجب.

مَسْكاريل : تذكّر اني بدأت تنفيذ خطّةٍ جريئة. فأبوك يتهاون في كل المجالات، وإن وافاه الأجل سيقضي على كل أحلامك. سأنشر الخبر بأني قتلته، أو بالحري سبّبت له الاختناق فجأة، ففارق الحياة. غير أني تداركت هول نبأ هذه الفاجعة، فقصصتُ على الجميع أنه توجّه الى مخازنه حيث أرسلتُ من يقول له ان العمّال احتلوا مبناه وراحوا يحفرون الخنادق حول اساساته لعلّهم يجدوا الكنز الذي قيل لهم أنه مدفون في أحد أركانها. فأسرع الى منزله حالاً برفقة عدد من خدّامه وأفراد عائلته، ما عدانا نحن الاثنَيْن. على كل حال، قُضي الأمر، واليوم يُحتفَل بتشييع جثمانه. فعليك أن تقوم بواجبك وتمثّل دور الابن المفجوع. فما رأيك في هذا التدبير الذي اذا لم يعجبكَ ولم

يُسفر عن النتيجة المرتقبة، يمكنك أن تعتبره فاشلاً بسبب حماقتي أنا. (**يخرج**).

لالي (وحده) : ما أدهى تفكيره الذي يخلق فيه شخصاً غريب الاطوار، يدأب ساعياً في سبيل تحقيق رغباتي وسعادتي. حقّاً حين يكون الانسان عاشقاً لا يدع باباً إلّا طرقه للوصول الى مبتغاه. ولو كان الحب حجّة للتغاضي عن الجرائم والفتن التي تنجم عنه باللجوء الى الاحتيال والخداع، لاضطررتُ أنا اليوم الى تقبّلها بهدوء. يا إلهي، كم يمر الوقت بسرعة، وأرى أنّ ما قيل، على وشك التنفيذ. فلأستعدّ إذاً للقيام بدوري.

المشهد الثاني

مسكاريل وانسيلم

مَسْكاريل : سيفاجئك الخبر المشؤوم.

أنْسيلْم : حقاً، لمن الغرابة، ان يموت المرء هكذا.

مَسْكاريل : لا بدّ من ان يكون محقوقاً. فأنا أعرف جيداً ما لا يتورّع عن إرتكابه من الفظائع.

أنْسيلْم : لم يتّسع الوقت لكي يقضي عليه المرض.

مَسْكاريل : كلا، لم اسمعْ احداً مات بمثل هذه العجلة.

أنْسيلْم : ماذا فعل لالي ؟

مَسْكاريل : هدّت المفاجأة حيله بدون أن يشعر بأي ألم. والمدهش أن يؤكّد أنه اصيب بجراح وكَدْمات عديدة وهميّة. ويبدو عليه أنه يودّ أن يلحق بأبيه الى القبر من شدة تأثره وغمّه. حتى أنه إستعجلني في دفن جثمان الفقيد خوفاً من ان يُثير الظنون ويستقطب الشبهات بهذا الحادث المشؤوم.

أنْسيلْم : على كل حال، كان من المستحسن أن تنتظر حتى المساء. لأن من

يستعجل الدفن لا يتورّع عن القتل، ويلفت الانتباه بذلك الى امور خفيّة.
مَسْكاريل : أؤكد لك انه مات فعلاً. لنعد الى الحديث الذي دار بيننا منذ هنيهة عن لالي (**وعن عمله الذي سيعود عليه بالفائدة**). فإن فخامة تشييع جثمان أبيه ستُدخل على قلبه بعض العزاء. فضلاً عن المال الذي سينتقل اليه بالوراثة. لكن، نظراً الى كثرة مشاكله، يرى ذاته قليل الخبرة في مشاغله الجديدة. هذا ما عدا كثرة الأوراق التي تُربكه، فيضيع في متاهات فحواها ومرماها. لذا يرجوك بإلحاح ان تعذره على ما بدر منه نحوك من خشونة وقلّة تقدير. ويأمل مع ذلك بأن تساعده في لفلفة شؤونه.
أنْسيلْم : لقد أبلغتني ذلك سابقاً. وأنا أنوي أن أقابله.
مَسْكاريل : الى هنا تبدو الأمور سائرة على ما يرام. فلنحاولْ ان نجعل الآخرين يتجاوبون معه، ولا يقيمون العراقيل في دربه.

المشهد الثالث

لالي، وانسيلم، ومسكاريل.

أنْسيلْم : تعال نخرج ونواجهه. فإني نظراً الى الألم الذي يعانيه، رأيته هذا الصباح مرهقاً مشتّت الافكار.
مَسْكاريل : مع ذلك، لا يُستبعَد ان يقطع الانسان أحياناً شوطاً طويلاً في وقت قصير.
لالي : هل تعتقد ذلك ؟
أنْسيلْم : لما لا ؟ مسكين عزيزنا لالي. هذه أول مجابهة تجري بينه وبين الموت بفقدان المرحوم والده.
لالي : ماذا تقول ؟
أنْسيلْم : ما أشرس الموت الذي ينقضّ على بني البشر بدون أي انذار ويذيقهم أقسى العذاب.

لالي : يا لهول المصيبة.
أنْسيلْم : لا أحد ينجو من تجرّع هذه الكأس التي يضطرّ الجميع الى شربها بلا استثناء.
لالي : تبّاً للمكتوب الذي لا يستطيع أحد أن يهرب منه.
مَسْكاريل : مهما تفجّعتَ ومهما ندبتَ لا مفرّ من هذا المصير المحتوم.
أنْسيلْم : اذا كنت غير قادر على سلوان هذا المصاب، على الأقلّ كن معتدلاً وتحمّلْه بالصبر الجميل.
لالي : وأنّى لي ذلك ؟
مَسْكاريل : مهما بكيتَ وانتحبتَ لن يعودَ والدك رحمة الله عليه.
أنْسيلْم : على كل حال، بناءً على توصية خادمك، جئتك الى هنا بالمال اللازم لتشييع جثمان المرحوم أبيك.
مَسْكاريل : كم يثقل هذا الحديث كالكابوس على صدره. ألَا يسعه ان يفكّر في الأمر بدون أن يتألّم هكذا ؟
أنْسيلْم : لقد بلغني أنك علمت من أوراق المرحوم ما هو المبلغ الضخم الذي أدين له به. وبما أني أريد مساعدتك، يمكنك اعتباره كأنه مسدَّد، لتستخدمه في الانفاق على الجنازة.
لالي (وهو يخرج) : ما هذه الشهامة.
مَسْكاريل : هذه منّة كبيرة يقدّرها لك سيدي حقّ قدرها.
أنْسيلْم : على كل حال، أعتقد أنّ من الأنسب أن يكتب لي إيصالاً بهذا المبلغ.
مَسْكاريل : ماذا تقول ؟
أنْسيلْم : الموت والحياة بيد الله.
مَسْكاريل : تفكيرك في غير محلّه.
أنْسيلْم : هيّا احمله على توقيع الإيصال الذي طلبتُه منه.
مَسْكاريل : في هذا الظرف العصيب، لا سبيل الى تلبية رغبتك. أترك له المجال حتّى ينسى قليلاً هذا المصاب. وعندما أجد أن روعه قد هدأ، لن أتأخر عن تأمين الايصال الذي تُلحّ عليه. الى اللقاء. لقد ثقل الحزن على صدري،

وأودّ أن أشاركه في نحيبه لعلّي أُفرّج شيئاً من كربتي. (يخرج).
أَنْسيلْم (وحده) : العالم حقاً مليء بالمفارقات. وكل إنسان يغنّي على ليلاه. آه من بلايا هذه الدنيا الخداعة الفانية.

المشهد الرابع

بندولف وانسيلم

أَنْسيلْم : يا إلهي. أكاد أختنق كدراً، كأن بندولف عائد من عالم الاموات بعد رقاد طويل. كم نَحُلَ محياه منذ حادثة وفاته. قِفْ عندك. أرجوك أن لا تقترب مني لأني أكره مجاورة شبح الموت.
بَنْدولْف : ما هو مصدر هذا التأثر الغريب ؟
أَنْسيلْم : أصدقني، ماذا أتى بك إليّ ؟ اذا كنت تريد وداعي، لماذا تحمّلتَ مشقّة المجيء إليّ ؟ هذه مجاملة مبالغة، وأنا في غنى عن سماع تحسّراتك. واذا كنت في ضيق، ونفسك تطلب الصلاة، فأنا أعدكَ بأن لا أنساك في دعائي الى الله. وسأبادر بعد برهة الى الإلتماس من ربي كي يجود عليك بالأمان وراحة البال. فأرجوك ان تعود من حيث أتيت والله يعوّض عليك بالخير والبركة.
بَنْدولْف (وهو يضحك) : رغم كل ما أشعر به من الغبْن لا بدّ لي من المشاركة بالأسى.
أَنْسيلْم : أرى أنك بصرف النظر عن وفاتك، لا تزال تتمتّع بالهمة والنشاط.
بَنْدولْف : هل هذا لعب بالكلام، أم هوس جهنّمي ؟ كيف تعتبرني ميتاً وأنا لا أزال، كما تراني، على قيد الحياة ؟
أَنْسيلْم : يؤسفني ان تكون في عداد الأموات، وأن أراك هنا ثانيةً.
بَنْدولْف : ماذا تقول ؟ هل أنا ميْت بدون أن أدري ؟

أنْسيلْم : حالما أخبرني مسكاريل بهذا النبأ الحزين، أحْسَسْتُ كأن فؤادي يتفطّر من الألم.
بَنْدولْف : لكن، قلْ لي، هل أنت نائم أم مستيقظ ؟ هل عرفتني ؟
أنْسيلْم : انت ترتدي جسداً هيوليّاً يشابه جسمك الأصيل، ربّما يتبدّل بعد برهة وتصبح شخصاً آخر. وأخشى أن اراك تكبر كالمارد وأن يقبح منظرك. بربّك، لا تتّخذْ وجهاً بشعاً. فأنا شديد الفزع حيال وضع كهذا.
بَنْدولْف : في ظروف أُخرى، كانت سذاجتك، يا أنسيلم، وسرعة تصديقك الترّهات، تجاهلاً ربما مقبولاً. لكن بمثل هذه الميتة التي قد تُعتبر كنزاً يسهل إنتزاعه مني في الطريق، وهو يحوم حول نفسي كشبح خبيث يهتف بي : ان مسكاريل مراوغ لعين لا يخاف الله ولا وخز الضمير، ولا يتورّع عن إتيان أسفل الموبقات في سبيل بلوغ مآربه.
أنْسيلْم : هل أنت تمثّل امامي مهزلة ؟ هل حقّاً أنت واقف هنا بلحمك وشحمك ؟ دعني ألمسكَ لأوقن بأنك في الواقع أنت شخصياً هنا لا طيفك الوهمي. تبّاً لحماقتي في هذه الأيام المريعة .. أرجوك أن لا تنشر هذا النبأ المزعج الذي يجعل الناس يلهجون بذكر ما يخجلني. لكن أرجوك، يا بندولف، أن تساعدني على استرداد مبلغ المال الذي دفعته لتأمين دفنك.
بَنْدولْف : تقول : إسترداد مبلغ المال ؟ إذاً أنت ساهمت فعلاً في تأكيد موتي. وهذا لبّ الموضوع في هذه المغامرة المشؤومة. أنا لن اهتم كثيراً بالتالي لمقاصصة مسكاريل، إذا ثبت عليه أنه العامل الأكبر على تدبير هذه المكيدة المهزلة. ومهما كلّف الأمر سأعاقبه بصرامة.
أنْسيلْم : ما أغباني، انا المخدوع. لأني صدّقت أكاذيب محتال منافق. لا بدّ لي اليوم بالذات من ان أقتصّ منه. فقد شيّب شعر رأسي بهذا النبأ الملفّق الذي كان عليّ أن أشكّ بصحته وأتقصّى حقيقته الكاذبة. لكني أرى ...

المشهد الخامس

لالي وانسيلم

لالي : بهذه المباغتة، يمكنني أن أقابل تروفلدان، وأنا مطمئن البال.
أنْسيلْم : على ما ألاحظ، قد خفّ ألمكَ.
لالي : ماذا تعني ؟ لن يخفّ وجعي لأن الحزن يمزّق فؤادي.
أنْسيلْم : لقد عدت أدراجي لأخبرك بصراحةٍ أني منذ برهة ارتكبت خطأ فادحاً بحقّك. وهو أن بين الليرات الذهبية التي تبدو جميلةً برّاقة، هناك بضعة ليرات مزيّفة. وها انا مستعدّ لاستبدالها، لأنّ العملة المزيفة منتشرة في هذه الأيام جَهْراً وبوقاحة في هذه الدولة، ولا سبيل الى عدم الشك بما نقبضه منها. يا إلهي، كم أتمنّى شنْق جميع المزيّفين.
لالي : يسرني أن تستردّ المزيَّف. لكني لم ألاحظْ بينها قطعاً مريبة.
أنسيلم : هيّا بنا أرني اياها فأنا أعرفها. هل هذا كل ما تريده ؟
لالي : نعم.
أنسيلم : يا مالي العزيز عُدْ الَى جيبي. وانت أيها المحتال الخدَّاع. لم يبق لديك أي عذر. أنت تقتل الاشخاص الأصحّاء. فماذا فعلت بي أيها الحَمُو الغشّاش ؟ حقاً لا بدّ لك من البحث عن صهرٍ جديد جدير بالاعتبار تزفّ اليه ابنتك. وعليك أن تذهب وتموت خجلاً غير مأسوف عليك.
لالي : كان من المفروض ان تقول : إنك ضُبطتَ بالجرم المشهود. تبّاً للمفاجأة المزعجة. كيف تسنّى لك أن تطّلع على الخطة بمثل هذه السرعة ؟

المشهد السادس

مسكاريل، ولالي

مَسْكاريل : ماذا أرى ؟ خُيِّل إليّ انك خرجتَ. وقد بحثتُ عنك في كل مكان. وها نحن قد إلتقينا. هيّا، أعطني مالاً لأذهب واشتري عبدتنا، فيستولي الوجوم على خصمك العنيد.

لالي : مسكين، ايها الفتى المستهتر. لقد أولانا الحظ ظهره. فهل يسعك ان تقدّر مبلغ الظلم الذي لحق بي ؟

مَسْكاريل : أخبرْني ما الأمر ؟

لالي : عَلِمَ أنسيلم بالمكيدة. فاستردّ مني كل ما كان قد أقرضني اياه من المال بحجّة استبدال بعض القطع الذهبية التي إدّعى انها مزيّفة.

مَسْكاريل : هل تسخر مني ؟

لالي : معاذ الله. هذه هي الحقيقة.

مَسْكاريل : حسناً.

لالي : أتجد ذلك حسناً ؟ وأنا أتعس خلق الله، لا أشعر من حولي بأية تعزية عمّا دهاني. سترى العجب من شدة غضبي.

مَسْكاريل : انا، يا سيدي ؟ إياك والغضب، لأنه يُفقد الرشد. وأنا أريد أن أتجنّبه مهما كلّف الأمر. فإن كانت سيلي حرّة أو عبْدة، وإن اشتراها ليانْدر أو إنتقلتْ إلى هنا، لم يعد شخصها يهمّني بتاتاً.

لالي : لا تُظهر عدم المبالاة هكذا، ولا تُشفقْ على ما أصابني بسبب قلّة صبري وتبصّري. فبدون هذا المصاب الأخير، أوَمَا كنتَ أكّدتَ لي أني أحسنتُ صنعاً بالتظاهر بالموت ؟ لقد ألْغيت هذا الحداد المصطنع الذي إعتبره اكثر الناس تحفّظاً حقيقيّاً لا غشّ فيه.

مَسْكاريل : في الواقع يحقّ لك أن تُشكَر على هذا التمويه.

لالي : اذاً أنا مذنب، ولا أودّ الإنكار. وإنْ شئت أن تُقدّر موقفي، أرجوك أن تسعفني وتُزيل عني هذه الشدّة.

مَسْكاريل : أقبّل يديك، وألتمس منك أن تعفيني من ذلك. لأني لا أطيق مواصلته.
لالي : ما هذا الكلام، يا مسكاريل ؟
مَسْكاريل : فعلاً.
لالي : إصنعْ هذا إكراماً لي.
مَسْكاريل : لا، لا. لن أستطيع.
لالي : اذا تصلّبتَ برأيك، سأقتل نفسي.
مَسْكاريل : ليكن، اذا أصررت ورضيت بذلك.
لالي : أليس من سبيل لتغيير فكرك.
مَسْكاريل : كلا.
لالي : أترى هذا السيف الجاهز ؟
مَسْكاريل : نعم.
لالي : سأغرزه في صدري.
مَسْكاريل : إفعل ما تشاء.
لالي : ألن تندم على دفعك إياي الى الانتحار ؟
مَسْكاريل : لا، لا.
لالي : الوداع اذاً، يا مسكاريل.
مَسْكاريل : الوداع، يا سيدي لالي.
لالي : ألا تريد أن ترحمني ؟
مَسْكاريل : إنتحرْ بسرعة. لماذا هذا التطويل ؟
لالي : أحقّاً أنت ترغب في موتي لتحصل على ملابسي ؟ ما أغباني اذا نفّذت بذاتي قتل نفسي.
مَسْكاريل : انا عارف بأن حركاتك وأقوالك مصطنعة. فمهما قصد الانسان أن يفعل تهرّباً من بلواه، لا يُقْدم في هذه الايام على وضع حدّ لحياته.

المشهد السابع

لياندر، وتروفلدان، ولالي، ومسكاريل

لالي : ماذا أُبصر ؟ منافسي وتروفلدان معاً ؟ لقد اشتري سيلي. وهذا ما جعلني أرتجف هلعاً وتقزّزاً.

مَسْكاريل : لا شكّ في انه يفعل ما يستطيع. واذا كان لديه مال، يمكنه ان يصنع ما يحلو له. أمّا انا فأكاد أجنّ من الحزن. هذا جزاء أخطائكم الفادحة وقلّة وعيكم.

لالي : قلّ لي ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟ ألّا تريد أن تنصحني ؟

مَسْكاريل : لست ادري.

لالي : دعني وشأني. فأنا لا أريد مشاجرة أحد.

مَسْكاريل : وماذا ينجم عن الخصام ؟

لالي : ما عساي أن أفعل لأمنع هذه السخافة ؟

مَسْكاريل : لقد غفرت لك مساوئك، وأنا أنظر الآن اليك بعين المسامحة. دعْني أراقبه. فبوسائل ألطف، أظن أني أتوصّل الى معرفة ما يخطط من دسائس جديدة.

تُروفَلْدان : واذا عدنا اليه بعد حين، اعتقد أن المشكلة تكون محلولة.

مَسْكاريل : لا بد لي من ان أمسكَ به، وأن أطّلِع على اسراره ونواياه السيئة لكي أُبطل ما ينجم عنها من الأذى.

لِيائدر : الحمد لله. ها هيذا سعادتي بعيدة عن كل شرّ. فقد عرفت كيف أصونها ؟ ولم أعد أخشى أي ضرر، مهما سعى خصمي الى النّيل مني، فلا خوف عليّ من أن يهلكني.

مَسْكاريل : آيْ، آيْ، النجدة. أنقذوني من القاتل الذي يصرّ على إزهاق روحي. آه، آه، آه. تبّاً للخائن الغدّار الذي لا يرحم.

لِيائدر : ما هذا ؟ وماذا يجري هنا ؟

مَسْكاريل : لقد ضربني بعنف.

لِيانْدر : من ؟
مَسْكاريل : لالي.
لِيانْدر : لماذا ؟
مَسْكاريل : الأمر تافه، هو يلاحقني ويوسعني بشراسةٍ ضرباً مبرّحاً.
لِيانْدر : بالتأكيد، لا يحقّ له فعل ذلك.
مَسْكاريل : لكي أسكُتَ، إمّا أن أكون أنا جباناً عاجزاً، وإمّا أن يكون هو قادراً على الانتقام بضراوة. أجل سأريك أني خادم شريف. وبعد ان عملت لديك اربعة اعوام، لم آمل بتاتاً ان يلحقني العار هكذا. أؤكد لك أني سأعرف كيف انتقم. العبْدة تعجبك، وكنت تريد مني أن أحرّرها لك، ثم اسلمك اياها. وهذا ما أقصد أن أفعله اكراماً لك، ولو إنتُزِعتْ منك بعد ذلك رغماً عنك. وإلّا ليحملْني إبليس الى أعماق الجحيم.
لِيانْدر : إسمع يا مسكاريل، ودعْك من هذا الكلام العقيم. انت تعجبني منذ زمن طويل. وكنت أتمنّى أن تكون في خدمتي لأنك فتى ذكي وأمين، وحتماً تسعى بكل وفاء لصيانة مصلحتي. أخيراً اذا راقت لك العملية، وأحببتَ أن تساعدني تركتك عندي.
مَسْكاريل : نعم، يا سيدي، لا سيما ان الظروف ملائمة لأنفّذ خطة انتقامي، وأفيدك في آن واحد. هكذا، وأنا أسعى لتدبير شؤوني، أكون قد عاقبت هذا اللئيم وأرضيتك. أمّا سيلي، فبكلمة، وبفضل مهارتي وبراعتي ...
لِيانْدر : حبيبتي قد دبرتْ أمرها بنفسها، ودافعُها حبّك الذي يحمّسها، وها قد اشتريتها أنا بأقلّ ممّا تساوي.
مَسْكاريل : ماذا تقول ؟ هل أصبحت سيلي الآن تخصّك ؟
لِيانْدر : ستراها بعد لحظة. آه، لو كنت سيّد أعمالي كلها. لكن ماذا أقول ؟ والدي هو السيّد المطاع. وبما انه شاء ــ كما علمت ذلك من رسالة وصلتني منذ فترة ــ أن يحرّضني على الإقتران بالفتاة هيبوليت، لا أريد أن يغيظه تصرّفي المخالف. وهكذا، فضّلنا انا وتروفلدان الذي أتى الآن من عنده، أن أعمل باسم سواي. وحين تمّت صفقة الشراء، لأن خاتمي هو العلامة الفارقة، كان عليه حال إبرازه، أن يسلّمني سيلي. وها أنا أسعى أوّلاً لإيجاد الوسيلة

المضمونة التي تؤمّن لي مكاناً مناسباً حيث أُودع سراً بأمان هذه العبْدة الحبيبة.

مَسْكاريل : لا بدّ من أن يكون ذلك المكان خارج المدينة عند أحد الأقرباء، وقد وضع بيته بتصرّفي. هناك يمكنك ان تتركها بكل إطمئنان وبدون أن يدري أحد بهذا المخبأ الحريز.

لِيائدر : نعم، حقاً أنت تُسدي اليّ هكذا معروفاً لن أنساه. خذ هذا، واذهبْ الى الحسناء المذكورة. وحالما تُري تروفلدان خاتمي، سيسلّمك إياها، فتصحبها الى المنزل المشار اليه. وحين ... أُسكتْ. ها هي هيبوليت قادمة وراءنا.

المشهد الثامن

هيبوليت، وليائدر، ومسكاريل.

هِيبوليت : عليّ أن أنقل اليك، يا ليائدر، خبراً عجيباً، ربما أفرحك مع أنه سيّئ.

لِيائدر : لكي أُطلعك على رأيي فيه بغتةً، لا بدّ من أن أعرفه أوّلاً.

هِيبوليت : هات يدك، ورافقني حتى المعبد، ونحن في طريقنا اليه أخبرك بما تودّ معرفته.

لِيائدر : هيا، هيا بدون أن نضيع وقتنا بالانتظار، نقضي ما يهمّني امره.

مَسْكاريل : نعم، أنا أريد ان أخدمك على طريقتي. وهل في الدنيا فتى خدوم أكثر منّي. نعم بعد هنيهة سيبتهج لالي. لأن حبيبته ستكون برفقتنا على هذا الدرب بالذات. وكم يسرّني أن أتلقّى الخير من حيث كنت انتظر شرّاً، وأنال السعادة على يد خصمي اللدود بعينه. وبعد هذا الإنجاز النادر الوقوع أودّ أن أكون جاهزاً لأُوصَف بالبطل الفائز ويُتوّج رأسي بإكليل الغار، وفي أسفل صورتي يُكْتَب بأحرف من ذهب « ليحيا مسكاريل الامبراطور المنتصر ».

المشهد التاسع

تروفلدان، ومسكاريل.

مَسْكاريل : يا هذا.
تُروفَلْدان : ماذا تريد ؟
مَسْكاريل : هذا الخاتم المعروف ينبئك عن سبب مجيئي اليك.
تُروفَلْدان : أجل، أنا أعرف هذا الخاتم. وسأنادي العبْدة. فانتظر قليلاً ها هنا.

المشهد العاشر

ساعي البريد، وتروفلدان، ومسكاريل.

ساعي بريد : ارجوك، يا سيدي، ان تدلّني على رجل ...
تُروفَلْدان : ما اسمه ؟
ساعي بريد : أظن أنه يُدعى تروفلدان.
تُروفَلْدان : وماذا تريد منه ؟ أنا هو.
ساعي بريد : أودّ أن أسلّمه هذه الرسالة.
نصّ الرسالة :

السماء التي تصون حياتي، أعلمتني بصوت ناعم هادئ، ان ابنتي التي اختطفها اللصوص، وهي في الرابعة من سنيها، واسمها سيلي، موجودة عندك كعبدة. إن كنتَ تقدّر عاطفة الأب وتشعر بالحنوّ في أعماق قلبك، أرجوك أن تحتفظ لي بهذه الإبنة العزيزة كأنها ابنتك الحبيبة. وأنا بنفسي سآتي لاستلمها منك، وأكافئك على العناية التي تبذلها في سبيلها. أسعد الله ايامك وأطال عمرك وبارك اعمالك.

السيد بيدْرو دي كوزْمان
مركيز مونْتلْكان.
من مدينة مدريد الاسبانية.

تُروفَلْدان : مهما يكن قوم هؤلاء الاشخاص لا يُؤمَن جانبهم، كما قيل لي، فالذين باعوني هذه العبْدة سيرسلون اليّ من يستلمها مني بدون أن أتذمّر من معاملتهم. مع ذلك كدت بقلة صبري أفقد اليوم أحلى آمالي الجسام. ولو تأخر مرسالك بعض الوقت لكان طلبك ذهب سدىً أدراج الرياح. إذ اني على وشك أن أسلّمهم الفتاة. لكني آسف، كما ترى، للظروف التي لا تتيح تلبية رغبتك التي تحدّثت عنها في الاسطر التي وصلتني بعد فوات الأوان. أرجوك أن تبلغ صاحبها اني لست قادراً على استجابة طلبه، فليأتِ ويستردّ ماله.

مَسْكاريل : لكن هذه إهانة بليغة توجّهها إليه.

تُروفَلْدان : إذهب، ولا تزد كلمة واحدة على ما قلت لك.

مَسْكاريل : تبّاً لهذه النتيجة المزعجة. فالظروف شاءت أن تخيّب أملي. ولقد جاء الشر من إسبانيا. فإنّ ساعي البريد هذا الذي أتانا بهذا الخبر المؤسف، أنهى المسألة بخاتمةٍ ليس أزعج منها.

المشهد الحادي عشر

لالي، ومسكاريل

مَسْكاريل : ما هذه البهجة البادية على محيّاك ؟

لالي : دعني أضحك من كل قلبي قبل أن أتحفك بأي تفسير.

مَسْكاريل : إذاً لنضحك معاً عالياً كما تشتهي.

لالي : لن أكون موضوع شكواك بعد الآن. ولن تقول لي اني انا الذي أضجّ دائماً، واني أشوّش كل مكائدك ومهازلك. فلقد قمت بدورٍ من أمهر الادوار. ومع ذلك عندما أريد، تُسعفني مُخيّلتي لاستنباط الوسائل الفعالة التي توصلنا الى مبتغانا. وانتَ نفسك تشهد بأني ساهمت في حلّ مشاكلك.

مَسْكاريل : أعلمني إذاً ما هي نتيجة هذه الابتكارات ؟

لالي : أحياناً يخامرني الخوف الشديد لدى رؤية تروفلدان بصحبة خصمي.

وأنا لا أنفكّ أفكّر بدرء هذا الشرّ. وحين أستجمع قواي الذهنية، أتخيّل وأدبّر وأخطّط حيلة تُطأطأ لها رؤوس جميع ذويك، وتضطرّهم الى الإنحناء تقديراً امام براعتي وتفوّقي.

مَسْكاريل : ولكن في أي موضوع ؟

لالي : إصبر عليّ قليلاً من فضلك. فإني زوّرت رسالة بدهائي ووجّهتها من سيّد خطير الشأن الى تروفلدان، يطلب فيها، لغاية تهمّه، ان يحافظ له على عبْدة اسمها سيلي، وهي في الحقيقة ابنته، اختطفها منه بعض اللصوص. وسيأتي ليأخذها ويدفع له أتعابه بكاملها. ولهذا السبب سيغادر إسبانيا ويأتي الى هذه الديار ومعه هدايا ثمينة يقدّمها له عرفاناً بجميله. وهو ينبئه بأنه لن يندم، بل سيكون مسروراً جداً إن ساعده على تحقيق أمنيته الغالية.

مَسْكاريل : حسن.

لالي : إسمع اذاً هذه النهاية السعيدة. سُلِّمت الرسالة المذكورة. ولكن هل تدري كيف ؟ في وقت غير مناسب، حسب قول حاملها الذي تبيّن لي انه رجل أحمق قصير النظر بعيد عن اللياقة.

مَسْكاريل : اراك قمت بهذه اللعبة بدون أن تعلق في أي فخّ.

لالي : أجل، بمهارة في التخطيط والتنفيذ. فأشكرْ إذاً درايتي وبراعتي، لأني فشّلت لك هكذا أحابيل خصمك الذي يهمّه هذا الامر.

مَسْكاريل : حسب تقديرك وثنائك على استحقاقك ونجاحك في هذه العملية، يعجز لساني عن الفصاحة اللازمة لإطراء مواهبك الغزيرة. أجل، ان ما بذلته أنت من جهد في هذا الانجاز الباهر، بفضل خيالك هذا الخصيب الذي لا يجاريه تفكير، يعجز لساني القاصر عن إيفائك حقك من الاطناب بمقدرتك. ستظلّ طوال ايام حياتك السند والمعين لكل مغبون ملهوف. لأن العقل المريض يميل دوماً الى الشرّ، ويجعل من صاحبه طائشاً، لست ادري بماذا أنعته، طائشاً أرذل مئة مرّة مما أتصوّره.

لالي : أخبرْني مفصّلاً عمّا يضايقك من تصرّفي. هل نالك مني بعض الأذى ؟ أوضح لي بصراحة ما تشكوه منّي.

مَسْكاريل : لا، لا. لم تفعل شيئاً مما تلمّح اليه. فأرجوك ان لا تلاحقني.

لالي : سأتبعك أينما ذهبت، لأكتشف سرّك الغامض.

مَسْكاريل : إذاً، فضلاً عن ذلك، هيّئ ساقيك للجري. لأني سأجبرك على استخدامهما لتسابق الريح.

لالي : يكفيني، شقائي وبؤسي، ولا أريد ان أستدرج القلق والهمّ. لم أفهمْ معنى الخطاب الموجّه اليّ. تبّاً لغبائي، فأنا في غنى عمّا كنت جلبته من المشاكل على رأسي المرهق.

الفصل الثالث
المشهد الأول

مسكاريل

(وحده)

مَسْكاريل : أسكتْ، يا قلبي الشفوق، لأنك أحمق لا تدرك ما تقول. أجل الحق الى جانبك. ولكن، ماذا أفعل بغضبي ؟ إنّ وَصْل ما انقطع مراراً، لا يفي بالمراد. على كل حال، يجب عليّ أن أفكّر بعيداً عن العنف، وأن لا أصغي الى قلة صبري. يبدو عليّ اني أتراجع أمام الصعوبات، وأني فقدتُ الكثير من براعتي، فقلّ إعتباري بوجه عام، وزاد إتهامي بأني ماكر محتال. ومع اني شخصياً ألاحظ أني لم أعد أملك من الدهاء إلّا القشور. الاستقامة صفة نبيلة، وأعمالي المفيدة لم يعد لها من أثر. فماذا يقول عني سيدي المستاء ؟ عليّ أن أسعى الآن للاحتفاظ بحقوقي، لا لإرضاء من أخدمه. لكن كيف أتوصّل الى تحقيق ذلك ؟ المياه أصبحت صافية، وانا اعتدت الإصطياد في الماء العكر. ها قد تخلّى عني شيطان خيالي، وبتُّ أخضّ الماء الذي لا ينتج عنه السمْن. اين اذاً مهارتي ؟ أين مقدرتي على هدْم الجسور وجرف السدود ؟ انقضت ايام صَوْلتي، ولم يبقَ لي سوى الخيبة والفشل. على كل حال، لن تكون قضيتنا خاسرة. وإن فقدنا خصمنا، وتعب لياندر من متابعة جهوده، يظلّ لي مجال للتفكير واستدراك ما هو أدهى. اجل، هناك حيلة ترقص في دماغي، ربما أدّت

بي الى خاتمة مرضية. ولن تقف في دربي أية عقبة. فما عليّ إلّا ان أحاول الاستفادة بتنفيذها.

المشهد الثاني

لياندر، ومسكاريل.

مَسْكاريل : لقد أضعت، بعض الوقت. وها هو صاحبك يناقض نفسه.
لِيائدر : هو ذاته روى لي الحكاية، فعلمت منه أن سرّ اختطاف المصريّين ابنة سيّد كبير الشأن من إسبانيا ليس إلّا خدعة محكمة، أراد بها لالي أن يصرف نظرنا عن شراء سيلي.
مَسْكاريل : ما أحطّ هذه الخدعة.
لِيائدر : وها هو نفسه أضحى ضحية شعوذته السخيفة. حتى أنه يصرّ على انتزاع الصبيّة منّا بشتّى الوسائل.
مَسْكاريل : لذلك قرّر الاحتفاظ بها، وأنا لا ارى من فائدة في معاكسته.
لِيائدر : لقد بدت لعينيّ في بادئ الأمر، قريبة الى القلب. وها انا الآن متدلّه بهواها. ولا أجد بدّاً من أن أبذل كل ما بوسعي للحصول عليها، طبعاً ضمن حدود المعقول. وهكذا أبدّل مصيرها وأرتبط بها بوثاق الزواج المبارك.
مَسْكاريل : أجل يمكنك أن تقترن بها.
لِيائدر : سألجأ الى أنسب الحلول. ولكن، إذا برزت عقبات في هذا السبيل فإن فضائلها ونعومة أنوثتها ستشجّعني على عمل المستحيل.
مَسْكاريل : تتكلم عن فضائلها ؟
لِيائدر : نعم. لماذا تتعجّب ؟ أذكر لي أسباب اعتراضك على حسناتها.
مَسْكاريل : أرى أسارير وجهك قد تجهّمت لحظة، يا سيدي. فالأجدر بي أن ألازم الصمت.
لِيائدر : لا، لا. تكلّم.

مَسْكاريل : الواجب يحتّم عليّ من قبيل اللياقة والاخلاص أن انتشلك من عماهة قلبك التي أنت غارق فيها. لأن هذه الفتاة ...

لِيانْدر : تابع حديثك.

مَسْكاريل : أقلّ ما يُقال فيها انها عديمة الانسانية. على الصعيد الشخصي هي تستحقّ الشفقة، وقلبها البعيد عن أن يكون مقدوداً من الصخر الأصمّ، يحملها على مسايرة كل من يحاول ان يخطب ودّها. فتُمثّل دور الحسناء البريئة الوفية. بينما أؤكد لك أنها في الواقع حيّة ناعمة الملمس لا ينطلي خداعها عليّ، نظراً الى ما تراكم لديّ من الخبرة في الحياة، وبنوع أخص في احوال مثل هؤلاء المشعوذات الخدّاعات.

لِيانْدر : ويحك، أتقول ذلك عن سيلي ؟ هذا غير معقول.

مَسْكاريل : نعم، إن تظاهرها بالعفّة والحياء ليس إلّا ظلّ فضيلة تتصنّعها لتوقع خيرة الشبّان في شِباكها. وحالما يعلق أحدهم في فخّها تُبرز مخالبها لتنشبها في صدره.

لِيانْدر : كفى تهويلاً. هل تريد ان أصدّق مثل هذه الأقاويل عنها ؟

مَسْكاريل : انت حرّ بأن تصدق ما تشاء، يا سيدي. أمّا أنا، فلا غرض لي في ما صارحتك به. يمكنك ان تتشبّث في الاحتفاظ بهذه الغشّاشة، وأن تمدّ لها يدك بسذاجة. فيرى الجميع حسن نيتك، وتكون قد اقترنتَ بفتاة كانتْ تخصّ العموم.

لِيانْدر : ما هذا الإفتراء الغريب ؟

مَسْكاريل : بما أنك عضضت على الطعم، تشجّعْ وواصل طريقك حتى النهاية. وإن تراجعتَ تكون قد اقتلعتَ شوكة من قدمك.

لِيانْدر : حتماً أنت تقصد طعْن قلبي في الصميم بهذا الكلام المريب.

مَسْكاريل : ماذا تقصد ؟ هل تشكّ بوفائي ؟

لِيانْدر : هيّا إذهب الى البريد، واسأل إن كانت الرزمة التي أنتظرها قد وصلتْ. ما هذا الخداع الذي تتحدّث عنه ؟ لم يظهر قط على محياها ما تتهمها به من المراوغة. لقد حيّرتني. واذا صحّ ما ذكرته لي، أكون أكبر المغفّلين.

المشهد الثالث

لالي، وليآندر

لالي : ما هذا الحزن المرتسم على وجهك ؟ وما هي أسبابه، يا ترى ؟
لِيائدر : على وجهي أنا ؟
لالي : نعم على محياك أنت.
لِيائدر : مع أن لا داعي لكي أحزن.
لالي : أنا أعرف سبب كآبتك. هي طبعاً سيلي.
لِيائدر : ثق بأن شخصها لا يشغل بالي مطلقاً.
لالي : لا تُنكر أن فؤادك أسير هواها. بل عليك أن تعترف بأنك لم تستطع أن تستأثر بحبّها.
لِيائدر : لو كنت أحمق لأسرتني بألطافها. وأنا استخفّ بكل تأويلاتك.
لالي : أية تأويلات تعني ؟
لِيائدر : يا إلهي. كلنا نعرف الحقيقة الظاهرة للعيان.
لالي : أية حقيقة ؟
لِيائدر : كل محاولاتك من أَلِفها الى يائِها ...
لالي : انا لا افهم هذه اللغة.
لِيائدر : تنصّل من الواقع، وتظاهر بعدم الفهم كما تشاء. لكن صدّقني، عليك أن تُقلِع عن الخوف من الخسارة. وإلّا انقطعتُ عن التحدث اليك بأي أمر يعنيك، أنا أهوى الجمال الذي يتجلّى في طهارتها، ولا يلوّثه أي عار. ولا أنوي ان أضحّي بشبابي في سبيل لقيطة.
لالي : مهلاً، مهلاً، يا لياندر.
لِيائدر : أنت طيّب القلب، ويسعك أن تكمل طريقك بدون أن يعيقك اي شكّ. وكرجل حَسَن الطالع، تستطيع ان تفوز بروعتها الفتّانة. لكن لا تنسَ أنها من صنف الصبايا المبتذلات.
لالي : لنقف في حديثنا عند هذا الحدّ، يا لالي. واعلم أني لا أحبّ سماع

هذه القذارات التي تلصقها بها زوراً وبهتاناً. وثق بأني لست مستعدّاً أن أُصغي الى هذه الحقارات التي تأبى شهامتي أن تصدّقها.

ليائدر : ان ما انقله اليك قد بلغني من مصدر ثقة.

لالي : مَن أخبرك به ليس إلا صعلوك تافه يدّعي اعلان الحقيقة. انا على يقين بأن لا أحد يستطيع ان يلطّخ سمعة هذه الفتاة، لأني أنا العليم بطهارة قلبها وسمّو أخلاقها.

لِيائدر : في هذه الحالة، يكون مسكاريل مصنِّفاً غير منصفٍ، لأنه هو الذي نَسَب اليها الخزي والعار.

لالي : من ؟ مسكاريل ؟

لِيائدر : نعم، هو بالذات.

لالي : هل وصل الوغد الى المسّ بكرامة هذه الصبيّة الممتازة ؟ اني أهزأ بكل ما صرّح به، وأراهن على أنه لن يلبث أن يكذّب أقواله هذه.

لِيائدر : وانا أراهن على عكس ذلك.

لالي : وربّي، سأدعه يموت تحت ضربات القضبان، إن أصرّ على عدم نفي كل ما أشاعه من أكاذيب.

المشهد الرابع

لالي، وليائدر، ومسكاريل.

لالي : ها هو قد أتى. تعالَ، أيها الكلب المسعور.

مَسْكاريل : ماذا تقول ؟

لالي : يا لسان الأفعى السامّة، الحافل بالأراجيف. كيف تتجرّأ على تلويث سمعة سيلي ؟ فتُجرّدها من فضائلها السامية وتنسب اليها أحطّ الرذائل ؟

مَسْكاريل : مهلاً. هذه الناحية من خصائصي.

لالي : خسئتَ. فليس هناك من غمزات ولا من وصمات. أنا أدرى منك في

كل ما ذكرته. حتى إن كان أخي المفتري، سأجبره على دفع ثمن نميمته غالياً. فتجاسرْ، أيها الجبان، وأطلقْ أي ذمّ بحقّ من أهواها وأجرحْ فؤادي. إن كل أقوالك باطلة لا أساس لها من الصحة.

مَسْكاريل : يا إلهي. لا تحاولْ أن تتهمني وتشاجرني. وإلّا انسحبتُ حالاً.

لالي : لن تنجو من عقابي، أيها الثرثار النمّام.

مَسْكاريل : أتتكلم جدّيّاً ؟

لالي : هيّا، إعترفْ بالواقع الأكيد، يا لئيم.

مَسْكاريل : دعني وشأني، لا تُعِرْ أذناً صاغية لهذه الترّهات.

لالي : هيّا، هيّا، أوضح لي هذا الغموض.

مَسْكاريل : لقد صرّحتِ برأيي، فلا تستشطْ غضباً.

لالي : لا بدّ من أن أجبرك على إعلان الحقيقة، بطريقة أو بأخرى.

لِياندر : تمهّل قليلاً، وخفّف من غلوائك.

مَسْكاريل : هل هناك إنسان عاقل يمكنه أن يصبر على تبجّحك ؟

لالي : دعني أُرضي استقامتي المهانة.

لِياندر : أن تضربه بحضوري، أمرٌ يفوق طاقة إحتمالي.

لالي : ماذا أسمع ؟ ألا يحق لي أن اعاقب خادمي على غلطه ؟

لِياندر : كيف تدّعي انه خادمك ؟

مَسْكاريل : يا إلهي سيكتشف كل ألاعيبي.

لالي : بما أنه خادمي، فلي مطلق السلطة لضربه حتى يموت تكفيراً عن ذنبه.

لِياندر : لقد أصبح الآن خادمي انا.

لالي : منذ متى ؟ هذا نبأ يستحق الدهشة والاعجاب. قل لي، كيف أمسى خادمك ؟ بدون شك ...

مَسْكاريل (بصوت خافت) : مهلاً، مهلاً.

لالي : بماذا تغمغم، أيها الحقير ؟

مَسْكاريل (بصوت خافت) : تبّاً لهذا الأحمق الذي يهدم كل ما بنيته بشقّ النفس، وهو لا يميّز كوعه من بوعه، ولا ينتبه الى الإشارة التي أوجّهها اليه.

لالي : هذه اضغاث أحلام، يا لياندر، لا تعاندْ. كيف تدّعي انه ليس خادمي ؟

لِيانْدر : ألمْ تطردْه من خدمتك بسبب ذنبٍ إرتكبه ؟
لالي : لا علم لي بذلك.
لِيانْدر : وفي فورة غضبك، ألم تلهبْ ظهره بضربات سوطك ؟
لالي : انا لم أطردْه، ولم أضربه بتاتاً. هل تسخر منّي، يا لياندر ؟ أم تراه هو يهزأ بي، أنا سيده ؟
مَسْكاريل : أُبعُد عني، أيها الجلّاد العنيف. لقد فعلت بي ما شئت.
لِيانْدر : هل تقول إن ضربات السوط وليدة الخيال ؟
مَسْكاريل : هو لا يعي ما يتلفّظ به، لأن ذاكرته ...
لِيانْدر : لا، لا. هذه إشارات تدلّ على تِصرّف غير معقول أبداً. فأنت في نظري موضوع شكّ وارتياب. مع ذلك أسامحك على استنباط ما تنطق به. يكفيني ان يكون قد خدعني بكلامه المعسول، وخدعك أنت أيضاً، لكي تعارضني وتلومني، ولا تكترث لنفاقه وريائه. وبذلك يكون قد عاملك وعاملني بغباء على قدم المساواة. وهذا ما لا يسعني أن أغفره له. وداعاً، يا لالي، يا أحقر الناس.
مَسْكاريل : تشجّع، يا غلام. فلكل ساعة حساب. لنشهِرْ سيف العدل عالياً ولنطلقْ لشجاعتنا العنان كي تصول وتجول. ولنكنْ في آن واحد الجاني الغريب الأطوار، والقتيل البريء المغدور.
لالي : لقد اتهمك بأنك صاحب الإفتراء والإغتياب، وهو على حقّ.
مَسْكاريل : وانت لا تطيق تحمُّل كلامي، وتتركه على ضلاله لأنه هو الذي أدّى لك الخدمات الجليلة، وكاد يذهب ضحية مزاحمتك في الغرام. لا، إن حديثه صريح لا يخفي أي لوم. وها هيذا الخبيثة التي تتمسّك بكلام خصمه وتزجّ نفسها في أحرج المآزق. لذا أودّ أن أخفّف من حماس خصمه العنيد. مسكين مهما نبّهته الى الحيلة الدنيئة التي انطلتْ عليه، لم أتوصّل الى تحذيره من السقوط بحبائل مزاحمه. لأنه غافل عن كل ما يُحاك حوله في الخفاء. حقاً هو غائص في جهل فاضح. ولا يعلم حتى الآن ان حبيبته درّة فريدة تليق بالملوك.
لالي : لا يُدهشني أبداً أن يصدر عنك طول البال، وأنت مستعدّ لبذل أقصى الجهود.

مَسْكاريل : لا حيلة لي بذلك.
لالي : لو أعلمتني بنواياك لهان الأمر. لكنك تتصرّف بطريقة مبهمة تحرمني من متابعة مساعيك. وهذا ما يفاجئني من مشاكلك المعقّدة.
مَسْكاريل : أعتقد أنك خبير في استخدام السلاح، وتعرف في كل مغامرة كيف تسيطر على المعاكسات، وتسيّر الأمور لصالحك.
لالي : بما أننا أمام أمر واقع، لا فائدة الآن من التفكير. وما دام خصمي عاجزاً عن التغلّب عليّ، آمل ان تكون تصرّفاتك مطمئنة بالنسبة اليّ.
مَسْكاريل : لنقف هنا في حديثنا، ولنتكلّم عن أمور أخرى. فأنا لا أرتاح بسهولة الى ما يجري حولي، لذا تراني دوماً مضطرباً حانقاً. عليّ أوّلاً ان أبلغ غايتي. وسنرى فيما بعد، اذا كنت سألبّي اشواقي او أعْدُل عنها.
لالي : إذا كان هذا نصيبي، فلا سبيل لي الى المقاومة. أصدقني، هل أنت بحاجة الى بذل دمي والى قوة ساعدي لكي تفوز بغنيمتك ؟
مَسْكاريل : تبّاً لعقلك المختلّ. هل أنت من حملة السيوف ؟ ام أنت بالأحرى محتاج الى المال ؟
لالي : ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك ؟
مَسْكاريل : لا بدّ لك من تهدئة روع والدك وتخفيف غضبه.
لالي : لقد صالحتُه.
مَسْكاريل : لكن ليس لإرضائنا. فلقد تظاهرتُ اليوم صباحاً بأني ميت لأجل صالحك. فهاله منظري، وهو في شيخوخته الهزيلة يخشى إسم الموت، لأنه يذكّره بقرب أجله. والحياة لا تزال في نظره عزيزة حلوة. فخاف ان يصيبه عارض، وحزن على ما أصابني. لكني بتّ أنا أخشى أن يكشف حيلتي وخداعي. فأرجوك أن تخبره بالواقع، وأن يهوّن عليه هذه الصدمة.
لالي : كما تشاء. سأطلعه على الحقيقة وأواسيه. ولكن، عِدْني بأن ...
مَسْكاريل : يا الهي. سأرى ما بوسعي أن أفعل. وعليك أنت أن تصبر قليلاً ريثما ارتاح من تعبي، ومن قلقي وهمّي. فلنكفّ بعض الوقت عن إذكاء نار دسائسنا المتبادلة لئلا تلتهمنا، ولا نَدَعْ مجالاً للشيطان لياندر أن يضرّ بنا وبمشاريعنا. فإنّ سيلي قد توقّفت عن ...

المشهد الخامس

أنْكاسْت، ومسكاريل.

انْكاسْت : بحثتُ عنك في كل مكان لأسْدي اليك معروفاً، وأُطلعك على سرّ خطير.

مَسْكاريل : ما هو ؟

انْكاسْت : ألا يوجد هنا من يسمعنا ؟

مَسْكاريل : كلّا.

انْكاسْت : نحن أصدقاء على قدر الإمكان. أعرف نواياك، وأدري بالحب الذي يسيطر على سيّدك. فكِّرْ بالامر قليلاً. لقد ساهم لياندر في اختطاف سيلي، كما علمت بذلك مؤخراً. وهو الذي رتّب هذا الإعتداء، وينوي اقتحام منزل بندولف بحيلة جهنّمية. وبلغني أيضاً أن بعض نسوة الحيّ يذهبْنَ لمقابلته وهن مقنّعات.

مَسْكاريل : حقاً ؟ هذا يكفي لإدانته. وأنا بإمكاني أن أسلّطه على هذه الطريدة. وسأتدخّل في الوقت المناسب. هو يجهل ما مَنّ الله عليّ به من المواهب. لذا أودّعك الآن، وسأشرب كأساً نخب صحتك عندما نلتقي في أوّل فرصة مقبلة. لا بدّ من استمالة كل من يمكنه ان يساعدنا على تحقيق هذا المشروع الغرامي السعيد من خلال مفاجأة مُحكَمة الحدوث، غير عاديّة، وبدون أن نتعرّض لأي خطر. فاذا تخفّيت وذهبت لمقابلته، لن يعرقل لياندر سبيلنا. وهكذا يُعيننا على نيل بغيتنا. اذ بواسطته نتجنّب إثارة اي شك في تصرّفنا، وننجو من ملاحقته ومشاكسته. ولا سبيل الى خشية أية فضيحة آنذاك، ما دمنا سنستخدم قبضة سوانا لتسديد ضربتنا القاضية. هيّا بنا إذاً الى وضع الأقنعة على وجوهنا. وبمساعدته على إتمام الزفاف، علينا ان لا نتهاون أبداً في إنجاز عملنا بأقصى السرعة. وأنا على أتمّ الاستعداد لاستعمال كل دهائي في سبيل نجاح مسعانا. ولن أضنّ ببذل كل جهودي في تنفيذ المهمة.

المشهد السادس

لالي، وانكاسْت

لالي : لقد إدّعى إنه سيختطفها رغم تنكّره.

انْكاسْت : انا لا استغرب حدوث ذلك. لان صاحبنا من طينة فريدة من نوعها. وها هو مسكاريل يحاول أن يشوّش تدبيرنا، بحيله المعهودة. وبما أني شاهدتك صدفةً ظننتُ ان عليّ ان أطلعك مفصّلاً على خطّتنا.

لالي : أبهجني خبرك للغاية. ولن أنسى جميلك هذا طوال عمري. سيفاجئه صديقنا بصورة لا يتحسّب أحد لها. وأنا من جهتي سأساعد على تنفيذ ما صممّنا عليه. ها قد آن الأوان لأباغته بمظهري غير المألوف. تبّاً لي كم بالَغْتُ في الإحتياط لكل طارئ. ولكن من أراد أن يداعبني بمهاجمته، فليعلم أن لديّ مسدسيْن، وان سَيْفي مرهف الحدّيْن. أحذروا من أن تنطقوا بكلمة من شأنها ان تفضح نوايانا.

المشهد السابع

لالي، وتروفلدان

تُروفَلْدان : من ؟ من الذي يريد أن يراني ؟

لالي : أُغلُق الليلة باب دارك جيداً.

تُروفَلْدان : لماذا ؟

لالي : لأن بعض الاشخاص تنكّروا بأزياء غريبة ليأتوا اليك ويلقوا عليك تحيّة مزعجة. وهم يودّون أن يختطفوا سيلي.

تُروفَلْدان : ربّاه.

لالي : وسيصلون بعد برهة. فامكثْ هنا، وستشاهد كل المهزلة من النافذة. ماذا قلتُ لك ؟ هل تبصرهم يقتربون ؟ أُصمتْ، وسترى كيف سأصدّهم أمامك. حقّاً سيكون المشهد مُشوِّقاً اذا لم ينقطع الحبل بهم في منتصف البئر.

المشهد الثامن

لالي، وتروفلدان، ومسكاريل (على وجهه قناع).

تُروفَلْدان : يا للبطارى الحَيَارى الذين يريدون مباغتتي.

لالي : ايها المقنّعون، هل لي ان اعرف ماذا ترغبون ؟ إفتح لهم الباب يا تروفلدان لنرى ما سيفعلون. يا الهي، ما أجملها وما أروع ملامحها. بماذا تتمتمون ؟ هل من الممكن أن تنتزعوا أقنعتكم عن وجوهكم، بدون انزعاج، لنرى من أنتم.

تُروفَلْدان : امضوا، أيها الأغبياء المغفّلون، وابتعدوا عن هذا المكان، ايها السفلة. وأنت مساء الخير، أيها السيد، وشكراً جزيلاً.

لالي : أهذا أنت، يا مسكاريل ؟

مَسْكاريل : لا، لا. أنا شخص آخر.

لالي : هذا مؤسف. يا للمفاجأة. ما هو مصيرنا ؟ وهل كان باستطاعتي أن أتوقّع قدومكم بدون أن يُبلغني أحد بمجيئكم. هناك حتماً أسباب وجيهة لإستغرابكم كلامي. ما أبلدني لكي أقابلك بهذا القناع، وأظْهر امامك بهذا المنظر غير المألوف. كم أودّ أن أضرب ذاتي مئة جلدة لأني أثرت استياءك وغيظك.

مَسْكاريل : الوداع، أيها المهرّج البارع، وصاحب الخيال الخصب.

لالي : لا، لا. إذا كان غضبك سيحلّ عليّ، فبأي قدّيس أستجير وأطلب منه الشفاعة كي ينجّيني منك.

مَسْكاريل : من إبليس اللعين القابع في أعمق أعماق الجحيم.

لالي : وإن كان قلبك القاسي كأنه قُدّ من الصخر أو من الصوّان، أرجوك مع ذلك أن تَرأف بحالي، وأنا مستعدّ لأن أجثو وأقبّل قدمَيْك. هيّا انظرْ إليّ ...
مَسْكاريل : تبّاً لك من تَتَري، يا رفيق شيطان المهازل. ها أنا اسمع وقع أقدام تتعقّبنا.

المشهد التاسع

لياندر (مقنّع) وجماعته، وتروفلدان

لِيائدر : هيّا، بدون ضجّة، ولنتقيّد باللياقة والإنضباط.
تُروفَلْدان : ماذا تقول ؟ ما للمقنّعين يحاصرون منزلي طوال الليل ؟ ايها السادة، لا تكثروا من شرب المسكرات، لانها تضعضع الرشد. لقد فات الأوان لاختطاف سيلي، فاصرفوا النظر عن هذا المشروع الآن. فهي مثلي ترجوكم أن تُقْلِعوا عن هذه الفكرة غير الصائبة. هي نائمة في فراشها، ولا يمكنها أن تخاطبكم. أنا مستاء نظيركم. ولكي أعوّض عن تعبكم، املي ان تهدّئوا روعكم وتطمئنّوا الى انها بألف خير، وقد هيّأت هي لكم هذا الطعام اللذيذ.
لِيائدر : تبّاً لهذه المآكل الكريهة الرائحة، أعفوني من تناولها. لقد افتضح أمرنا، وما علينا إلّا ان ننسحب في هذا الإتجاه.

الفصل الرابع

المشهد الأول

لالي، ومسكاريل

مَسْكاريل : ما لك مُكوَّم كحزمة غريبة الشكل ؟

لالي : أنت تُحْيي هكذا أملي المنهار.

مَسْكاريل : كلما هدأ غضبي، عدت الى السباب والشتم، وعجزتُ على ضبط أعصابي.

لالي : يسعك أن تقول ما تشاء، فأنا قادر على جعلك لا تُحجم عن الاعتراف بجميلي، حتى عندما لا يبقى لديّ سوى كسرة خبز لسدّ رمقي.

مَسْكاريل : تبّاً لك. عليك أن تفكّر بنفسك في هذا المخطّط الجديد. على الأقلّ اذا اقترفتَ حماقة، لن تنسب الخطأ والفشل الى المباغتة. لأن المفروض أن تُتقِن دَوْرك جيداً.

لالي : لكنك لم تخبرني كيف استقبلك تروفلدان في منزله.

مَسْكاريل : بحماسة خجولة تمكّنت من لجم هذا المتبجّح المتغطرس. وبلهفة بيّنتُ له إن الجماعة، إن لم يفكّر بنفسه، سيستهدفونه في اكثر من مكان، وأنّ تلك الرسالة المزوّرة كادت تفضح سرّ مولدها، وأني كنت على وشك التدخّل في القضية، لكنني سرعان ما انسحبت وتخلّيت عن مهمتي. وبما أني أغار على مصلحته، بادرت الى تحذيره. ومن ثمّ أردتُ أن انصحه وأردّه الى جادة

الصواب. لا سيما في ما يتعلق بالخبثاء الذين نرى كثيراً من أمثالهم هنا كل يوم. أمّا أنا فسعيت الى خلاصي من الورطة والإبتعاد عن المشاكل، لأرتاح طويلاً بقرب رجل صالح لا بغية لي إلّا أن أقضي بكنفه باقي أيام حياتي. وهو بدوره عرف كيف يستميلني، وبدون أن يطلب مني، وددت ان أخدمه. فوضعت بين يديه الأمينتين بعض المال الذي اخذته من والدي كثمرة اتعابي. وخوفاً من أن يحين أجلي باكراً فضّلت ان يظلّ هذا المال في حوزته. وهذا هو السبب الحقيقي في محاولتي استدرار حنوّه. وحين شئت أن أبتّ في الأمر مع حبيبتك حسب رغبتك، سعيت الى جمعكما معاً كي تتحدثا مباشرة في الشؤون التي تخصكما وحدكما. وها هو قد مهّد لي السبيل الى امكانية سكنك معها تحت سقف واحد، وكلّمني عن ابن يعيش في وحشة الغربة. وقد أبصره هذه الليلة في الحلم عائداً. واليك ما قاله لي في هذا الموضوع الذي بنيت عليه خدعتي ...

لالي : كفى ما ذكرته لي الآن. فأنا أعرف ذلك جيداً. لأنك كرّرته علي مرتين.

مَسْكاريل : نعم، نعم. لكني في المرة الثالثة، رغم كفاية ما قيل، ربما ينتقص ما اطّلعتُ عليه بعض التفاصيل التي كنت أجهلها.

لالي : لكن هذا التأجيل يتطلّب مني جهداً كبيراً.

مَسْكاريل : خوفاً من السقوط، علينا أن لا نركض بسرعة تفوق طاقتنا. ألاحظ أنك عنيد، وعليك ان تكون ثابت الجنان في هذه المغامرة. سابقاً خرج تروفلدان من نابولي، وكان اسمه زينوبيو روبرْتي، وهو ينتسب الى حزب إفتعل مشاغبات إرهابية. فأمسى في مدينته موضع رَيْبٍ وظنّ، مع أنه في الحقيقة لم يكن شخصياً رجل شغب يقلق الدولة. فاضطر الى مغادرتها في ليلة ظلماء، تاركاً زوجته وطفلته الصغيرة اللتَيْن ماتتا بعد مرور بعض الزمن. وحين علم بوفاتهما غمره حزن شديد، لأنه كان يودّ أن ينتقل بهما الى مدينة اخرى. وكان له إبن تلميذ يُدعى هوراس، جعله وريث أمواله. فكتب الى مدينة بولونيا وأوكل أمره الى استاذ إسمه ألْبير ليثقّفه. لكنه في الموعد المضروب بعد سنتَيْن لم يجد أحداً. فظن أن الجميع قضوا نحبهم. ثم جاء الى هذه

المدينة واتخذ اسمه الحالي تروفلدان، بدون ان يدري بالأمر ابنه هوراس او الاستاذ ألْبير مثقِّفه. وانقضت .بعدئذٍ مدة اثنتي عشرة سنة، بدون أن يعثر عليهما. لقد سردْتُ لك هذه القصة إجمالاً لكي تكون أساساً لحديثنا. والآن ستصبح أنت تاجراً من ارمينيَا، رأيتهما سالمَيْن معاً في تركيا. وإذ لم يكن هناك من سبيل لإعادتهما الى عالم الأحياء حسبما حلم به، لا يُستبعَد أن أن يكون قد إلتقطها قرصان تركي من طيّات أمواج البحر، بعد أن غرق، مركبهما، ثم رَجَعا الى ذويهما، بعد مرور خمسة عشر أو عشرين عاماً، رغم اعتبارهما في عداد المفقودي. لقد سمعت انا مئة قصّة مشابهة، بدون تعقيد، ويمكننا الركون اليها. هذا ليس مستغرباً. لا بدّ من ان تكون قد سمعت بمصابهما ودبّرت لهما طريقةً بها يستعيدان مكانتهما في المجتمع. وفي هذه الأثناء، كلّفك هوراس بمقابلة والده الذي اطّلع على أحوال والده، وأنت تنتظر في بيته بضعة ايام الى حين وصولهما. وهكذا أكون قد أعددتُ معلومات جديدة موسّعة.

لالي : طبعاً، هذا تكرار عقيم. لكن هكذا ترسّخت تلك الوقائع في ذهني.

مَسْكاريل : وها انا أضيف عليها بعض التفاصيل.

لالي : اسمع، يا مسكاريل. أمر واحد يزعجني فيما لو طلب منّي أن أصف له ملامح إبنه. إذْ لن أتمكّن من القيام بذلك مطلقاً.

مَسْكاريل : ملاحظتك في محلها. إعلم اذاً أنه قصير القامة. وفضلاً عن ذلك، لا يغربْ عن بالك ان العبوديّة، ثم تراكم السنين، من شأنها أن تغيّر ملامح محياه.

لالي : هذا صحيح. لكن قلْ لي، إذا أكّد أنه شاهدني، ماذا افعل ؟

مَسْكاريل : هل نسيت أننا ذكرنا أن وجهك مَرَّ في خياله مرور الكرام، لأنه لم يلمحك سوى لحظة وجيزة، وكانت لحيتك وملابسك التنكّرية تُخفي كل معالمك.

لالي : حسن. لكن أين يقع هذا المكان في تركيا ؟

مَسْكاريل : جميع الأمكنة متشابهة، من تركيا الى بلاد البربر.

لالي : أنا أسألك عن إسم المدينة حيث أمكنني أن أراهما.

مَسْكاريل : في تونس، ولا بدّ من الانتظار، على ما أعتقد، حتى المساء. لا لزوم للتكرار. فقد ذكرتُ اسم هذه المدينة اثنتي عشرة مرة.
لالي : هيّا، هيا إبدأ. لم أعد بحاجة الى الإعادة.
مَسْكاريل : على الأقلّ كن حذراً، وتصرّفْ بحكمةٍ وتحفُّظ، وإياك أن تُطلق لخيالك العنان وتفيض بالكلام جذافاً.
لالي : دعني أتصرّف. ربّاه، كم أنا خائف.
مَسْكاريل : هوراس تلميذ في مدينة بولونيا الايطالية. وترافلدان أي زينوبيو روبرْتي مواطن من نابولي. والاستاذ ألْبير ...
لالي : يُخجلني أن أبحث هكذا عن نفسي. هل أنا أحمق الى هذا الحد ؟
مَسْكاريل : لا، لا، ابداً. لكن في الأفق دلائل تُنذر بالمفاجأة. (**يخرج**).
لالي (وحده) : عندما أحتاج اليه ألاقيه كالكلب النائم. وبما أنه يوقن بحاجتي اليه، تراه يتغافل عن صداقتي. كم أودّ أن أشاهد تلك العينَيْن النجلاوين اللتين شخصتا اليّ وفرضتا سلطتهما عليّ، وانا بطيبة خاطر إمتثلت لرغبتهما، وسأعرف أي موقف أتخذ حيالهما ... ها هم آتون إليّ.

المشهد الثاني

تروفلدان، ولالي، ومسكاريل.

تُروفَلْدان : تباركت السماء لدوام حظي الهنيء.
مَسْكاريل : عليك أن تحلم، لأن الأحلام في عرفك ليست من الأوهام.
تُروفَلْدان : أشكرك، يا سيدي، لأنك الملاك الذي يحرس سعادتي.
لالي : لا لزوم لهذا الكلام الذي أعفيك من ترديده.
تُروفَلْدان : لست ادري أين أبصرت مثل هذا البربري.
مَسْكاريل : هذا ما سألتك عنه، وكم يتشابه الأشخاص.

تُروفَلْدان : هل رأيت إبني الذي أضع عليه كل اتكالي بعد الله.
لالي : أجل، يا سيدي تروفلدان. وهو من أشجع شبان الدنيا.
تُروفَلْدان : لقد قَصّ علينا سيرة حياته، وتكلّم كثيراً عني.
لالي : اكثر من عشرة آلاف مرة.
مَسْكاريل : أقلّ قليلاً، على ما أعتقد.
لالي : لقد رسم صورتك كما أُبصرها الآن أمامي : ألوجه والقوام ...
تُروفَلْدان : وهل هذا ممكن ؟ عندما شاهدني آخر مرة، كان في السابعة من عمره فقط. فكيف بالحري استاذه، وهو يكاد يعرف وجهي ؟
مَسْكاريل : الأرجح انه لا يتذكر ملامحي، بعكس أبي ...
تُروفَلْدان : هذا يكفي. أين تركته ؟
لالي : في تركيا، بمدينة تورينو ...
تُروفَلْدان : تورينو ؟ لكن هذه المدينة موجودة في مقاطعة بيامون بإيطاليا.
مَسْكاريل : يا للرجل المغفّل. لم يسمع جيداً. هو يريد ان يذكر تونس حيث ترك إبنك. لكن من عادة البرابرة أن يحرّفوا الفاظ اللغات الأجنبية التي يسمعونها. لأن لسانهم ثقيل ويهشمّون معظم مقاطع الكلمات. وهكذا بدل ان يقول تونس ذَكر تورينو.
تُروفَلْدان : كان لا بد من معرفة هذا الامر عند سماعه لتجنُّب الإلتباس. والآن ما هي الوسيلة التي دلّتك عليها للإهتداء الى أبيه ؟
مَسْكاريل : حاولْ ان تستفهم منه. أنا عليّ أن أراجع بعض دروس المبارزة بالسيف التي لم تكن سابقاً من الرياضات المألوفة. مع ذلك كم قارعتُ السيف بالسيف في قاعة أخرى.
تُروفَلْدان : ليس هذا ما أقصد الآن أن أفهمه. بربّك، ما هو الإسم الآخر الذي كان يُعرف به ؟
مَسْكاريل : نعم، نعم، الآن تذكّرت : السيد زينوبيو روبْرتي. أنت حقاً ملاك من السماء.
لالي : هذا اذاً اسمه الحقيقي، والثاني إسمه المستعار الحالي.
تُروفَلْدان : ولكن، هل أخبرك أين تلقّى هذه المعلومات.

مَسْكاريل : على ما يبدو، إن نانولي مقرّ يستحقّ الاعجاب. لكنه بالنسبة إليك مكان بغيض كريه.
ثروفَلْدان : هل يمكنك، بدون أن تتكلّم هكذا، أن تستوعب حديثنا ؟
لالي : وفي نابولي بدأ مصيره يتبلور.
ثروفَلْدان : أين أرسلته حين كان شاباً، وكيف كانت ظروفه ؟
مَسْكاريل : الاستاذ ألبير المسكين يستحقّ كل ثناء. لأنه منذ مدينة بولونيا الايطالية لا يزال يرافق إبني هذا، ويداوم على الاهتمام به.
ثروفَلْدان : حقاً ؟
مَسْكاريل : إذا طال هذا الحديث، سنغرق في تفاصيله المتشعّبة.
ثروفَلْدان : كم أود أن أعلم منك، على أية سفينة سافر ؟
مَسْكاريل : لست أدري. ها قد مَلَلْت الكلام. لكن، يا سيدي تروفلدان، هل تعتقد أن هذا الرجل الغريب يريد أن يتغذّى في هذا الوقت المتأخّر ؟
لالي : من جهتي، ليس لدي أي طعام أقدّمه له.
مَسْكاريل : وأنت جائع أكثر ممّا تظنّ.
لالي : تفضّل قبْلي.
مَسْكاريل : في بلاد البرابرة لا يتقيّد ربّ البيت بالرسميات. ما هذا التفكير ؟
لالي : لقد فاجأني أوّلاً. لكن لا تقلقْ، استعدتُ صوابي، وسأتصرّف بكامل وعيي وجرأتي.
مَسْكاريل : ها هوذا خصمنا الذي يجهل الرواية.

المشهد الثالث

لياندر، وانسيلم

أنْسيلْم : قِفْ، يا لياندر. واستمعْ الى حديث يتعلّق براحتك وكرامتك. أنا لا أخاطبك كأب عن إبنته، أو كرجل يهمّه رفاه أُسرته، بل كوالدك الذي يهتمّ بصالحك، بدون أن يتملّقك أو يخفي عنك أي مشكل. بالاختصار، أتوجّه إليك كانسان نظيف الكفّ، صافي النيّة، يريد أن يندمج بأسرتي. هل تدري كيف ينظر الى الحب الذي يبرز من دياجير الظلام الى وضح النهار ؟ هل تدري كم أثار من السخرية وكم كان هدفاً للأحكام الجائرة. ولأنك تنوي أن تقترن بنفاية مصرية، هي فتاة مستهترة بالنبل والإباء، أنا أستحي بها لأنها ليست أهلاً لأي اعتبار أو وقار. أجل، هذه الفتاة التي تهواها مجبولة بالعار، وأنا لا أرضى بأن تعرّضك لأي ازدراء واحتقار. بربّك، يا لياندر، ترفّع عن هذا الانحطاط وانتزع عن عينيك هذه الغشاوة التي تُعمي بصرك وبصيرتك، وتعقّلْ، وأصلحْ خطأك. فان الغلطة القصيرة المدى سريعة الغفران. فعندما تقترن فقط بالجمال الزائل، سرعان ما يوقظ في اعماقك وخز الضمير. لا سيما إن أروع الحسان هنّ قاصرات في الدفاع عن أنفسهن. ولا يلبث الفتور أن يتبع التهافت على الملذات. أكرّر عليك أن هذا الإندفاع المتحمّس الذي تحرّكه فورة الشباب لا بدّ من أن يُدخل السرور الى قلوبنا في بعض الليالي، لكن هذه المتعة لا تدوم، ولا تلبث أشواقنا أن تهمد، وبعد الليالي الملاح تتدفق علينا الأيام الصعبة. وتتبعها الهموم والبلايا لتلوّع الشبّان التُّعساء الذين يحلّ عليهم غضب والديهم، إذ يأكل الآباء الحصرم والأبناء يُضرسون.

لِياندر : من كل هذا الحديث لم أستمع الى أي تفصيل جديد. أنا أعلم جيداً أني غير أهل لأي مديح، وأرى بوضوح ما تستحقّه فضيلة ابنتك. لذا أحاول أن ...

أنْسيلْم : ها هو الباب قد فُتِح. فلننسحب الى مكان بعيد، خوفاً من تسرّب سرّ يسبّب لنا الهلاك كالسمّ الزعاف، فيما لو فاجأنا أحد واستمع اليه.

المشهد الرابع

لالي، ومسكاريل

مَسْكاريل : عمّا قريب سترون حِطَام هذا الخبيث، اذا واصلنا ارتكاب حماقات جسيمة كهذه.

لالي : هل يتحتّم عليّ دائماً أن أستمع الى توبيخاتك ؟ قلْ لي، ممّا تشتكي ؟ أولم أنجح في كل ما صنعته منذ ذلك الحين ؟

مَسْكاريل : لقد كان نجاحك بين بين. والدليل على ذلك، هؤلاء البرابرة الذين أقسمت وأكّدت أنهم كَفَرة، لأنهم يعبدون الشمس والقمر، ويمكن غضّ النظر عن ترّهاتهم. وما يضايقني جداً هو أن الحب في نظر سيلي معرّض للنسيان بصورة غريبة. فهو كالحساء الذي يغلي في القدر على النار ؟ ويفور ثم يندلق على الأرض من جميع الجهات.

لالي : وهل يجوز أن يضبط الانسان عواطفه أكثر مما يستطيع في الحقيقة ؟ فأنا لا يسعني أن أصنع أكثر مما في طاقتي.

مَسْكاريل : ليس المهم أن نمتنع عن الكلام. فإن حركاتك أثناء تناول الطعام كشفت عن ظنونك، بعدّة حركات متتالية أكثر ممّا يصدر عن سواك خلال سنة كاملة.

لالي : كيف لاحظت ذلك ؟

مَسْكاريل : كيف ؟ معظم الحاضرين لاحظوا ذلك. فالى المائدة حيث الحّ تروفلدان على إجلاسك، لم ترفع نظرك عنها، وأنت مورّد الخدَّيْن شاخص العينَيْن إليها، لا تأبه لما يُقدَّم لك من طعام، ولا تشعر بالعطش إلّا حين تشرب هي. فتأخذ القدح من يدها، وبدون أن تغسله أو تدلُق ما بقي فيه، تشرب حتى الثمالة، وتتعمّد ان تلمس شفتاك الحافّة التي تجرّعت هي منها، والأطراف التي لامستها يدها، بلهفة تفوق تمسّك الهرّة بمداعبة الفأرة المسكينة. وكنت تبتلع المشروب كأنه ترياق شافٍ. وعلاوة على كل ذلك دسْتَ على قدم تروفلدان مرّتين بصورة آلمته. فنهض وضرب كلبَين بريئين للتشفّي، ولو تجاسر لكان

شاجرك. وبعدما فعلت كل هذا، هل تعتقد أن سلوكك كان لائقاً ؟ بالنسبة اليّ، أنا تضايقت جداً، ورغم البرود الذي كان يهيمن على الجوّ، تصبّب العرق من جبيني خجلاً، لأني أودّ أن يظلّ معزّزاً مكرّماً. بدون أن ينظر إليك المدعوّون شذراً.

لالي : يا إلهي. ما أوفر ظنونك وأسوأ أفكارك، وأنت لا تقدّر ظروفي. كم شئت أن أراضيك ولو مرة واحدة، بإظهار ما أكنّه لك من الحب الذي يفيض به صدري. فمن الآن وصاعداً ...

المشهد الخامس

لالي، ومسكاريل، وتروفلدان

مَسْكاريل : كنّا نتكلم عن أفراح هوراس.

تُروفَلْدان : حسناً فعَلْتُم. لكن اسمحوا لي أن أوجّه اليه كلمة على انفراد.

لالي : تفضّل، لأننا لا نريد أن نبدو متطفّلين.

تُروفَلْدان : إسمع. هل علمت بما فعلتُه انا الآن ؟

مَسْكاريل : لا، لم أعلم. غير أني سرعان ما أعرفه بدون شكّ.

تُروفَلْدان : لقد قطعتُ غصناً من شجرة بلّوط، يُقال ان عمرها يناهز مئتَيْ سنة. ولقد انتقيتُه من ضخامة معيّنة، وصنعتُ منه قضيباً على الفور تقريباً بهذه الغلاظة، وتركته منتفخاً في أحد طرفَيْه، لكي يهدّ الكتف إذا سقط عليها بما فيه من ثقل وعِقَد.

مَسْكاريل : أرجوك ان تقول لي لمن أعددته ؟

تُروفَلْدان : لك أوّلاً، ثم لهذا المُرسَل الذي يُريد أن يحتال عليّ، لهذا البربري المتنكّر بزيّ تاجر، ويحاول أن يتدخّل في ما لا يعنيه.

مَسْكاريل : ما هذه الحركة ؟ ألا تصدّقني ؟

تُروفَلْدان : لا تبحثْ على أعذار. فلقد كشف هو بذاته عن خداعه، اذ أوعز

الى سيلي، وهو يصافحها، بأنه جاء لأجلها بهذه الحجّة الباطلة، لأنه لم يشاهد جانيت ابنة أخي. وأنا لا أشك بمكره، مهما أحاطه بالكتمان. ولا اظن أنك شريك في مؤامرته الدنيئة.
مَسْكاريل : انت ترتاب فيّ وتنسب اليّ ما لا أثر لوجوده. صدّقني إن قلتُ لك إني أنا أول ضحاياه في هذا الأسبوع.
تُروفَلْدان : هل تريد ان تقنعني بأنك صادق في إدّعائك ؟ إذاً ضعْ يدك في يدي لنطارد هذا اللعين ونعاقبه على جريمته المنكرة ونلقّنه درساً لا ينساه ما دام على قيد الحياة.
مَسْكاريل : نعم، بكل طيبة خاطر سأقترن بها، وأُثبت لك، أيها البربري، انك هدّام المشاريع الخيّرة، وأجزيك ضرباً وتعذيباً على نواياك السيئة.

المشهد السادس

لالي، وتروفلدان، ومسكاريل

تُروفَلْدان : من فضلك أنصتْ اليّ. أريد أن أقول لك كلمة وجيزة. انت اذاً، أيها الجاحد المخاتل، تتجاسر اليوم وتخدع رجلاً شريفاً وتسخر منه.
مَسْكاريل : لقد إدّعيت بأنك أبصرت إبنه في بلد غريب، لكي تنال حظوةً في عينيه.
تُروفَلْدان : أفصحْ، أفصحْ حالاً عمّا في ضميرك.
لالي : تبّاً لك من سافل حقير.
مَسْكاريل : أهكذا تَصِفُني ؟ قبحاً لك من منافق خبيث.
لالي : بل قبحاً لك أنت من عقوق ناكر الجميل.
مَسْكاريل : إنسحبْ، هيّا انسحبْ. وإلّا أنزلت بكَ ضربة قاضية.
تُروفَلْدان : تصرّفكَ يُعجبني كثيراً. أدخل، أنا مسرور.
لالي : هل بلغ الأمر حدّاً جعل الخادم يهين سيده ؟ وهل يُصدّق أحد أن ذلك

ممكن ؟ تبّاً لك من خائن حقير، تُعامل سيدك بهذه الوقاحة.
مَسْكاريل : أودّ ان اسألك : كيف حال ظهرك الملسوع ؟
لالي : أوَلا تكفّ عن كلامك البذيء المهين ؟
مَسْكاريل : هذه نتيجة عدم مشاهدتك جانيت، وقلة صيانة لسانك الطويل. لن أغضب عليك هذه المرة، ولن أهينك مهما أتيت من حماقات. لأن يدي القاسية التي دغدغت ظهرك بالقضيب قد غسلتْ غلطك.
لالي : سأنتقم منك على معاملتك الشرسة.
مَسْكاريل : أنت جلبتَ الويل لنفسك.
لالي : انا ؟
مَسْكاريل : لو لم تكنْ مهووس المزاج حين تحدّثتَ من مدة الى معبودتك، لكنتَ شاهدت جانيت تجثو عند قدمَيْك. لأن أذنيها المرهفتَيْن سمعتا كل أقوالك التي تدينك.
لالي : وهل بلغها ما خاطبت به سيلي ؟
مَسْكاريل : ومن استطاع ان يسمع كلمة من هذا الحديث ؟ لم ينكشف سرّك إلّا عندما تبجّحت أنت به علناً. أنا لا أعرف إن كانت ألاعيبك دوماً ناجحة. لكن، كان عليك هذه المرة ان تتحفّظ وتتّخذ حذرك.
لالي : تبّاً لك من شقي متطفّل. لماذا تلاحقني وتضايقني هكذا ؟
مَسْكاريل : لم يظهرْ منّي أي دليل على تدبيري هذا الشرك أو مساهمتي في نصبه.
لالي : كان عليك أن تخفّف ضربتك.
مَسْكاريل : قبحاً لك من غبيّ. كان تروفلدان يسترق التسمّع اليك، وكنت أنا أنبّهك بهدوء الى أن مسعاك غير مثمر. لكن الأمر قد تمّ على هذه الصورة. فلم أستشطْ غيظاً. وأنا لا أرغب في ان ترتدّ التبعة اليّ رأساً أو بصورة غير مباشرة. وأعدك بأني قبل انقضاء ليلتَيْن ستلاقي ما لا يرضيك.
لالي : مهما بلغ تصرّفك من الخشونة والشراسة، فإن وعيدك هذا لا يخيفني.
مَسْكاريل : إستعدّ إذاً لتلقّيه.
لالي : أجل، أعدك بكل تأكيد.

مَسْكاريل : هذا ليس كل ما في الأمر. عليك أن تعدني وعداً صادقاً بأنك لن تتدخّل بتاتاً في كل ما افعله.

لالي : أعدك.

مَسْكاربل : وإذا أخلَلْتَ بتعهّدك، ستقع في شرّ أعمالكَ.

لالي : أرجوك أن تفي بتعهّدك، وأن تريحني من خداعك ومن عنفك.

مَسْكاريل : هيّا إخلع ثيابك إذاً، وادهن ظهرك بالزيت لتلقّي الضربات.

لالي : هل كُتب عليّ أن لا أتخلّص من ورطة حتى أُبْلى بأشنع منها.

مَسْكاريل : ماذا تقول ؟ أنت لست بعيداً عما تتوقعه لنفسك. هيّا أُخرجْ من هنا سريعاً. وحذار أن تهتمّ بالأمر. لأني أنوي إجبارك على العدول عن عاداتك السيئة. فاخلُدْ الى الهدوء ولا تتدخّل بعد الآن في ما لا يعنيك كي لا تلقى ما لا يُرضيك.

لالي : كن على يقين بأني في هذه المرة سأمتنع نهائياً عن كل نشاط.

مَسْكاريل : وسترى منذ الآن اي طريق سأسلك لبلوغ مرامي.

المشهد السابع

أنْكاسْت، ومسكاريل.

انْكاسْت : جئت أنقل اليك خبراً غير سارّ يضرّ بمشروعك. ففي هذه اللحظة، هناك صبيّة مصرية غير سوداء اللون، وهي طيبة العنصر، ستصل الى هنا بصحبة عجوز شمطاء آتية لتشتري من تروفلدان هذه العبْدة التي تميل أنت اليها، ويعاملها هو بمنتهى الرقّة.

مَسْكاريل : بدون شكّ هذا هو العاشق الذي تحدّثتْ عنه سيلي. فهل سيكون مصير هذه الفتاة أسوأ من مصيرنا ؟ فنتخلّص من تلك المشكلة لنقع في سواها. خطأً فهمنا ان لياندر على وشك أن يتنازل عن القضيّة، كَيْ لا يضايقنا

أكثر مما فعل، وأن والده وصل خلافاً لكل التوقّعات، وأخذ يلقي بكل ثقله، لكي تميل كفّة الميزان لصالح هيبوليت التي غيّر موقفها بما له من سلطة على ابنه. وراح منذ هذه الساعة يتمّم الصفقة. وهكذا نرى خصماً يبتعد ليحلّ محلّه آخر أدهى منه، يطيح بما تبقّى من الآمال التي عقدناها. على كل حال هناك فكرة خطرت ببالي، وأعتقد أن بإمكاني أن أؤخر الانطلاقة الجديدة، فتتاح لي الفرصة والوقت اللازم لأُنهي هذه المسألة الخطيرة. مع ان خصمنا خطا خطوة كبيرة لا أعرف عنها أي تفصيل. لأن هؤلاء المزاحمين قلّ ان يتصرّفوا برصانة. وأنا استناداً الى ارتيابي في مقصدهم أودّ أن أحجز هذا المخاتل المحتال، وسأدعو بعض رجال الأمن الى اعتقاله وشلّ نشاطه الهدّام. وظاهراً أتصدّى لمحاولات غير بريئة يقومون بها ليجبروه على فتح محفظته ودفع المبلغ الذي يطمعون به.

الفصل الخامس
المشهد الأول

مسكاريل، وانكاسْت

مَسْكاريل : ايها الأحمق الخسيس، هل ستدوم مناوأتك إياي الى الابد ؟

انْكاسْت : بفضل المشوَّه الوجه، كانت قضيّتك سائرة في طريق الحلّ. ولولا تشويش البليد المسجون الذي اعترضه سيّدك بذاته، وفشّل خطّته، لم يكن لينجح كما صرّح بصوت عال أثناء استدراج رجل شريف الى دروب الشرّ والعار. انا مسؤول عن النتيجة المتوقعة. وبما أنه قاوم إطلاق سراحه، عارضه رجال عاديّون، ما لبثوا ان هربوا خوفاً على رؤوسهم من أن تتدحرج وتتحطّم. وها هو الآن لالي قد لحق بهم.

مَسْكاريل : ألا يعلم الخائن السافل أن هذا المصري قد سُجن لأنه سرق أمواله ؟

انْكاسْت : الوداع، لأني مضطر الى الذهاب بدون إمهال.

مَسْكاريل : نعم، انا متعجّب من كرم هذا الأخير. كأني مقتنع بأن هذا الشيطان اللعين لا يسرّه إلا أن يجابهني ويضايقني في كل مكان، وهو قادر على الإضرار بي. مع أني سألاحقه، ورغم كل الوساطات سأريه من منّا يستطيع الاحتفاظ بالصبيّة سيلي التي تفاهمنا وإيّاها، وهي لا ترضى بالرحيل إلّا مرغمةً. على كل حال سأحاول اغتنام الفرصة ــ لكن ها هم قد أتوا ــ وأنا أفكّر بالتنفيذ. فهذا المنزل المفروش يخصّني، واستطيع ان استخدمه بحريّة

تامة. واذا ساعدتنا الظروف يتمّ الأمر على ما يرام. ولا أحد سواي يتسنّى له المكوث فيه، ما دام مفتاحه بحوزتي. يا إلهي، كم رأينا من مغامرات، وكم من الخبثاء الدجالين اضطرّوا الى تغيير سِحَنهم حيالنا.

المشهد الثاني

سيلي، وأنْدريس

أنْدريس : كما تعلمين، يا سيلي، لا يمكنني أن أعبّر لك عمّا يطفح به قلبي من محبة خالصة. مع أن أهالي البندقية، منذ حداثتي، قد اضرموا في صدري روح الشجاعة. وكنت أفاخر في خدمتهم بما أتيته من إنجازات مشرّفة. فعندما لاحظوا تحوّلي السريع، اصبح عاشقك من المعجبين، بدون أن يَحُول مئة حادث أو تبديل دون مثابرتي على حبك. ومهما كانت الأحوال صعبة لا يسعني أن أظلّ بعيداً عنك. أخيراً بعد أن عثرت على هذه المرأة المصرية المسنّة، عرفت مصيرك وأنا على أحرّ من الجمر أسعى الى إنقاذك من الهلاك الذي يتهدّدك، لأنك أصبحت رهينةً بين ايديهم. وها قد بادرتُ الى كسر قيودك لأتلقّى منك الأوامر وأفعل ما يُرضيك. وهكذا تخلّصت من الحزن الذي سيطر عليّ، بينما أنا أبصر في عينيك بريق الأمل والسرور. ومهما قَسَتْ عليّ مدينة البندقية وجرّدتني من خيراتي، سأجد ما يؤمّن كفافي لكي اعيش بقربك فيما تواصلين مسيرتك الى جانبي، وأنا قانع وقلبي مبتهج، أسْعَدُ بجوارك وبتحقيق أحلامك وأمنياتي.

سيلي : هيامي بحبّك ظاهر للعيان. وإن بقيتُ حزينة اكون عاقّة وصدري خالياً من العطف والحنان. فلا تحاول سبْر أغوار فؤادي بهذه المناسبة، لأن تذكارات العنف لا تزال تؤلمني وترهقني، وإن كان لي عليك بعض الدالّة، سيطول قلقنا بضعة ايام اخرى فقط. فما علينا إلّا ان نصبر ريثما يسلك مصيرنا درب الهناء.

أنْدريس : مهما بدر منك من أفعال، قلبي مصمّم على نيل رضاك. فلنبحثْ عن بيت ترتعين تحت سقفه آمنةً سعيدة. أترين هذه اللافتة التي تلوح لأنظارنا ؟ إنها تشير إلى ضالتنا المنشودة.

المشهد الثالث

مسكاريل، وسيلي، وأنْدريس.

أنْدريس : أيها الحارس، هل هذا منزل سيّدك ؟
مَسْكاريل : هل من خدمة أؤدّيها لكما ؟
أنْدريس : أنستطيع أن ندخل ؟
مَسْكاريل : أجل، يمكنكما أن تعيشا هنا في الغرف الواسعة.
أنْدريس : أظن أن الإقامة هنا لا تثير المتاعب.
مَسْكاريل : يظهر عليكما أنكما غريبان عن هذه الديار.
أنْدريس : اجل.
مَسْكاريل : هل السيدة هي زوجتك، يا سيدي ؟
أنْدريس : ماذا تقول ؟
مَسْكاريل : هل هي زوجتك أمْ شقيقتك ؟
أنْدريس : كلّا، لا هذه ولا تلك.
مَسْكاريل : في الحقيقة، أنا لا أفهم ما تعني. هل عليّ أن أساوم أو ان أسأل عن إمكانات قصر العدل ؟ فالدعوى تكلّف كثيراً من المال، والنائب العام كاللص، والمحامي وسيط لئيم.
أنْدريس : لا حاجة لهذا الانفعال.
مَسْكاريل : انت اذاً تأتي للنزهة وللتمتع بمشاهدة معالم المدينة.
أنْدريس : ما همّك أنت ؟ سأكون بتصرّفك بعد لحظة. وسأنادي العجوز لتأتي على عجل، فتطلب منها تأجيل رحيلكما، لأن العربة غير جاهزة.

مَسْكاريل : هل السيدة منحرفة الصحة ؟
أنْدريس : هي تشكو الصراع.
مَسْكاريل : سأجلب لكما بعض الخبز والجبن اللذيذ. فأرجوكما أن تدخلا بيتي الصغير.

المشهد الرابع

لالي، واندريس

لالي : مهما كان تأثّر نفسي المتلهّفة عظيماً، فإن وعدي يضطرني الى الانتظار. أتركُ سواي يسعى بدون أن أجسر على القيام بأي عمل، كأن السماء حكمت عليّ بأن أتّصل بشخصٍ معيّن داخل هذا المنزل.
أنْدريس : منذ هنيهة إستأجرت أنا هذا البيت المفروش.
لالي : هذا المنزل يخصّ والدي، ويحرسه خادمي أثناء الليل.
أنْدريس : لا علم لي بذلك. هذه اللافتة تشير الى أنه للإيجار، ويمكنك أن تقرأها.
لالي : أنا أعترف بأن الأمر أدهشني. لماذا ؟ ومن يريد تأجيره ؟ ربما حزرت السبب. جعل الله الباعث على ذلك خيراً.
أنْدريس : هل لي أن أسألك أن تشرح لي ما الداعي لهذه المغامرة ؟
لالي : لغيرك أترك الأمر طيّ الخفاء. لكن لأجلك، لا يسعني إلّا أن أكشف الحقيقة برمّتها. بدون شك تشير هذه اللافتة الى بعض الأسباب التي دعت الخادم الى استنباط حجج واهية. لأن عِقداً مستعصية قد استُحدثتْ لوضع صبيّة مصرية تحت إشرافي. فوقعتُ في هواها، ولا بدّ لي من الحصول عليها. ولقد حاولت مراراً، ولم أتوفّق.
أنْدريس : ما اسمها ؟

لالي : سيلي.
أندريس : لماذا لم تخبرني بالأمر في حينه ؟ لكنت حتماً وفّرت عليك ما كلّفك هذا الى الآن من بحث وعناء.
لالي : ماذا تقول ؟ هل تعرفها ؟
أندريس : انا آتي للبحث عنها.
لالي : ما هذا الكلام المذهل ؟
أندريس : نظراً الى انحراف صحتها، اضطررت الى إبقائها في هذا المنزل. كم أنا مسرور في هذه اللحظة لاطّلاعي على ما تنوي فعله.
لالي : ماذا تقول ؟ هل أتوصّل بواسطتك الى بلوغ مرامي ؟ يمكنك ...
أندريس : لن تلبث أن تنال مرادك بعد فترة قصيرة.
لالي : كم أنا مدين لك ؟ وكيف يتسنّى لي أن أشكرك ؟
أندريس : لا شكر على الواجب. ولا داعي لاعتبار نفسك مديناً.

المشهد الخامس

مسكاريل، ولالي، وأندريس.

مَسْكاريل : ها هو سيدي الذي سيقوم بالنسبة إلينا بدور غريب.
لالي : من سيعرفه بهذه الملابس العجيبة ؟ إقترب، يا مسكاريل. أهلاً بك.
مَسْكاريل : أنا رجل شريف، ولست متسوّلاً شريراً أعتدي على الأرض على الأعراض والأرزاق.
لالي : تبّاً لهذا المحتال الذي يتظاهر بحسن النيّة والصلاح.
مَسْكاريل : جئت الى هنا لأتنزّه، فلا تهزأ بي.
لالي : هيا إنزع القناع عن وجهك، وتعرّف الى سيدك.
مَسْكاريل : يبدو عليك أنك شيطان رجيم، ولن اتقرّب إليك.
لالي : كل المسائل أمست على ما يرام، ولا لزوم الى تنكّرك هكذا بعد الآن.

مَسْكاريل : اذا لم تشأ أن تذهب، ستتعرّض الى لطمة عنيفة تدوّخك.
لالي : كلامك المبهم لا يفيدك. لأننا إتّفقنا، ولم يعد من موجب لما تتذرّع به من الحجج. إذْ سُوِّيتَ أوضاعنا، ولا سبيل لأي خلاف ان ينشب بيننا في المستقبل.
مَسْكاريل : اذا وافقت على التسوية، لا حاجة للتخفّي، وسأعود الى شخصيتي المعتادة.
أَنْدريس : هذا الخادم يرعى مصالحك بأمانة. وأنا لن ألْبث أن أرجع اليكما. فامكثا هنا ايضاً بعض الوقت.
مَسْكاريل : كم أنا مرتاح الى هذه الخاتمة السعيدة.
لالي : كنت تودّ ان تكشف عن تنكّرك، وأنا لم أصدّق نجاحك بهذا المقدار.
مَسْكاريل : لم أعرفك في بادئ الأمر. وكدت أخاف ان تفاجئكما مغامرة مزعجة.
لالي : إعترفْ أخيراً ان القصة طال مداها. على الأقلّ كفرّت عن غلطي في هذه اللعبة. ويسرّني أن تكون القصة قد انتهت بسلام.
مَسْكاريل : يبدو عليك أنك سعيد هكذا اكثر من أن تصبح حكيماً عاقلاً.

المشهد السادس

سيلي، ومسكاريل، ولالي، واندريس

أَنْدريس : هذا ليس الموضوع الذي كلمتني عنه.
لالي : ما اسعدني الآن، وليس ما يعادل بهجتي في هذه اللحظة.
أَنْدريس : انا مدين لك بجميل هامّ، إن نسيتُه أكون عقوقاً. ولهذا المعروف فَضْل كبير، إن لزم الأمر أن أدفع ثمنه من حبّي باهظاً، ما تأخّرت لحظة. فتأمّل، في أي سجن يحبسني جمالها. وأنا مستعدّ لأنْ أردّ لك جميلك مهما

غلت التضحية. ولأنك كريم لن ترضى بأن يكون الثمن باهظاً الى اللقاء بعد بضعة أيام. فلنعدْ الى حيث كنّا.

مَسْكاريل : أنا أمزح، على كل حال، وإن كان الوقت لا يساعد على ذلك. ها أنتما متّفقان، هو يعطيك سيلي و ... هل سمعت ما اقول ؟

لالي : هذا كثير، ولا أريد هذه التضحية. أنت تودّ أن تساعدني بطريقة لا أرضاها. فأنا عقوق، وأنت دجّال بطّاش لا تستحقّ بذْل اي جهد في سبيلك. قلَّ في هذه الأيام من يتألّم لإسعاد سواه. اذاً عليك أن تُقلع عن أي سعي لاسعاد انسان منكود الحظ. وبعد كل هذا الشقاء، وقلّة الحرص، عليّ أن أتحمّل المسؤولية، ولو اقتضى الامر أن اضحي بحياتي في سبيل سلامتك.

مَسْكاريل : هذه هي الوسيلة الوحيدة لبلوغ هدفه. ولم يبقَ له إلّا أن يموت أخيراً، تتويجاً لجميع معضلاته. لكن عبثاً يحاول التكفير عن أخطائه الماضية، وإن لم يقدّر عنايتي ومساعدتي. أريد مهما كلّف الأمر ان اخدمه رغماً عنه. وخلافاً لما نالني من مساوئه أودّ أن أكون منتصراً. فبمقدار ما تكون العقبة جسيمة يكون المجد عظيماً. وبقدر ما تكون التضحيات مُضْنِية، تتحلّى السيدات المتبرّجات بالفضيلة.

المشهد السابع

مسكاريل، وسيلي.

سيلي : مهما قُلْت أنت، ومهما افترض سواك، لا انتظر الكثير من هذا التأخير. لأن ما يتحقّق من النجاح يكفي للإقناع بأن المتنازعين لا يزالون على خلاف كبير. ولقد قلت لك إن قلباً نظير قلبينا لا يسعه أن يكون سبب شقاء الآخرين. ومن جرّاء تبايُن العِقَد أجدُني مرتبطاً بكما معاً. فاذا كانت سيلي تحبّه وتسيطر على عواطفه، فإن أندريس يقدّر هذا الموقف، ولا يطيق أن تسيء نواياه المُضْمَرة

الى أعزّ مصالحه. نعم اذا لم يكن له من مكان في فؤادها، واذا كانت هبة قلبها لا تتوّج هواها، على الأقلّ أستحقُّ أنا هذا البذل كثمن لاخلاصي ووفائي. فلن أختار حبيباً سواه لقاء ما يجود به من محبة وأمانة. وهذا هو أقلّ ثمن تستحقّه مبادلة عنفه بأطيب تمنياتي. فهذه الصعوبات تعزّز واجبي، وعليك أن تحكم كم يتطلّب صبري من ثواب.

مَسْكاريل : في الحقيقة، هذه عقبات كأداء في سبيلي أنا الذي لا يسعني أن أجترح المعجزات. لكني مع ذلك سأبذل ما يمكنني من الجهد، وسأهزّ الأرض والسماء، وأبحث في كل الجهات محاولاً أن أجد زاوية مسالمة، وأعلمك بما سأفعل قريباً.

المشهد الثامن

سيلي، وهيبوليت

هِيبوليت : منذ إقامتنا هنا وسيّدات هذا المكان يشكين بحقّ من سحر عينَيْك. فاذا سرقتِ بلحظك قلوب من يحيط بهن من عشاق غير أوفياء، فليس هناك من محبّ يقوى على النجاة من شرّك، بسبب ما برعتِ به من غزو العواطف والإغراء. ورغم ما يَتُقْنَ اليه من الانعتاق من قيودهنّ وحبائلهنّ المنصوبة ببراعة على الدوم، تزيد كل يوم مقدار خسائرنا. أمّا أنا على كل حال، فلا أتذمّر من سلطان هواهنّ. حتى إذا أصبح عشاقي ممّن يبغون رضاكِ، فهناك حبيب واحد يعزّيني عن سائر من يخطبون ودّي. لكنك أنتِ بطريقة غير إنسانية تستولين على قلوبهم، وهذا ما أشكو أمري اليك من جرّائه.

سيلي : هذه سخرية لبقة أرجوك أن لا توجّهيها اليّ، لأني لا أستطيع مقاومة عينيك الساحرتين اللتين تسلّطيهما على قلب حبيبي الضعيف الارادة الذي تستميلينه اليك بلمح البصر.

هِيبوليت : مع ذلك هذا حديث لا يفيدني، ولا حول لي أن أتراجع عنه.

وبدون أن أتكلّم عن الباقي، أنا عارفة، يا سيلي، بأنكِ تحدّثتِ عن اشواقك الى لياندر ولالي كلٍ على حدة.

سيلي : انا واثقة ؟ بعدما أصابني من العماهة، إنك ستتعزّيْن بسهولة عن فَقْد حبيبك وستلاقين الحبّ الذي لا أتمنّاه لك، لأنه يخالف ما تصْبين إليه لقلّة ملاءمته مزاجك.

هِيبوليت : بالعكس، أنا أتصرف بصورة تغاير ما تتحدّثين عنه، وأجد في جمالك ما يستحقّ الإعجاب والتقدير. فأنا أرى من خلاله ما يجدر بي أن أدافع عنه وأحتفظ به في أعماق كياني. لأن عدم الاستقرار يذهلني، فألوم نفسي على ما ينتابني من أشواق جديدة، وميول جارفة نحو لياندر الذي كَبَتَ عواطفه. وسألتقي به قريباً بدون حقد ولا حسد، وأعيده الى الخضوع لشريعتي بما لوالدي من سلطان ونفوذ على أوضاعنا نحن الاثنَيْن.

المشهد التاسع

مسكاريل، وسيليٌ، وهيبوليت

مَسْكاريل : جئت الآن أعلمك بنبأ مدهش ونجاح باهر.

سيلي : ما هما ؟

مَسْكاريل : إسمعي، هذه بدون تبجّح ...

سيلي : ماذا تقصد ؟

مَسْكاريل : نهاية مهزلة حقيقية. العجوز المصريّة في هذه الساعة ...

سيلي : ما بها ؟

مَسْكاريل : إنزلي إلى الساحة، ولا تهتمّي. بينما عجوز اخرى مجعّدة الوجه، مشعّثة الشعر، نظرت اليها طويلاً بدهشة واستغراب، وكالت لها مسبّات وإهانات مُخزية كأنها اطلقت إشارة لبدء قتال شرس بأسلحة مختلفة، من

سيوف وخناجر وسِهام ورماح. واذا بأربعة أنياب حادّة تبرز بين المتقاتلين وتغرز في اللحوم البشرة حتى تصل الى العظم، وتبادل كلمات نابية : كلبة، ذئبة ضَبْعَة. وما لبث ان تطايرت المناديل في الهواء وانكشف رأسان عاريان انتصب شعرهما المشعّث. فسارع اندريس وتروفلدان على صوت الضجة وتقاطر الناس حولهما. فحاول الرجلان أن يباعدا الواحدة عن غريمتها بدون جدوى لأن العقول إلتهبت والايدي تشابكت والمزاجات تعنّتت. مع ذلك، بعد هذه العاصفة، حاولتْ كل منهما ان تخفي رأسها المكشوف وعارها المفضوح. واذا بالتي بدأت تلك المعركة رغم الغضب الذي استولى عليها، صرخت : أنت الذي أثرت هذا الخلاف ونفخت نار الحقد والكراهية. تبّاً لك من مُشاغب بغيض أيها السيد زينوبيو روبرْتي. إن الثروة التي جمعتها انت بالحرام أنبأتني بأن لا ضمير يردعك ولا إنصاف يرشدك الى عمل الخير. فلقد غادرت أهلك في نابولي، وبكل الوسائل طوال أربعة أعوام أبديت ظاهراً كل إنسانية ومروءة، وتصرفت باطناً كساحر دجّال لئيم. ومكثت في بيتنا ضيفاً مكرّماً، فما لبثت أن غدرت بنا. سرقت مالنا يا للأسف، وسُمْتَ زوجتك مرّ العذاب، وعجّلت قدوم موعد أجلها، الى أن حرّضْتَ على اختطاف هذه الفتاة. وخوفاً من الملامة والعقاب أعلنتَ موت الأم وابنتها. لكن، لا بدّ الآن، وقد نلتَ مأربك، من أن أسألك : ماذا حلّ بهما ؟ فباسم زينوبيو روبرْتي الذي ردّد صوته مراراً أثناء سرْد هذه القصّة، اسم اندريس الذي غيّر الزمان ملامح وجهه، فخاطب تروفلدان، بهذه اللهجة القاسية : ماذا فعلتَ، يا جبان ؟ فالسماء هَدتْني اليك أنت الذي بحثتُ عنك عبثاً حتى هذه الساعة، وقد أبصرتك بدون أن أعرفك مع أن دمك يَسْري في عروقي لأنك أنت علّة وجودي. أجل أنت أبي، وانا هوراس ابنك، وكان الاستاذ ألْبير يحتجزني. وحين ولّت أيام شقائي، شعرتُ كأني وُلدتُ ثانية، وغصّةُ الأسى تخنقني، والقلق يحزّ في صدري. فغادرتُ مدينة بولونيا وتخلّيتُ عن دراستي، وتنقّلتُ طوال ستة أعوام في أماكن مختلفة حسب ما أوحى اليّ به حنيني. مع ذلك، بعد مرور هذا الوقت المديد سيطرتْ عليّ رغبة غامضة قويّة جعلتني أتوق الى أهلي ووطني. لكني يا للأسف، لم أجد لك أثراً حتى تلقّيت طلبك بعد عذاب

أليم، ووصلت الى مدينة البندقيّة إثْر اسفار طويلة مرهقة. وعشتُ منذ ذلك الحين في بيتي لا أعرف مقرّك، ولا أسمع بذكرك. والآن أترك لك الحكم على قضيّة تروفلدان الشائكة. وأخيراً، بغية البتّ في وسيلة لتوضيح الأمور باعتراف فتاتك المصرية، تعرّفنا الى تروفلدان الرجل الغريب المتستّر، والى أخيك اندريس. وبما أنه لم يعد بإمكانه التنصّل من شقيقته، شعر بواجبٍ لا يسعه أن يتجاهله، يجعلكِ، يا سيلي، زوجة سيدي لالي. وها هو والدك يشهد بصحّة اقوالي هذه. فعليك أن تباركي هذا القران. ولكي يفرح جميع أفراد الاسرة، إقْتَرَحَ زفّ ابنتِه الى هوراس الذي اهتدينا إليه أخيراً. وهكذا ساعدتِ الظروف على جلاء هذه الحكاية العويصة التي كنا نجهلها بحذافيرها.

سيلي : أراني واجمة أمام هذه الأحداث المتسارعة المتشابكة التي شلّت تفكيري وطغت على بصيرتي.

مَسْكاريل : إتبعوني كلّكم، ما عدا بطلَيْنا اللذين يكادان يعودان الى رشدهما بعد هذه المعركة الضارية التي اشتركت فيها لياندر كفريق، وكذلك والدك كفريق آخر. وأنا أتعهّد بأن أُطلِع سيدي على خاتمة مأساته التي منّت علينا السماء بعد كل هذه العراقيل بوضع حدّ لها بأعجوبة نادرة.

هِيبوليت : شدّة فرحي تُضعضع ذهني، وأنا أكاد أُصدّق كيف توضّحت الغوامض بعد طول تشابكها وإبهامها. ها هم أصحابنا قادمون.

المشهد العاشر

تروفلدان، وأنسيلم، وبندولف، إندريس، وسيلي، وهيبوليت، ولياندر

تُروفَلْدان : تعالي، يا ابنتي الحبيبة.

سيلي : والدي العزيز.

تُروفَلْدان : أتدرين كم غمرتْنا السماء بأفراحها ؟
سيلي : هنا بلغتني بعض تفاصيل المحنة التي انزاحت عنّا، واستُبدِلَتْ بهذه الفرحة العارمة.
هِيبوليت (تُوجّه كلامها الى لياندر) : باطلاً تدافع عن اشواقك، لأن ما تتكلّم عنه لا يزال ماثلاً أمام عينيّ.
لِيانْدر : أمّا ما أتوق انا اليه، فهو غفران كامل وصفْح شامل عن كل ما مضى. أسأل السماء بمناسبة هذه النهاية أن يوافق ابي على ما أنوي تحقيقه.
أَنْدريس (يُوجّه كلامه الى سيلي) : من كان يصدّق أن الطبيعة قد تنصف يوماً هذا الشوق والحنين. على كل حال تغلبتِ الظروف على صِعاب الامور، وردّت لكل ذي حقٍّ حقّه.
سيلي : أمّا أنا فقد لمْت نفسي وظننتُ أني مخطئة عندما شعرت نحوك بعاطفة سامية نبيلة. ولم أكن أدْري أي عائق جسيم يصدّني عن التقرّب اليك، ومنع فؤادي من الإقرار لك بما يضطرم بين ضلوعي من هيام جامح، حملني شعوري على التردّد بين كتمانه والبوْح به.
تُروفَلْدان : ها انتِ قد سوّيْتِ وضعك. فما رأيك إذا حرمني نصيبي من حبّكِ وعطفكِ، وارتبطتِ بإبنه حسب مواثيق الزفاف المبارك.
سيلي : مصيري الآن أصبح بين يديك، يا والدي الحنون.

المشهد الحادي عشر

تروفلدان، ومسكاريل، ولالي، وانسيلم، وبندولف، وسيلي، واندريس، وهيبوليت، ولياندر

مَسْكاريل : سنرى إن كان شيطانك قادراً على تحطيم الأمل الوطيد بضربة قاضية. واذا كان أمام فيض الخير الذي تدفّق عليك، ستتجنّد مخيّلتك

لتكافحه، بعد أن تضافرت جهود مصيرك البهيج على تتويج حظك السعيد باقترانك الميمون بعروس أحلامك سيلي ؟

لالي : هذا صحيح، يا صهري العزيز.

بَنْدولْف : لقد قُضي الأمر ولا عودة الى الماضي.

أَلْدريس : وهكذا وفيتُ ما أنا مدين به لك.

لالي (**يُوجّه كلامه الى مسكاريل**) : لا بد لي من معانقتكم جميعاً، وطبْع ألْف قبلة وقبلة على وجناتكم بفرح وسرور …

مَسْكاريل : آيْ، آيْ، أرجوك أن تتمهّل، فبضمّي هكذا الى صدرك تكاد تعصرني. أنا أخشى علي سيلي حين تلاطفها من أن يخنقها الفرح على اثر معانقاتك. فبالله عليك أرفقْ بحالها.

ترُوفَلْدان (**يوجه كلامه الى لالي**) : انتَ تعلم كم جادت عليّ السماء بالبهجة. وبما ان السرور غمرنا كلّنا في يوم واحد، علينا ان لا نفترق بعد الآن، وأن يعود والدها الينا سريعاً.

مَسْكاريل : ها قد اكتمل فرحنا. ولكن، ألّا توجد هناك فتاة تناسبني أنا ايضاً وتسعدني، فأجدني كغيري مشدوداً الى حبيبتي بوثاق الزواج ؟

أَنْسيلْم : لديّ طلبك كما تتمنّى.

مَسْكاريل : هيّا بنا إذاً. ولترزقنا السماء أولاداً تبهج أُبوّتنا وتُسعد بنوّتهم.

(**تمّت**)

خَيْبَةُ الحُبّ

أشخاص المسرحية

أراسْت : حبيب لوسيل.
ألْبير : والد لوسيل.
كرو رينيه : خادم أراسْت.
فالير : ابن بوليدور.
لوسيل : إبنة ألْبير.
مارينات : مرافقة لوسيل.
بوليدور : والد فالير.
فروسين : صديقة أسْكاني.
أسكاني : إبنة ألبير الأخرى، متنكّرة بزي رَجُل.
مسْكاريل : خادم فالير.
ميتافْراسْت : أُستاذ مُتفلْسِف.
لا رابِيار : مقاتل.

الفصل الأول
المشهد الأول

أراسْت وكرو رينيه

أراسْت : هل تريد أن أقول لك إن محنتي الخفيّة لا تترك في نفسي أي أثر مزعج. ومهما تسنّى لك أن تنسب اليّ أني في حبّي مخدوع، بما اني لم أتعوّد الكذب، لا يسعني إلّا أن أجيبك بأنك مخطئ في هذا الاستنتاج.

كرو رينيه : لا تظنّ اني أنوي التلاعب بالكلام ذات يوم، فأصرّح لك، يا صاح، بأن تصوّرك في غير محله، وأنك لم تنجح في ترجيحك أن الأمر يجرح شعوري. فإنّ مظهري لا يُفصح عما اكتمه في صدري، مع اني لست من الخبثاء المنافقين. وليس من طبعي ان اكذّب من يتهمني زوراً بأني مغرور. وإلّا وقعت في حيرة من امري. لأن لوسيل في نظري، تُبدي من الحب اكثر مما تكنّه. وهي من نوع المرأة التي تداعبك وتلاطفك وتثير مخاوفك. بينما الشاب فالير على كل حال، مهما روّعك، يظهر عليه حالياً أنه يتألّم مُرغَماً.

أراسْت : كم من العشّاق يتقبّلون الخداع. لأن من يلاقي الاستحسان ليس دائماً الشخص الأحب إلى القلب. وجلّ ما يبدر من بعض النساء ليس إلّا ستاراً لإخفاء ما يعزّ عليهن فضحه من عواطفهن. وهذا حال فالير الذي لاقى من الصدّ ما خيّب آماله وهو غير مطمئنّ كما يتظاهر. فإنه أحياناً يصطنع السرور أو قلّة الاكتراث، ويغيظني بمظهره المسالم الى حد يجعلني أتساءل عن حقيقة

شعوره. إذ يشكّ بما أتمتع به من سعادة، ويعقّد تفكيري، ويبعث في نفسي عدم الثقة بهوى لوسنيل. لذا أبحث عن نصيب مريح وإن أيقظ في صدري بعض الغيرة، وداخلني بسببه شيء من النفور وقلة الصبر. فهل يمكنك أنت أن تعيد الى نفسي ما أفتقده من الاطمئنان والارتياح، في حال تيقّني من سعي مزاحمٍ عزيز عليّ، ينازعني من إصطفاها فؤادي ؟ وان كنت لا تصدّقني ؟ أرجوك أن تُبيّن لي اني أحلم بمغامرة وهمية.

كرو رينيه : ربما كان قلب من تهواها يميل الى سواك، وهي تتنهّد من جرّاء فقدان التجاوب في هذا المضمار.

أراسْت : عندما يعاني المرء من الصدّ يحاول الهرب مما يؤلمه، وإن كان لا يتخلى بسهولة عن ضيمه، لأن ذكر المحبوب لا يدعنا نداوي جراحنا بعدم المبالاة..ما دام عذاب الحب يذكي نار الهيام، ويضاعف الغيرة والشك. فما اصعب الظنّ بأن قلب المعشوق مشغول بغير من يتدلّه بهواه.

كرو رينيه : انا لا أطمَئنّ الى هذه الفلسفة الخرقاء، ولا أرْكن إلّا الى ما أراه بعيني، ولا يسعني وأنا عدوّ نفسي، إلّا أن ألُوم ذاتي، وأن أبحث عن أسباب شقائي. فان شكوكي، ان لم تكن راجحة الكفّة، تُضرِم في صدري ناراً تلتهم افراحي وتورثني حزناً مزمِناً. فالأجدر بي أن لا أترك الأوهام تسيطر على نفسي كي لا أزيد عذابي في دنيا الغرام. أسابق الريح الى الاماني الصعبة المنال، واخشى أن أقع في خاتمة المطاف على الخيبة المرّة التي تبدّد أحلامي وتبليني بطيفٍ متهرّبٍ ألْتمس منه مصارحتي بحبّه وإضاءة دربي في دياجير الهيام ولو ببصيص من نور الحبّ الذي يهدي الى السعادة والهناء. فإذا كان مسْكاريل ينتف شعر رأسه حزناً وقلقاً أو لا، وإن كانت الحلوة مارينات تتحمّل على مضض مطارحات غرام « جوذْلي » وقبلاته ومداعباته، فإن هذا الخصم يضحك ساخراً كالمجانين. وانا نظيره ألْجأ الى السُكْر لأنسى همومي بانتظار أن أرى من منّا يضحك منشرحاً في خاتمة المطاف.

أراسْت : ما هذا الحديث المحيِّر ؟

كرو رينيه : ها هي مارينات قادمة.

المشهد الثاني

مارينات، وأراسْت، وكرو رينيه.

كرو رينيه : يا مارينات.
مارينات : ماذا تفعل هنا ؟
كرو رينيه : كنا الآن نتكلّم عنك.
مارينات : أخيراً وجدتك في هذا المكان، يا سيدي. فمنذ ساعة وانا أجري وراءك، وكدت ترهق رجليّ من التعب.
أراسْت : لماذا ؟
مارينات : بحثتُ عنك، ومشَيْت عشرة آلاف خطوة، لكنك ...
أراسْت : ما قصدك ؟
مارينات : لم تكن لا في المعبد، ولا في باحة البيت، ولا في الساحة العامة.
كرو رينيه : يحقّ لك ان تشتميه.
أراسْت : أعلميني، بالله عليكِ ماذا دعاك الى البحث عني ؟
مارينات : كلّفتْني بذلك سيدتي التي تستظرفها وتستخّف ظلّها.
أراسْت : حديثك، يا عزيزتي مارينات، يعبّر لي دوماً عن مشاعرها. فلا تُخفي عني ما تضمره لي من النوايا، وأنا لن أُلومك على ذلك. أرجوك أن تُصَدِقيني ان كانت عواطفها الخدّاعة تبالغ في ما تتمنّاه لي ظاهراً من الخير.
مارينات : لا، لا. من زرع في صدرك هذه الظنون ؟ سيدتي بعيدة عن كل هذه الشكوك. ماذا يطلب حبّك من برهان أصدق مما بدر منها ولمستَه انت لمس اليد، وما هو أملك منها في الحقيقة ؟
كرو رينيه : ان لا يَشْنُق فالير نفسه لأجلها. فالأمر لا يستحقّ كل هذا الظنّ والتساؤل الذي لا مبرّر له.
مارينات : ماذا تقول ؟
كرو رينيه : وهل هو غيور الى هذا الحدّ ؟
مارينات : مَنْ، فالير ؟ هذه فكرة طريفة لا يمكنها أن تُولَد إلّا في دماغك.

كنت أعتقد أنك أذكى مما تبيّن لي حتى الساعة. لاني كنت أعتبر مداركك أوسع مما لمسته الآن. وأراني مخطئة في تقدير بعد نظرك القصير المدى. فماذا دهاك، يا ترى ؟

كرو رينيه : أتظنّين اني غارق انا ايضاً في بحر الغيرة ؟ وقاني الله شرّ هذه الآفة الهدّامة. لا بدّ أنكِ تمزحين حتى تتهميني بها. كوني على ثقة اني بعيد عنها بعد السماء عن الأرض. فأنا أعرف ذاتي جيداً، ولا أرى مكاناً في صدري ليحتله مخلوق آخر غيرك. وأنّى لي ان ألاقي حسناء نظيرك ؟

مارينات : في الواقع قولك في محله. ولا يمكنك أن تتصرّف إلّا على هذا النحو من الأمانة. فإخلاصك لا يدع مجالاً للشكّ، كما ان لا سبيل الى أي مزاحم ان يحلّ محلّك. ومهما كان مبعث حزنك، لن يدعك تحيد عن مسلكك تجاه حبيبتك، وان حام حولها أكبر عدد من المزاحمين. فذلك يعتبر في لغةِ الحبّ تجنّباً لا داعي له، يجلب الشقاء ويلوّث السمعة. فكن مطمئناً من هذا القبيل، يا سيدي أراسْت، ولا تسمح للوساوس ان تشغل بالك.

أراسْت : اذاً إنسي ما دار بيننا الآن من كلام. وأفصحي عمّا جئتِ في الحقيقة تبلغيني اياه.

مارينات : يؤسفني إن جعلتك تنتظر، وإن تباطأت أو أخفيت عنك ما يهمّك. فالسرّ في بحثي الطويل عنك فحْواه بوجيز العبارة : أُطردْ عنك الشكّ، واقرأ ما في هذه الورقة بصوت عال، اذ ليس هنا من يسمعنا.

أراسْت (يقرأ) : « قلتَ لي ان حبّك قادر على إجتراح العجائب. وأتمنى اليوم أن يتكلّل بالنجاح، هذا اذا حظي برضى والدي. اذاً، عجّلْ حالاً، يا مالك فؤادي، وكلّمه، وأنا أُصادق فوراً على القرار المتّخَذ، طبعاً إن كان في صالحك. أوكّد لك موافقتي المطلقة. فما أعظم سعادتي إن أتتْني على يدك. لتكون حقاً كإله يعبده ويمجّده قلبي المحب المخلص ».

كرو رينيه : أنبأتُك بذلك ولم تصدّقيني. أنا لا أُخطئ في توقّعاتي ابداً.

أراسْت (يعيد القراءة) : **« اذاً، عجّلْ حالاً يا مالك فؤادي، وكلّمه، وأنا أُصادق فوراً على القرار المتَّخذ، طبعاً إن كان في صالحك ».**

مارينات : اذا أبلغتها برود عزيمتك، ستُنكر مثل هذه الكتابة.

أراسْت : بربّك، أُكْتُمي عنها هذا الخوف العابر الذي رأت نفسي من خلاله بعض النور والامل. واذا أعلمتها به، أضيفي عليه اني مستعدّ ان اموت للتعويض عن هذه الاساءة، وأني سأجثو عند قدميها واستسمحها إذا أزعجتُها، وسأبذل حياتي لأرفع عني غضبها، وأنال رضاها.

مارينات : دعنا من موضوع الموت، لأنه ليس في حينه.

أراسْت : على كل حال، انا مدين لك بالكثير، وأقدّر مسعاك حقّ قدره في تدبير الأمور، لأنك حقاً واسطة خير نبيلة وجميلة.

مارينات : بالمناسبة، هل تعرف اين بحثتُ عنك أيضاً منذ هنيهة ؟

أراسْت : لست ادري.

مارينات : بقرب السوق، في المكان المعهود.

أراسْت : اين بالضبط ؟

مارينات : هناك في الدكان حيث وعدتني، الشهر الفائت، ان تشتري لي خاتماً كهدية.

أراسْت : أذكر ذلك جيداً.

كرو رينيه : يا لكِ من داهية.

أراسْت : حقاً تأخرت قليلاً في وفاء وعدي هذا لكِ. لكن ...

مارينات : لا تظنّ أني استعجلك بهذا التذكير.

كرو رينيه : معاذ الله.

أراسْت : لا بدّ لهذه القطعة من أن تنال إعجابك. فأرجوك أن تقبليها منّي عربون مودّة.

مارينات : هل تسخر مني، يا سيدي ؟ أنا أستحي أن آخذها منك.

كرو رينيه : ما اشدّ خجلك، يا محتالة. خذيها بدون إمهال. لأن رفض الهدايا دليل سذاجة وبلاهة.

مارينات : إنْ قبلتُها، فعلى سبيل حفظها كتذكار منك.

أراسْت : متى يمكنني أن أزور سيدتك، ملاكي المعبود ؟

مارينات : حين تحمل والدها على القبول بك صهراً.

أراسْت : واذا رفض طلبي، هل عليّ أن ...

مارينات : لكل حادث حديث. في سبيلك، لن أعدم وسيلةً، ولن آلُوَ جهداً. فبطريقة أو بأخرى، لا بدّ من أن تكون عروس احلامك من نصيبك. إفعل اذاً ما تراه مناسباً، وانا أُكمل الباقي.

أراسْت : الى اللقاء. اودّ ان أعلم بالنجاح، هذا اليوم بالذات.

مارينات : ونحن ماذا جدّ في حبّنا ؟ أجدك لا تذكر حرفاً في هذا الموضوع.

كرو رينيه : انا اتوق الى تحقيق زواجنا قريباً، لأنه أغلى أمنية تراود أحلامي. من جهتي أودّ الاقتران بك، فهل تريدينني انتِ أن أكون زوجاً لك ؟

مارينات : بكل طيبة خاطر.

كرو رينيه : ضعي اذاً يدك في يدي، وهذا الآن يكفيني.

مارينات : الى اللقاء، يا كرو رينيه، يا أغلى الرجال عندي.

كرو رينيه : الى اللقاء القريب، يا روحي.

مارينات : الى اللقاء العاجل، يا مهجة كبدي.

كرو رينيه : الى اللقاء اذاً، يا عزيزتي ومالكة فؤادي. اشكر الله الذي هداني اليك. وألْتمس منه أن يوفّق مسعانا. لا تنسَيْ أنّ ألْبير لا يرفض لك طلباً.

أراسْت : ها هوذا فالير قادم الينا.

كرو رينيه : انا أندب حظي المسكين. لأني اعرف ماذا يجري في الخفاء.

المشهد الثالث

اراسْت، وفالير، وكرو رينيه

أراسْت : ما وراءك، يا سيدي فالير ؟

فالير : ماذا تريد ان تعرف، يا سيدي أَراسْت ؟

أراسْت : ان اطّلع على احوال حبّك.

فالير : وانت كيف حال اشواقك ؟

أراسْت : تتضاعف وتزداد يوماً عن يوم.

فالير : وانا ايضاً يزداد هيامي حرارة.
أراسْت : الى لوسيل ؟
فالير : نعم، الى لوسيل.
أراسْت : لذا أشهدُ بأنك نموذج نادر للمثابرة.
فالير : وأنت صاحب عزم لا يفلّه الحديد، ومثال نادر للعشّاق الأوفياء.
أراسْت : بالنسبة اليّ، لم أعتدْ بعد، هذا الحب الصارم الذي يكتفي فقط بنظرات تسعده. بينما أنا لا تملأ العواطف عينيّ لأن المعاملة الفاترة تضايقني. وحين أُحبّ من كل قلبي، أودّ أن أكون بالمقابل معشوقاً للغاية والنهاية.
فالير : هذا أمر طبيعي، وانا نظيرك. فإنّ ما يعجبني ويسرّني هو شدة التعلّق بي. وإلّا فليس ما يروي ظمأ قلبي.
أراسْت : مع ذلك، لوسيل ...
فالير : لوسيل، بالنسبة اليّ، عواطفها لا تُطفئ لهيب غرامي.
أراسْت : انت اذاً سهل الإسترضاء.
فالير : لست تماماً كما تظن.
أراسْت : على كل حال، أعتقد بدون تبجّح، أني أحتل شغاف فؤادها.
فالير : أنا واثق بأني أشغل حيّزاً كبيراً في قلبها.
أراسْت : انت تبالغ قليلاً. صدّقني.
فالير : بل صدّقْني انت. ولا تخدعْ نفسك بأنك في مثل هذه المنزلة.
أراسْت : اذا تجرأت وقدّمت لك برهاناً دامغاً على ان فؤادها ... لا، ستحزن نفسك من جرّاء ذلك.
فالير : واذا تجاسرت انا، وكشفت لك سرّاً ... ربما أسأتُ اليك، فعددتَ ذلك مني تطفّلاً.
أراسْت : حقاً انت تدفعني الى ما لا أرتضيه لِذاتي. ويخيّل اليّ ان افتراضك يزعجني. فإقرأ إذاً.
فالير (**بعد أن يقرأ**) : هذه كلمات رقيقة.
أراسْت : انت تعرف الخطّ.
فالير : نعم، هذه كتابة لوسيل.

أراسْت : هناك إذاً أمل كبير ...
فالير (**يضحك**) : الى اللقاء، يا سيدي أراسْت.
كرو رينيه : هذا الرجل كريم شهم، لكنه مهووس. كيف يعتبر أن الأمر مضحك.
أراسْت : طبعاً، أعجبتْه المفاجأة، وأنا أجهل، بيني وبينك، أيّ عفريت يتخبّأ خلف هذه القصة.
كرو رينيه : ها هو خادمه قادم الى هنا.
أراسْت : أجل أراه يقترب منّا. فلنتظاهر بأننا نتكلّم عن غرام سيده.

المشهد الرابع

مسكاريل، واراسْت، وكرو رينيه

مسْكاريل : لا، لا أجد وضعاً أتعس من أن يكون للمرء سيّد شاب غائص في بحر الغرام.
كرو رينيه : نهارك سعيد.
مسْكاريل : نهارك أسعد.
كرو رينيه : الى أين أنت ذاهب في مثل هذه الساعة، يا مسكاريل ؟ ماذا تفعل الآن ؟ هل أنت عائد أم ذاهب ؟ أم أنك باقٍ ها هنا ؟
مسْكاريل : كلّا، أنا لست عائداً لأني لم أذهبْ الى أي مكان. ولست ذاهباً لأني واقف. ولست باقٍ لأن خطواتي تدلّ على أني ذاهب.
أراسْت : إستعجالك ظاهر للعيان، فتمهّل قليلاً، يا مسكاريل.
مسْكاريل : انا في خدمتك، يا سيدي.
أراسْت : اراك تتهرّب متسرّعاً. هل أفزعتك ؟
مسْكاريل : كلّا، ليس الإرهاب من عادتك.
أراسْت : ضع يدك اذاً في يدي. فلا داعي الى تزاحمنا، ولا سبيل للغيرة ان

تفرّق بيننا. علينا أن نظلّ أصدقاء مخلصين. فالحماس الذي كان يدفعني، قد أخلى مكانه لنواياك الغامضة.

مسْكاريل : ما شاء الله.

أراسْت : كرو رينيه يعرف من أقصد.

كرو رينيه : بدون شك، وأنا أتخلّى لك عن مارينات.

مسْكاريل : لنصرف النظر عن ذكرها. لأن منافستنا لم تصل بعد الى نقطة عدم الرجوع. ولكن هل حقاً تنازلت، يا صاحب السيادة، عن حبك الجامح، أم الأمر مجرّد مزاح ؟

أراسْت : لقد لاحظت أن حبّ سيدك في أحسن أحواله. وأكون مهووساً إن ادّعيتُ أن حسناءه تحيطني بالرعاية ذاتها التي تخصّه بها.

مسْكاريل : أنت تُطمئنني بهذا النبأ السارّ. إذ كنتُ أتحسّب لمهارتك في تدبير الأمور. وحسناً فعلتَ بانسحابك من لعبة لن تكون فيها الرابح الأكبر. وبنوع خاصّ، لأني مطّلع على خفايا القضية. وكنتُ أرثي لحالك لأني أعلم علم اليقين أن المظاهر تخدعك. ولكني مع ذلك أتساءل كيف تسنى لك أن تكتشف الحيلة. إذ لم يطّلع على تفاصيلها ليلاً سوى شخصَيْن، وأنا الثالث. والجميع لا يزالون يعتقدون ان القصة تسير سيراً مُرْضياً.

أراسْت : بالله، عليك ماذا تقول ؟

مسْكاريل : أعني اني مذهول، وأنا أتساءل، يا سيدي، من ذا الذي اخبرك بأن الجميع يعتقدون الى الآن أن المظاهر تناقض الواقع الى حدّ انك أنت أيضاً لا تظنّ أن زواجاً سرّيّاً قد جمع بين العاشقَيْن.

أراسْت : لا استبعد ان يكون ذلك نبأ مختلفاً.

مسْكاريل : اودّ، يا سيدي، أن يكون حقيقة أكيدة.

أراسْت : وإلّا كنت أنت أحقر المنافقين.

مسْكاريل : بدون شكّ.

أراسْت : حقاً، تستحق جسارتك مئة جلْدة في الساحة العامّة.

مسْكاريل : هل أنت صاحب السلطة ؟

أراسْت : آه من كرو رينيه.

كرو رينيه : سيدي.
أراسْت : من جهتي أنـا أكـذّب هذا الخبـر الـذي لا أخشى انـتشاره (لمسكاريل) : لا تفكّر بالهرب.
مسْكاريل : مطلقاً.
أراسْت : ماذا تقول ؟ هل تصدّق أن لوسيل تزوّجت ؟
مسْكاريل : كلّا، يا سيدي، أنا أمزح.
أراسْت : انت تمزح ؟ يا لك من دجّال بارع.
مسْكاريل : كلا، أنا لا أمزح ابداً.
أراسْت : اذاً، هذا صحيح.
مسْكاريل : كلّا، كلّا. أنا لم أُثْبت ذلك.
أراسْت : ماذا قلت اذاً ؟
مسْكاريل : لم أصرّح بحرف واحد، لئلّا يُحمل كلامي على غير حقيقته.
أراسْت : بيّن لي إنْ كان النبأ حقيقياً أو مختلفاً.
مسْكاريل : إعتبرْه كما يحلو لك، كأني لَست هنا. فأنا لا أنفيه ولا أؤكّده.
أراسْت : ماذا تعني عبارتك هذه ؟ إليك، بدون مساومة، ما يحلّ عقدة لسانك.
مسْكاريل : لا بدّ لها أن تعلن هي بعض التصريحات. وأرجوك بالأحرى ان توجّه اليّ ما تشاء من الإنتقادات إن كنتُ أستحقّها. ثم دعني أنسحب من هذا المشكل كالشعرة من العجين.
أراسْت : موتاً ستموت، إن لم تعترف بالحقيقة، يا مسكين.
مسْكاريل : سأعترف طبعاً. غير أني أخشى إزعاجك، يا سيدي.
أراسْت : تكلّمْ؛ وحذار من المغالطة. لأنك لن تنجو من العقاب إن ثبت لي نفاقك. فلا تحاولْ ان تكذب، ولا تَلُمْ إلّا نفسك.
مسْكاريل : انا موافق. حطّمْ لي رأسي وعذّبْني. أُقتُلْني إن شئتَ، اذا فُهْتُ بغير الحقيقة.
أراسْت : هل تمّ هذا الزواج ؟
مسْكاريل : لساني في هذا الموضوع قد أخبر بما رأته عيناي. أجل، تمّ الأمر،

كما تقول انت. فبعد خمسة أيام حافلة بالزيارات الليلية، عُقِدَت صفقة يوم أمس الأول، لتثبيت الاتفاق، ولم يبدر من لوسيل اي دليل على الحب الجارف الذي تكنّه لسيّدي. وهي تصرّ على أن تفضي الوقائع الى تلبية نداء قلبك الولهان. عليك أن تحيط هذا الحدث بأقصى الحذر والكتمان، كي لا ينتشر النبأ بسرعة. فإذا ما زلت تشكّ بأقوالي، فإن كرو رينيه يمكنه أن يرافقني ذات ليلة لأريه، بصفتي الحارس اليقظ، كيف نستطيع كلانا أن نكتشف الحقيقة بكل سهولة.

أراسْت : أُغرُبْ عن وجهي، أيها المحتال.

مسْكاريل : وانا بمنتهى السرور لا أطلب اكثر من ذلك.

أراسْت : اذاً.

كرو رينيه : اذاً يا سيدي، سنعرف معاً ان القصة حقيقية.

أراسْت : هذا متعب ومزعج. لأني أرى ظاهراً أن كلامه مموّه، وأنّ ما نطق به فالير حين شاهدْنا هذه الكتابة، لدليل كاف على مساهمته في العمل المبطّن. بخديعة ماكرة تخدم بدون شك هدف الخبيث المخاتل الذي سيدفع ثمنها غاليا.

المشهد الخامس

مارينات وكرو رينيه، واراسْت

مارينات : جئت لأنبّهك الى ان سيدتي عندما يأتي المساء بعد برهة، ستنزل الى الحديقة ويُتاح لك عندئذ أن تشاهدها.

أراسْت : هل تجسرين على خداعي أيتها المنافقة الدجّالة ؟ هيّا اخرجي من هنا واذهبي وقولي لسيدتك إنها استنادا الى ما كتبتْ، لن تكون مرتاحة البال أبدا. وسأعرف كيف أوقفها عند حدّها.

مارينات : قلْ لي بربّك، يا كرو رينيه، ماذا يدعوك الى اتخاذ هذا الموقف السلبي المناوئ ؟

كرو رينيه : هل تجرُئين أيتها الأفعى السامّة والتمساح الغدّار ذات القلب الأسود على المثول أمامي ؟ إذهبي وأجيبي سيدتك أننا رغم لين ملمسها ونعومة كلامها، نحن لسنا حمقى، لا سيدي ولا أنا، لنصدّق أقوالها. فالأحرى بها أن تغور في أعماق الجحيم.

مارينات : ما أغباني أنا المسكينة التي سعيت جاهدة لتأدية خدمة جليلة، واذا بي أقع في مشكل يُذهل كل من له به صلة من جماعتي.

الفصل الثاني
المشهد الأول

أسكاني، وفروسين

فروسين : أَحْمُدُ الله، يا أسكاني، على أني فتاة كتومة أمينة لا أبوح بالاسرار.
أسكاني : هل نحن هنا في أمان لنخوض مثل هذا الحديث ؟ علينا أن نحذر من أن يُفاجئنا خصم، وأن يسترق السمع من زاوية خفية.
فروسين : سنكون في مأمن إن ذهبنا الى المنزل. لأننا ها هنا عرضة لتنصّت كل متطفّل أو عابر. وهناك يسعنا أن نتكلّم بحرية تامة بدون أي حذر.
أسكاني : اني ألاقي صعوبة في التخلّي عن تكتّمي، اذ لديّ سرّ جديد عويص يضيق به صدري.
فروسين : لا بدّ من أن يكون خطيراً.
أسكاني : نعم هو خطير جداً. لذا أودّ أن أُطلعكِ عليه مرغمةً. ولو كان باستطاعتي أن أحفظه في صدري مدّة أطول، لما بحتُ لكِ به مطلقاً.
فروسين : يؤسفني أن لا تكون ثقتك كبيرة بي، انا التي طالما عالجت قضاياك بتكتّم لا مثيل له. وها أنتِ تقولين لي انك تريدين أن تطليعيني مرغمةً على سرٍّ آخر لا يسعك أن تكتميه اكثر ممّا فعلتِ، نظراً الى أهميّته، فهيّا اذاً ...
أسكاني : انتِ تعرفين سرّ تكتّمي الذي يضطرّني الى إخفاء أُنوثتي واسمي الحقيقي منذ حداثتي. لقد تشبّثتُ بهذا الكتمان للاحتفاظ بالارث الذي آل

اليّ على أثر وفاة أسكاني الصغير ابن ابي من صديقته إنْياس. لأن استبداله بي أعاد وجوده الى عالم الأحياء. لذا تشبّثتُ بسرّي الذي أخذ اليوم يثقل على صدري. وأنا أشعر بحاجة ماسّة الى إفشائه لك. لكن، قبل دخولي في تفاصيله، أرجوك يا فروسين، أن تُزيلي الشكّ من رأسي وتصارحيني، هل درى والدي ألْبير بما أكتمه من موضوع اخفاء انوثتي والامتناع عن إعلاني أني ابنته.

فروسين : هذه النقطة في الحقيقة تُرهق تفكيري أنا أيضاً. لأنها لا تزال غامضة بالنسبة اليّ. اذ لم تتمكّن والدتي من توضيحها لي. وبعد موت الطفل أسكاني الذي اورثه عمّه الغني ثروة طائلة، كتمتْ والدته وكذلك والدي سرّ وفاته للاحتفاظ بالإرث الوافر. وهكذا تحوّل اسم الطفل المتوفي اليك، بدون علم والدك بهذا التزوير. وقامت بتربيتك أمّي التي كانت راضية عن هذا الخداع، وسترت الأمر الواقع نظراً للفائدةّ التي جنتها هي أيضاً من هذا السرّ كهدايا قيّمة. وهكذا أعتقد أنّ والدك ألْبير ظل يجهل الحقيقة التي ثابرت أنا ايضاً زمناً طويلاً على إخفائها في طيات صدري اكراماً لك. مؤخّراً بلغني أنه استشفّ بعض الحقيقة، لكنه لم يحاول الكشف عنها حرصاً على الاحتفاظ بالارث. والأنكى انه يريد الآن أن يحملك على الزواج، ربما عن تجاهل أو عن خبث، رغم تنكّرك بملابس رَجُل. وهذا موضوع دقيق لا سبيل الى استجلائه على عجل. لنعُد الآن الى السرّ الجديد الذي تودّين ان تطليعيني عليه.

أسكاني : إعلمي ان الحب لا يعرف التلاعب والمحاباة، وأن أنوثتي لا سبيل الى إخفاء معالمها تماماً على الدوام. ولا بدّ لثيابي من أن تفضح يوماً ما نحاول إخفاءه مهما كان جسمي نحيلاً كفتاة. أخيراً لا أكتم عنك أني عاشقة.

فروسين : أنتِ عاشقة ؟

أسكاني : مهلاً، يا فروسين، لا تدهشي هكذا لوضعي العجيب. ربما لم يَحُنِ الأوان لإسماع تنهّدات قلبي المغرم. فما أودّ أن أطلعك عليه سيفاجئك اكثر ويُذهلك.

فروسين : ما الأمر إذاً ؟

أسكاني : أنا أحب فالير.

فروسين : لا غرابة في ذلك. فإن موضوع حبّك ضئيل جداً بالنسبة الى قضية الميراث الواسع، التي يعقّدها الكشف عن حقيقتك. لأن أنوثتك ستخلق البلبلة من جرّاء ما سيجدّ من خلاف على هذا الصعيد. اذ سيتبدّل صاحب الحقّ ويجعل الوجوم يسيطر على ذوي الشأن.

أسكاني : وما يضايقني اكثر هو أني أصبحت زوجته.

فروسين : زوجة فالير ؟ يا إلهي ؟ ماذا أسمع ؟

أسكاني : نعم، نعم، زوجته شرعياً.

فروسين : هذا يتعدّى معلوماتي الإجمالية. لذا لم أعدْ أعرف ما أقول.

أسكاني : هذا ليس كل ما في الأمر.

فروسين : هل هناك ما هو أدهى ؟

أسكاني : أجل، لأن فالير لا يدري بالسرّ الأوّل الذي أخفيه، ولا يعرف من واقع مولدي أي تفصيل.

فروسين : لقد طاش صوابي. وأكاد لا أصدّق ما تعلنين. ولا يسعني أن أرى حلاً لكل هذه التعقيدات، ولا مخرجاً من هذا المأزق الحرج للغاية.

أسكاني : سأشرح لك الموضوع بدون أن أتوسع فيه. كان فالير هائماً بحب شقيقتي لوسيل. وتبيّن لي انه عاشق لا يُشقّ له غبار. فلم أتمكّن من رفض مغازلته، مع أني كنت أودّ ان يثابر على حبّ أختي التي لم تكن تلتفت اليه كثيراً. واضطررت الى مسايرته، ولا غاية لي في البدء إلّا إقناعه بوجوب تحقيق رغبته في الإقتران بها. لكن رويداً رويداً نما الهوى في صدرَيْنا، يا فروسين، فتضعضعتْ إرادتي أمام إلْحاحه ليلاً على مبادلته عواطفه، بينما كنت أحاول من جهتي أن أُداوي جراح فؤاده المكلوم بسبب صدود شقيقتي. ومنذ فترة ، في احدى الليالي المعتمة، إعتقد أنه يقابل كالعادة اختي لوسيل، وظنّ أنها أخذت تميل اليه فراح يناجيني ويغازلني بدون أن ينتبه الى تنكّري الرجالي الذي كنت أحاول إخفاءه عن الجميع. وتمادينا في تشاكي الهوى، وتناسيتُ وضعي المنتحَل، ومِن حلْو الكلام والقُبَل إنتشيْنا وانتقلنا الى العمل. فتابعتُ الخداع والتمثيل بمهارة وجسارة، حتى اضطرّتنا نتيجة الأمر الواقع الى الإقتران

سرّاً، وهو لا يزال يظنّني أختي لوسيل لستر قصتنا المريبة.

فروسين : تبّاً لكِ. لأنكِ رغم مواهبكِ الغزيرة، عالجت الفضيحة بلفلفة معقّدة. ومع أنك جئت تسترشديني بعد فوات الأوان، أتمنّى أن يتكلّل مسعاكِ بالنجاح. لكن تصرّفك لن يكون سليم العاقبة، متى علم به ذووك بدون تمهيد حكيم يُهيّئ نفوسهم لتقبّله باستحسان.

أسكاني : عندما يكون الحب متيناً، ليس من عقبة تعرقل مساره. ولا شكّ في انتهاء أمره لصالح المحبّين، فيبلغوا شاطئ الأمان. ها قد كشفت لك سرّي الجديد، آملةً بالحصول على نصحك ومساندتك ... لكن، ها هو فالير زوجي المكتوم قد أقبل.

المشهد الثاني

فالير، وأسكاني، وفروسين

فالير : أراكما غارقتَيْن في الحديث. وبما أني لا أريد أن أقاطعكما، فالأجدر بي أن أنسحب.

أسكاني : لا، لا. يمكنك أن تبقى وتشترك في الحديث، بما أنك فيما بيننا.

فالير : انا ؟

أسكاني : نعم، أنت.

فالير : وما هو الموضوع ؟

أسكاني : كنت أقول : لو كان فالير فتاةً لنال إعجابي، ومال قلبي اليه. وإن خُيِّرتُ في انتقاء شريك حياتي، لما تأخّرت في تفضيله على سواه من الشبان لتكتمل سعادتي.

فالير : هذه افتراضات لا جدوى منها، ومعالجة موجباتها تقتضي أوّلاً أن تكون واقعاً ملموساً. ولا داعي للحيرة إلّا اذا أضحى مضمونها حقيقةً واقعيّة ملموسة، خاضعةً لمثل هذا الحلّ المرغوب.

أسكاني : لا، أبداً. قلت لك أني منذ أن تعرّفت الى شخصك المحبوب، وددت لو باستطاعتي تلبية نداء فؤادي المشغوف.

فالير : هذا لو كنتَ أُنثى. ولكن كيف يتسنّى لكَ أنت الفتى أن تكون هدف ولعي وسبب سعادتي وهنائي ؟

أسكاني : يستحيل عليّ في وضعي الحاضر أن أُلَبِّي رغبات قلبك العطوف.

فالير : تصريحكَ اذاً، كما ترى، غير عمليّ على الاطلاق.

أسكاني : أوَلا تفضّل، يا فالير، لو كنتُ أنا فتاة، أن يميل قلبي اليك، وأن أهبكَ حبّي، وأطاوع عواطفك، وإن كنتَ قد وجّهتَ نجواك الى حبيبةٍ سواي. ان مثل هذا الإنحراف لن يرضاه ابداً فؤادي إن تدلّه بهواك.

فالير : لكن هذا غير ممكن أن يصدر عنكَ إلّا في الخيال.

أسكاني : ما أقوله لك هو مجرّد تصريحٍ، لو كنت صبيّةً، وما عليك إلّا ان تقبله او ترفضه.

فالير : لا سبيل لكَ اذاً، يا أسكاني، أن تطمح الى هواي، إلّا اذا شاءت الظروف ان تجترح معجزة بتبديل شخصيتك، وما لم تنقلب الى حسناء، فالسلام على عواطفك، إذْ ليس من واقعكَ الحاضر ما يُغري أو يلبي مأربي.

أسكاني : سريرتي هي أَلْطف ممّا يسعك أن تتصوّر، وشكّك في إخلاص مشاعري يجرح إحساسي، فيما اذا تدلّهتُ بهواك. على كل حال، أنا صادق، وأُعاهد نفسي على الوفاء إن حظيتُ برضاك، يا فالير. إلا اذا أكّدتَ لي ان قلبك لن يميل إليّ، وأن حرارة لهفتك ستظل من نصيب غيري، إن كنتُ فتاة. مهما كان الحال، ثقْ بأني سأحفظ لك في أعماق كياني تمام الشعور الذي ألِفتَه مني حتى الآن.

فالير : لم أجدْ مثل إخلاصكَ لدى إنسان سواكَ. ولكن مهما كان تصرّفكَ هذا جديداً عليّ، فأنا أعترف بأني مستعدّ لمقابلته بالمودّة التي يستحقّها منّي.

أسكاني : طبعاً بدون اي تنميق.

فالير : أجل بدون تنميق ولا تذويق.

أسكاني : ان كنتَ حقاً صادقاً، أعدك بأن أبادلك المشاعر ذاتها.

فالير : اذاً لا بدّ لي من أن أكشفَ لكَ سرّاً خطيراً يجعل مفعول هذه الكلمات ضرورة لا غنى عنها بالنسبة اليّ.
أسكاني : وأنا لديّ ايضاً سرّ أودّ أن أُفاتحك به، ولن يسع قلبك الميّال اليّ ان يكشفه بمفرده.
فالير : وما هو هذا السرّ الغامض، يا ترى ؟
أسكاني : هو أن بين ضلوعي خافقاً لا أجسر على البوح بمكنوناته، وأنكَ أنتَ وحدك قادر على إسعاده وإدخاله الجنّة، إن ارتضيته ولبّيت نداءه.
فالير : أوضحْ هذا التلميح المُبْهَم، يا أسكاني، وثِقْ سلفاً بأنك تنال أُمنيتك إن كان فعلاً بمقدوري أن أنفّذ طلبك.
أسكاني : وعدك هذا يفوق إمكاناتك، يا عزيزي فالير.
فالير : كلا، كلا. بيّن رغبتك، وسأكون عند حسن ظنّكَ.
أسكاني : لم يَحُنِ الأوان بعد. لكن الأمر الذي أعنيه يهمّك أنت بالدرجة الأُولى.
فالير : حديثكَ يُدهشني ويُحيّرني. أسأل الله أن تكون ...
أسكاني : قلت لك، لم تدقّ الساعة بعد لأكشف قضيّتي، كما صرّحت لك.
فالير : ولماذا ؟
أسكاني : لاسباب عدّة. وستعرف سرّي عندما أطّلع أنا أوّلاً على سرّك.
فالير : أحتاج للإقدام على البوح به الى اعتراف شخص آخر.
أسكاني : انا مضطر الى استخدام هذه الوسيلة، وحين نبوح كلانا بسرّنا سنرى من منّا سَيَفي بوعده وتعهّده.
فالير : الى اللقاء. لقد سرّني هذا التصريح.
أسكاني : وانا كذلك أبهجني، يا فالير.
فروسين : هو يظن أنه وجد فيكَ عوناً على حلّ مشكلته.

المشهد الثالث

فروسين، وأسكاني، ومارينات، ولوسيل

لوسيل : قُضي الأمر. وهكذا استطيع ان انتقم لكرامتي. واذا كان هذا يؤذيه، فإن قلبي لا يطلب اكثر من ذلك. إسمع، يا أخي، قصّة هذا التحوّل العجيب الغريب. انا أودّ تكريم فالير بعد هذه الصداقة الطويلة بيننا، وأخصّه بأطيب تمنّياتي.

أسكاني : ماذا تقولين، يا أختي ؟ منذ متى أصبحتما تتبادلان مثل هذه العواطف والمجاملات. بشكل غير متوازن ؟

لوسيل : إنّ تبدُّل موقفك هذا يفاجئني. في الماضي كان فالير موضوع تحبيذك، مع أنك كنت تتهمه بغرابة الاطوار والغباء والسماجة والكبرياء والتقلّب. وعندما ملتُ أنا اليه أخذتَ تلومني على ذلك، وتُبدي إنزعاجك من مباذله ودنائته.

أسكاني : لقد حمّسته للتقرّب اليك كي أوطّد ميلك اليه. وأنا اعرف انحداره الى مستوى غير لائق، وأن علاقتك به تستدعي الحذر ولن تسلم من العطب، لا سيما اذا نويتِ استهوائه مجدداً، ولم يستجبْ هو نداء قلبك.

لوسيل : لو توقّفت المشكلة عند هذا الحدّ لهان أمرها. لأن فؤاده الآن، على ما أرجّح، أضحى أسير هوى سواي. على كل حال، بلّغْه اني لا أقوى على كتمان عواطفي عنه. واذا رفضتَ القيام بهذه المهمّة، فإن لساني سيبوح له بأن حبّه مَلَكَ فؤادي. لماذا، يا أخي، وجمتَ لهذه الكلمات ؟

أسكاني : إنْ كان لي عليكِ، يا اختي، بعض الدالّة، وإن كنتِ حقاً تُحبّين شقيقكِ، كُفّي عن هذا التفكير غير المجدي، وانتزعي فالير من قلبك لأن فتاةً عزيزة عليّ ويحقّ لها ان تناشدك في هذا الموضوع، قد هامت بحبه. ولقد باحت لي بمكنونات صدرها، فرأيت من واجبي أن أحثّك على ضبط شعورك نحوه. ولا يسعكِ إلّا ان ترقّي لحالها عندما تطّلعين على مدى توغّلها في هواه. وأنا على يقين، يا أختي، بأنها ستموت حزناً وكمداً اذا اختطفت منها

حبيبها الذي أصبح غاية وجودها وقبلة أمانيها. ثمّا أراسْت فهو شاب كريم طيّب العنصر، أهل لنيل إعجابك، وأعتقد أنه يميل اليك ...

لوسيل : انتَ تحيّرني، يا أخي. إذْ لم أعد أدري مَن يهمّك امره. فأرجوك ان تختم هذا الحديث وتتركني أسترسل قليلاً في أحلامي.

أسكاني : ما أغرب تصرّفكِ، يا أختي. أنتِ تخيّبين أملي بإصراركِ وتشبثكِ بهذه الميول العقيمة.

المشهد الرابع

مارينات، ولوسيل

مارينات : إتّخاذ القرار النهائي، يا سيدتي، أمسى وشيكاً.

لوسيل : الهموم تعصر قلبي حين أفكّر بما ألْحَقَه بي من الخيبة التي تدفعني الى الانتقام واغتنام جميع الفرص المتاحة لإرواء غليلي. تبّاً له من خائن يَنْقُضُ العهود، ولا يتورّع عن ارتكاب مثل هذه الخساسة الرهيبة.

مارينات : انا كدت أفقد أعصابي، ورحت أتمتم ما لا يسعني ان اصرّح به جهراً، لمجرّد علمي بمغامرته الدنيئة التي افقدتني رشدي. فبإبلاغي أخباره السارة التي كان يكتبها اليّ بإسهاب كان يقدّسني كإلهة، بينما تصريحاته الحالية تغيظ أية فتاة مهما كانت بليدة. وأنا لا أعرف سبباً لهذا التغيُّر الفجائي، وأجهل تماماً كل ما جرى في هذه الأثناء، وما أحْدث هذا الانقلاب غير المرتقب.

لوسيل : ليس هناك من جديد يُسبّب إزعاجه. ولم يبدر منّي ما يستحقّ حقده عليّ. هل تبحثين عن سبب غير لؤمه وانحطاطه ؟ وخلافاً لذلك، ماذا حدا به الى هذا التصرف المهين ؟ إن رسالتي الأخيرة التي أُلوم نفسي على تدبيجها، لا تستوجب كل هذه النقمة علي.

مارينات : انا مقتنعة بأنك على حقّ، وأن هذا الخلاف هو مجرّد دناءة بدرت

منه وأنه هو المحقوق. واذا اصغيت الى من يلومك تبدو لك الآية معكوسةً وانك انت المخطئة. فلا تنقادي الى أهواء أحد، ولا تكوني ضعيفة الإرادة، بل تجنّبي كل حماقة، فتغيظي هكذا خصمك.

لوسيل : مهما ضحك هذا الخائن لن تكون له الغلبة طوياً. فأنا أعرف كيف احوّل انتصاره الموقّت الى هزيمة مخزية.

مارينات : ولا سيما في مثل هذه الاحوال الغامضة. لن يسرِ المرء اكثر من ان يعلم ان الظروف الملائمة تساعده. انا مرهفة الحسّ ولن أدع فرصة تفوتني لأضحك بدوري ضحكة الفائز، وأسمع بأذني التهاني بانتصاري عليه في النهاية.

لوسيل : انت تتفوّهين بأقوال مبعثها الهوس، اذْ لم يحن الأوان لإحراز هذا الظفر. على كل حال يبهجني ما يبدر منك للتهوين علي. لأن هذا اللئيم يريد اذلالي. وانا اودّ ان انتقم منه قبل أن يتسنى له تحقيق مأربه. حتى إن قدّم لي حياته للتكفير عن اساءته، لن يحظى مني إلّا بالاحتقار. وإن ركع اليوم عند قدميَّ، لا أريد من الآن وصاعداً أن أسمع ذكره على لسانك. بالعكس، أنا امنعك من التحدّث اليّ عنه، لأن ذنبه في نظري لا يُغتفر. حتى ان مال اليه فؤادي، لن أتنازل الى مستوى خساسته. وسأكبت عواطفي ولن أرقّ لتوسّلاته. وأطلب منكِ أنتِ ايضاً أن تقابليه بالصدّ والازدراء، وأن تساعديني على اذلاله وتحقيره.

مارينات : لا تخافي، بل إتّكلي علي في مشاكسته لأجلك. لأن غيظي منه لا يقلّ عن غضبك عليه. وأفضّل أن أظل عازبة طوال عمري، لو كنت مكانك، ولن أرثي لحال مثل هذا الرجل البذيء الذي كنت اميل اليه في الماضي، حتى إن جاء ثانية يخطب ودي.

المشهد الخامس

مارينات، ولوسيل، وألْبير

ألبير : أُدخلي، يا لوسيل، واستدعي الاستاذ، لأني أُريد أن أتحدث اليه قليلاً، واستفهم منه عمّن يرشد أسكاني، وهل هو عالم بما يضايقه في هذه الآونة الاخيرة من مصاعب مرهقة. (تخرج المرأتان ويتابع وحده) الى أية وهدة قد تدهور إبني، وماذا دهاه حتى بات يتخبّط هكذا في تصرفاته، بعد أن كان قدوة تُحتَذى. ماذا عراه من بلايا حتى أضحى غريب الاطوار على هذا النحو ؟ أخشى أن يلوّث سمعة الاسرة بمباذله. فلقد تمنيت له على الدوام أفضل مستقبل زاهر، وها هو يخيّب أملي، كأنه يمرّ في ازمة نفسية خانقة. حتى راح الجميع يسألونني قائلين : لماذا انتاب الهزال ابنك المرفّه ؟ هل هو مريض ؟ هل أصابته الحمّى، ام كُسر ساقه او ذراعه ؟ وأنا حيال هذه الاستفسارات أقف متلعثم اللسان لا أدري بماذا أُجيب، لأني في الحقيقة أجهل واقع حاله. وكأني في دوّامة دوّختْ رأسي الافكار المحيّرة المؤسفة.

المشهد السادس

ألْبير، وميتافْراسْت

ميتافْراسْت : ماذا تريد مني ؟

ألبير : استدعيتك، يا استاذ ...

ميتافْراسْت : انا في خدمتك.

ألبير : أودّ أن أعلم، يا استاذ، ما هو سبب كآبة ولدي الذي تعرف جيداً كم أحبّه، وكم يسوؤني ان أجده في حالة من الحزن تناقض ما اتمناه له دوماً من الزهو والإنشراح.

ميتافْراسْت : هذا صحيح. ولكن :
ما كل ما يتمنّـــى المــرء يدركــه،
تجري الرياح بما لا تشتهي السفـن.
ألبير : يا استاذ، بصريح العبارة أريد أن أفهم ...
ميتافْراسْت : ماذا تريد ان تفهم ؟
ألبير : ابني يخشى الزواج. ومهما سبرت أغوار قلبه، أجده بعيداً جداً عن هذه الفكرة التي يتهرّب من أخذها بعين الاعتبار والعمل بموجبها.
ميتافْراسْت : ربما كانت أفكاره الغريبة وليدة الامتعاض من سلوك بعض الفتيات حياله.
ألبير : يا إلهي. وهل رأيته يوماً يعاشر إحداهنّ.
ميتافْراسْت : اذاً، ماذا دهى ابنك ؟
ألبير : لستُ أدري ما اذا كان القلق قد سيطر عليه إثْر خيبة أمل صدمته بعنف على دروب الهوى. لقد شاهدته بدون ان يبصرني، يوم أمس يتمشّى في بقعة نائية من الغابة خالية من أي متجوّل.
ميتافْراسْت : في بقعة نائية من الغابة خالية ... لقد أعلن الشاعر فرجيل ...
ألبير : وكيف تسنّى لفرجيل هذا أن يُبصره ؟ وأنا واثق من ان أحداً سوانا نحن الاثنين، أنا وابني، لم يصل الى هذه المنطقة غير الآهلة.
ميتافْراسْت : فرجيل الشاعر، يا سيدي، يُعَدّ من أشهر رجال الثقافة. وهو ارفع بكثير من أن تسأل كيف أمكنه أن يرى بالأمس مَن شاهدته.
ألبير : انا لا أطلب شهادته، بل أصرّح بكل بساطة وبدون حاجة الى إثبات صحّة كلامي، أني رأيته وكفى.
ميتافْراسْت : لا بد من اختيار الألفاظ اللازمة للتعبير عن الأفكار.
ألبير : أرجوك ان تفيدني إن كنت تريد أن تردّ على استفهامي بدون لفٍّ ودوران.
ميتافْراسْت : كنتيليانوس الخطيب المفوّه قد شرح هذه النقطة.
ألبير : تبّاً لهذا الخطيب، ما دخله في موضوعنا ؟
ميتافْراسْت : ألَا يروق لك ان تستمع الى حِكَمه ؟

ألبير : ما أبعدك عن إدراك قصدي، أيها الغبي ؟ وما دخْل اقواله في ما استفسر منك عنه ؟

ميتافْراسْت : ارجوك ... ماذا يدفعك الى الإحتداد هكذا ؟ وماذا تريد ان تستفسر عنه منّي بالضبط ؟

ألبير : اودّ ان تصغي اليّ، وقد كرّرت عليك هذه العبارة عشرين مرة، ولم تجبْني.

ميتافْراسْت : ألاحظ انك تُسَرُّ جداً حين أسكت.

ألبير : هذا أفضل ما تفعله.

ميتافْراسْت : ها أنذا أصمت، وكلّي آذان صاغية لسماعك.

ألبير : الحمد لله، أخيراً.

ميتافْراسْت : لتُزهَق روحي إن أضفتُ كلمةً اخرى.

ألبير : أرجو أن ينجّيك الله من كل مكروه.

ميتافْراسْت : لن أضايقك بثرثرتي بعد الآن.

ألبير : فلْيكن ما تقول.

ميتافْراسْت : تكلّم بما تشاء.

ألبير : هذا ما أفعله.

ميتافْراسْت : ولا تعترضْ على مقاطعتي.

ألبير : هذا مفهوم.

ميتافْراسْت : انا دقيق في حديثي أكثر من أي شخص آخر.

ألبير : أعتقد ذلك.

ميتافْراسْت : وَعَدْتُك بأن لا أزيد حرفاً واحداً.

ألبير : هذا يكفي.

ميتافْراسْت : منذ الآن، تجدني كالأصمّ الأبكم.

ألبير : جميل جداً.

ميتافْراسْت : إطمئنّ إذاً. على الأقل، أنا أصغي اليك. ولن تتذمّر من سكوتي، لأني عازم على أن لا أنبس ببنت شفة.

ألبير : تبّاً له من ثرثار.

ميتافْراسْت : أرجوك أن تتابع حديثك بعجلة. فأنا أنصت اليك منذ فترة طويلة، ومن الضروري أن أتكلم بدوري.

ألبير : يا له من شيطان لعين.

ميتافْراسْت : هل تريد أن أظلّ مصغياً الى الأبد ؟ لا بدّ من اقتسام الحديث بيني وبينك على الأقلّ، أو دَعْني أنصرف.

ألبير : لقد عيل صبري ...

ميتافْراسْت : ماذا قلت ؟ هل تنوي أن تواصل حديثك، يا رجل ؟ أَلَيْس من سبيل الى ايقاف سيل كلامك.

ألبير : أكاد أجنّ.

ميتافْراسْت : يا له من ثرثار أحمق. وما أقسى عذابي هذا. استحلفك بكل عزيز أن تدعني أتكلّم قليلاً. ألَا اعلم ان الاحمق الذي لا ينطق بحرف، لا يميّزه أي نعْت عن العالِم الذي يصمت.

ألبير (وهو ذاهب) : الآن، لا بدّ لك من السكوت.

ميتافْراسْت : ما أصعب الحكم المبرم بالصمت على فيلسوف مثلي. « ولا بدّ للمرء من أن يتكلّم كي يعرفه الناس ». وإذا لم أتكلّم، لا يبقى لي من هيبة. فالأجدر بي عندئذ ان أفقد لساني وانسانيّتي، وأن أستبدل حضارتي وثقافتي بوحشيةٍ بهيميّة. ها قد استولى عليّ الصداع لمدة اسبوع، انا الذي أكره كثيري الكلام. ولكن، ماذا أقول حين يصدُر على عالمٍ نظيري حكمٌ بأن لا يصغي إليّ أحد، وأن أغلق فمي على الدوام. فلا بدّ من عكس نظام الكون كما يلي :

الدجاجة تفترس الثعلب المراوغ.
والصبي المغرور يؤْنِس الشيخ المحنّك.
والحمل الوديع يطارد الذئب الجائع.
والمجنون يسنّ قوانين العدل.
والمرأة الواجفة تقاتل المحارب الشجاع.
والمجرم الظالم يحاكم القاضي المنصف.
والطالب البليد يعلّم الاستاذ الخبير.

والمريض المنازع يشفي الطبيب الماهر.
والأرنب الخائف يُطارد ...
الله يكون بعون أمثالي المغبونين.
(يأتي ألبير وبيده جرس يقرعه عند أذن الاستاذ، فيهرب هذا الأخير فزعاً.)

الفصل الثالث
المشهد الأول

مسكاريل

مسْكاريل : كثيراً ما تساعد الظروف بعض النوايا السيئة، فتُحمّل الانسان وقر الشدائد. وهذا ما سيحّل بي اذا لم أتخذ الاحتياطات اللازمة. وفي وضعي الخاص، لا بدّ لي من تنبيه سيدي الى الدسائس التي تُحاك حوله، لا سيما من ناحية إبنه الذي يضايقني سلوكه المشبوه. والشيطان الآخر ينطبق عليه ما قد أعلنته بخصوص الحذر من الأفخاخ التي ينصبها على الأقلّ قبل أن يَحْمَى وطيس المعركة. من جهتي أنا لا أخاف أي اذى. لكن الرجلَيْن المتقدّمَيْن في السنّ ربما اتفقا فيما بينهما، الأمر الذي سنحاول إجهاضه في حينه بدون أن نضيع لحظة واحدة من الوقت الثمين وها أنا ذاهب لأقابل غريمي الآخر.

المشهد الثاني

مسكاريل، وألبير.

ألبير : من الطارق ؟
مسْكاريل : صديق.
ألبير : ماذا أتى بك إليّ، يا مسكاريل ؟
مسْكاريل : جئت لأحيّيك، يا سيدي.
ألبير : حقاً أنت رجل لطيف. وأنا من كل قلبي أردّ لك التحيّة.
مسْكاريل : ما أكرم هذا الترحيب الذي قلّ أن لقيته منك.
ألبير : هل عدت الى عادتك القديمة ؟
مسْكاريل : ألم تسمعْني؛ يا سيدي ؟
ألبير : أجل ألقيتَ عليّ السلام.
مسْكاريل : نعم.
ألبير : وانا حيّيتك أيضاً.
مسْكاريل : لكني هذه المرة، أبلغتك كذلك تحية سيدي بوليدور.
ألبير : هذه مسألة أخرى. هل حقاً كلفك سيدك بأن تحيّيني ؟
مسْكاريل : نعم.
ألبير : أُشكرْه اذاً عني، وقُلْ له إني أتمنى له دوام الصحة والإنشراح.
مسْكاريل : انت تعرف ان هذا الرجل لا يحبّ الرسميّات. وأنا لم أكمل بعد تمنياته لك. فقد طلب منّي ان أرجوك بإلحاح ...
ألبير : أنا مستعد لتأدية كل خدمة يحتاج اليها.
مسْكاريل : أرجوك أن تصغي اليّ حتى أُنهي حديثي بكلمتَيْن : هو يرجوك أن تخصّه بفترة قصيرة ليتحدّث اليك في أمر هامّ جداً. ويفضّل أن يأتي هو لزيارتك في هذا المكان.
ألبير : ماذا يريد مني ؟ هل يودّ فقط أن يكلّمني ؟
مسْكاريل : لديه سرّ عويص اكتشفه الآن، وهو بدون شك يهمّك ويهمّه للغاية. هذا ما كلّفني بأن أنقله اليك.

المشهد الثالث

البير

ألبير : ايتها السماء العادلة إهتزّي. لاننا سنعالج كلانا أمراً خطيراً. ربّما هناك عاصفة قد تقلب مصيرَيْنا رأساً على عقب بسبب السرّ الذي يُقلقني وأتوجّس خيفة من مضمونه أن يُسوِّد صفحة حياتي الى الأبد. لأن خباثتي قد انكشفت، ولأن الحقيقة مهما طال إخفاؤها لا تلبث ان تظهر. لقد تتبّعتُ مجرى الأحداث بزُغْرٍ شديد، إذ لمستُ اكثر من عشرين مرّة اني مخطئ بانتزاعي من بوليدور ما كان يخصّه. وها انا بين السندان والمطرقة أعرّض نفسي للمهانة، بعد أن منّيتها بتسوية المشاكل بدون فضيحة. لكن، يا للأسف، قُضيَ الأمر، وما دَخَلَ بيتي خلسةً لا بدّ له من أن يخرج علناً ويُلْبِسَني ثوب الخزي والعار.

المشهد الرابع

البير، وبوليدور

بوليدور : من النادر ان يؤدّي الزواج سرّاً بدون علم أحد، الى خاتمة سليمة مُطْمْئنة. لست أدري ما تخبّئه لي الأيام. وأخشى كثيراً غضْبة الاب المحقّة وثروته الضخمة. ها أنا أراه مُقبلاً.

ألبير : لله درّك، يا بوليدور. أراك لم تتأخر عن المجيء اليّ.

بوليدور : انا خائف من مقابلتك.

ألبير : وهل من داعٍ الى الإضطراب ؟

بوليدور : لست ادري من أين أبدأ حديثي معك.

ألبير : وما عسى أن يكون الموضوع ؟

بوليدور : أراك انت ايضاً بادي القلق والانزعاج.
ألبير : لماذا تغيّرتْ هكذا ملامحُ محياك.
بوليدور : أجدك، يا سيدي ألْبير، زائغ النظرات. لقد علمتُ سلفاً بقدومك اليّ.
ألبير : نعم، فانشغل بالي.
بوليدور : فاجأك هذا النبأ حتماً وأدهشك، كما حيّرني، وانا أكاد لا أصدّقه.
ألبير : انا خجول، والحياء ضعضع تفكيري.
بوليدور : حقاً هذا عمل غير محمود العاقبة، ولا يسعني ان أعذر فاعله.
ألبير : رَبُّنا رحيم غفور، يا صاح.
بوليدور : أهكذا تُواجه المسألة، يا صديقي.
ألبير : على الانسان أن يكون منصفاً.
بوليدور : يظهر عليك أنك كثير السماحة.
ألبير : هذه نعمة من الله، يا صاحبي.
بوليدور : والفضل الأكبر، لِبُعْد نظرك ورحابة صدرك.
ألبير : ولكي أنال صفحك، ها أنا أجثو على ركبتيّ امامك.
بوليدور : وانا ايضاً بدوري ألْتمس غفرانك.
ألبير : يمكنك ان تتلقّى العبرة من مغامرتي التعيسة.
بوليدور : يجدر بي أن أتوسّل أنا في هذه المشكلة اكثر منك.
ألبير : طيبةُ قلبك رقّقت شعوري.
بوليدور : وتواضعك ضاعف الشفقة في صدري.
ألبير : فأرجو معذرتك مرةً اخرى.
بوليدور : بل انا أطلب عفوك.
ألبير : هذا التصرف آلم فؤادي كثيراً.
بوليدور : وانا تأثرت الى أقصى حدّ.
ألبير : لذا أرجو ان لا تَسُوء الأحوال.
بوليدور : وانا أتمنّى إستتباب الهدوء، يا سيدي ألْبير.
ألبير : بشرفي، هذه هي أعزّ أُمنياتي.

بوليدور : وهذا هو لسان حالي أنا أيضاً.
ألبير : امّا ما يلزم من المال، فعليك أنت أن تحدّد مبلغه.
بوليدور : انا لا أطمع بأموالك، فأرصدْ للقضية قدر ما تشاء. لأنك المرجع في هذا الحلّ، ورأيك هو المعوَّل عليه.
ألبير : ما اطيب عنصرك، وما أروع إنصافك.
بوليدور : بل ما ألْطف طبعك، بعد معضلة كهذه.
ألبير : ارجو لك كل الخير والبركة.
بوليدور : عين الله ترعاك، أيها الأب الحنون.
ألبير : تعالَ نتعانق كالإخوة.
بوليدور : هيا نصفّي نوايانا، وننهي هذه المشكلة بسلام ووئام.
ألبير : ونشكر الله على هذه الخاتمة السعيدة.
بوليدور : انا لا أخفي عنك أني خشيت عدم قبولك بما جرى. فينتقل الخلاف الى لوسيل وابنك، نظراً الى ما لك من نفوذ وتأثير.
ألبير : أراك .عدت تتكلّم عن الأخطاء في قضية لوسيل.
بوليدور : لن أرجع الى الكلام غير المفيد. فأنا أودّ أن يتحمّل ابني مسؤولياته كاملةً، لأن ذلك يبهج فؤادك. وأعترف من جهتي أن ابني محقوق، وان ابنتك بدتْ ذات فضيلة مشكورة، اذ لم تطاوعْه في خطوة غير مشرّفة. فتحاشت القلاقل، رغم ما طغى عليها من إغراء غير بريء. وهكذا تلافت إغضابنا. ولكن بما أننا وصلنا الى هذه النتيجة التي ترضي الجميع، علينا ان نطوي صفحة الماضي بمباركتنا هذا الزفاف السعيد البهيج.
ألبير : يا إلهي، ما هذه اللفلفة ؟ وعمّا تتكلّم، يا رجل ؟ ما كدتُ أتخلّص من عرقلة، حتى وقعتُ في أخرى أدهى منها. ولم أعد أدري بماذا أجيبك. فإنْ زدنا كلمةً واحدة في غير محلها أخشى ان نهدم كل ما بنيناه من إتّفاق.
بوليدور : بماذا تفكّر، يا سيدي ألْبير ؟
ألبير : لا افكّر بشيء. أرجوك أن تُؤجّل متابعة الحديث الى وقت آخر. لأني أشعر ببعض الانزعاج فجأةً.

المشهد الخامس

بوليدور

بوليدور : إني أقرأ ما في قرارة نفسه وأُدركُ ما يضايقه. وهذا ما بكّته عليه ضميره. فإنّ خاطره لم يَرُقْ تماماً. ما دامت صورة العار ماثلة أمام عينيه. وما تهرُّبُه سوى دليل واضح على ما يعذّبه من الهمّ. أريد أن أشاطره مصابه واخفّف عنه أساه. ولا بدّ من مرور بعض الوقت لتهدئة روعه. لأن التفكير الطويل كثيراً ما يضاعف الألم. ها هو ابني المهووس، مصدر كل هذا الارتباك والاضطراب، قد أقبل.

المشهد السادس

بوليدور، وفالير

بوليدور : أخيراً، حظيتُ بلقائك، ايها الظريف الذي أقلق تصرفك الشاذ شيخوخة ابيك المسكين. فكل يوم تأتيني اخبارك العجيبة المخزية. ولا أسمع سوى الشكاوي من افعالك المحيّرة.

فالير : وماذا أتيت أنا من ذنبٍ يضايقك، لأستحقّ غضبك الوالدي بدل رضاك.

بوليدور : أكون رجلاً غريب الأطوار منحرف المزاج إذا اتّهمت ابني العاقل المسالم الذي يعيش كالقديسين داخل بيتي، وهو يصلّي ويصوم طوال اليوم من الصبح الى المساء، وقلت عنه انه يشوّش نظام الكون ــ ويا له من إفتراء ذميم ــ وقلت عنه إنه لا يعتبر أُبوّةً ولا قُربى، وإنه لا يتورّع عن ارتكاب الموبقات بالعشرات. وها انت في خاتمة المطاف تطلع علينا باقترانك خفيةً بابنة ألْبير التي أشركتها بمصيرك الغامض بدون ان تخشى مغبّة هذه الفوضى

الهدّامة. والأنكى انك تدّعي ان شاباً سواك هو الجاني، وأنك بريء من هذه التهمة الباطلة المشينة. وتتعجّب الآن كيف انا أؤنّبك على جرم لم تقترفه. يا لك من منافق لئيم، مرّغت شيبتي بالوحل وجرحت إحساسي، وأنا آمل بأن تحافظ على كرامتي ولو مرّة واحدة قبل حلول أجلي. (يخرج).

فالير (وحده) من أين انقضّت عليّ هذه الضربة القاسية ؟ نفسي مضطربة. ولا احد سوى مسكاريل قد زرع هذه الفكرة السيّئة في رؤوس الجميع. إنْ ذهبتُ اليه لن أظفر منه بأي تفسير، نظراً لتعوّده الكتمان الشديد. عليّ إذاً ان ألجأ الى الدهاء والمراوغة لأتبيّن الحقيقة بكل تفاصيلها. وإلّا صببت جام غضبي على رأسه الطائش العنيد.

المشهد السابع

مسكاريل، وفالير

فالير : يا مسكاريل، لقد قابلت الآن والدي وفهمت منه أنه مطّلع على مشكلتي بحذافيرها.

مسْكاريل : هل بلغتْه حقاً ؟

فالير : نعم.

مسْكاريل : وكيف علم بها، يا ترى ؟

فالير : لست أدري. ولا يسعني أن أتهم أحداً بالوشاية. غير أن المشكلة انتهت بتسوية لا بأس بها، لأنه لم يوجّه اليّ اية كلمة مزعجة. ورأيته قد عفا عمّا مضى ووافق على تصرّفي الذي استغربه أوّلاً. فأود أن أعرف من حمله على النظر الى قضيّتي هكذا بعين الرأفة والسماحة. وأنا لا أقوى على التعبير لك عن عظم ارتياحي واطمئناني لهذه الخاتمة.

مسْكاريل : وما رأيك إن قلت لك اني مهّدت السبيل الى إقتناعه وتحسين المعاملة التي صدرت منه حيالك ؟

فالير : وهل لك ان تخبرني كيف توصّلت الى هذه النتيجة المرضية ؟
مسكاريل : أؤكّد لك أني كلمته بلباقة وهوّنت عليه القضية ببراعة.
فالير : لكن، ألم يُسمعك عباراتٍ قارسة.
مسكاريل : أرجوك أن لا تنسى مهارتي في تسهيل الأمور ودعمها بالحجج المنطقية المقنعة.
فالير : واذا عدل عن موافقته وخاصمني، فلن تنجو من نيل نصيبك من العقاب.
مسكاريل : ما هذا الكلام، يا سيدي ؟، انا لا أظن ان تحصل أية مفاجأة.
فالير : هل هذه هي الأمانة المعهودة التي تحرص على اظهارها لي ؟ بدون ان أخفي عنك توجّسي، أصرح لك بأن انقلاب ابي عليّ في هذا الموضوع سيرتدّ صداه على دهائك المراوغ ودجلك الفاشل، ايها المحتال الخبيث.
مسكاريل : مهلاً، مهلاً. انا لست مستعداً لتحمُّل أية ردّة فعل. على كل حال، أرجوك أن تصبر قليلاً حتى يكتمل النجاح في تلافي عواقب هذه المغامرة النادرة. لديّ اسباب عديدة توحي اليّ بأن الزفاف الذي عقدته سرّاً هو ضربة معلّم بارع، ستخفّف نتيجتها السعيدة أي غضب يمكن أن يحلّ علينا. فلا تخفْ ولا تضطربْ، بل كن مطمئنّ البال، قرير العين.
فالير : واذا كانت أقوالك المسكّنة لا طائل تحتها ؟
مسكاريل : لديك الوقت الكافي للاقتصاص منّي. لكن يجدر بك ان تفكّر بحسن الختام، وان لا تتشاءم وتبتلّ قبل هطول المطر. فالرب كريم، ولا يُمسِكُ عونه عن المتّكل عليه. وانا واثق بأنك ستشكرني على مسعاي الخيّر.
فالير : سنرى. لكن لوسيل ...
مسكاريل : مهلاً. ها هو أبوها آتٍ إلينا.

المشهد الثامن

فالير، وألْبير، ومسكاريل.

ألبير : كلما فكّرت في المعضلة، كلما وجدتها غريبة معقّدة تثير مخاوفي. لأن لوسيل تدّعي أن المسألة لا تعدو كونها إشاعة، وكلّمتني بطريقة بدّدت عني كل شكّ. هل أنت، يا سيدي، زججت سمعتي في هذه القصة الشائكة واعتبرتَ القضية غير لائقة ؟

مسْكاريل : أرجوك، يا سيدي ألْبير، أن تلطّف لهجتك، وأن تخفّف سُخطك على صهرك.

ألبير : لماذا تدعوه صهري، أيها الدجّال ؟ يظهر عليك أنك مساهم في تدبير المكيدة منذ البداية.

مسْكاريل : لا داعي لأن تستشيط غضباً.

ألبير : هل يروق لك ان تشترك ابنتي في فضيحة عائلية كهذه ؟

مسْكاريل : هو مستعد لتنفيذ كل رغباتك.

ألبير : لا أريد إلّا أن يُعلن الحقيقة. فإذا كان يبغي الإقتران بابنتي، وجب عليه أن يتقدم إلى طلب يدها رسمياً حسب الاصول المرعيّة، وأن يتقيّد بالواجبات ويلتمس رضى والدها، لا أن يلجأ الى الوسائل الملتوية التي تنافي اللياقة والاعراف.

مسْكاريل : ماذا تقول ؟ ألم توافق سرّاً على زفاف لوسيل الى سيدي ؟

ألبير : كلا، يا خسيس. هذا لم يحدث ولن يحدث مطلقاً.

مسْكاريل : مهلاً، يا سيدي. إن كان الأمر صحيحاً، هل توافق عليه، اذا ثبت لديك إتمام هذه القضية السرّية ؟

ألبير : واذا أكّدت لك ان ذلك ينافي الحقيقة، هل تنكر الأمر الواقع ؟

فالير : يا سيدي، هناك أدلّة تبرهن على أن ما أقوله هو عين الصواب.

ألبير : حسب ما يتبيّن لي، إن الخادم من طينة سيده، وكلاهما يكذبان.

مسْكاريل : بل هو رجل شريف، وأنا أشهد بصدق اقواله.

فالير : لا فائدة من مناقضة كلامك بالذات.
ألبير : كلاهما متفاهما كلصَّيْن في سوق الصاغة.
مسْكاريل : لديّ البرهان القاطع. وبدون أن نتشاجر، أرجوك ان تدع لوسيل تأتي وتتكلّم.
ألبير : واذا هي كذّبت إدعاءك ؟
مسكاريل : انا أتحدّاك، لأنها لن تُقْدم على ذلك، يا سيدي. عِدْني بأن تعلن موافقتك، وأنا مستعد لتعريض نفسي لأقسى العقوبات، إذا لم تعترف لك هي ذاتها بأن ما قلته انا هو الحقيقة بعينها.
ألبير : لا بدّ من جلاء هذا الغموض.
مسْكاريل : هيّا الى العمل، وستنتهي القضية على أحسن ما يرام.
ألبير : أريد ان اقول لك كلمة تخصّ لوسيل.
فالير : انا خائف ...
مسْكاريل : لا تفزع أبداً.

المشهد التاسع

فالير، والبير، ومسكاريل، ولوسيل

مسْكاريل : ارجوك، يا سيدي ألْبير، ان تلازم السكوت على الأقلّ. وأخيراً، يا سيدتي، إعتبري أن كل ما جرى ويجري الآن يؤول الى اسعادك. فان سيدي والدك، وقد علم بحبك، رضي بزوجك كصهر، وهو يتمنى لك السعادة والهناء. واذا شئت ان تبدّدي ضباب الغموض الذي يكتنف هذه المسألة، أرجوك أن تؤكّدي صحة اقوالي.
لوسيل : ماذا تقصّ علي، أيها المحتال ؟
مسْكاريل : أشكرك على هذا اللقب النبيل الذي تُلصقينه بي.
لوسيل : يُدهشني أن أسمع اليوم منك هذه الحكاية الطريفة.

فالير : العفو، يا سيدتي الحسناء. هذا الخادم قد تكلّم كما سمعت أنا عن اعلان زواجنا مرغمَيْن.

لوسيل : زواجنا نحن انا وانت ؟

فالير : لقد افتضح أمرنا، يا حبيبتي لوسيل، ولم يعد من داعٍ الى إخفاء الحقيقة.

لوسيل : اية حقيقة ؟ ماذا تقول ؟ وهل ميلي إليك جعلك زوجي ؟

فالير : هذه الحقيقة تثير غيرة ألف حاسد. وأنا مدين بهذه السعادة لما تكنّينه لي من العواطف الصادقة والحب الخالص والوفاء المثالي. أنا أفهم ما يدعوك الى الاستياء من إفتضاح السرّ الذي شئتِ ان تكتميه، وانا نظيرك موافق على ذلك. ولكن ...

مسكاريل : أجل، الحق عليّ أنا، لأني سبّبت هذه الفضيحة الخيّرة.

لوسيل : وهل هناك خيانة أفظع وأحطّ من هذه ؟ وأنت تعترف بها أمامي متباهياً بكل جسارة، وتظن أنك تفعل ما يرضيني ويسرّني. ليس لديّ أكره من هذا العاشق الدنيء الذي يلوّث سمعتي ويجرح قلبي ويجعل ابي يحزن كثيراً لسماعه هذه القصة السخيفة المؤسفة، ويشكّ بأمانتي وإخلاصي له، فيصدّق عقد زواجي المشين. وكل ما في الأمر يشير الى توريطك إياي في هذه المشكلة بدون علمي. فأين كرامة والدي وسعادة مصيري وسموّ مشاعري ؟ لقد مرّغتها كلها بالوحل، يا سافل، وأثرت غضب ابي واشقيتَ ايامي وحطّمت عواطفي في يوم واحد، قبل أن تتحقّق أمنيّتي في هذا الزفاف، مع العلم إن التسرّع في الكلام ليس الوسيلة الفضلى لبلوغ المراد. إبتعد عني، فإن أنوثتي وكرامتي تأبيان الخضوع لدسائسك العنيفة التي تجرح إحساسي. وسأعلّمك كيف تراعي شعوري.

فالير : قُضي الأمر، ولم يعد من مجال لتخفيف حدّة استيائها.

مسكاريل : دعني أكلّمها. (**للوسيل**) : أرجوك يا سيدتي ان تتبصّري قليلاً. ما الفائدة الآن من كل هذا الانكار والتمثيل ؟ ما هي غايتك ؟ وماذا دعاك الى الانتفاض بمثل هذه الشدّة ؟ اذا كان سيدي والدك رجلاً حادّ الطبع، فهذا محتمل. لكنه سليم المنطق، وقد أراد هو بذاته أن يسمع اعترافك بما جرى.

لا بدّ من ان تشعري ببعض الحياء من التصريح بحبك وباتّباع هوى قلبك بكل حرية، ومن إقدامك على زواج يسعدك. فمهما لامك ابوك على هذا العمل الشريف، فإن إخفاءه ليس بجريمة تعادل قتل إنسان. ومن المعلوم أن ميول القلب ضعيفة، وان الفتاة ليست من خشب أو حجر، وانكِ انتِ بنوع خاص لستِ الاولى ولن تكوني الأخيرة في الإنسياق وراء عواطفكِ وهواك.

لوسيل : ماذا تقول ؟ أتسمح لنفسك يا سيدي ألْبير، أن تسمع هذا الحديث الوقح ولا تردّ عليه باعتباره خساسة سافلة ؟

ألبير : وماذا عساي أن أقول ؟ لقد ضعضعتْ هذه الحماقة رشدي.

مسْكاريل : اقسم لك، يا سيدتي، بأن الواجب يقضي عليكِ بأن تعترفي بكل ما جرى.

لوسيل : أعترف بماذا ؟

مسْكاريل : بماذا ؟ بما أقْدمتِ عليه أنت وسيدي. لقد أصبح إنكارك مهزلة مضحكة.

لوسيل : وماذا حدث بيني وبين سيدك، ايها المسخ القذر ؟

مسْكاريل : لا بد من ان تعرفي من هذه القصة اكثر مما أعرفه أنا. لأن الليلة الماضية كانت من اروع ليالي عمرك. ولا يسعك ان تنسيها بمثل هذه السرعة.

لوسيل : لقد طفح الكيل، يا أبي، وأضحى هذا الخادم الخبيث لا يُطاق.

المشهد العاشر

فالير، ومسكاريل، والبير

مسْكاريل : هذه إهانة لا يمكنني السكوت عنها.

ألبير : هذه صفعة على خدك، باركها والدها الذي لا يريد أن يصدّق ما حدث فعلاً.

مسْكاريل : مع ذلك، ليحملني إبليس الى أعماق الجحيم إن كنت قد نطقت بكلمة واحدة تخالف الواقع الأكيد.

ألبير : مع ذلك، أؤكّد لك انا اني مستعدّ ان أقبل بقطع اذنيّ ان كنت سمعت كلمة واحدة أفظع من وقاحتك ودجلك.

مسْكاريل : هل تريد ان تستمع الى شهادة اثنَيْن يثبتان صحة ما أقول ؟

ألبير : وهل تريد أنت أن أكلّف رجالي بتأديبك وضربك بالقضبان ؟

مسْكاريل : هذه شهادة تدعم ما أعلنته، وما يريد غيري أن يخفيه ويطمس معالمه.

ألبير : وستكون ضرباتهم موجعة اكثر مما تنزله بك ذراعي من ألم.

مسْكاريل : أؤكّد لك ان إنكار لوسيل هو الآن من قبيل الحياء.

ألبير : وانا أعلن لك بأني سأكون الفائز في خاتمة المطاف.

مسْكاريل : هل تعرف السيد أورْمان الكاتب العدل البدين الشهير ؟

ألبير : وهل تعرف أنت كرانْبان جلّاد المدينة الضخم ؟

مسْكاريل : وسمعان الخيّاط الذي كان معروفاً في قديم الزمان ؟

ألبير : والمشنقة المنصوبة في وسط السوق المزدحم ؟

مسْكاريل : سيُثبت لك شاهداي حدوث هذا الزفاف.

ألبير : وسيجلب لك الجلّاد آخرتك التي تريحنا من مشاكلك.

مسْكاريل : لقد كانا شاهدَيْ هذا الزواج بالذات.

ألبير : وسينتقم لي رجالي منك شرّ انتقام.

مسْكاريل : لقد ابصراهما يتبادلان عبارات الارتباط بوثاق الزواج.

ألبير : وستبصرك عيناهما كومة حطام.

مسْكاريل : والعلامة الفارقة، هي أن لوسيل كانت تضع على رأسها خماراً اسود.

ألبير : وكدليل على سوء مصيرك، ستظل مطروحاً على الأرض زمناً طويلاً.

مسْكاريل : يا لك من عجوز عنيد.

ألبير : تبّاً لك من خسيس دنيء. أُشكُرْ ربك على تقدّمي في السن الذي

جعلني أقصّر في تأديبك، ومعاقبتك فوراً، أيها الوقح، على ما الحقته بي من إهانات. لكني أعدك وعداً قاطعاً بأن يكون حسابك عسيراً وقريباً جداً.

المشهد الحادي عشر

فالير ومسكاريل

فالير : أين نجاحك في مهمّتك الجريئة ؟
مسْكاريل : لقد فهمُت ما تريد ان تبلغني اياه. فكل الأمور انقلبت عليّ، من ضربات القضبان الى حبل المشنقة الذي يهدّدني. لذلك وجدت الأسلم لي ازاء هذه الفوضى العارمة أن اذهب وأُلقي بنفسي من علوّ صخرة شاهقة. فلم يعد لي من أمل في احقاق الحقّ. لذا استودعك الله، يا سيدي.
فالير : لا، لا حاجة لهربك. واذا مُتّ سيُظنُّ ان ذلك حصل قضاءً وقدراً.
مسْكاريل : أنا لا أحبّ أن أموت تحت أنظارك، وأن تُنسب وفاتي المقصودة الى القدر الغاشم.
فالير : إتبعني اذاً، يا جبان، فإن عطفي عليك سينقذك من الشماتة.
مسْكاريل : ما أتعس حظي. لقد جلبتُ المتاعب لنفسي وتحملتُ المسؤولية والعقاب عن جريرة سواي.

الفصل الرابع
المشهد الأول

أسكاني، وفروسين

فروسين : أضحت المغامرة خطيرة ومزعجة.
أسكاني : آه، يا عزيزتي فروسين. لقد حكم عليّ سوء مصيري بتحطيم مستقبلي. هذه المشكلة وصلت الى حدّ يجب أن لا تتوقّف عنده. لا بدّ من جلاء غوامضها، ولا بد للوسيل وفالير، موضوع هذه المفاجأة الغريبة من إعلان زواجهما بعد أن لفّاه بالكتمان الشديد. ها قد فشلت في وضع خطّتي على مسارها الصحيح. بالاضافة الى ذلك ساهم ألْبير ذاته من حيث لا يدري بإيصال القضية الى الدرب المسدود، وهو لا يريد ان يصدّق ما جرى. علينا الآن أن نلجأ الى الحلّ الأنسب لجعله يرضى بقران ابنته المحرومة من المال والأُسْرة.
فروسين : انا اجد هذا الحلّ معقولاً، لو جاء قبل الآن. لكن، كيف لم يخطر ببالنا في حينه ؟ على كل حال لا بدّ من بلوغ المرام.
أسكاني : ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟ قلقي يتعاظم ويحرمني راحة النوم. أرجوك أن تزوّدِيني بنصحكِ السديد.
فروسين : جاء دورك الآن كي تُسْدي النصح اليّ في مأزقي الحرج. لأنك انتِ تمثّلينني كما أنا امثّلك. أتوسّل إليكِ ان تجدي علاجاً عاجلاً لعلتي المستعصية.

أسكاني : يؤسفني ان تنظري الى قضيتي كأنها مهزلة. لذلك جاء تفكيري في ضيقي خاطئاً. حرام عليكِ أن تَسْخري من فتاة غائصة مثلي في رمالٍ وضع مريب.

فروسين : كلا، بالعكس انا أقدّر سبب ارتباكك حقّ قدره. ولكي انقذ موقفك سأفعل المستحيل. ولكن، ما حيلتي أمام تيّارٍ جارفٍ يعاكس مساعيك. أرى أن التغلّب على وجهات النظر المغايرة لمصلحة حبّك وزواجك ليس بالأمر الهيّن.

أسكاني : اذا لم يكن بإمكانك إسعافي، فالأوْلى بي أن ازول من الوجود.

فروسين : لا مجال لحدوث ذلك الآن. لأن كأس الموت الذي لا بدّ من تجرّعه يوماً هو حلٌّ مبكر يجب على المرء تأخيره بقدر المستطاع.

أسكاني : لا، لا، يا فروسين. إذا كانت نصائحك لا تحلّ مشكلتي فلا سبيل لي للتخلّص من يأسي بطريقة معقولة مقبولة.

فروسين : أتدرين بماذا أفكّر ؟ يجب عليّ ان أذهب لمقابلة ... هيّا ... لكن، هذا أراسْت قادم إلينا، ويمكنه أن يُلهينا. فتعالي نتمشّى ونحاول أن نلاقي مخرجاً مناسباً من هذه الورطة. هيا ننسحب.

المشهد الثاني

أراسْت، وكرو رينيه

أراسْت : هذه خيبة أخرى جسيمة.

كرو رينيه : لم يُقابَل مصلحٌ كما قوبلْتُ انا. فما كدت أُبلغها الخبر حتى أجابتني بحذر : انا اعتبرك دجّالاً نظيره. هيّا قُلْ له ان يبحث عن حلّ مشكلته في مكان آخر. ثم أدارت لي ظهرها. وكذلك فعلت مارينات التي انتهرتني بازدراء قائلة : أُتركنا وشأننا أيها الخادم المتطفّل. وهكذا بتْنا كلانا موضوع إتهام واحتقار.

أراسْت : جاحدة سافلة، ومتكبّرة عنيدة. لو كانت صغيرة السنّ جاهلة لكان لها بعض العذر. ولكنني أنا المحقوق، إذ رضيتُ بأن أساهم في حلّ مشكلتها المعقّدة. فعاملتني كأني خصمها اللدود، أنا الذي لجأت من أجلها الى كل الوسائل حتى الوقاحة والمجابهة. غير أني لم أفقْ من أوهامي إلّا متأخّراً. ولم استمع الى محاضراتها المتفلسفة، لأن قلبي المغرم بها سايرها الى أبعد حدود المسايرة. وها هي ناكرة الجميل تُشهرْ سلاحها عليّ وتنفي كل الأدلّة القاطعة لتبرّئ نفسها وتُلقي كل المسؤولية عليّ وحدي، وانا أتخبّط الآن في معضلتها، بينما هي قد تنصّلت من مشاركتها فيها لتتجنب الملامة.

كرو رينيه : هذا لسان حالي تماماً أنا ايضاً. فأصبحنا كلانا في قفص الاتهام. وما علينا إلّا ان نضع حبّنا في مرتبة الأخطاء السخيفة، وأن نعلّم هذا الجنس اللطيف الطائش معنى المسؤولية والشجاعة ووجوب تحمّلها. وبدفاعنا عن حقوقنا وعدم التفريط بها نكون قد لقّنّاها درساً قاسياً لن تنساه مدى العمر. سأستحقّ الشنق إن تركت لها المجال بعد اليوم كي تعاملنا باستبدادها المعلوم، وتتصرف حيالنا بمثل هذا الاستهتار. اذ يتحتّم علينا نحن الرجال ان نُثبت لها أننا دائماً سادة الموقف، نفرض مشيئتنا كما يحلو لنا، بدون ان نخضع لغنجها ودلالها.

أراسْت : اما انا فأرى حلّاً آخر، أودّ ان أعتمده، وسأُثبت لصديقتي أني قادر على استبدال حبها بهوى امرأة جديدة تلائمني وتُكرمني اكثر منها.

كرو رينيه : وأنا لا أريد بعد الآن ان أُرْبك تفكيري بأية امرأة. سأقاطع بنات حواء بحزم وعزم. فلماذا لا تحذو حذوي ؟ لأن المرأة كما يقال، يا سيدي، من نوع الحيوان يصعب ادراك تصرفها ونواياها. وبما أن الحيوان يظلّ حيواناً ولا يمكنه إلّا ان يكون حيواناً وإن ظل مئة الف سنة في عالم الوجود، ستظل المرأة إمرأة، ولن تكون إلا إمرأة ما دامت القلوب تنبض فيها الحياة. ومن هنا جاء قول أحد رجال الإغريق : إن دماغه يشبه الرمل المتحرك كلما حاول أن يفكّر في تصرّف المرأة. وهذا فعلاً منطق غريب عجيب وبما ان الرأس الذي يحوي الدماغ هو أهم ما في جسم الانسان، فإذا لم ينسجم البدن وهذا الرأس، يصبح حيواناً أهوج، ومصدر مشاكل واضطرابات لا تنتهي. لأن

الواحد يكون الخيّال والآخر المطيّة، الأوّل رخواً والثاني صلباً فلا يتفقان، وتُؤدّي التعقيدات دوماً الى فوضى لا حدود لها. وما رأس المرأة الّا كدولاب الهواء الموجود في أعلى سطح المنزل يدور باتجاه شتّى الرياح. لذا غالباً مّا شبّهها الفيلسوف أرستطاليس بالبحر الهائج المتلاطم الامواج الذي يحيط بالأراضي اليابسة. وهذا التشبيه في نظرنا نحن الرجال يظلّ صحيحاً ما دامت العواصف تحرّك دوماً جبال الامواج المتلاطمة التي تتلاعب بمصير من يركبها فترتفع به تارةً وتهبط طوراً، ويلاقي بسببها شتّى الأهوال. وهذا حال من يركن الى أهواء المرأة الغامضة كأنواء البحر، والمتنقّلة كرمال الصحراء أمام الرياح العاتية المتسلّطة على جنون الأمواج وكثبان الرمال. بالاختصار علينا ان ندرك أخيراً أن حوّاء في الواقع أدهى من الشيطان الرجيم.

أراسْت : هذا تحليل مُوفّق للغاية.

كرو رينيه : اشكرك على هذا الإطراء، يا سيدي. ولكنْ إنتبهْ. ها هي عازمة على المرور من هنا. فعليك ان تعتصم حيالها بحبل العزم والحزم لصون كرامتنا وحقوقنا.

أراسْت : لا ينشغلْ بالك من هذا القبيل.

كرو رينيه : أخشى ان ترميك بسهام عينيها، فتقع صريع فتنة انوثتها.

المشهد الثالث

اراسْت، ولوسيل، وماريتات، وكرو رينيه.

مارينات : انا لا ازال اراقبه، فإياك ان تستسلمي الى سحر عينيه.

لوسيل : لا تظني أني ضعيفة الى هذا الحدّ.

مارينات : ها هو يتقدّم نحونا.

أراسْت : لا، لا. لا تعتقدي، يا سيدتي، اني آتٍ لأكلمك عن هيامي. لقد فات ذلك الزمان، وأنا قد شفيت من علّتي، وبتّ أتحاشى ما أصابني من سهام

لحظك. ولقد أدمى فؤادي ما تكبّدتُه من كيْدك. فتُبْتُ ولم أعد أحنّ الى ألْطافك. فلن ينوبك منّي بعد الآن إلّا الازدراء. لأني أعترف بأن كرم أخلاقي وتساهلي وسماحتي جعلتك تستبدّين بقلبي الرقيق الشغوف. فقد زالت أيامٌ حسبت فيها قيود حبك اغلى من صولجان الملك، لشدّة ولعي بمودّتك. لكن سوء سلوكك قَلَبَ الآية وسحق فؤادي. وجعلني أكْفُر بالحب الذي حلّ محله الحقد، وانتفض متمرداً على كل عطفٍ وحنانٍ أُنثوي.

لوسيل : ارجوك ان تحفظ ثناءك هذا المهين لنفسك، يا سيدي. وأن تَعفّ عن زلّات لسانك الزلق بحقّي لأني لا أستحق هذا اللوم.

أراسْت : لذا، يا سيدتي، يمكنك ان تعتبريني في حلّ من كل ما ربطني بك في الماضي من العواطف الصادقة. وكوني على يقين بأني لن أعود بعد اليوم الى ذكرك بصورة من الصور.

لوسيل : انا لا أتمنى سوى ذلك. وهذا كل ما أضحى يُرضيني.

أراسْت : لا، لا تخافي من أن أتحدّث اليك فيما بعد، مهما كان قلبي ضعيفاً وميالاً إليك فيما مضى الى حدّ يصعب عليّ محو رسمكِ من ذهني. واطمئنّي اني لن أعود مطلقاً لأشاهدك.

لوسيل : حسناً تفعل، لأني لا أريد انا ايضاً ان اراك بعد الآن.

أراسْت : سأطعن فؤادي أْلف طعنة ان تدنّى وحنّ الى مشاهدتك بعد خفرك عهدي.

لوسيل : فليكن ما تريد. ولنكفّ عن هذا الحديث المزعج.

أراسْت : أجل، أجل. لنكفّ عن هذا الكلام العقيم. وسيكون هذا أصدق برهان على عدم رجوعي الى سابق حبّنا. لأني مصمّم على كسر القيد الذي طوّقتِ به عنقي، وأن أُزيل كل اثر لرسمك من مخيّلتي، رغم كل ما كان يزيّنه لي حبّك الخدّاع وسحر عينيك المخاتل الذي يخفي وراءه الف إبليس. وهكذا أتحرر من طغيان انوثتك المستبدّة.

كرو رينيه : حسناً تفعل.

لوسيل : وانا ايضاً أحذو حذوكَ، وأعيد إليك خاتم الماس رمز خطوبتنا.

مارينات : هذه خير خاتمة لأحزان مهجتي.

أراسْت : وانا اردّ لكِ هذه السلسلة لقطع كل صلة بكِ.
لوسيل : خذ أيضاً هذا العقد وخبّئه في مكان حريز.
أراسْت (**يقرأ**) :انتَ تهواني يا أراسْت وتهيم بحبّي.
وانا بنور عينيك يستضيء عقلي وقلبي،
وتدلّهي بهواكَ يقيدني كالعبيد،
لأنه أقوى وأبقى من كل غرام عنيد.
(**يواصل القراءة بعد توقّف قصير**) :
انتَ تؤكّد لي مبادلتك غرامي.
وهذا جلّ ما يحقّق أعذب أحلامي.
لوسيل (**تقرأ**) :أنا أجهل مصير هيامي الشديد،
فإلى متى سيدوم عذابي الفريد ؟
لكنّي أنوي، يا للجمال الساحر،
أن أظلّ أسيرة هواكَ القاهر.
(**تواصل القراءة بعد توقّف قصير**) :
هذه أفضل ضمانة لدوام شعورك
لأن اليد والرسالة لا تبوحان بكافّة أسرارك.
كرو رينيه : ما أحلى المجابهة هكذا.
أراسْت : هذا نصيبكَ ايضاً، وحظكَ ليس أوْلى من مصيري.
مارينات : ما أَجْدى الصمود.
لوسيل : لن أوفّر وسيلة لتمتين الحواجز بيننا.
كرو رينيه : لا تتراجعي عن تحصين حدودكِ.
مارينات : من يثبت الى النهاية يظفر.
لوسيل : اخيراً قطعت جميع العلاقات بك.
أراسْت : شكراً لربّ السماء الذي نجّاني منك. وليأخذ أمانتي اذا لم أكن أميناً لتعهّداتي.
لوسيل : وانا أيضاً أفضّل الموت ألف مرة، إن لم أفِ بوعودي،
أراسْت : الوداع اذاً.

لوسيل : الوداع الذي ما بعده لقاء.
مارينات : هذا خير فراق.
كرو رينيه : انتِ فيه الرابحة.
مارينات : هيا، اغربْ عن ناظره.
كرو رينيه : اجل عليك ان تنسحبي بعد هذا الجهد الأخير.
مارينات : ماذا تترقبين بعد كل ما حصل ؟
كرو رينيه : وماذا بقي بعد ؟
أراسْت : قلبي، يا لوسيل، يتلهَّف على فقدانك. لكن ما حيلتي ؟
لوسيل : وأنا أنّى لي، يا أراسْت، ان أجد قلباً نظير قلبك ؟ وأنا واثقة بأن خسارته لا يعوّضها أي حبّ آخر.
أراسْت : لا، لا. إبحثي أينما شئت، فلن تجدي مثل قلبي المخلص. انا لا اقول لك ذلك لكي استدرّ عطفك. غير اني لا أتمالك عن إعلان الحقيقة الناصعة. أنتِ قصدتِ الانفصال لأنك تخلّيتِ عن مودّتي. وثقي بأنك مهما بحثتِ وانتظرتِ لن تلاقي من يهواك اكثر منّي.
لوسيل : حين يحبّ الانسان، عليه أن يعتمد أسلوباً صالحاً لتَبادل العواطف.
أراسْت : أجل، في العشق يجب على المرء أن يبتعد عن عواطف الغيرة والحسد. وان لا تغرّه المظاهر الخدّاعة، بل أن يحرص دائماً على عدم التفريط بالكنز الذي يكون في حوزته، كما فعلتِ انتِ.
لوسيل : الغيرة الصادقة، ربما كانت اكثر أهلية للاحترام.
أراسْت : أجل، لأن ضرب الحبيب يكون أحياناً ألَذّ من الزبيب.
لوسيل : لا، لا. قلبك يا أراسْت لم يكن مضطرماً حبّاً كما يجب.
أراسْت : وانت، يا لوسيل، لم تشعري نحوي بأي غرام حقيقي.
لوسيل : أظن أن ذلك لا يستهويك كفاية. وربما كان الأمر أوْلى بالنسبة اليّ. لو كنت ... لنكفّ عن هذا الكلام الفارغ. فأنا لم أعد أرغب في تبرير موقفي.
أراسْت : لماذا ؟
لوسيل : لان متابعة سياق الماضي، لم يعد لها من موجب بعد الفتور.

أراسْت : هل حقاً نوينا على الانفصال نهائياً ؟
لوسيل : أجل، حقاً نحن لم نصل بعد الى نقطة عدم الرجوع.
أراسْت : أراكِ تنظرين الى ذلك بعين الرضى.
لوسيل : انا مثلك تماماً.
أراسْت : مثلي انا ؟
لوسيل : بدون شكّ. يكون ضعفاً منا، إن تركْنا الناس يلاحظون أنّ شوك الصدّ يجرح إحساسنا.
أراسْت : لكنك أنتِ، يا قاسية، أردت ذلك.
لوسيل : أبداً، انت الذي قصدت هذه النهاية المزعجة.
أراسْت : انا ؟ لقد ظننت اني أحقّق لك رغبتك وسعادتك.
لوسيل : كلا، انت شئت ان تُرضي غرورك وعنفوانك.
أراسْت : لو ودّ قلبي ان يعود الى سجنه، رغم ما ذاقه فيه من قهر الأسر والعذاب، لكان طلب العفو والمعذرة.
لوسيل : لا، لا تُقْدِم على هذا. لأن ضعف إرادتي أوصلني الى حد أن لا أتردّد في منحكَ ما تصبو اليه.
أراسْت : لم يعد بإمكانك أن تمنحيني اياه كما تقولين، وأنا أخشى أن أسألك ذلك. فما ضرّك لو قبلتِ، يا سيدتي، أن تراضي حباً ملتهباً بغرامك. من أجل مصلحتكِ، عليك أن تظلّي ثابتة الجنان. أنا ألْتمس هذه النعمة، فهل تريدين ان تجودي بها عليّ وتسامحيني.
لوسيل : هيَّا أعِدْني إذاً الى بيتي.

المشهد الرابع

مارينات، وكرو رينيه.

مارينات : يا لك من جبان.
كرو رينيه : وانت ما أقلّ شجاعتكِ.
مارينات : إني أحمرّ خجلاً من سلوكك المخجل.
كرو رينيه : وأنا أكاد انفجر غيْظاً. فلا تظنّي أني أستسلم بسهولة.
مارينات : وأنتَ لا تعتقد أنك ستلتقي ثانيةً بمن أمعنتَ في خداعها.
كرو رينيه : تعالي، تعالي عانقيني واسترضيني.
مارينات : تخطئ حتماً اذا ظننتني شخصاً آخر تعرفه. ولربما حسبتَ اني نظير سيدتي. خسئْتَ، مهما تقرّبتَ وحاولتَ مصالحتي. فأنا لم اعد أطيق رؤية وجهك المشؤوم. ولا تفكّر أني بعد الآن أهفو الى مشاهدة سحنتك البغيضة. أجل خسِئْتَ. يمكنك ان تبحث وتسعى لنيل رضى فتاةٍ غيري.
كرو رينيه : ها، ها. ما لكِ تقدّرين نفسكِ اكثر مما تساوين. ها هي صديقتك الظريفة التي لا تجد لنفسها مثيلاً، قد طلبت مني ان أعود الى مصاحبتها ومسايرتها.
مارينات : وأنت لكي تقتنع بأني أكرهك وأتجنبك، أَردُّ إليك كمية الدبابيس الباريسية الكبيرة التي أهديتني إياها يوم أمس متباهياً.
كرو رينيه : وها أنا اردّ إليكِ سكينكِ النادرة الجميلة التي قدّمتها لي.
مارينات : وها هو مقصّك وسلسلته النحاسية الصفراء.
كرو رينيه : لقد نسيت جبنتكِ التي أطعمتني إياها يوم امس الأول. ثم إليك حساءك الذي قدّمته لي. وهكذا لا أكون مديناً لك بأية مَنّة.
مارينات : لا أحمل أية رسالة منك لأردّها اليك حالاً. لكني سأحرق جميع رسائلك التي أخبّئها.
كرو رينيه : هل تعلمين ماذا سأفعل بتحاريرك ؟
مارينات : اياكَ بعد الآن أن تأتي وتتوسّل الي ثانية وتستعطفني.

كرو رينيه : لكي أقطع عليك طريق العودة الى سابق عهدكِ، لا بدّ لي من أن أقسم القشة الأخيرة. حينئذ يكون الوصل بيننا قد انقطع تماماً، فلا تغمزيني بعينيك،، لئلا أستاء وأحمل عليك.

مارينات : وأنت إياك أن تسترق النظر إليّ. فأنا لم أعد أحتمل التطلّع إليكَ.

كرو رينيه : الإنفصال الكامل هو الوسيلة الفعّالة التي تحول دون تحاورنا مجدّداً. لا شيء سوى الانفصال التامّ يباعد بيننا. لماذا تضحكين، أيتها الدبّة الثقيلة الظل.

مارينات : لأن رؤيتكَ باتت تضحكني لشدة غرابة أطوارك ومظهركَ.

كرو رينيه : لتحملكِ العفاريت، إن عدتِ الى الضحك. أنا الآن أكظم غيظي وأخفض لهجتي. فما رأيكِ ؟ هل نلجأ الى الإنفصال كما ننوي، أم أنكِ تفضّلين الوصال ؟ أصدقيني.

مارينات : شاور نفسك.

كرو رينيه : بل أنتِ شاوري نفسكِ.

مارينات : عليك أنتَ أن تشاور نفسكَ وتجيبني.

كرو رينيه : هل أنتِ حقاً موافقة على أن لا أُحبك أبداً بعد اليوم ؟

مارينات : أتسألني ؟ إفعل أنتَ ما يحلو لك.

كرو رينيه : هيّا، قولي لي، ماذا ترتئين ؟

مارينات : أنا لا أنبس ببنت شفة.

كرو رينيه : ولا أنا ايضاً.

مارينات : ولا أنا بدوري.

كرو رينيه : فالاجدر بنا أن نتحاشى كلانا النكايات، لأنها لا تفضي الى أي خير. ضعي يدك في يدي، فأسامحكِ.

مارينات : وانا كذلك أغفر لكَ.

كرو رينيه : يا إلهي، كم أنا مشتاق الى مشاكستكِ، يا مارينات.

مارينات : وكم أنا متلهّفة الى مناجاتك، يا حبيبي كرو رينيه.

الفصل الخامس
المشهد الأول

مسكاريل

مسكاريل: « حالما يهبط ظلام الليل على المدينة سأتسلّل الى مسكن لوسيل. فعجّل في الذهاب لتهيّئ الظروف، وأعدّ المصباح والسلاح ». عندما قال لي هذه الكلمات خُيّل إليّ أني أسمع العبارة التالية: « هيّا أجلب الحبل بسرعة واشنق نفسك ». فتأمّل، يا سيدي، الى أين دفعتني طلباتك المشؤومة. لكن لم يتّسع لديّ الوقت لأردّ عليك. غير أني هنا أودّ أن أخاطبك، وأبيّن لك تحاملك عليّ. فتهيّأ للدفاع عن ذاتك ولنتناقش بهدوء. تقول انك تريد الذهاب هذه الليلة لزيارة لوسيل. وماذا تقصد بهذه المقابلة ؟ هذا تصرّف عاشق يطلب المتعة، بل هذا عمل إنسان ضيّق التفكير، يقتحم المخاطر ويعرّض حياته للتهلكة. لكنك تدرك أي عامل يدفعني نحو لوسيل المتمرّدة. تبّاً لها من عنيدة. غير أن الحب يقتضي وجودي الى جانبها لتهدئة روعها. لأن هواها المهووس لا يُدرك خطورة عواقبه. أرجوك ان تقول لي: هل من يضمن نزوات هذا العشق الأعمى الذي لا يراعي ظروف خصمٍ أو أبٍ أو أخٍ غاضب. هل تعتقد ان احد هؤلاء المستائين يفكّر بأذيّتي في حال إقدامي على هذه المداهمة. أجل، أنا على يقين بحدوث ذلك، لا سيما من قِبَل كل غريمٍ. على كل حال سنذهب مسلّحين، وإذا إعترض احد سبيلنا سنهاجمه حتماً.

وهذا ما لا يتبجح به خادمك، الأقوى الأمين إذ يجيب : انا لن أخاصم أحداً. هل أنا عنترة، وهل سيدي هو أبو زيد الهلالي ؟ إن من يدّعي معرفتي يجب عليه ان يعلم جيداً أني لا أنوي مطلقاً تعريض نفسي للمهالك. ولا يزعجني بصورة غريبة إلّا القول لي إنّ عليّ أنْ اكون مدجّجاً بالسلاح من قمّة رأسي الى أخمص قدميّ. فبئس المصير إن كان نصيبي أن أهرب الى التلال المجاورة حيث يمكنني أن أنزلق وأتدحرج على المنحدر. وفضلاً عن ذلك أُنعَتُ بأني جبان رعديد. هذا لا يهمّني، ما دمت سأبقى على قيد الحياة. اذا كانت طاولة اللعب ينقصها لاعب، يسرّني أن أكون رابع اللاعبين. أما إذا دُعيتُ الى القتال، فأنا غائب، لست هنا. أخيراً، إذا كان للعالم الآخر بعض المناهج، فأنا أجد هذه الدنيا حلوة حافلة بالمسرّات. حتماً لست بمشتاق الى مواجهة الموت، ولا الى الجراح. وأؤكد لكم أني أترك لمزاجكم وغروركم لذّة ارتكاب الحماقات والاشتراك بالمعارك الضارية.

المشهد الثاني

فالير، ومسكاريل.

فالير : لم أبصر يوماً مملّاً مزعجاً كهذا. فكأن الشمس قد نسيت ذاتها في كبد السماء، ولا تريد ان تغيب، وهي ترسل أشعّتها في كلّ اتجاه وتملأ الكون ضياءً، ولا تدع المساء يُقبل ولا الليل يُسدل على الدنيا ستائر الظلام. وهذا ما يُحزن نفسي ويعكّر صفو عيشي ويؤخر عليّ نيل مبتغاي.

مسْكاريل : وإن لم يمكنك الاسراع لإنتهاز فُرَص الإنشراح كي تبادر الى اقتناص العراقيل المشؤومة، وتجد لوسيل في أحرج المواقف ...

فالير : لا تقصّ علي حكايات حزينة، ولا تتوقّع لي أن ألاقي ألْف كمين مُهلك تضيق له نفسي، فألعن حظّي العاثر. بينما أنا أودّ أن ألَطّف الجو المتلبد حولي، وأخفّف وطأة كآبتي.

مسْكاريل : انا أشجعك على التشبّث بهذه النزعة المسالمة المتفائلة. لكن المشكل هو الاضطرار الى تسلّلك خفيةً للخلاص من ورطتك.
فالير : وما ضرر ذلك ؟
مسْكاريل : أخشى ان تعاكسنا الظروف.
فالير : كيف ؟
مسْكاريل : مثلاً أن تداهمني نوبة سعالٍ حادة، ويساهم ضجيجها في اكتشاف وجودنا غير المرغوب هناك. ومن لحظة الى اخرى تتبدّل الأحوال وتؤول الى ما لا تحمد عقباه.
فالير : لتلافي هذا العارض، عليك أن تشرب نقيع السوس.
مسْكاريل : لا حاجة الى ذلك، يا سيدي. المهمّ ان لا ينتابني أي عارض. وأكون أسعد الناس، إن لم أتسبّب في ما يجلب لك المتاعب. لكن أسفي لن يكون له حدّ، اذا كنت مع ذلك مصدر أذى تتعرّض له شخصيّاً، يا سيدي العزيز.

المشهد الثالث

فالير، ولا رابيار، ومسكاريل.

لا رابِيار : جئت، يا سيدي، أُبلغك ما علمت به من حقد أراسْت عليك الى أقصى حدّ، وقد أخبر ألْبير إبنته بأنه ينوي تحطيم رأس خادمك مسكاريل.
مسْكاريل : انا لا ناقة لي ولا جمل في هذه القضيّة الشائكة. فماذا جنيت لكي يُحطّم رأسي ؟ هل أنا حارسه لكي أتعرّض لهذا الاسلوب من العذاب الأليم، أو مكلّف بالمحافظة على عفّة بنات المدينة ؟ وهل أنا مسؤول عن وقايته ودرء المخاطر عنه ؟ هل انا الضعيف قادر على منع من يَعِنّ على باله إرواء غليله في ليلة معتمة ؟
فالير : مهما قيل عن المشاغب، ليس رديئاً الى هذا الحدّ. ومهما اشتدّ بأس

أراست فإنه بنوع خاص لن ينال منّا بسهولة.

لا رابِيار : اذا اقتضى الأمر، ها هو ساعدي في خدمتكم. وكونوا على يقين من وفائي لكم كأخٍ محب مُجير.

فالير : أشكرك على مروءتك وهمّتك، يا سيدي لا رابيار.

لا رابِيار : لي صديقان يمكنني ان استدعيهما لمساعدتنا. وهما مقاتلان لا يُشقّ لهما غبار، ونستطيع أن نلقي عليهما اتكالنا باطمئنان.

مسْكاريل : ارجوك، يا سيدي، أن تقبل عونهما.

فالير : هذا لطف زائد أقدّره لك حقّ قدره.

لا رابِيار : كان بإمكان رفيقي جيل الصغير أن يساعدنا أيضاً لو لم يُصَب في حادث، منعه عن ذلك. أمّا المشكل الأكبر، يا سيدي، فيكمن في وجود رجال الأمن. لا بدّ من ان تكون قد علمتَ، يا سيدي، ما انزلْته به العدالة عندما أصدرت حكمها عليه، فهشّم الجلاد عظامه، ولم يدع له مجال إلتقاط أنفاسه.

فالير : يا سيدي لا رابيار، هذا أمر مؤسف حقاً، وأنا أشكرك على اصطحابك مرافقَيْك.

لا رابِيار : لا شكر على الواجب. لكن إحذر من أن يَنْصُب لك أحد كميناً، ويتربّص بك شرّاً.

فالير : ولكي أثبت لكم كم أنا مستعدّ لمجابهة أيٍ كان، ترونني جاهزاً لردّ كيده الى نحره، وأضمن لكم الأمان التامّ، اذا شئتم أن تتجوّلوا في المدينة برفقتي.

مسْكاريل : لماذا تشير علينا بأن يحاول سيدي الذهاب لمواجهة ربّه ؟ ما هذه الجسارة، وما هذا العنفوان ؟ ما أوفر المخاطر التي تهدّد حياتنا من جميع الجهات ...

فالير : ماذا تتوقّع هنا غير ذلك ؟

مسْكاريل : هو يشعر بحضور القضيب في هذه الناحية. أخيراً، اذا عيل صبري وطفح كيل تبصّري، لا أجد حكمةً في بقائنا وسط الشارع. فلا نعانْد ونظلّ حيث نحن. الأجدر بنا ان نلجأ الى مكان آمن.

فالير : ان نلجأ الى مكان آمن ؟ يا لك من دجّال جبان. أأنت تقترح علينا هذا الحل السخيف ؟ هيا اتبعني بدون جِدَال.
مسْكاريل : الحياة حلوة، يا سيدي الكريم. والموت المباغت يحرمنا منها الى الابد.
فالير : سأقتلك ضرباً بالقضيب، اذا سمعت صوتك. سيأتي أسكاني الى هنا. وعلينا أن نعلم الى أي فريق سينضمّ. مع ذلك تعالَ معي الى البيت خشية أن يحتكّ بنا.
مسْكاريل : انا جلدي لا يحكّني. لتحلَّ اللعنة على الحبّ وعلى الحسان اللواتي يُغريننا ثم يتدلّعْنَ علينا.

المشهد الرابع

اسكاني، وفروسين

أسكاني : هل ما سمعته حقيقي، يا فروسين، وانا لست في حلم ؟ أرجوكِ أن تسردي لي جميع تفاصيل مولدي بحذافيرها.
فروسين : سأبلغكِ اياها بكاملها. فصبراً عليّ، لأن هذا النوع من الأحداث ليس عاديّاً ولا يجري كل يوم. يكفي أن تعلمي انك بعد كتابة الوصية التي تطلبتْ إنجاب غلام، جئتِ انت على أثر حبل زوجة ألْبير والدتك، وكان والدك يريد ان يتبنّى طفل إنْياس بائعة الزهور التي كان يعاشرها. فسلّمتك أمكِ لوالدتي كي ترضعك. ولمّا خطفتْ يد الموت الطفل البريء وهو في شهره العاشر فقط عمدت والدتك الى الحيلة تحسّباً لغضب زوجها، وبداعي عطف الأمومة. واتفقت النساء الثلاث، امك وامي وإنْياس، سرّاً على اعتبارك صبيّاً بدل الذي تبناه والدك لأنه من عشيقته المذكورة، فانطلتْ عليه هذه التورية لا سيما انك فعلاً من لحمه ودمه، وهو لا يعلم بان الله رزقه طفلة. هذا هو سرّ إخفاء انوثتك عن ابيك الذي قيل له انك طفل. وهذه كلها تدابير أمك التي

كان همها الأول صيانة مصلحتها اكثر من مصلحتك، باستنباط اعذار وحجج خدّاعة للاحتفاظ بالارث. أخيراً جاءت هذه الزيارة التي كان أملي فيها ضئيلاً، لكنها خدمت حبّك اكثر مما كنتُ أتصوّر. وببروز سرّك الجديد على أثر زواجك المكتوم أيضاً وتعقيد الامور، إضطررنا أنا ووالدتك الى إعلام ابيك بحقيقتك التي اكّدناها برسالة من أُمّك زوجته، وقد أوضحنا كل الملابسات بطريقة لا تزعج والدك ألْبير وتراعي أيضاً مصلحة بوليدور والد زوجك الذي كشفنا له هو أيضاً سرّك المزدوج لكي لا نزيد القضية غموضاً. أخيراً كي لا يبقى أي تفصيل خافياً، حملنا الاثنين معاً على تقدير موقفك، والنظر بعين العطف والرضى الى اقترانك بفالير مصدر سعادتكما وهنائكما معاً.

أسكاني : ما اعظم الفرح الذي غمرتِ به قلبي، يا فروسين. وما أجزل الشكر الذي لا يسعني التعبير عنه من شدة سروري.

فروسين : المهم أن تعود البسمة الى محيا والدك وأن ينشرح صدره، وقد أوصانا بأن لا نوجّه الى ابنته العزيزة، أنتِ بالطبع، إلّا كل كلام لائق ودود.

المشهد الخامس

اسكاني، وفروسين، وبوليدور

بوليدور : إقتربي مني، يا ابنتي، فأنا اسمح لنفسي بأن أدعوك هكذا، وقد إطّلعت على سرّ تخفّيك بملابس الرجال. لقد قمتِ بدور باسل أبرز ما فيك من رقّةٍ ومقدرة. وأنا أعذرك وأعتبر إبني اسعد مخلوق على وجه الأرض، لأنه حظي بكنز حبّك. أؤكّد لكِ أنكِ تساوين الدنيا وما فيها. ها هوذا قد أقبل. فلنفرح بمناسبة هذه المغامرة البهيجة. عليك الآن ان تُخبري جميع ذويك بزواجك الميمون.

أسكاني : تلبية طلبك هو جلّ مبتغاي.

المشهد السادس

مسكاريل، وبوليدور، وفالير

مسكاريل : الخذلان ايضاً يتمّ غالباً بوحي من السماء. وأنا حلمت هذه الليلة ببيض مكسّر. وفحوى هذا الحلم يقلقني، يا سيدي.

فالير : يا له من جبان.

بوليدور : هو ينوي القتال، يا فالير. وأثناءه نحتاج الى كل مهارتك وشجاعتك لتساعدنا على مواجهة خصمنا القوي العنيد.

مسكاريل : تبّاً لكل من يريد الشقاق، يا سيدي، ويحرّض الفرقاء على التذابح. انا من جهتي لا مانع لدي للاشتراك. لكن على الأقلّ، إذا جرى أي حادث مؤسف لإبنك، لا سمح الله، لا تتهمْني بأني السبب.

بوليدور : لا، لا. أنا أحرّضه على عمل ما يجب في هذا المكان بالذات.

مسكاريل : يا لك من أب صارم.

فالير : شعورك، يا أبي، يدلّ على طيبة قلبك، وأنا أجلّك عليه. لا بدّ لي من أن أكون قد أغظتك كأني ولد عقوق، إذْ لم أطلب رضاك وبركتك الابوية. ولكن مهما خيّبت املك فطبيعتي البنوية بصفتي ولدك، تظل هي الأقوى. وابتهاجك هو أفضل تعويض لي، عندما يأبى سرور اراسْت أن يسري إليّ.

بوليدور : لقد خشيت أحياناً بطشه. لكن الامور منذ ذلك الحين تبدّلت. وبدون ان أقصد الهرب منه كعدوّ رهيب، أراك انت قد خِفْت عليّ.

مسكاريل : أليس من سبيل الى ايجاد حلّ وسط لتفادي المعركة.

فالير : أنا لن أهرب منه. فالله يحميني من أذاه. ثم من يكون هذا الجبان حتى أحسب له أي حساب ؟

بوليدور : أسكاني.

فالير : أسكاني ؟

بوليدور : لن تلبث ان تشاهده.

فالير : وهو الذي أبدى لي رغبته في تقديم أية خدمة أحتاج اليها.

بوليدور : أجل هو يدّعي أنه مصمّم على مواجهتك، ويدعوك الى ميدان المعركة لكي تفضّا خلافكما في منازلة تُثبت من هو الأقوى بينكما.
مسْكاريل : يا له من شابّ طيب القلب مقتنع بأن كرم الاخلاق لا يزرع الشقاق بين الأصدقاء.
بوليدور : أخيراً، هو لا يميل الى اتخاذ المواقف المشبوهة البعيدة عن الشهامة. حتى أني أنا وألْبير إتفقنا على أن تلبي أنتَ طلب أسكاني وتعوّض له عمّا لحق به من غبن. ولكن بعلم الجميع وبدون تلكّؤ في المعاملات اللازمة بمثل هذا الحال.
فالير : اما لوسيل، يا ابي، فبقساوة قلب ...
بوليدور : لوسيل رضيت الإقتران بأراسْت، وهي مستاءة منك. ولكي تبرّئ ساحتها مما نسبته أنت اليها من حديث أزعجها، تصرّ على أن يتمّ هذا الزفاف بحضورك لجلاء موقفك الغامض حيالها وحيال شقيقها أسكاني.
فالير : آهٍ، منها. هذا استهتار يستفزّ اشمئزازي. فهل طاش صوابها وفقدت ضميرها ومروءتها ؟

المشهد السابع

مسكاريل، ولوسيل، وأراسْت، وبوليدور وألبير، وفالير

ألبير : لما هذا الانتظار، ايها المقاتلون ؟ ألم يجئ دورنا لخوض المعركة ؟ وهل استجمعتم شجاعتكم وبتّم على أتمّ الاستعداد ؟
فالير : نعم، نعم. انا جاهز، بما أن الظروف تضطرني الى التأهب. واذا وجدت سبيلاً الى موازنة القوى، فإن بقايا احترامي تدفعني الى الإعتدال، لا قوّة ساعد من ينوي ان ينازلني. لكن ذلك قد زاد عن الحدّ المحمول، وهذا الوقار قد خفّت هيبته، فدفع عزيمتي الى التطرّف، ما دامت الظروف تتكشّف

لي عن لؤمٍ غريب، لا بدّ لمشاعري من ان تبادره بأفظع انتقام. لا لأن حبّي لا يزال يقدس مودّتك، بل لان التورّط يثير غضبي. وحين أفضح عاركِ لن يتسنّى لزواجك الأثيم ان يهيّج حفيظتي. هيا اذاً، يا لوسيل، الى المجابهة لأن أسلوبك في التعامل فظيع، تكاد عيناي تصدّق انك لجأت اليه بمثل هذا الانحياز. لا شك انك تخطّيت كل حدود اللياقة. لذا لا بدّ من أن يكون موتك عقاب جريرتك.

لوسيل : هذا حديث كان ضايقني لولا اليد التي تبرّعت بالانتقام لي. ها هوذا أسكاني قد أتى، وهو يعرف كيف يحملك بأهون السبل على تغيير لهجتك.

المشهد الثامن

مسكاريل، ولوسيل، وأراست، وألْبير، وفالير.
كرو رينيه، مارينات، أسكاني، فروسين، بوليدور

فالير : لن يتمكّن من ذلك، وإن ساعده اكبر عدد من المسلّحين. وانا أرثي لحاله في دفاعه عن أختٍ جانية. ولكن بما أنه يطلب مني بدون حقّ ان أشترك في القتال، سألبّي طلبه وستساهم أنت ايضاً معي في المعركة.

أراسْت : خطر ببالي حلّ المشكلة بالحسنى. غير أني، عندما أخذ أسكاني المسؤولية على عاتقه أخيراً، سحبت يدي منها وتركت له تدبير الأمر وحده.

فالير : حسناً فعلت. فالتروّي دوماً أسلم عاقبةً من التسرّع. ولكن ...

أراسْت : سيعرف كيف يحمل الجميع على التعقّل.

بوليدور : لا تخطئ. أنت تجهل أي فتى غريب الأطوار هو أسكاني.

ألبير : نعم هو يجهل خطورة الوضع. لكنه لن يلبث أن يطّلع على حقيقة الواقع قريباً.

فالير : الأجدر به أن يعلم الآن بذلك.

مارينات : أمام الجميع.

كرو رينيه : إلّا أن هذا الاسلوب غير لائق.

فالير : هل تسخرون مني ؟ سأحطّم رأس كل الهازئين. وسنرى النتيجة الباهرة عاجلاً.

أسكاني : لا، لا. انا لست رديئاً كما يُشاع عني. وفي هذه المغامرة التي يُرغّبني فيها الجميع، سترون كيف سيتبدّل الحال. الله يعلم اني قادر على الوقوف في وجه كثيرين، وأن مصير شقيق لوسيل سيؤول الى انتصار ٍ سهل المنال. نعم، أنا لا اتبجّح بقوة زندي، غير أني سأريكم بأمّ العين كيف سأتحدّى الموت. وسأواجه المنيّة راضياً اذا كان لا بدّ من حلول أجلي في هذه الآونة. فتُصبح حالاً زوجتك أمام الجميع تلك الصبيّة التي لن تكون إلّا من نصيبك.

فالير : كلا. بعد ان يكون كل الناس قد أنكروها، وجميع بوادر إستهتارها ظهرت للعيان.

أسكاني : فكّر، يا فالير، بأن القلب الذي عاهدك على الوفاء، لا يسعه ان يخونك وينقلب عليك، نظراً الى شدة تعلقه بشخصك الحبيب، كما يشهد على ذلك والدك بالذات.

بوليدور : أجل يا بني. كفاك هزءاً بتحمّسها. آن لك ان تتراجع عما بدر منك من خطأ. فإن فؤادك ارتبط بها بوثاق رسمي مبارك، رغم ما يخفي أنوثتها من ملابس الرجال. وهي وفيّة لحبّك منذ حداثتها. تبّاً للسبب الذي اضطرها الى تنكرها هذا وقد خدع الكثيرين. لكن هيامها بك .قرّبها اليك منذ أمد بعيد. وها أنت أخيراً لبّيت نداء قلبك وارتبطت بها سرّاً. فكفّا معاً عن المغالطة المضنية، وانصت الى حديثي الجدّي. أجل، بالاختصار، هي التي أصغت الى اعتراف غرامك ليلاً، وقد ظننتها لوسيل. وهذا الإرتباط المكتوم خلق فيما بينكما هذا الارتباط المرهق. وبما أن اسم دوروتي بشخص أسكاني طبعاً، حلّ الآن محلّ لوسيل، عليك أن تنتزع من صدرك كل قلق واضطراب. وبصفاء نيّة ان تعلن ما جمع بينكما من وثاق مقدس بالزفاف السعيد الذي يفرحنا كلنا.

ألبير : هذا هو في الواقع سبب الحذر الغريب الذي تذرّعت به في موقفك

الغامض، وقد آن له ان ينجلي لترتاح من خوفك المتواصل وتأهبك المستمر للدفاع عن نفسك.

بوليدور : طبعاً، هذا الحدث سبّب لك الارتباك. وعبثاً حاولت ان تتحاشى عواقبه في محيطك.

فالير : لا، لا. لم أعدّ أهتمّ بالدفاع عن موقفي. واذا كانت هذه المغامرة من عناصر المفاجأة، فهي ايضاً تبهجني وتغمر حبي بالسرور والرضى، بشرط أن تكون زوجتي هي ايضاً قريرة العين مثلي.

ألبير : تنكُّرها بهذا الملبس، يا عزيزي فالير، جعلها تتحمّل بصعوبةٍ ما وجّهتَه اليها من كلام قارس. فهيّا بنا ندعوها الى استبدال ثياب الرجال، بما يليق بها الآن من زينة تبرز أنوثتها وجمالها. وأنت تعلم كم قاست من هذا التخفّي الاضطراري المرير.

فالير : ارجوك، يا لوسيل، ان تسامحيني على كل ما سبّبته لكِ عن غير قصد، من ضيق و ...

لوسيل : سأنسى تهجّمك هذا بسهولة.

ألبير : هيّا. لا بدّ لهذه النهاية البهيجة من أن تبعث في صدرك الانشراح، ما دمتِ فيما بيننا، ونحن جميعاً على أتمّ الاستعداد لكي نزيد فرحك باستمرار.

أراسْت : اراكم لا تفكّرون حين تتكلّمون هكذا بأن أسباب الخصام لا تزال قائمة. فقد تسنّى لكما ان تتوّجا حبكما بأكليل السعادة والهناء. لكن صديقنا مسكاريل العاشق المسكين وصديقنا كرو رينيه الذي يأمل بالزفاف الى مارينات، لا بد لكل منهما أن يدرك الامنية التي يتوق الى تحقيقها.

مسْكاريل : كلّا ثم كلّا. ما دام دمي يجري في عروقي، فأمر زواجي لا يهمني كثيراً. لاني أعرف جيداً مزاج مارينات التي تهفو الى تعجيل يوم قرانها بكرو رينيه.

مارينات : وهل تظنّ أني أرضى بك كفارس أحلامي ؟ ربما كزوج حسب العرف المتّبع، ليس لي من اعتراض عليك. لكن هناك أيضاً ميل قلبي الذي لا بد لك من ان تسترضيه.

كرو رينيه : اسمعي، يا عزيزتي، عندما يجمعنا وثاق الزواج، يتحتّم عليكِ أن تصمّي أذنيك عن كل النداءات الأخرى المغرية.
مسْكاريل : وهل تعتقد انك ستتزوج وتستبدّ، يا صديقي.
كرو رينيه : طبعاً لا. أنا بحاجة الى امرأة حازمة، وإلّا أقلقتُ راحة الجميع لصيانة حقوقي.
مسْكاريل : يا إلهي. لا بدّ لك من ان تتصرّف كغيرك برصانة وتُلطّف سلوكك. فالعشّاق قبل القران يظلّون متضايقين ومتلهّفين، وفي الغالب يصبحون بعده أزواجاً هادئين مسرورين.
مارينات : هيا إذاً الى العمل، أيها الحبيب الظريف اللطيف ولا تخفْ من ان أبدّل رأيي فيك. فالنعومة تزيدني رغبةً في قربك مني، ولن أبخل عليك بعواطفي.
مسْكاريل : ما أسعدني من حبيب متساهل مستعدّ لتقبّل كل التصريحات.
ألبير : للمرة الثالثة أقول لكم هيّا بنا نذهب الى بيتنا لنواصل بكل حرّية أحاديثنا المسلية المستعذبة.

(تمّت)

المتَفَلسِفَتَان السَخِيفَتَان

أشخاص المسرحية

لاكرانْج	:	عاشقان مرفوضان.
دي كرْوَازي	:	
كورْجيبوس	:	رجل ميسور صالح.
مكْدَلون	:	ابنة كورْجيبوس.
كاتوس	:	ابنة شقيق كورْجيبوس.
ماروت	:	خادمة المتفلسفتَيْن السخيفتَيْن.
ألْمنْزور	:	خادم المتفلسفتَيْن السخيفَتَيْن.
المركيز مسْكاريّ	:	خادم لاكرانْج.
الفيكونْت جوڈْلي	:	خادم دي كرْوَازي.

حاملا مقعد نقّال

جيران

عازفو الكمان

فصل واحد
المشهد الأول

لاكرانْج ودي كرْوَازي

دي كرْوَازي : مولاي لاكرانْج.
لاكرانْج : ماذا تريد ؟
دي كرْوَازي : انظر إليّ قليلاً بدون ان تضحك.
لاكرانْج : لأي سبب ؟
دي كرْوَازي : ما رأيك في زيارتنا ؟ هل أعجبتك كثيراً ؟
لاكرانْج : هل ترى علامة الرضى على محياي ؟
دي كرْوَازي : في الحقيقة، ليس تماماً.
لاكرانْج : من جهتي، انا أعترف بأني غير مرتاح. قل لي هل شاهدت في حياتك غبيّتَيْن من الأرياف تقدّران نفسيهما اكثر ممّا تساوي هاتان المرأتان، ورَجُلَيْن يُعامَلان باحتقار اكثر منّا نحن الاثنَيْن ؟ إنهما لم تتنازلا الى تقديم مقعدين لنا كي نجلس عليهما. أنا لم أبصر طوال عمري مرأتين تتهامسان كما فعلتا، وتتثاءبان مللاً، وتفركان عينيهما من شدة النعاس، وتسألان بقلّة صبر عدة مرار « كم هي الساعة الآن » ؟ وهل أجابتا بغير نعم ولا على جميع ما قلناه لهما ؟ أوَلا تُقرّ أخيراً بأننا لو كنّا أحط خلق الله في الدنيا لما أُسيئت معاملتنا كما فعلتا بنا ؟
دي كرْوَازي : يبدو لي انك متأثّر جداً بذلك.

لاكرائج : بدون شك، انا منزعج الى حدّ جعلني أُصمّم على الانتقام من هذه الوقاحة الزائدة. أنا أعلم لماذا استخفّتا بنا هكذا. لأن التفلسف والعجرفة لم يتفشيا فقط في باريس بل انتشرا ايضاً في سائر المناطق، وهاتان المرأتان المغرورتان قد استوفيتا اكثر من حصّتهما من هذه الآفة. بكلمة أُعلن لك صراحةً ان طبعهما مزيج من الغنج والإدّعاء. وأنا لا أجهل كيف كان عليهما أن تستقبلانا. صدقني، يا صاح، يجب علينا أن نقابلهما كلانا بما تستحقّانه من الازدراء، ونبيّن لهما حماقتهما، لكي تعرفا قيمة من تحتكّان بهم من الاشخاص المحترمين.

لاكرائج : لديّ خادم يُدعى مسكاريّ، يعتبره أغلب عارفيه أنه من أمهر المتحذْلقين. وهذه صفة كثيرة الرواج في هذه الأيام. هو رجل متهوّر يظنّ ذاته رفيع المستوى ويتشبّث بأناقته ويلقي الأشعار جذافاً ويزدري بسائر زملائه الخدم، ولا يتورّع عن نعتهم بالبلادة والغباء.

دي كرْوَازي : اذاً، ماذا تنوي ان تفعل ؟

لاكرائج : ماذا أنوي أن أفعل ؟ ... لا بد من ردة فعل عنيفة ... أوّلاً، تعالَ نخرج من هنا، لأني أكاد أختنق.

المشهد الثاني

كوزْجيبوس ودي كرْوَازي ولاكرائج.

كوزْجيبوس : لقد التقيتَ بابنتي وبابنة اخي. فهل تظن أن الأمور ستسير على ما يرام ؟ وما هي النتيجة التي تتوقّعها لزيارتك اياهما ؟

لاكرائج : هذه مسألة يتسنى لك أن تفهمها منهما اكثر منّي. كل ما استطيع ان اقوله لك هو أنني اشكرك على المعروف الذي اسديته اليّ، وأنا مستعد لتأدية أية خدمة تطلبها منّي.

كورجيبوس (**على حدة**) : يبدو لي أنهما ليستا راضيتَيْن على ما جرى لهما هنا.

لكن، ما الذي سبّب امتعاضهما، يا ترى ؟ عليّ، بأية وسيلة كانت، أن اعرف ما لقيتاه ... يا هذا.

المشهد الثالث

ماروت وكورجيبوس

ماروت : ماذا تريد، يا سيدي ؟

كورْجيبوس : أين سيدتاك ؟

ماروت : في حجرتهما، يا سيدي.

كورْجيبوس : ماذا تفعلان ؟

ماروت : تدهنان شفاههما مرهماً.

كورْجيبوس : ما بالكِ تدارينهما ؟ قولي لهما أن تنزلا. (وحده) هاتان الخبيثتان تقصدان خراب بيتي بهذا المرهم، على ما أرى. ففي كل مكان لا أجد إلّا بياض البَيْض والحليب الدسِم، وألف صنف آخر لا أدري ما هو. ولقد استهلكتا منذ أن أتينا الى باريس دهن عشرة خنازير على الأقلّ ومن قوائم الغنم ما يكفي لإطعام اربعة خدّام.

المشهد الرابع

مكْدلون وكاتوس وكورجيبوس.

كورْجيبوس : هل من ضرورة حقّاً لكل هذه المصاريف كي تدهنا شدقيكما ؟ قولا لي ماذا فعلتما بهذين السيدَيْن حتى أبصرتهما يخرجان من هنا بمثل هذا البرود ؟ أوَلم أوصيكما بأن تستقبلاهما بلياقة كمرشّحَيْن للاقتران بكما ؟

مكْدَلون : وبأي إعتبار تريد، يا والدي، أن نقابلهما ؟ هل توافق على ان نخصّهما بأسلوب غير مألوف ؟

كاتوس : ما هي الوسيلة المعقولة التي يتسنى للفتاة ان تلجأ اليها، يا عماه، لإرضاء فضول مثل هذين الضيفَيْن ؟

كورْجيبوس : بماذا يمكنك أن تصفيهما ؟

مكْدَلون : لا أظنهما في منتهى الظرف والكياسة. مع ذلك، هل ترى مناسباً ان يبادرا فوراً الى مفاتحتنا بالزواج بدون مقدّمات ؟

كورْجيبوس : وبماذا تريدان أن يفتتحا حديثهما ؟ أوليست هذه طريقة محمودة في نظركما، كما أجدها أنا أيضاً ؟ هل هناك ألْطف من التطرّق الى مثل هذا الموضوع الشيّق ؟ أولا تريان في هذا الرباط المقدس، أقصد وثاق الزواج الذي تحلمان به، دليلاً كافياً على نواياهما الشريفة ؟

مكْدَلون : ان ما تتفوّه به، يا ابي، لهو من مستوى ادنى الشبان الميسورين. انا اخجل من هذا الكلام المبتذل، وعليك أن تستخدم اسلوباً آخر يليق بالمقام.

كورْجيبوس : انا لا تهمّني اللياقة ولا الكياسة. إعلمي أن الزواج فريضة مقدسة. ولا أجد أشرف من المبادرة الى التحدّث في موضوعها.

مكْدَلون : يا إلهي. لو كان كل الناس على شاكلتك لانتهت القصص بسلام. ولما كانت خاتمتها أروع من أن يقترن روميو بجوليات وقيس بليلى.

كورْجيبوس : ماذا تثرثرين، يا مهووسة ؟

مكْدَلون : يا ابي، هذه ابنة عمي تؤكد لك ما تلفّظت أنا به، وهو أن الزفاف لا يمكن أن يتمّ قبل غيره من المغامرات. فعلى العاشق الولهان، لكي يكون مرغوباً ان يتقن ابداء أرقّ العواطف وإبراز أعذب ما في قلبه من طيبة وحنوّ وشوق، وأن لا تتعدّى محاولاته الشكليّات. ثم عليه أن يلتقي في المعبد أو في المتنزّهات أو في الحفلات العامة تلك الرفيقة التي يقع في هواها. وأن يجمعه بحبيبته أحد أنسبائه أو أصدقائه، وأن يغادرها وهو حالم كئيب من جرّاء فراقها. وعليه أن يكتم بعض الوقت أشواقه الى عروس أحلامه، ومع ذلك أن يزورها بتواتر وان لا يدع فرصة تفوته لمفاتحتها بغرامه بطريقة لبقة يلجأ اليها كل متحذلق طلق اللسان. اما البوح بهيامه فلا بد من ان يتمّ في ممشى حديقة

غنّاء بعيداً عن عيون الرقباء وآذانهم، ولا يلبث أن يُتبع هذا التصريح بقليلٍ من الاضطراب والاحمرار حياءً يدوم فترة، ثم ينسحب المتيّم ويتوارى قليلاً عن الأنظار. اخيراً ان يجد سبيلاً الى اعادة الصفاء الى قلبها ويكرّر عليها بهدوء مناجاة هيامه ويستدرجها الى الاعتراف بحبها الدفين وإنْ صعب عليها كشف مكنونات صدرها. وفي نهاية المطاف يأتي دور المغامرات، اذ تزول الكلفة والممانعات وتنكشف اسرار الميول الحقيقية بدون أن يأبه احدهما الى تحفّظات الأهل والى بوادر الغيرة المبنيّة على الظواهر الخدّاعة، والى الشكوى واليأس والصدّ الذي قد يلي كل ما سبق. هكذا يجب ان تجري الأمور، وهذه هي قواعد اللياقة التي لا يستغني عنها كل عاشق لطيف ظريف يرغب في اقتناص القلوب. لكن اقتحام موضوع القران بدون تلميحات ومقدّمات، وعدم ممارسة حقوق الزواج إلا بعد الارتباط الرسمي بالمواثيق والعهود، وبدء القصة من أواخر مراحلها، فهذا غير معقول ولا مقبول إطلاقاً. هناك نقطة أخرى هامة، يا والدي. لا يغربْ عن بالك أن طريقتك هي محض تجارية، ويزعجني مجرّد التفكير بتفاصيلها الكئيبة.

كورْجيبوس : ما هذا الكلام البذيء الذي اسمعه من فمك، يا ابنتي ؟ هل تعتبرين مثل اسلوبكِ رفيع المستوى ؟

كاثوس : اجل، يا عمي، فقد دخلت ابنتك رأساً الى صلب الموضوع. وطريقتها في استقبال مثل هذين البليدَيْن الثقيلَيْ الظلّ هي الأنسب لإيقافهما عند حدهما. وأنا على يقين بأن خصال الرقّة واللطف والتنميق والشاعرية بعيدة كل البعد عمّا يمتازان به من خشونة الطبع والكلام، وجفاف القريحة أيضاً. أولا ترى ان جبلتهما السمجة تنمّ عن كل ما ذكرته لك الآن من اوصافهما، وما يلمسه فيهما سائر المحنّكين. فإن زيارتهما كعاشقَيْن بهندام بعيدٍ عن الاناقة، وقبعة خالية من الريش، ورأس أصلع، إنحسر عنه الشعر، ولباس عادي يفتقر الى زهو الأشرطة، كلها لا تدل على ذوق مميَّز. يا الهي، الى أي صنف من العشاق ينتمي هذان الزائران الغريبا الأطوار، يا ترى ؟ انهما يفتقران الى النعومة وطلاوة الحديث. حقّاً لا سبيل الى هضم تصرفاتهما. وعلاوة على ما ذكرت، أُضيف ان قبّة قميص كل منهما واسعة على رقبته وليست مصنوعة

على قياسه بيدَيْن بارعتَيْن، كما أن حذاءه القذِر أوسع من قدمه ومصنوع بدون مهارة ومن أرخص الجلود.

كوزْجيبوس : أعتقد أنكما كلتاكما مهووستان، ولن أتوصّل الى فهم كلمة واحدة ممّا تدّعيان أنتِ كاثوس وابنة عمّك مكْدلون ...

مكْدَلون : ارجوك، يا والدي، ان لا تعود الى استعمال هذين الاسمَيْن الغريبَيْن، وان لا تلصق بنا ما ليس فينا.

كوزْجيبوس : ماذا تعنين بالاسمَيْن الغريبَيْن ؟ أوَلَسْتُما هكذا تُدعيان منذ أن أبصرتما النور ؟

مكْدَلون : يا إلهي، ما هذا الكلام السَمِج ؟ ان ما استغربه منك، هو كيف امكنك أن تنجب ابنة ذكية الجنان نظيري ؟ هل في الكون من لَم يُعجب بأسلوب حديثنا نحن الاثنتَيْن مكدلون وكاثوس ؟ هل يسعك أن لا تعترف بأن مجرّد هذين الاسمَيْن يستحقان أن يكونا موضوع أروع القصص في الكون ؟

كاثوس : حقاً، يا عماه، لا سبيل لأُذُنٍ مرهفة السمع أن لا تستسيغ رنّة هذين الاسمَيْن الرخيمَيْن. أولا تجد مثلنا أن اسم بوليكسين الذي اختارته ابنة عمي، واسم آمَنْتْ الذي إخترته أنا كرديفَيْن لإسمينا الأصليَّيْن هما من أعذب الأسماء التي ترتاح الاذن الى سماع تكرارهما باستمرار ؟

كوزْجيبوس : أنْصتا اليّ. ليس هناك سوى كلمة واحدة مفيدة، هي أني لا أريد ان اسمع غير اسميكما الحقيقّيْن الذين اختارهما لكما عرّابكما وعرّابتكما. ولن تذكرا سواهما لهذين الشابّين اللذَيْن اتينا على ذكرهما. فأنا أعرف جيداً إسرتيهما وأُصرّ على ان تستقبلاهما من الآن وصاعداً كمرشحَيْن لزواجكما. لأني تعبتُ من الاحتفاظ بكما كفتاتَيْن برسم الزواج أو عانستين على نفقتي، وانا بتُّ رجلاً طاعناً في السنّ.

كاثوس : انا، يا عماه، لا يسعني أن أقول لك سوى اني أجد الزواج وثاقاً مزعجاً.

مكْدَلون : ألَا تودّ أن تمنحنا الوقت اللازم كي نختلط بالمجتمع الراقي في باريس حيث وصلنا منذ برهة وجيزة ؟ دعنا ننسج على ذوقنا قصة حياتنا ولا تدفعْنا الى بلوغ مرارة خاتمتها قبل الأوان.

كورجيبوس (على حدة) : لا سبيل للشك في أنهما مهووستان. (بصوت مرتفع) لا يزال لديّ اعتراض آخر. انا لا أفهم كل هذه الخزعبلات، وأُصرّ على ان اكون هنا السيد المطاع. ولكي نضع حدّاً لكافة هذه المناقشات العقيمة، أخيّركما بين الزواج والذهاب الى الدير بدون إمهال. وأقسم أن لا مناص لكما من اللجوء الى أحد هذَيْن الحلّيْن.

المشهد الخامس

كاثوس ومكدلون

كاثوس : يا الهي. دعيني، يا عزيزتي، أصرّح لك بأن والدك متشبّث بأفكاره القديمة وأنه محدود الذكاء، لا يرى صالحنا بوضوح.
مكْدَلون : ماذا تريدين أن افعل، يا عزيزتي ؟ أنا مرتبكة بسبب نظرته الضيّقة الى واقع الحال. وأنا لا أجد سبيلاً لاقناع نفسي بأني فعلاً ابنته، بل أترقّب بفارغ الصبر على الدوام أوّل مغامرة تتيح لي أن أُولد من جديد في محيط ارقى وأوسع مجالاً من الذي أعيش فيه.
كاثوس : أنا من رأيك يا ابنة عمي. أجل، لأنكِ تتمتّعين بكل مزايا المجتمع الرفيع المستوى، وهذا هو في الواقع شأني انا ايضاً ومنى قلبي.

المشهد السادس

ماروت وكاثوس ومكدلون.

ماروت : ها هوذا خادم يسأل إن كنتِ باقية في البيت، ويقول ان سيده يودّ أن يأتي ليزورك.
مكْدَلون : تعلّمي، يا حمقاء، ان تعبّري عن فكرك بأسلوب أقلّ بذاءة، وقولي

لي مثلاً، ها هوذا شخص يسأل إن كان في الإمكان أن يتمتّع بمشاهدتك ؟

ماروت : أعذريني، يا سيدتي، فأنا لا أفهم اللغة اللاتينية، لأني لم اتعلم الفلسفة نظيرك في المعهد العالي.

مكْدَلون : تبّاً لوقاحتك التي لا تطاق. ومن هو سيد هذا الخادم ؟

ماروت : لقد ذكره لي، وهو يُدعى المركيز مسكاري.

مكْدَلون : آه، يا عزيزتي، أهو مركيز ؟ هيّا إذهبي وأبلغيه أنني على أتم الاستعداد لاستقباله. لا بد من أن يكون رجلاً فطناً سمع بذكرنا.

كاثوس : بدون شك، يا عزيزتي.

مكْدَلون : الأفضل أن نستقبله في هذه القاعة السفلى، من أن ندخله الى مخدعنا. سأرتّب شعري على الأقل، واتصرّف حسب مقامنا. عجّلي، يا ماروت، وناوليني المرآة لأرى إن كان مجمل هندامي على ما يرام.

ماروت : بذمّتي، لا ادري من هو المغفّل الواقف ها هنا. يتحتم عليك أن تتحدثي بطريقة لائقة اذا شئت ان أفهم كل كلامك.

كاثوس : إجلبي لنا المرآة، يا جاهلة. وإياكِ ان توسّخي زجاجها بالنظر الى صورتكِ على صفحتها. (يخرجن).

المشهد السابع

مسكاريّ، وحاملا المقعد النقّال.

مسكاري : ايها الحاملان، قِفا في مكانكما. أظن أن هذين الغبيَّين ينويان كسر ضلوعي لشدة ما يرتطمان بالجدران وبأرض الطريق.

الحامل الأول : اعذرني، يا سيدي. فالشارع ضيّق، وأنت اصررت على دخولنا بالمقعد النقّال حتى هذا المكان.

مسكاري : أعتقد بأن ذلك من حقي. هل تريدان، ايها الوغدان أن تعرّضا

جسمي الى رياح الموسم الماطر، وحذائي الى التلوّث بالأوحال ؟ هيا أبعدا هذا المقعد النقّال من هنا.

الحامل الثاني : ارجوك أن تدفع لنا أجرنا، يا سيدي.

مسكاري : ماذا تقول ؟

الحامل الثاني : انا أطلب، يا سيدي، أن تدفع لنا اجرنا، إن شئت.

مسكاري (**يصفعه**) : كيف تطلب مالاً، ايها الوقح، من شخص في مستواي ؟

الحامل الثاني : أهكذا لا يُدفع اجر المساكين أمثالنا ؟ وهل سيادة من في مستواك يستضيفنا الى مائدته عندما نشعر بالجوع ؟

مسكاري : سأعلّمكما كيف تلتزمان حدّكما. لم يكن ينقصني إلّا أن يتطاول لئيمان نظيركما على كرامتي.

الحامل الأول (**يرفع أحد قضبان المقعد النقال**) : تَفَضَّلْ وادفع لنا أجرنا حالاً، وإلّا ...

مسكاري : ماذا تقصد ؟

الحامل الأول : أريد أن أقبض أجري وأن يقبض زميلي ايضاً اجره حالاً وسريعاً.

مسكاري : هل هذا معقول ؟

الحامل الأول : هيّا، إدفع باستعجال قبل أن أحطّم ...

مسكاري : أجل، أجل. ها أنت الآن تتكلّم لغة مفهومة. أمّا زميلك فأبله لا يعرف ماذا يقول. خذ، هل أنت مسرور ؟

الحامل الأول : كلا، أنا لست راضياً، لأنك صفعتَ رفيقي ... (يرفع القضيب الذي يمسك به).

مسكاري : مهلاً، مهلاً. هذا ايضاً للتعويض عن الصفعة. لا احد يحصل مني على ما يريد إلّا اذا خاطبني بهذه الطريقة المقْنِعة. بعد برهة، ارجوكما ان تعودا اليّ لكي تحملاني وتذهبا بي الى قصر اللوفر، قبل مغيب الشمس بقليل.

المشهد الثامن

ماروت ومسكاري.

ماروت : يا سيدي، معلّمتاي تأتيان بعد لحظة.
مسكاري : لا داعي للعجلة. فأنا مرتاح في جلوسي ها هنا، لانتظار قدومهما.
ماروت : ها هما قد وصلتا.

المشهد التاسع

مكدلون وكاثوس ومسكاري وألْمنْزور.

مسكاري (**بعد أن أدّى التحية**) : يا سيدتاي، ستدهشكما بدون شك زيارتي الجريئة. غير أن شهرتكما الواسعة جرّت عليكما هذا الازعاج. وللاستمتاع بمثل هذه الزيارة، هناك جاذب قويّ لا يقاوم جعلني أسارع اليكما أينما كنتما.
مكْدَلون : اذا كنت تسعى دائماً وراء الاستمتاع، فليس لك أن تقتحم أرضنا لتقتنصه عنوةً.
كاثوس : ولكي تجد عندنا ما تبتغيه من هذا الاستمتاع، كان عليك بكل بساطة ان تصطحبه معك.
مسكاري : انا اعترض على كلامك هذا. لأن الشهرة تدل دلالة أكيدة على مكانة صاحبها. وانا قَدِمْت الى هنا لألتقي بربّات الظرف والكياسة في باريس.
مكْدَلون : مسايرتك تخطّت حدود المديح النزيه. وأنا وابنة عمي لا نُحجم عن اطلاق العنان لتساهلنا لقاء حلاوة ثنائك المغرِض.
كاثوس : يا عزيزتي، ألّا يجمل بك أن تدْعيني الى الجلوس أوّلاً ؟
مكْدَلون : هيا، يا ألمنْزور.
ألْمنْزور : نعم، يا سيدتي.

مكْدَلون : أمّن لهذا الضيف بسرعةٍ مقعداً يريحه اثناء المحادثة.
مسكاري : لكن، على الأقل، هل يسعني أن أكون في مأمن ها هنا ؟ (يخرج ألمنزور).
كاثوس : ماذا تخشى عندنا ؟
مسكاري : ان يُسرق مني قلبي، وأن تُستغلّ صراحتي. لأني أشاهد حولي عيوناً تبرق فيها الفتنة ويلمع الدهاء. وأخاف أن تُمتهن حريتي وتُداس كرامتي كما عامل العثمانيون في قديم الزمان اعداءهم البرابرة. لعمري حالما يدنو منهما احد تراهما تدافعان عن نفسيهما بشراسة وضراوة. وانا كذلك أودّ أن أهرب، إلا اذا توفّرت لي الضمانات بأن لا ينالني أيّ أذى.
مكْدَلون : يا عزيزتي، أرى أن هذا الرجل صاحب مزاج مرح.
كاثوس : وانا لا استبعد عنه هذا الميل المستحبّ.
مكْدَلون : لا تخشَ سوءاً، ايها الشاب، فإن لَحْظَيْنا لا يضمران لك أي ضرر، وفي وسع فؤادك ان يثق بشرفنا وأمانتنا وانسانيّتنا.
كاثوس : لكن، ارجوك، يا سيدي، أن لا تنظر بحذر الى هذا المقعد الوثير الذي يفتح لك ذراعيه بأمان ليضمّك على الرحب والسعة مدة ربع ساعة، فَتَكَرَّم بإرواء شوقه الى شخصك الظريف.
مسكاري (**بعد مَسْد شعره وإحكام أشرطة سرواله**) : والآن ما هو رأيكما، يا سيدتاي، في مدينتنا باريس ؟
مكْدَلون : يا للدهشة، ماذا يمكننا ان نقول ؟ لا بد للانسان من أن يكون خالياً من كل منطق سليم لكي لا يعترف بأن باريس مستودع العجائب ومركز الذوق الرفيع ومجلى الأناقة والكياسة.
مسكاري : من جهتي، انا أعتقد جازماً بأن خارج باريس لا وجود للهناء في نظر الناس الشرفاء المدركين.
كاثوس : هذه حقيقة ثابتة لا سبيل الى نقضها.
مسكاري : لا يُنكر ان فيها بعض الأقذار. غير أني أتجول دائماً بواسطة المقعد النقّال.

مكْدَلون : لا شك في أن هذا المقعد النقّال يقي من أوساخ الوحل اثناء رداءة الطقس الممطر.

مسكاري : هل تتلقّين العديد من الزيارات ؟ ومَن مِن ذوِيك يتمتّع بذهن لامع ؟

مكْدَلون : يا للأسف، نحن لا نزال غير معروفين هنا. لكننا على وشك أن ننشئ علاقات حميمة من خلال صديقة مخلصة وعدتنا بأن تجلب الى هنا جميع سادة « ندوة المسرحيات المختارة».

كاثوس : وغيرهم ايضاً ممّن عدّدتهم لنا كخبراء في الروائع الأدبية.

مسكاري : انا من هذه الناحية استطيع أن اقدم لكما خدمات جُلّى في هذا المجال. لأن جميع هؤلاء الخبراء يزورونني بانتظام. ويسعني أن أؤكد لكما أن لقاءاتي تضمّ على الأقل ستة من اصحاب الفطنة والذكاء الخارق.

مكْدَلون : لعمري، سنكون لك من الشاكرات اذا أمّنت لنا مثل هذه الصداقات الممتازة. اذ لا بد لنا، اذا أردنا انشاء علاقات في هذا الوسط الرفيع المستوى، من التعرّف الى هؤلاء الرجال المرموقين. لأنهم اضمن سبيل لاكتسابنا الشهرة التي نتوق اليها في اوساط باريس الراقية. وأنت تعلم ان صحبتهم تفسح لنا المجال لتأمين المعاشرة والاختلاط بالشخصيات وزيادة المعلومات، فنصبح هكذا من المعروفات بسعة الاطلاع. لكن بالنسبة اليّ، أنا أعتبر بصورة خاصة أن هذه الزيارات الثقافية تسمح لنا أيضاً باكتساب الف معرفة تقضي الضرورة بالالمام بها لأنها أساس انفتاح الذهن على آفاق جديدة في كافة القضايا الجوهرية. وبهذه الوسيلة نطّلع كل يوم على اطرف الأنباء وعلى اروع المساجلات النثرية والشعرية. وعلى سبيل المثال، نعلم « ان فلاناً ألّف افضل مسرحية في العالم عن الموضوع الفلاني، وان فلانة وضعت كلمات للحن الشهير المتداول، وان هذا نظم قصيدة غزل حول نعيم الملذات، وأن ذاك دبّج مقاطع صارمة عن الخيانة الزوجية، وان السيد فلان وجّه بالأمس بعض ابيات الى الآنسة فلانة وانها ارسلت له بدورها الردّ هذا الصباح حول الساعة الثامنة. وان هذا المؤلف صمّم على وضع كتاب جديد، وذلك وصل الى القسم الثالث في تأليف روايته، وان غيره سلم مخطوطه الى

المطبعة لنشره ». في الحقيقة، هذه الأخبار تضفي على اصحابها قيمة واعتباراً في المجتمع واذا تجاهلنا هذه الخاصّة لا يسعنا أن ننظر بإعجاب الى أي ذهن خلّاق، يودّ أن يلمع تحت سماء باريس في فن الكتابة.

كاثوس : فعلاً، انا اجد أن تبجّح المرء استعلاء سخيف، لا سيما اذا كان غير قادر على نظم اليسير من الأبيات كل يوم. وفي نظري انا، ارى كل معايب الدنيا تكمن في طرح السؤال عليّ عما اذا كنت شاهدت امرأً جديداً لم أبصره ابداً في حياتي، لأن حب الاستطلاع يستأثر بكل نشاطي.

مسكاري : حقاً ليس من شائبة أفظع من أن لا يطّلع الانسان على جميع ما يجري حوله في هذا العالم المتطوّر. لكن، لا تهتمّي للأمر، فأنا مستعدّ لأن استقطب حالاً مجمع الرجال الظرفاء في منزلك، وأعدك بأن لا ينظم افراد هذا المجمع بيت شعر واحد في باريس بدون أن أدعك تعرفين غيباً كافة الأبيات الأخرى. أمّا أنا فكما ترينني لا أتردّد لحظةً عن المساجلة ساعة اشاء. ولن تلبث ان تنتشر في شوارع باريس مئتان من الأغاني الجديدة المحبّبة، ومثلها قصائد عصماء، ثم اربعمئة بيت مدح وذم، واكثر من الف بيت شعر غزل فضلاً عن قصائد الوصف والأحاجي.

مكْدَلون : صدّقني، إني أعشق كل قصائد الوصف ولا أجد شعراً أرقّ منها.

مسكاري : صدقيني انت ايضاً ان قلت لك ان قصائد الوصف عسيرة وتتطلب خيالاً خصباً وتعبيراً عميق الفحوى، وانا لديّ منها ما يذهلك وينال اعجابك حتماً.

كاثوس : اما أنا فأميل كثيراً الى الأحاجي.

مسكاري : لأنها تنمّي سرعة الخاطر وقد نظمتُ منها اربعاً هذا الصباح بالذات. وسأرسل لك بعضها لتَحلّيها وتكتشفي مغازيها.

مكْدَلون : ليس اروع عندي من قصائد الغزل حين تكون موفقة الحبكة.

مسكاري : في هذا المجال عينه تجود قريحتي، وأنا الآن انظم قصيدة مطوّلة عن تاريخ الرومان الحافل بالمغامرات الغرامية.

مكْدَلون : طبعاً ستأتي أبياتك في منتهى الرقة والابداع. فأرجوك عندما تطبعها ان تزوّدني بنسخة من ديوانك الشعري هذا.

مسكاري : أعدك بأن أخصّك بنسخة من جميع منشوراتي التي أنوي ان اجعل تجليدها في غاية الاتقان، وإن فاقت تكاليفها إمكانيّاتي المادية. لأني افضّل ذلك لكي أتيح مجالاً أوسع لربح الناشرين والموزعين الذين لا يلبّون رغباتي بسهولة كما أشاء.

مكْدَلون : أعتقد أن ليس من لذة تفوق رؤية المرء مؤلفاته مطبوعة.

مسكاري : بدون شك. لكن، على ذكر المطبوعات، لا بد لي من أن أُعلمكِ بخبر مفاجئ عن نخبة من الأشعار ارتجلتها وانا في زيارة إحدى الدوقات من اصحابي، ولا أخفي عنكِ أني مغرم بمثل هذه الارتجالات.

كاثوس : حقاً، الارتجال هو حجر الزاوية لدى الأذهان المبدعة.

مسكاري : اسمعي اذاً :

مكْدَلون : كلّي آذان صاغية.

مسكاري :

لم أكن آبه لما يجري حولي
حين أبصرت عيونك كاللآلي
وحانت منك لفتة أسرت فؤادي،
فصرخت لا أبغي نجدة، وقد نلت جلّ مرادي.

كاثوس : يا الهي، ما اروع هذا الغزل الرقيق.

مسكاري : كل ما انظمه ينمّ عن روح الفروسية، ولا يمتّ بأية صلة الى التبجّح واللغْو.

مكْدَلون : طبعاً أنت بعيد جداً عن الأسفاف وحبّ الظهور.

مسكاري : هل لاحظت جمال هذا المطلع : « لم أكن آبه ».

مكْدَلون : اجل، أجده في غاية السلاسة.

مسكاري : أعتقد بأنه لا يستحقّ كل هذا الاعجاب.

كاثوس : يا الهي. ماذا تقول ؟ في الحقيقة، ليس أبلغ من تعبيرك هذا.

مكْدَلون : بدون شك، كأنه مطلع ملحمة بطولية.

مسكاري : لعمري إن ذوقكِ ممتاز.

مكْدَلون : انا أعلم أن ذوقي سليم وحسّي مرهف.

مسكاري : بربّك، ألّا يعجبك ايضاً تعبيري : « أبصرت عيونك كاللآلي ». انه حقاً وصف بارع. ثم تعبيري : « لفتة أسرت فؤادي ». وتعبيري الآخر : « هذا جلّ مرادي ». وكلها تشير الى أني بدون أن أقصد استرعاء الانتباه، قد نلت من التقدير أحلى ما أتمنّى.
كاثوس : فعلاً اجد نظمك موفقاً للغاية.
مسكاري : وتعبيري هذا : لا أبغي نجدةً، يدل على شدة شغفي، كأني مغتبط بوقوع فؤادي في الأسر.
مكْدَلون : كلها صِيَغ لا أرقّ ولا أحلى من وقعها في النفس.
مسكاري : اجمالاً، هناك انسجام ملحوظ وتماسك ملموس في سبك المعنى والمبنى معاً.
مكْدَلون : أولست من رأيي في هذا المجال ؟
مسكاري : ليتك تسمعين اللحن الذي ابتكرته لمرافقة انشاد هذه الرائعة.
كاثوس : هل تتقن الموسيقى ايضاً ؟
مسكاري : انا ؟ لا، لا، لست استاذ النغم.
كاثوس : وكيف لحّنتها اذاً ؟
مسكاري : النوابغ، كما تعلمين، يلمّون تقريباً بكل العلوم والفنون، بدون تكبّد عناء دَرْسها.
مكْدَلون : هذا طبيعي، يا عزيزتي.
مسكاري : انصتي وصارحيني إن استذوقتِ هذا اللحن. ولا تنسي أن سرعة تبدّلات الطقس قد أثّرت على اوتار حنجرتي. لكن هذا لا يهمّ كثيراً، فالجوهر هو النغم بحدّ ذاته وطريقة ادائه. (ينشد).
كاثوس : ما اعذب هذا اللحن الشيّق الذي يسحر الألباب.
مكْدَلون : حقاً، ان في هذه النبرات رخامة فريدة من نوعها.
مسكاري : التقلبات الصوتية هي التي تلفت الانتباه الى شجو هذه النبرات، وتأخذ بمجامع القلوب.
مكْدَلون : انها برهان ساطع على حسّ مرهف جداً. لأن انسجامها الشامل يطرب ارواح السامعين.

كاثوس : لم يبلغ اذني قبلاً أي نغم بهذا الجمال.

مسكاري : ان كل ما أُقدِم على نظمه من أشعار، وتأليفه من ألْحان يأتيني عفواً بدون اي جهد أو تكلُّف.

مكْدَلون : انا أعترف بأن الطبيعة كأمّ حنون قد جادت عليك بفيض من المواهب النادرة كأنك ابنها المدلّل.

مسكاري : هل لي أن أعرف كيف تقضين اوقات فراغك ؟

كاثوس : انها لا تنتج أي عمل ملحوظ.

مكْدَلون : لأننا مررنا مؤخراً بمرحلة صيام تام منقطعين عن كل نشاط وتسلية.

مسكاري : انا مستعد لأن أصطحبكما معي في يوم من الأيام، إن شئتما، الى المسرح حيث تُقدّم تمثيلية جديدة يسرّني أن أشاهدها برفقتكما.

مكْدَلون : هذا ليس بمرفوض.

مسكاري : غير أني أسألكِ ان تصفّقي كما يجب عندما نكون هناك، لأني تعهّدت بأن أروّج للمسرحية، وقد جاءني مؤلفها اليوم صباحاً يرجوني أن أقوم بهذه المهمّة. وهذه من عاداتنا نحن رجال المستوى الرفيع. فالمؤلّفون يقصدوننا ليقرأوا علينا مسرحيّاتهم الجديدة ويبيّنوا لنا مواطن طرافتها وتشويقها، كي نؤمّن لها الدعاية اللازمة لنجاحها. وهنا أترككِ توقنين بأننا حين نُعلن رأينا لا يجرؤ المشاهدون العاديّون أن يعارضونا. من جهتي انا شديد الدقة في هذا الموضوع، وعندما أُعد احد الشعراء بمساندته أصرخ عالياً : « هذا مظهر رائع يتجلّى فيه الجمال، امامه لا بدّ من اضاءة الشموع تقديراً وإعجاباً ».

مكْدَلون : لن تمعن في المديح كثيراً، فهذه باريس التي تستحقّ كل إطراء، وتحت سمائها تتمّ كل يوم مئات الإنجازات الجبارة التي تجهلها المناطق مهما حوت من الأذهان المتوقّدة.

كاثوس : كفى. وبما انّنا من المثقّفات سنقوم بواجبنا فنهتف ونصفّق كما يليق بالمقام.

مسكاري : لست ادري إن كنت مخطئاً حين أقول اني ارى على محياكما مسحةً تشير حتماً الى كونكما قد اشتركتما في بعض النشاطات المسرحية.

مكْدَلون : ليس مستغرباً أن نكون قد قمنا بمثل هذه الأعمال المشكورة.
مسكاري : لذا لا بد لي من أن أشاهد براعتكما. ولا اخفي عنكما أني ألّفت مسرحية سرعان ما أسعى الى تقديمها على المسرح.
كاثوس : ومَن من الممثلين تريد أن تكلف بتأدية ادوارها ؟
مسكاري : هذا سؤال وجيه. طبعاً سألجأ الى كبار الفنّانين، لأنهم وحدهم دون سواهم أهلٌ لإنتاج ما يستحق التقدير. أما المتطفّلون فليسوا إلّا جهلة لا يجيدون الالقاء بل يسردون الوقائع كأنهم يتكلّمون في الشارع، ولا يحسنون إلقاء الأشعار ولا يتقنون الوقف عند الاقتضاء لإبراز قيمة الأبيات المميّزة بوقوفهم في حينه، واسترعاء الانتباه الى روعة المواقف المدهشة وتجنّب الضجة المزعجة التي تذهب برونقها.
كاثوس : هناك اساليب خاصة لإبراز روائع الشعر أمام المشاهدين الذوّاقين. ما دامت هذه الأعمال لا تساوي إلّا ما نحسن نحن تبيين أحلى ما تشتمل عليه من المزايا الجوهرية.
مسكاري : فما رأيكما يا آنساتي الكريمتان ؟ هل ما ابديته لكما يحوز رضاكما ؟
كاثوس : كل الرضى.
مسكاري : اذاً تمّ الاتفاق على ما ذكرنا.
مكْدَلون : اتفاق شامل يبرهن على تطابق اذواقنا الفريدة.
مسكاري : والآن، ما رأيكما بهندامي ؟
مكْدَلون : كل ما فيه يدل على الأناقة.
مسكاري : ارجوك أن تعلمي أني أنتقي ملابسي كلها من أفخم المخازن.
مكْدَلون : لا مجال للنكران أن حُسْن الإختيار يتجلّى في زيّها وألوانها.
مسكاري : أنظري، بربّك، ما أبهي هذين القفازَيْن.
مكْدَلون : حقاً، هما من أفضل الأصناف.
كاثوس : انا لم ابصر أظرف منهما.
مسكاري : وما رأيكما بهذه ؟ (يطلب منهما أن يشمّا رائحة شعره المستعار).
مكْدَلون : هذا حتماً من أجود المصنوعات التي تلفت النظر ببهاء لونها.

مسكاري : أنت لم تبيّني لي رأيك في لون ريشات قبعتي. فكيف تجدينها ؟
كاثوس : جميلة للغاية.
مسكاري : هل تدرين ان كل واحدة منها كلّفتني ليرة ذهبية ؟ لأن من طبعي، عامةً أن أفضّل دائماً أحلى ما ألاقيه في الأسواق.
مكْدَلون : أؤكد لك أن أذواقنا متطابقة في كل المجالات. لأني أنا ايضاً أبحث، دائماً في ما ارتديه، عن أروع المستجدّات، حتى أني لا أرضى بأن اقتني إلّا أفخر الجوارب.
مسكاري (يهتف فجأة) : هاي، هاي. مهلاً. اراك تتفرّدين في احتكار كل الروائع، وهذا يدل على الأنانية وحب الظهور.
كاثوس : ماذا تقول ؟ ماذا دهاك ؟
مسكاري : هل انقلبتما كلتاكما معاً في آن واحد على ما اظهره من ميولي وحسناتي ؟ فهاجمْتُماني يميناً ويساراً. هذا يخالف أبسط حقوق الانسان، فمالت كفّة الميزان الى جهتكما، وعليّ أن أطالب بإنصافي.
كاثوس : لا بد لنا من الاقرار بأنك تعرض امورك بطريقة خاصة.
مكْدَلون : وان لك اسلوباً فريداً من نوعه يستحق الاعجاب.
كاثوس : وانك تخاف على سمعتك اكثر ممّا تخشى بوادر ما قد يلحق بك من شرّ، لذا تستنجد قبل أن ينالك اي أذى.
مسكاري : لماذا تبالغين هكذا ؟ فلقد تخدّش شعوري لمجرّد تصريحاتك بهذا المعنى.

المشهد العاشر

ماروت ومسكاري وكاثوس ومكدلون.

ماروت : خارجاً، شخص يطلب مقابلتك، يا سيدتي.
مكْدَلون : من هو ؟
ماروت : الفيكونت جودْلي.

مسكاري : الفيكونت جودلي ؟
ماروت : نعم، يا سيدي.
مسكاري : هو من أعزّ اصدقائي.
مكْدَلون : أدخليه حالاً.
مسكاري : لم نتقابل منذ بعض الوقت، وانا مسرور بمجيئه.
كاثوس : ها هوذا.

المشهد الحادي عشر

جودلي ومسكاري وكاثوس ومكدلون وماروت.

مسكاري : أهذا انت، يا فيكونت ؟
جودلي (يتعانقان) : وانت، يا مركيز ؟
مسكاري : كم أبهجتني مقابلتك.
جودلي : وانا سرني جداً وجودك هنا.
مسكاري : عانقني اذاً مرة ثانية، من فضلك.
مكْدَلون : الآن لمست اننا أحرزنا شهرة واسعة. فها هم كبار القوم يتواردون لزيارتنا.
مسكاري : يا آنستايَ، اسمحا لي بأن أقدّم لكما هذا الوجيه الفاضل. صدّقاني، انه يستحق ان تتعرّفا الى سموّ مقامه.
جودلي : زيارتكما هي بالنسبة اليّ من أوجب الواجبات. لأن جاذبيتكما تفرض على كل من يحترم نفسه من الطبقة العليا أن يُعجَب بصفاتكما وأفضالكما.
مكْدَلون : انت تمعن الى أبعد الحدود في إغداق المديح والثناء علينا.
كاثوس : حقاً ان يومنا هذا يستحقّ ان يسجّل في مذكّراتنا كأسعد ايام حياتنا.
مكدلون (لألْمنْزور) هيا، يا خادمنا الصغير، تحرّك. هل يتوجب ان نكرر عليك

باستمرار ما يتحتم أن تفعله من تلقاء ذاتك ؟ ألا ترى أن هذا السيد المحترم بحاجة الى مقعد وثير ليستريح عليه ؟

مسكاري : لا تتعجّبا من رؤية الفيكونت على هذا الحال. فقد غادر منذ فترة فراش المرض الذي ترك آثاره بظهور الشحوب على محياه كما تلاحظان ذلك جيداً.

جودلي : هذا ناجم عن تكرار السهرات في البلاط الملكي وعن توابع الحرب.

مسكاري : هل تعلمان، يا سيدتاي، انكما تنعمان الآن بمشاهدة أحد أبرز رجال عصرنا ؟ حقاً، هو انسان نادر الشجاعة.

جودلي : انت تبالغ ايها المركيز. وانا ايضاً على اطلاع تام بمقدرتك في اتيان جليل الأفعال.

مسكاري : طبعاً، كلانا تلاقينا معاً في عدّة مناسبات شهيرة.

جودلي : وفي أمكنة سادت عليها الحرارة الشديدة.

مسكاري (ينظر الى كاثوس ومكدلون) : أجل، لكن ليس أحر من هذا المكان. أليس كذلك ؟

جودلي : لقد عرف أحدنا الآخر في صفوف الجيش. واول مرة تلاقينا فيها كان صديقي المركيز مسكاري قائد فرقة الخيّالة، وكنا حينذاك على متن السفينة الحربية « مالطة ».

مسكاري : هذا صحيح. وكنت أنت قد شغلت هذا المنصب قبل أن اتقلّده انا. وأتذكّر حين كنت لا أزال ضابطاً صغيراً، أنك كنت أنت قائداً كبيراً تحت أمرتك ألفان من الخيّالة.

جودلي : الحرب واسعة المجال. أمّا البلاط الملكي فلا يكافئ اليوم كما يجب أشخاصاً مخلصين نشيطين مثلنا.

مسكاري : وهذا ما دعاني الى الانسحاب من الجيش وتعليق سيفي على الحائط.

كاثوس : لا تستغربا إن بحت لكما بأن لي ميلاً شديداً الى اصحاب السيوف.

كورْجيبوس : أنا أيضاً أحبّهم. غير أني أرغب في ان تتحلّى الشجاعة بانفتاح الذهن ايضاً.

مسكاري : هل تتذكّر، ايها الفيكونت، كيف انتزعنا الحصن من الاعداء اثناء حصار مدينة أرّاس ؟

جودلي : ماذا تعني بالحصن الذي كان بالحري قلعة منيعة ؟

مسكاري : أعتقد أن الحقّ الى جانبك.

جودلي : هذا ما أتذكّره جيداً جداً. لأني أُصبتُ هناك بجرح في فخذي على أثر انفجار قنبلة يدوية، وها هي آثار الجرح لا تزال ظاهرة. ارجوكِ، يا آنستي، أن تلمسيه لتقدّري كم كانت الإصابة عنيفة.

كاثوس (**بعد ان لمست آثار الجرح**) : لا سبيل الى الانكار أنه جرح عميق جداً.

مسكاري : هات يدكِ الآن، يا آنستي، والمسي جرحي هذا الذي أُصبت به في قفا عنقي. هل وصلتِ اليه ؟

مكْدَلون : اجل، انا احسّ بأن هناك أثراً بليغاً.

مسكاري : لقد تلقيت ضربة بندقية اثناء آخر معركة خضتها.

جودلي (**يكشف صدره**) : وهذه إصابة اخرى اخترقت جسمي اثناء هجوم موقعة « كرافلين ».

مسكاري (**يضع يده على حافّة جزمته العالية**) : اودّ ان اريك جرحاً بليغاً آخر.

مكْدَلون : لا حاجة الى ذلك. فأنا اصدّق قولك بدون أن أرى.

مسكاري : كل هذه الآثار إشارات مشرّفة تبرهن على قِيَم صاحبها.

كاثوس : نحن لا نشك بما أنتما عليه من المكانة المرموقة.

مسكاري : ايها الفيكونت، هل تنتظرك عربتك خارجاً ؟

جودلي : لماذا ؟

مسكاري : لكي نصطحب هاتين السيدتين الى نزهة طريفة، ونقدّم لكل منهما هدية تليق بها.

مكْدَلون : لا نستطيع أن نخرج اليوم.

مسكاري : اذاً لنستمع الى عزف الكمان هنا ونرقص.

جودلي : لعمري، هذا عرض طريف جاء في محله.

مكْدَلون : اذاً ما علينا إلّا أن نوافق. لكننا نحتاج الى مزيد من الأشخاص.

مسكاري : لدينا الشمبانيا والنبيذ البيكاردي والبوركوني والكسْاري والباسْكي والفرْدوري واللوراني والبروفنْسي والفيوليتي ... ولتحمل الشياطين كل الخدّام. انا لا أعتقد بأن في فرنسا وجيهاً تُقدَّم له خدمة أسوأ من التي تنوبني. إذ أن هؤلاء الأوغاد لا يلبثون أن يغادروني ويتركوني وحيداً.

مكْدَلون : يا ألْمنزور، قل لجماعة هذا السيد أن يذهبوا ويستدعوا عازفي الكمان، وادعوا هؤلاء السادة والسيدات الى هنا ليزيلوا الوحدة عن حفلتنا الراقصة. (يخرج ألْمنْزور).

مسكاري : ما رأيك في هذه العيون، يا فيكونت ؟

جودلي : بل ما قولك فيها أنت، يا مركيز ؟

مسكاري : أنا أتوقع أن لا تخرج معنوياتنا من هنا نقيةً طاهرة كما دخلنا هذا المنزل. من جهتي، أُحسّ بأن قلبي يخفق بشكل غير مألوف، ولا أعتقد أني سأنجو سالماً من الشِباك المنصوبة لنا.

مكْدَلون : كم أنت صادق في تصريحك عن انفعالات طبيعة الرجال، وفي وصفك اياها بأدقّ التعابير.

كاثوس : لا شك في أنه يترجم ردّة فعل المشاعر البديهية.

مسكاري : ولكي أُثبت لكما رهافة إحساسي، اليكما هذا الارتجال. (يتأمل قليلاً).

كاثوس : يلذّ لي ان افعل انا مثلك. لكني أشعر الآن بجفاف قريحتي نظراً الى ما أجهدت به فكري من العطاءات مؤخراً.

مسكاري : ما هذا التصريح الخطير. أنا أستسهل دوماً نظم مطلع القصيدة التي أبتكرها ولا سيما أول بيت منها، ثم أستصعب نظم باقي الأشعار. غير أن الوضع محرج بالنسبة الى ما يتطلبه من الاستعجال وسرعة الخاطر. مع ذلك سأرتجل لكما طبعاً ابياتاً فصيحة بليغة لا بد ان تنال إعجابكم.

جودلي : قريحته سيّالة كأن شيطان العَروض يُنزِل عليه أغزر الوحي وأبهجه.

مكْدَلون : طبعاً، في ميادين الغزل الرقيق وانسياب القوافي.

مسكاري : ارجوك، يا فيكونت، ان تقول لي هل مضى عليك زمن طويل بدون ان تشاهد الكونتيس.
جودلي : لم أزرها منذ اكثر من ثلاثة اسابيع.
مسكاري : هل تعلم ان الدوق جاء يزورني هذا الصباح، وأراد أن يصطحبني معه الى الريف لأشاركه في صيد الغزلان ؟
مكْدَلون : ها هنّ صديقاتي قد أَتَيْنَ.

المشهد الثاني عشر

جودلي ومسكاري وكاثوس ومكدلون وماروت ولوسيل.

مكْدَلون : يا الهي، استميحكنّ عذراً، يا عزيزاتي. لقد شاء هذان السيدان ان يضعا بتصرفنا عازفي الكمال لإتحافنا ببعض ألْحان الرقص. فأرسلنا في طلبكّن لملء الفراغ في اجتماعنا هذا بغية إقامة حفلة رقص شيّقة.
لوسيل : وقد سرّتنا هذه الدعوة بدون شك وسرعان ما لبّيناها.
مسكاري : هذه حفلة تقام على عجل. غير أننا ننوي أن ندعوكنّ في الأيام القليلة المقبلة الى حفلة أطرب وأبهج منها. هل وصل عازفو الكمان ؟
ألْمنْزور : أجل، يا سيدي، لقد حضروا الى هنا منذ لحظة.
كاثوس : هيا بنا اذاً، يا عزيزاتي، نجلس بعض الوقت ونستعدّ للرقص.
مسكاري (**يرقص وحده كمقدمة لبدء الحفلة وهو يُدَمْدِم**) : لا، لا، لا. لا، لا، لا.
مكْدَلون : ما أهيف قامته، وأرشق قدميه !
كاثوس : يبدو عليه أنه يتقن الرقص جيداً.
مسكاري (وقد طوّق خصر مكدلون ليراقصها) : استميح مراقصتك على هذا اللحن الجميل. كمْ يسيطر الجهل على هؤلاء الراقصين الذين لا يلمّون بخطواتهم كما يجب. لتحملْهم العفاريت، لأنهم لا يميّزون وقع الحركات الضرورية. لا، لا، لا. لا، لا، لا. عليكم أن تشدّدوا الايقاع، ايها العازفون القرويون.

جودلي (يباشر الرقص) : ما بالكم تستعجلون في نقل خطواتكم بأسرع مما يقتضيه اللحن المعزوف ؟ فأنا لم أغادر فراش المرض إلا منذ برهة وجيزة.

المشهد الثالث عشر

دي كراوزي، ولاكرانج ومسكاري، وجودلي.

لاكرانج (**والقضيب بيده**) : ماذا تفعلان هنا، ايها الوغدان، ونحن نبحث عنكما منذ ثلاث ساعات ؟

مسكاري (**يشعر بثقل الضربات المنهالة عليه**) : آي، آي. لم يقل لي أحد ان الضربات ستكال لي ها هنا.

جودلي : هذا نصيبك، يا دجّال. وقد شئت أن تتظاهر بأهميّة عظماء الرجال.

دي كرْوَازي : لقد حلّ بك ما يعرّفك قيمة نفسك. (يخرجون).

المشهد الرابع عشر

مسكاري، وجودلي، وكاثوس، ومكدلون.

مكْدَلون : ما معنى هذا التصرف غير المألوف ؟

جودلي : هذا رهان غريب.

كاثوس : ماذا تقول ؟ وكيف تركت الضربات تنهال عليك ؟

مسكاري : يا إلهي. لم أشأ أن أمانع، لأني حادّ الطبع وسريع الغضب.

مكْدَلون : وكيف أمكنك السكوت عن هذه المذلّة اثناء حضورنا ؟

مسكاري : هذا لا يهمّ. لنقف عند هذا الحدّ. إننا نعرف بعضنا بعضاً منذ زمن بعيد، وبين الأصحاب لا سبيل الى الشجار بسبب امور تافهة.

المشهد الخامس عشر

دي كروازي، ولاكرانج، وجودلي، ومسكاري. ومكدلون وكاثوس وعازفوا الكمان.

لاكرانج : أنا أعِدُكم بأني لن أدَعَكم تهزأون بي بعد الآن، ايها الحمقى. أدخلوا انتم ايضاً. (يدخل ثلاثة أو أربعة من القتلة المأجورين).

مكْدَلون : ما هذه الجسارة التي دعتكم الى الإقبال علينا لإزعاجنا هكذا في عقر دارنا ؟

دي كرْوَازي : كيف رضيتما، يا سيدتاي، بأن تعاملا خادمَيْنا معاملة افضل منّا شخصيّاً، وتدعاهما يجسران على مغازلتكما ومناجاتكما على حسابنا، ويقيمان لكما ولصديقاتكما هذه الحفلة الراقصة ؟

مكْدَلون : خادميكما انتما ؟

لاكرانج : اجل، خادمَيْنا نحن، ولا نجد أي شرف أو لياقة في أن تمازحاهما وتشاركاهما المجون كما فعلتما.

مكْدَلون : حقاً، هذه وقاحة لا تُطاق.

لاكرانج : غير أنهما لن يحظيا بميزة استخدام ملابسنا نحن سيّدَيْهما لكي يخدعاكما بمظاهرهما الكاذبة على هذا النحو. وإن شئتما أن تسلّياهما يكون ذلك من قِبَلكما اكراماً زائفاً لعينيهما البلقاوين. هيّا بنا نجرّدهما حالاً ممّا استعاراه خلسة من ملابسنا.

جودلي : وداعاً، يا اناقتنا الموقّتة العابرة.

مسكاري : لقد إمْتَهنا منصبينا كمركيز وفيكونت، ومرّغاهما في الأوحال.

دي كرْوَازي : تبّاً لكما من وغدين سافلين تجاسرتما على الادّعاء بمقامينا لتنالا حظوة في عيني هاتين الحسناوين. أؤكد لكما أنكما ستدفعان ثمن هذه الجسارة والاستخفاف غالياً.

لاكرانج : لا يسعنا أن نتحمّل إنتحالكما شخصيّتَيْنا ومنصبَيْنا واستعارة ملابسنا لهذه الغاية المنحطّة.

مسكاري : ما أتعس حظّنا العاثر الذي أوصلنا الى هذا الموقف الذليل.
دي كرْوَازي : هيّا بنا نخلع عنهما كل ما يسترهما.
لاكرانج : خذا هذه الأسمال وابعداها بسرعة عن هذا المكان. والآن، يا سيدتاي، يمكنكما أن تواصلا غراميّاتكما وتتدهورا الى أسفل المنحدر الذي ستتدحرجان عليه كما تشاءان الى أن تُدركا قعر الهاوية. اذ نترك لكما حرية التمرّغ في الأوحال ونحن نؤكد لكما، أنا وهذا السيد الأبيّ اننا سنكون بعيدَيْن عن الغيرة بُعد الأرض عن السماء.
كاثوس : ما هذه الفوضى وهذا الشغب ؟
مكْدَلون : انا أكاد أموت من شدة قهري وانفعالي.
عازفو الكمان (للمركيز) : ما هذه المهزلة ؟ من سيدفع لنا أجرنا ؟
مسكاري : إسألوا سيدي الفيكونت.
عازفو الكمان (للفيكونت) : من سيدفع لنا ما نستحقه من الماء لقاء عملنا ؟
جودلي : إسألوا سيدي المركيز.

المشهد السادس عشر

كورجيبوس ومسكاري وجودلي ومكدلون وكاثوس وعازفو الكمان.

كورْجيبوس : تبّاً لكما من لئيمَيْن وضعتمانا في مأزق حرج على ما أرى، وقد إطلعتُ الآن على قضايا غريبة حقّاً صدرت عن هذين السيدَيْن.
مكْدَلون : أؤكد لك، يا والدي، انهما مثّلا حيالنا رواية مأساوية.
كورْجيبوس : أجل، رواية مأساوية مكربة، تسنّى تمثيلها بسبب حماقتكما، ايتها الجاهلتان الدعيّتان. إذ لذّ لبطليها ان يستغلّا المعاملة المتمادية التي خصَصْتاهما بها. ومع ذلك، عليّ أنا المنكود الحظ أن أتحمل المذلّة التي نجمت عنها من جرّاء غبائكما.

مكْدَلون : أقسم لك، يا أبي، اني سأنتقم منهما شرّ انتقام، أو يقضي عليّ ما أذاقاني اياه من عذاب وقهر. وأنتما أيها المحتالان الدجّالان، هل تجسران على البقاء ها هنا بعد الآن، رغم وقاحتكما وخساستكما ؟

مسكاري : هل تعاملين هكذا سيادة المركيز ؟ هذا حقّاً سلوك المجتمع العصري المشين الذي يجعل الانسان يزدري بأعزّ القِيَم السامية. هيّا، يا صاح، نذهب ونبحث عن حسن الطالع في مكان آخر، لاني لا أجد هنا إلا الغرور وحبّ المظاهر الخداعة بعيداً عن تقدير الفضيلة والتجرّد عن أباطيل الدنيا.

(يخرج الأثنان).

المشهد السابع عشر

كورجيبوس ومكدلون وكاثوس وعازفو الكمان

عازفو الكمان : نحن بانتظار ان ترضينا عوضاً عنهما، وأن تدفع لنا أجر عزفنا ها هنا.

كورجيبوس (يضربهم) : نعم سأرضيكم، وهذه هي العملة التي تستحقونها. وأنتما ايتها الفتاتان اللتان تستحقّان الشفقة، لست ادري من يمسك بي ويمنعني عن أن أدفع لكما بالعملة ذاتها. وقد جعلتماني اضحوكةً وموضوع سخرية بين الناس. فإليكما بجزاء ما جلبتماه على رأسي ورأسيهما ايضاً من الحقارة بسوء تصرفاتكما. إمضيا واختبأ ايتها المستهترتان الغبيّتان وتواريا عن نظري الى الأبد. ولأنكِ تسبّبتي ببوادر الهوس، يا ايتها المتبجّحة البلهاء، والتسليات المستهترة التي تتقنها الغرائز الهزيلة الشاردة في الروايات والأشعار والأغاني والمسرحيات، أتمنى أن تحملكِ شياطين الجحيم الى النيران المتاججة اللهيب بلا انقطاع، لتنالي جزاء ما زيّنته لابنتي ولابنة اخي من حماقة الغرور وبلاهة الاستعلاء والتغافل عن جوهر الحياة.

(**تمّت**)

اسْکَاناریْل

أشخاص المسرحية

كوزْجيبوس: متوسّط الحال من سكان باريس.
سيلي : إبنته.
لالي : عاشق سيلي.
كرو رينيه : خادم لالي.
إسْكاناريل : متوسّط الحال من سكان باريس، ومخدوع موهوم.
زوجته .
فيلبروكان : والد فالير.
مرافقة سيلي.
قريب إسكاناريل.

الأحداث تجري في باريس.

المسرحية ذات فصل واحد
المشهد الأول

كورجيبوس، وسيلي، ومرافقتها.

سيلي (تخرج باكيةً، يتبعها والدها كورجيبوس) : لا تتأمّل منّي أن يلين قلبي فأوافق.

كوزْجيبوس : بماذا تتحجّجين، أيتها المغرورة الوقحة ؟ هل تنوين معارضة ما قرَّرت انا تحقيقه ؟ أوَتظنّين أني لن أخضعك تماماً لإرادتي ؟ تكونين حقّاً غبيّةً إذا اعتقدتِ أنك تستطيعين أن تعاندي مشيئة والدك. ألّا قولي لي من منّا نحن الاثنَيْن سيفرض شريعته على الآخر ؟ ومن منّا نحن الاثنين في نظرك أدرى بما يفيدك فعلاً ؟ إياكِ أن تغضبيني. وإلّا اضطررت، كما تعرفين أفضل، الى استخدام قوة زندي. عليكِ أيتها المتمرّدة الخبيثة ان تقبلي بدون أيّ تردّد مَن اخترته انا لك كزوج. حجّتكِ واهية بأنك تجهلين مزاجه، وأن عليه أن يسألك رأيك إن كان يعجبكِ أوْ لا. ان ما أعرفه جيداً هو أنه ورث مبلغاً كبيراً من المال يوازي حوالي عشرين أَلْف ليرة ذهبية، وأن مجرّد هذا الواقع لا بدّ أن يحوز رضاكِ. وعلى هذا الاساس أنا على يقين بأنه رجل شهم يستحقّ تقديركِ وقبولكِ.

سيلي : يا للأسف.

كوزْجيبوس : لماذا الأسف ؟ ألّا اعلمي أن غضبي بات وشيكاً. فتبصّري في

الأمر، قبل فوات الأوان، لئلّا تندمي ساعة لا ينفع الندم. عودي الى رشدك، ولا تتوهي في عالم القصص والروايات التي تغوصين في قراءتها، وتعبّئين رأسك بأوهامها الباطلة. هيا، يا سيلي، إستلهمي ربّك، وألقي هذه الكتابات المنحطّة الى النار، لأنها تفسد أخلاقك على غرار نزوات الشبيبة الخليعة. وبدل هذه التفاهات، يجب عليك ان تطالعي الكتب الرصينة القيّمة، وتكفّي عن إضاعة وقتك الثمين بتلاوة السخافات البذيئة، وان تدركي أنّ نصيحتي لك هي التي تهديك الى درب التعقّل والفضيلة، فتمتثلين راضيةً لتدابيري الصائبة التي تهدف الى إسعادك.

سيلي : ماذا تقول يا أبي ؟ هل تريد أن أنسى صداقتي للشاب لالي ؟ وقد شجّعتني في الماضي على الميل اليه وخطْب ودّه. فماذا حدا بك الى تغيير رأيك فيه الآن ؟

كورْجيبوس : في الحقيقة، اكتشفتُ اليوم ان رجلاً آخر هو أفضل من لالي، لأنه أغنى منه. كوني على يقين ان المال يُضفي على صاحبه اسمى الصفات. وإن كان مخلوقاً قبيحاً، يحوّله الى انسان جذاب مرموق يُلفت الأنظار ويسحر العقول. بدونه يمسي كل ما عداه كئيباً تنفر منه القلوب. أؤكّد لك بخصوص فالير الشخص الذي لا يرضيك، أني لا أستبعد أن يغدو زوجك، وإن لم يكن حبيبك، نظراً الى ما يملكه من أرزاق وافرة سيغدقها عليك حين تصبحين رفيقة حياته وترتبطين به بوثاق الزواج المبارك. ثقي بأن مثل هذا الزواج يولد الحب في أعماق القلوب. وها أنا ألحّ عليك كي تسترشدي بعقلك، وتكفّي عن عنادك ووقاحتك التي لن توصلك إلّا الى الشقاء والهلاك. اذاً يجب عليك أن تصغي الى ما أقوله لك : هذا الصهر، سيأتي مساءً لزيارتنا، فأسألك ان تُحْسني إستقباله وتسايريه وتواجهيه بمحيا بشوش ... ولا تضطرّيني الى ... لا أريد أن أطيل الشرح عليك في هذا الموضوع الذي اعتبره منتهياً، اذ لا يجمل بك ان تخرجي عن طاعتي الواجبة.

المشهد الثاني

سيلي، ومرافقتها

المرافقة : ماذا تفعلين، يا سيدتي ؟ هل ترفضين ما يتمناه الكثيرون كحلم ذهبيّ ؟ لماذا تقابلين عروض الزواج بما يسيل على خدّيْك من دموع، وتتأخرين في إعلان القبول ازاء كل هذه الحسنات المشوّقة ؟ يا للأسف. لماذا لا يهتمّ احد بتزويجي أنا ؟ مع أني لن أتردّد في الاستجابة بموافقتي حالاً. كوني على يقين بأني في مثل هذا الموقف سأهتف عشر مرات « نعم » بصوت جهوري، وانا واثقة بأن الحقّ الى جانب الاستاذ الذي يلقّن أخاك الصغير دروسه. فمن يناقش الأمور الدنيويّة، يقول إن المرأة كالنبات المتسلّق يتشبّث بالشجرة التي يلتفّ حول جذعها، ولا يعود عليه الانسلاخ عنه إلّا بأفدح الضرر. هذا ما اراه بكل وضوح بالنسبة الى مستقبلك، يا سيدتي العزيزة. يا إلهي، أرحْ نفس زوجي « مرتان » الذي كنت في أسعد أيام حياتي قبل أن يغادرني الى الآخرة. إذْ كنت مورّدة الوجنتَيْن، قريرة العين هنيئة العيش. بينما أنا الآن بعد رحيله عن هذا العالم، في حالة يرثى لها من التعاسة. أجل، ذلك الزمن السعيد مرّ بي بأسرع من لمح البصر. رغم أني كنت أنام ملء أجفاني بدون تدفئة في عزّ برد الشتاء. بل كنت لشدة حرارة جسمي أجفف الشرشف الذي أتمدّد عليه حتى إن كان مبلّلاً. أمّا اليوم، يا حسرتي، أرتجف برداً في عزّ حرّ الصيف لأني أنام وحدي. ثم صدّقيني يا سيدتي، ليس أسعد من المرأة التي تعيش في كنف زوجها، لا يفارقها، لا سيما ليلاً عندما تأوي الى فراشها. فيداعبها ويغازلها ولا يسهو عن باله أن يقول لها « نَشُو » إذا ما عطستْ.

سيلي : هل بوسعكِ أن تنصحيني بارتكاب حماقة التخلّي عن مودّة لالي، والقبول بذلك الأحمق الغبي ؟

المرافقة : ان صديقك لالي ليس في الحقيقة سوى بهيمة، إذْ إنه هو الذي لا يلبّي نداء قلبك عندما تحتاجين اليه. بل ألاحظ عليه، كما أرى، بعض التبدّل نحوك.

سيلي (تريها رسم لالي) : لا تحزنيني بهذا الخبر الكئيب، بل انظري بانتباه الى هذه الملامح الجذابة التي تبسم لي، وقد أقسم صاحبها يمين الولاء الدائم لحبي. انا لا أريد أن أصدّق ان باستطاعته ان يكذب عليّ ويخدعني، لأنه يمثّل في نظري شعلة الذكاء والوفاء التي لا تنطفئ.

المرافقة : لا انكر ان محياه يدلّ على أنه عاشق ولهان يهيم بحبك، وأنك من جهتك تهْوَيْنه من زمن بعيد.

سيلي : مع ذلك لا بدّ ... بالله عليك، أسنديني (تَدَع الرسم يسقط من يدها).

المرافقة : أرجوك، يا سيدتي، أن تعودي الى رشدك. يا الهي، ما لها قد فقدت وعيها ؟ إليّ، يا ناس، ساعدوني.

المشهد الثالث

سيلي، ومرافقتها، وإسكاناريل.

إسْكاناريل : ماذا جرى ؟ ها أنذا.

المرافقة : لست أدري ماذا حدث لسيدتي.

إسْكاناريل : ماذا حلّ بها ؟ هل من خطر يهدّد حياتها، يا ترى ؟ ظننت أن كل شيء ضاع من يدي، عندما سمعتك تصرخين وتستنجدين. على كل حال، أنا هنا. ما بك، يا سيدتي ؟ ماذا دهاها كي لا تجيب بكلمة ؟

المرافقة : سأستدعي من يساعدني على حملها. أرجوك أن تسندها.

المشهد الرابع

سيلي، واسكاناريل، وزوجته.

إسْكاناريل (وهو يضع يده على صدر سيلي) : هي باردة الجسم، ولا أدري ماذا أقول. سأتفحّص فمها لأُوقن بأنها تتنفّس. لست ادري. لكني اشعر بأن الحياة لا تزال تنبض في صدرها.

زوجة إسكاناريل (تنظر من خلال النافذة) : ماذا أرى ؟ زوجي وبين يديه ... لا بدّ لي من النزول اليه. إنه يخونني بدون شك. سأفاجئه بحضوري.

إسْكاناريل : يجب عليّ الاسراع الى إغاثتها. حتماً هي مخطئة في أن تدع نفسها تفارق الحياة. لأن مغادرة هذه الدنيا الى الآخرة حماقة لا مثيل لها، ما دام الانسان قادراً على البقاء فيها حيّاً. (يحملها بمساعدة رجل نادته المرافقة).

المشهد الخامس

زوجة اسكاناريل وحدها.

زوجة اسكاناريل : أراه قد ابتعد عن هذا المكان، فأثار في صدري التساؤل والشكّ بناءً على الوضع الذي باغتُّه فيه. فلم يعدْ لديّ الآن من ريب في انه يخونني. والآن لا أستغرب سبب برود عواطفه نحوي حين ألامسه بحياء، فلا يستجيب رغبتي، لأنه بإعراضه عني يخبّئ حنوّه ومغازلته لغيري من النساء. يُخيّل الي انه يلبّي أشواقهن ويحرمني مما يحقّ لي منها، أنا زوجته. وهذا مسلك أغلب الأزواج في محيطنا. يحومون كالفراشات حول الحسان، وفي بادئ الأمر يبدون كالحملان لطفاً ويظهرون اسمى العواطف. غير أن هؤلاء الخونة الخداعين لا يلبثون أن يبرزوا أنيابهم الحادّة كالذئاب المفترسة، بعد ان يشبعوا فهمهم وجشعهم من كنوزنا، ويهدرون من عواطفهم ما يتوجّب عليهم

ان يحفظوه لنا بحرص وأمانة. كم أتمنى لو تسمح لنا الظروف والقوانين باستبدال أزواجنا كما نُغيِّر ثيابنا، فهذا يلائمنا جداً. وهناك شاهدات صادقات نظيري على صحّة ما أقول، وزوجات مظلومات لا يُحصى عددهنّ، لسان حالهنّ لا يختلف عمّا أبديه من شكوى. (تَلُمّ الرسم الذي أوقعته سيلي على الأرض). لكن، ما هذه الجوهرة الثمية التي رماها القدر في طريقي ؟ الصورة جميلة والطلعة. بهيّة. لكن، مَنْ هو صاحبها يا ترى ؟

المشهد السادس

اسكاناريل، وزوجته

إسْكاناريل : يخالها المرء ميتة، إلّا أنها لا تزال على قيد الحياة. فهي تحتاج الى قليل من العناية، وليس من خطر يداهمها. ها أنا أبصر زوجتي مقبلةً.

زوجته : يا الهي. هذا رسم انسان ظريف وسيم الطلعة كأنه رسم رجل حيّ ينقصه سوى النطق.

إسْكاناريل (**على حدة، وهو ينظر من وراء كتف زوجته**) : بماذا تُمعن النظر يا ترى ؟ أُقسم بشرفي أني لا أرتاح الى هذا الرسم الذي يشبهني بصورة تزعجني.

زوجته (**تواصل كلامها بدون أن تبصره**) : لم أشاهد في حياتي جمالاً أبهى من هذا. انه لعمري جذّاب للغاية كالذهب الأصفر الرنان، البهيج اللمعان.

إسْكاناريل (**على حدة**) : ماذا أسمع ؟ تبّاً لها من وقحة لا تكتم شهواتها. ها أنا أُمسك الآن بخناقها.

زوجته (**تواصل كلامها**) : إني اعترف بما لِعَيْنَيْه من سحر أخّاذ، وأتوقّع أن يكون عناقه ألذّ ما في الامكان الحصول عليه، وإنْ صَدَقَ ظني، أعتقد أن وسامته وأساليبه تجعل إغراءه أحلى، والتجربة أصدق برهان. كم أتمنى أن

يكون لي زوج مشرق الوجه نظيره، بدل الرجل القبيح المقيت الخشن الطباع الذي بُليتُ به ...

إسْكاناريل (**ينتزع الرسم من يدها**) : تبّاً لك، ايتها العشيقة الشمطاء. ها أنا أضبطك بالجرم المشهود، وأنتِ تمرّغين بالوحل شرف زوجكِ العزيز الذي لا يساوي في نظرك، كما تتوهّمين، أيتها المرأة السافلة، ظفر زوجته المصون. أُقسم برئيس الشياطين بعل زبول الذي ألْتمسُ منه أن يدهورك في أعماق جحيمه حيث يحرقكِ بنيرانه المتأجّجة، وأؤكّد لك أنك لن تحظي بمحبّ أفضل مني انا المظلوم الواقع في هواك. مع ذلك، واحسرتاه، ليس هناك رجل آخر يعادلني برشاقة القوام فضلاً عن هيبتي الممتازة، ووجهي الصبوح المشرق بالحب والوفاء ؟ ثقي بأن في الكون أُلوف الحسناوات يتأوّهْنَ ويتلهّفْنَ ليلاً نهاراً للتمتّع بطلاوة حديثي وسحر شخصيتي، وأنت المستبدّة بقلبي لا تقنعين بما أُغدقه عليك بسخاء من عواطفي وألطافي، ولا ترتوي شهواتك الجشعة. اذ يلزمك بدلاً عني أنا الزوج المحافظ الأمين، عشيق شرهٌ لا حدود لرغباته الملحّة.

زوجته : الآن أدركت انا الى أين ستصل بسخريتك، ايها المتشامخ المغرور، وأنت تظن أنك بهذه الوسيلة ...

إسْكاناريل : ارجوك أن تكفّي عن هذا الهراء. فالمسألة جدّيّة، وانا أمسك بيدي شهادةً صريحة تثبت انحراف سلوكك الحقير الذي يقضّ مضجعي.

زوجته : غيظي بلغ ذروته. وأخشى أن ينفجر غضبي بعنف. فلا تَزد الطين بلّة بأضافة إهانة جديدة الى سوء معاملتكَ. إسمع، ولا تظنّ أنك تحتكر عنفوان انوثتي، بل فكّر قليلاً ...

إسْكاناريل : انا افكّر بأن أقصف رقبتك وعمرك. لأني لا أمسك بنسخة الرسم بل بالصورة الاصلية.

زوجته : ماذا تعني ؟

إسْكاناريل : لا شيء، يا عزيزتي. فأنت ملاك طاهر نازل من السماء. ويعزّ عليّ أن اعلن شكواي، وجبهتي العالية تأبى إلّا أن تُشيد بفضيلتك (ينظر الى

رسم لالي) ها هوذا الشاب الوسيم، والحاضن البارع الذي يُزكي جذوة غرامك الخفي، هذا الغبي الذي ...

زوجته : ماذا تقصد ؟ أفصِح، ايها الجبان.

إسْكاناريل : الذي معه ... أني استشيط غيظاً لمجرد ذكر اسمه.

زوجته : ماذا تقصّ علي من خرافات، ايها السكّير المعتوه ؟

إسْكاناريل : انت لا تريدين ان تفقهي ما أقول، يا سيدتي الفهيمة المدّعية. ألَا اعلمي ان اسم إسكاناريل مقدّس في كل زمان ومكان. وعمّا قريب سأُدْعى المولى كورنيليوس. أما حضرتك فستظلين بعيدة بمراحل عن مثل هذا اللقب النبيل.

زوجته : ها، ها. منذ متى أنت تخاطبني بمثل هذه اللهجة المتعجرفة ؟

إسْكاناريل : اراكِ بدأت تجسرين على مجابهتي.

زوجته : واين ترى جسارتي ؟ تكلّم بوضوح لا بالتلميح.

إسْكاناريل : لم يعد من فائدة لشكواي. لأنك كالعنزة الشاردة تجدين دائماً مهرباً من قبائحك.

زوجته : اصمت ايها الزوج الجبان المنحوس. بعد أن أهنتني، ها أنت تتحدّاني وتحرضني على معاقبتك بسبب حقارتك التي تثير غضبي. وأنت تقصد أن تتسلّى على حساب عواطفي، وتحثني هكذا على الإزدراء بأساليبك الغبيّة، وأنت تتجاهل ان الشتيمة على لسانك هي نوع من الاقرار بحقارتك.

إسْكاناريل : تبّاً لوقاحتك، ايتها السافلة. ان من يسمع كلامك يتبيّن له فوراً انك أردأ إمرأة بين حثالة البشر.

زوجته : هيّا اذهب الى خليلاتك وتمرّغ في أحضانهنّ. وقدّم لهنّ تبجيلك وعواطفك المخلصة السامية. لكن إياك أن تتأخّر عن ردّ هذا الرسم لي، وحذارِ أن تسوِّل لك نفسك بأن تستخفّ بي بعد الآن.

إسْكاناريل (يركض وراءها) : هل تظنّين انك قادرة على الإفلات من قبضتي، يا فاجرة. سأقتصّ منك بشتّى الوسائل.

المشهد السابع

لالي، وكرو رينيه

كرُو رينيه : اخيراً اجتمعنا، يا سيدي. فأرجوك ان تفيدني عن أمرٍ تهمني معرفته.

لالي : تكلّم، ماذا تريد ؟

كرُو رينيه : هل أنت من الجنّ أم من البشر حتى تتحمّل مثل هذه المشقة ؟ فمنذ ثمانية أيام كاملة، وأنت تواصل جهودك، بينما أنا قد أرهقني التعب واللّهاث من جرّاء متابعتي سعيك خلال يوم واحد فقط. ها أنا أشعر بأن جميع اعضاء جسمي محطّمة، وبدون أن أكون قد قمت بعمل مرهق أراني مقصّراً لا سيّما في مكان ما من جسمي لا أودّ أن أسمّيه. بينما أنت لا تزال تتمتع بهمتك، كأن كل ما أقدمت عليه من أعمال لم يكن، طبعاً بدون أن ترتاح، وتنعم بنشاط فائق أحسدك عليه.

لالي : هذا المجهود البسيط الذي تشيد به لا يستحقّ كل هذا الإطراء. وأنا، لأجل معلوماتك، يشقّ عليّ أن يتمّ زواج سيلي. وأنت تعلم كم أنا أهيم بحبها، وأُصرّ على معرفة أين صارت قضيتها المشؤومة.

كرُو رينيه : اجل، لكنك تحتاج الى تناول وجبة طعام ضرورية، ثم تذهب، يا سيدي، كي تستفهم عن المسألة، وتريح قلبك من وخْزات الشوك المتعبة، وتتمكن بالتالي من التغلّب على غدرات الزمان. أنا عارف، بمجرّد القياس على ذاتي، بكل شاردة وواردة لا أستطيع أن اتبيّنها وأتحاشاها، عندما يكون بطني خالياً خاوياً. غير أني عندما اشبع، أكون أقدر على مجابهتها مهما كانت الظروف حرجة. ولكي تسدّ السُبُل في وجه الألم وتتخلّص من العذاب المضني، عليك أن تجرع عشرين قدحاً، فتصمد وتتغلّب على محنتك.

لالي : لا شهية لي للأكل.

كرُو رينيه : سأفعل المستحيل لكي تكون الأطعمة جاهزة حالاً.

لالي : آمرك بأن تصمت فوراً.

كرُو رينيه : تبّاً لهذا التصرّف غير الانساني.
لالي : انا قلق، ولست جائعاً.
كرُو رينيه : أمّا أنا، فالهمّ ينخر قلبي والجوع ينهش معدتي بسبب ما يستحوذ على تفكيرك من الهوس وحماقة الحب.
لالي : دَعْني استفسرْ عمّا يُقلق بالي، وكفَّ عن مضايقتي، واذهبْ لتأكل.
كرُو رينيه : لا قِبَل لي ان أخالف طلبك، يا سيدي.

المشهد الثامن

لالي وحده

لالي : كلّا، ثم كلّا. يجب عليّ أن لا أستسلم الى الخوف. فأبوها قد وعدني خيراً، وابنته أبدت استعدادها لمساندة حبّي، وفتحت لي باب الأمل باستجابة نداء فؤادي.

المشهد التاسع

اسكاناريل، ولالي

إسْكاناريل : لقد وصلنا إليه، ويمكنني أن أرى بسهولةٍ سحنة هذا الشقي الذي سبّب لي مشكلتي بدون أن أعرفه.
لالي (على حدة) : يا الهي، ماذا أرى هنا ؟ وإذا كان هذا رسمي، فماذا عليّ أن أظن نفسي ؟
إسْكاناريل (يواصل كلامه) وَيْحي أنا اسكاناريل. ما هذا المصير، لقد تمرّغتْ

سمعتي في أقذر الاوحال. (يبصر لالي الذي ينظر اليه شذراً، فيدير وجهه الى الجهة الأخرى) هل تحتّم عليّ ؟ ...

لالي (**على حدة**) : هذا الرسم الذي يقلقني، لا يمكن أن يخرج من يَدَيْن استلمتاه منّي.

إسْكاناريل : هل تحتّم عليّ من الآن وصاعداً ان يُشار اليّ بالبنان، وأن يلهج الناس بذكر عار لطّخت بها جبيني امرأة حمقاء منحطة الاخلاق ؟

لالي (**على حدة**) : هل أنا أخدع ذاتي ؟

إسْكاناريل : تبّاً لكِ من متهتكٍ. كيف تجاسرتَ على خداعي وخيانة عهدي، وانا في عزّ الشباب. تبّاً لكِ من عاهرة يا زوجة الرجل الأمين الذي لا يصعب عليه ان يغري أطهر العذارى، وأنتِ تَدّعين أسخف الأغبياء وأفسق الخدّاعين أن ...

لالي (**على حدة، وهو لا يزال يتأمّل الرسم**) : أنا لا أبالغ مطلقاً. حقاً هذا هو رسمي أنا بالذات.

إسْكاناريل (**يدير له ظهره**) : هذا الرجل عجيب غريب.

لالي (**على حدة**) : ليس لدهشتي من حدود أمام هذا الواقع المذهل.

إسْكاناريل : من تراه يقصد ؟

لالي (**على حدة**) : أودّ أن أواجهه. (بصوت عالٍ) من فضلك، هل يسعني أن أقول لك كلمة ؟

إسْكاناريل (**يتهرّب منه**) : ماذا يريد هذا الإنسان أن يقصّ عليّ من روايات ؟

لالي : هل لي أن أعرف أية صدفة وضعت رسمي بين يديك ؟

إسْكاناريل (**على حدة، يتفحّص الرسم الذي يمسك به، ويشاركه بذلك لالي**) : من أوحى اليه بهذه المَيْل، يا ترى ؟ سأحاول الإهتداء الى حلّ هذه الاحجية. ها أنا على وشك إيجاد تفسير لإستغرابي تهوّره. وهذه المفاجأة لم تعد تقلق بالي. فها هو الرجل الذي أبحث عنه. أجل، ولا بدّ من أن يكون عشيق زوجتي بالذات.

لالي : لا تورّطني بما أنا منه براء. من أين حلّت عليك هذه التهمة ؟ ...

إسْكاناريل : ها قد أدركت، والحمد لله، ما يشغل بالك، ايها المراوغ. فهذا

هو رسمك، وقد كان في يد صاحبتك. لم تعد علاقتك بها سرّاً من الاسرار، ولا المغازلات التي طالما دارت بينك وبينها. غير أني لست أدري بعد، إن كانت حضرتها تعلم بأني مطّلع على تفانيها في سبيل إرضاء شهواتها الدنسة ردّاً على استفزازاتها وإغراءاتك. إعلم أن معرفتك لا تشرفني، وأني أُصرّ على امتناعك من الآن وصاعداً عن مطارحة زوجتي الغرام. عليك أن تضع دوماً نصب عينيك أنّ وثاق الزواج المقدس يربطها بي أنا.

لالي : ماذا تقول ؟ وأية امرأة تعني بكلامك هذا غير المعقول ؟

إسْكاناريل : أجل، هي قرينتي، وأنا زوجها الشرعي.

لالي : انت زوجها ؟

إسْكاناريل : نعم، نعم. أؤكد لك أني زوجها شرعيّاً. ها أنت قد عرفت الآن هذه الحقيقة الأكيدة، ولن ألْبث أن أعلم حتماً أهلها أيضاً بما جرى.

المشهد العاشر

لالي وحده

لالي : ما أتعسني. ماذا طرق سمعي ؟ تبّاً لها من زوجة حقيرة، جرّت علي الويل والمذلّة. لقد أقسمتْ لي ألْف مرّة ان تظلّ وفيّةً لحبّي أنا. لكنها خدعتني ولطّخت اسمي بالعار، رغم كل إخلاصي الذي أحفظه لها، وها هي تخون زوجها، تبّاً لها من ناكرة الجميل، بادلتْ مودتي بنفاقها وسفالتها. وراحتْ تُشهّر بي وتحطّم قلبي، ولا تتورّع عن بلبلة أفكاري وإرهاق عقلي وجسمي.

المشهد الحادي عشر

لالي، وزوجة اسكاناريل

زوجة اسكاناريل (تلتفت الى لالي) : رغماً عني، أيها الجاحد ... آسف للعلّة التي أبليتني بها، وألْتمس لك أن تصاب بأضعاف أضعافها.

لالي : هذا الداء قد حلّ بي بغتةً.

زوجة اسكاناريل : أخشى عليك من هذا الدوار. يمكنك أن تدخل الى هذه القاعة، ريثما تزول عنك عوارضه.

لالي : إني أقبل بهذا الاقتراح برهةً وجيزة.

المشهد الثاني عشر

اسكاناريل، ونسيب زوجته

النسيب : انا أُؤكّد طبعاً أنّ هذا الزوج ينوء تحت وقر الهموم، وان كل ما سمعته من اتهامات يوجهها الى قرينته لا يُثبت أنها خدعته. في الحقيقة هذا وضع خطير يحتاج الى برهان دامغ.

إسْكاناريل : وهذا يعني أن لا بدّ من ضبطها بالجرم المشهود.

النسيب : العجلة في هذه القضية توقع في شتى الأخطاء والمحاذير. اذ إن حصر التهمة بشخص معيَّن، ربما تكون باطلة، لأن المجرم الحقيقي لا يزال مجهولاً ومتى انكشف امره لا بدّ من الاقتصاص منه بشدة وإنزال أقصى العقوبة به.

المشهد الثالث عشر

اسكاناريل وحده.

إسْكاناريل : ليس أفضل من هذا القول السديد. في الواقع هذا إستنتاج صحيح. والأَوْلى أن تسير الأمور بتمهّل. ربما تسرّعتُ أنا في توجيه إتهاماتي المحرجة، ويجمل بي أن أتروّى. لأن هذا الرسم لا يثبت ان كرامتي مهانة. فلا بدّ لي من الاجتهاد لاظهار الحقيقة ...

المشهد الرابع عشر

اسكاناريل، وزوجته، ولالي

(وهو يقف أمام باب إسكاناريل، ويخاطب زوجة هذا الأخير).

إسْكاناريل (يواصل كلامه) : ماذا أرى ؟ أنا مُشْرِف على الهلاك. إذْ لم يَعُد الموضوع محصوراً بالرسم ضمن هذا الإطار، ما دمتُ الآن أُبصر المعضلة على جليّتها.

زوجة اسكاناريل (توجّه حديثها الى لالي) : لقد استعجلت، يا سيدي، بالتصريح عمّا يزعجك. فإذا تريّثتَ قليلاً في تأكيد أقوالك، ربما صحّحت وأوضحتَ حقيقة الموقف الراهن.

لالي : لا، لا. انا لا أنكر المعروف الذي أَوْلَيْتني اياه.

إسْكاناريل (على حدة) : لم يُسقِط قناعه بعد تماماً عن وجهه، وإن استدرك ما وَجّهته اليه من إتهام.

المشهد الخامس عشر

اسكاناريل، ولالي.

إسْكاناريل (على حدة) : لقد شاهدني. فماذا يريد منّي، يا ترى ؟
لالي (على حدة) : نفسي حائرة، وهذا الموضوع الدقيق يشغل بالي. وعليّ ان اتجنّب هذا التأثر الغريب الذي استولى عليّ. فهل أُنْسَبُ غَبْني الى حظي العاثر ؟ على كل حال، لا بدّ لي من أن أستأنس بدفْء حبّها. (يمرّ بجانبه وينظر اليه بإعجاب) ما اسعده في رعاية هذه المرأة الجميلة.

المشهد السادس عشر

اسكاناريل، وسيلي

(وهي تشاهد لالي يخرج).

إسْكاناريل (بدون ان يبصر سيلي) : ليس من تفاهم عَبْر هذه الالفاظ المعقّدة. ان هذا الموضوع المحرج يغمر نفسي حيرةً كأن هموم الدنيا تنهال على رأسي. (يدير وجهه الى الجهة التي خرج منها لالي) هذا الاسلوب بعيد عن الشهامة بُعْد السماء عن الأرض.
سيلي (على حدة) : ماذا أرى ؟ لقد أبصرت لالي في هذه اللحظة، ولم يَعُدْ لديّ من شكّ بأنه عاد الى هنا.
إسْكاناريل (يتابع قوله) : أجل، ما اسعده في رعاية هذه المرأة الجميلة، أو بالحري، ما أشْقاه بارتباطه بهذه الحية الرقطاء التي تلطّخ شهواتُها أطهر القلوب، ما دامت لا تحترم عهداً ولا ترعى ودّاً، ولا تتورّع عن الخداع والمراوغة. (تقترب سيلي منه رويداً رويداً، وتنتظر حتى تهدأ نوعاً ما ثورة غضبه لكي

تخاطبه) : هل أتركها تتمرّغ هي بهذه الدناءات، وأظلّ أنا مكتوف اليدَيْن كغبيّ مغفّل تخونه زوجته في رابعة النهار ؟ كان عليّ ان انتزع قبعته عن رأسه، أو أن أُوسّخ رداءه بالاقذار، وأفضحه بصوت عالٍ كلصّ يختلس ويُلوّث عِرْض جاره.

سيلي : كيف عرفتَ مَن جاء الآن الى هنا وكلّمكَ ؟

إسْكاناريل : يؤسفني ان لا أعرفه أنا، يا سيدتي، فهي زوجتي التي تعرفه.

سيلي : لماذا أنت مضطرب هكذا ؟

إسْكاناريل : لا تزيدي الطين بلّة، بل دَعِيني وشأني، لعلّي أُفرّج كربتي بالآهات قليلاً.

سيلي : كيف انتابتك هذه الهموم غير المألوفة ؟

إسْكاناريل : إن كنت منقبض الصدر، فحتماً لسبب وجيه، أتخلّى عن تاليه لسواي بملء الرضى. فما كآبتي وحزني إلّا من مظاهر الأزواج التعساء المحزونين، وقد استباحت الدناءة عِرْضي ومرّغ الغدر اسمي بأوحال الدعارة.

سيلي : كيف تمّ ذلك ؟

إسْكاناريل : هذا المتأنّق الظريف الذي يكلّمني الآن بمنتهى الوقار، هو الذي هتك عِرْضي، يا سيدتي، بوقاحة ونذالة. وقد ثبت لي اليوم ما يتبادله سرّاً هو وزوجتي السافلة من الغزل الإباحي والوصال المحرَّم.

سيلي : ان من يعبث بحبّي يبدو الآن ...

إسْكاناريل : نعم، نعم، إن من يدنّس شرفي هو مغرم بزوجتي، وهي بدورها هائمة في هواه.

سيلي : كم استبعدت هذه العلاقة الخفيّة، وكم انا حزينة ومكسوفة باكتشافي هذا الجرم الخسيس. ها أنا أرتجف انفعالاً لعلمي بهذا السلوك الذميم الذي كنت أخشى أن يجرح شعوري يوماً في الصميم.

إسْكاناريل : اراكِ تنظرين الى دفاعي عن كرامتي بكثير من العطف والرقة. وانا اشكرك على هذه الطيبة النادرة. فكم من الذين دَرَوْا بمصابي لم يتورّعوا عن الاستخفاف بي والهزء بغفلتي.

سيلي : اني أشاطرك أساك وأرثي لحالكَ، وأتساءل أَلَيْس من عقاب يردع هذه

الوقاحة والدناءة ؟ أنا أردفُ للوعتك وخيبتك في هذه الحياة بعد استباحة أعزّ ما لديك، وأكاد لا أصدّق ان ذلك حدث فعلاً.

إسْكاناريل : لا أشَقَّ من وطأة هذا الواقع بالنسبة اليّ.

سيلي : تبّاً لها من تافهة حقيرة، تشمئزّ نفسي من خساستها.

إسْكاناريل : وما أنبل روحكِ.

سيلي : اعتقد ان نار الجحيم غير كافية للإقتصاص من سفالتها ولؤْمها.

إسْكاناريل : ما هذا الكلام الصارم ؟

سيلي : أهذا جزاء براءتكَ ووفائك ؟ تبّاً لخائنة العهود.

إسْكاناريل (**يتنهّد عالياً**) : آه، ثم آه.

سيلي : تصرفها الأرعن غريب عجيب، يستدعي كل ما يتحتّم أن يحل بها من المآسي.

إسْكاناريل : هذا صحيح.

سيلي : أجل ... غير أن فؤاديّ لا يتحمّل ما لا بد من أن تقاسيه أنت من مرارة بسبب سلوكها المشين.

إسْكاناريل : لا تستائي، ولا تحقدي هكذا، يا سيدتي العزيزة، فإنّي أعلم جيداً ان مصابي يزعجك كثيراً، بمقدار ما حطّمت خيانتها آمالي وبددت أحلامي.

سيلي : لا تتكدّر وتتصوّر عبثاً أني بدون داعٍ أرقّ لشكواك وبلواك. فإن قلبي لكي ينتقم من خداعها يعرف جيداً ماذا تستحقّ على عهرها، وانا مستعجلة لتنفيذه فيها بدون إمهال.

المشهد السابع عشر

إسكاناريل

(**لوحده**)

إسْكاناريل : حماها الله من المخاطر. ما أصوب تفكيرها بالانتقام لكرامتي. إن ثورة غضبها بسبب إذلالي، تؤكّد ما يجب علي أن أفعله. إذ لا سبيل الى

السكوت عن مثل هذه الاهانات، وإلّا عُدَّ تماهاي جبانة مني. هيّا بنا نبحث عن الشقي الذي طعن كرامتي بخنجر مَكْره. عليّ أن أثبت لك شجاعتي في غسل عاري. آه منك، يا لئيم، يا سالب الأعراض. سأعلّمك كيف تستخفّ بطيبة قلبي، وتتمادى في اغراء زوجتي (يلتفت بعد ان يتقدّم ثلاث أو أربع خطوات) : مهلاً من فضلكِ، إذ يبدو على هذا الرجل ان دمه يغلي في عروقه، وأن أهواءه تتمرّد على المبادئ الاجتماعية، فيكرّر ذنوبه واعتداءاته، ويحاول أن يحمّلني عار استهتاره وتهتّكه، ويُسَوِّد صفحة شهامتي. ولأني اكره كل انواع العنف، وأتحاشى التهجّم خشية أن أثير عليّ الأحقاد، أجدني أقرب من أي إنسان سواي الى التمسّك بأهداب الفضيلة. ولكن مروءتي تأبى عليّ السكوت عن الحقارات والاهانات التي لحقت بي، فلا بدّ لي من المبادرة الى الثأر والإنتقام. يمكنه أن يتبجّح بقدر ما يشاء. ستحمله الأبالسة الى اعماق الجحيم. ولن أتقاعس عن اختراق صدره بنصلة سكيني المرهفة لإرواء غليلي الى أخذ ثأري حتى إن ذاع خبر موتي على اثر مغامرتي هذه. فكل شيء يهون لديّ في سبيل غسل عاري. مع أني أفضّل ألف مرة ان يقال عني اني مخدوع جبان، على أن يترحّم الناس على نفسي بعد وفاتي. تبّاً للنعش الذي سيحوي جثماني، لأنه مظلم كالمثوى الأخير الذي سيضم رفاتي. وتبّاً لمن بخداعه وخيانته دفعني الى هذا المصير البائس باعتدائه على كرامتي واستباحته عِرْضي. وتبّاً أَلْف مرة لزوجتي التي بِطَيْشها وانحراف شهواتها حادت عن طريق العفّة والوفاء لي أنا زوجها رغم أمانتي. ما ذنبي أنا حتى تحمّلني وزر شرودها واستهتارها ؟ هذا في الحقيقة جرم يستدعي تدخّل رجال الشرطة والعدالة، فيترتّب عليهم أن يدينوا المعتدي ويعاقبوه، ويعيدوا الحق الى نصابه. حتى اذا استقام ميزان العدل، يُوضع حدّ للمشاحنات والنزاعات والدعاوى والجوع والعطش والمرض. فيعيش البشر بسلام في منأى عن الحماقات والتعدّيات، أجل، يجب أن يأخذ العدل مجراه وترجع الأمور الى مسارها الطبيعي. فلماذا أذرف انا الدموع وحدي حَسْرةً، وغيري ينعم في الاستسلام الى أهوائه ونزواته ؟ أنا لست الوحيد في هذا الوضع المشؤوم، ارى زوجتي تتمرّغ في أحضان سواي من الرجال. كلّا لن أصمت ولن أكظم غيظي، لأن هذه الخيانة

ليست تافهة، بل هي من أفظع المشاكل وأحطّها. لذا لن أتردّد لحظة في الاقدام على عمل ما ينبغي لاسترداد شرفي. ولو غامرت وخاطرت بحياتي. (يضع يده على بطنه) ها أنا أشعر بأن أحشائي تتمزّق. فمن ذا الذي ينصحني بإجراء ما يلزم لتلافي أسباب دائي وعواقبه ؟ هذا هو مفعول الغضب، ويصعب عليّ أن أُدْعَى جباناً. لا بد لي من الانتقام لكرامتي مِمَّن إمتهنها وداس شرفي ومشاعري. فلن أسكت على إساءته، وسأعلن للملأ أنه استباح مضاجعة زوجتي، ولا بد من الفتك به.

المشهد الثامن عشر

كورْجيبوس، وسيلي، ومرافقتها.

سيلي : أجل، أنا مستعدّة لتحمّل مسؤوليتي. ويمكنك، يا أبي، أن تتصرّف بأُمنياتي وبمصيري ايضاً. وتستطيع ان توقّع عقد زفافي حين تشاء وإلى من تجده انسب من سواه. فأنا مصمّمة على القيام بواجبي البنوي كاملاً. وأعترف بأني تجاوزت قليلاً رغبتك في تفضيلي إرضاء عواطفي. لكنني الآن على أتمّ الأهبة لإطاعة أوامرك.

كورْجيبوس : هذا كلام يُعجبني، وأنا سعيد للغاية بسماعه. اقتربي مني كي أعانقك، لأن ما تلفظتِ به يستحقّ التقدير، ولأن للأب الحقّ بأن يقبّل ابنته حين يحلو له، بدون ان يبدي أحد أي اعتراض. واليوم وقد رضيت بأن تمتثلي لإرادتي، أشعر بأني قد رجعت عشرْ سنين بعمري الى الوراء، وتنشّطْتُ كأني في عزّ الشباب.

المشهد التاسع عشر

سيلي، ومرافقتها

المرافقة : هذا التغيير يدهشني ويحيّرني.
سيلي : عندما تعرفين دوافعي ستُعجبين ببراعتي.
المرافقة : لا أشكّ في ذلك.
سيلي : إعلمي اذاً أن لالي قد جرح فؤادي بتصرّفه الغبي، وأنه جاء إلى هنا ولم ...
المرافقة : ها هو مقبل الينا.

المشهد العشرون

سيلي، ولالي، والمرافقة

لالي : قبل أن أُغادرك، أودّ أن أُعاتبك على الأقل ...
سيلي : ماذا تقول ؟ تريد أن تلومني، وهل تجرؤ على ذلك ؟
لالي : لا شكّ في أن الأمر مريع، لكن هذا ما وقع عليه اختيارك. فإن لم أعاتبكِ أُصبِحُ مجرماً. أتمنّى لكِ السعادة والهناء، وأرجو أن تَذْكُريني على الدوام، وتَذْكري الزوج الكريم الذي كان سيغمركِ بالعزّ والدلال.
سيلي : من تعني، يا مغفّل ؟ أنا أصرّ على أن أحيا مبتهجة، وأُمنيتي الكبرى ان أراك مقهوراً تعيساً.
لالي : وماذا أثار حقدك عليّ ؟
سيلي : أين الحقد ؟ وهل تتعجّب اذا لم تبرحْ جريمتك من ذهني ؟

المشهد الواحد والعشرون

سيلي، ولالي، واسكاناريل، والمرافقة

إسْكاناريل (**يدخل مسلّحاً**) : الحرب، الحرب. الموت لعديم الشرف الذي بدون رحمة ولا شفقة داس كرامتي.

سيلي (**تخاطب لالي**) : حوّل غضبك عنّي، ولا تضطرني الى الردّ عليك بهذه اللهجة.

لالي : فهمت الآن قصدكِ ...

سيلي : هذا الموضوع يكفي لكي يخجلكَ.

لالي : لكن ذلك يجعلكِ تحمّرين أنتِ حياءً.

إسْكاناريل : لم أعدْ قادراً على كَظم غيظي. فاذا التقيتُ به ستحتدم المعركة. أجل أقسمتُ على ان اقتله، ولا أحد يسعه أن يصدّني عن عزمي. وحيثما أبصرته سأسدّد سكيني الى صدره، ولا سبيل الى تراجعي عن قصدي ...

لالي : على مَن أنت حاقد ؟

إسْكاناريل : انا لا أحقد على أحد.

لالي : فلماذا تحمل هذا السكين الكبير ؟

إسْكاناريل : لقد لبست هذا الرداء لِأَقِيَ جسمي من المطر. (على حدة) كم أنا متلهّف الى قتله. فلأسْتَجمعْ شجاعتي.

لالي : ما هذا ؟

إسْكاناريل (**يضرب بقبضته على بطنه، ثم يصفع ذاته لإثارة حماسه**) : أنا لا أريد أن أتكلّم. (على حدة) يا لك من جبان. أنت تُثير حفيظتي، وترتعد فرائصك هلعاً كأنك دجاجة مبلولة.

سيلي : مهما قلت، يبدو لي أن هذا الوضع يزعجكَ.

لالي : أجل، من هنا أفهم أنكِ مذنبة، وأن جرمك لا يستحقّ الغفران، لانكِ تماديتِ في مسايرة عشيقك.

إسْكاناريل (**على حدة**) : أليس لي من قلب ؟

سيلي : كُفَّ عن البكاء أمامي، أيها الخائن الدجّال، فإن حديثك دليل واضح على وقاحتك.

إسْكاناريل : ها أنا ألْمس ما ينوي أن يعلنه عليّ من حرب شعواء. فما لي الّا ان أستبسل وأحزم أمري، وأن أبذل أقصى جهودي لأجابهه بعنف، وأقضي عليه حالما يدير لي ظهره.

لالي (**يتنقّل خطوتَين أو ثلاث خطوات بدون هدف، ثم يشدّ إسكاناريل كي يستدير وهو يدنو منه ليقتله**) : بما أن هذا الحديث يشنّج أعصابك، يتحتّم عليّ ان اتظاهر بإرضائك، وأصفّق إستحساناً لما وقع عليه اختيارك.

سيلي : نعم، نعم. ان تصميمي نهائي ولا رجوع عنه.

لالي : حسناً تفعلين، عندما تبغين الدفاع عنه.

إسْكاناريل : بدون شك، يجمل بها ان تدافع عن حقوقي. وهذا التصرّف، يا سيدي، لا يحول دونه اي قانون. أنا على حق في شكواي منه. ولو لم أكن عاقلاً حكيماً لوقعتْ مجزرة فظيعة بيني وبينه.

لالي : كيف تشكو همّك ؟ وأي حزن عميق يعصر قلبك ؟

إسْكاناريل : كفى. أنت تعرف جيداً ماذا يؤلمني. لكن ضميرك مع ذلك لا يؤنّبكَ. فلا بدّ من أن تُدرك، أن زوجتي هي امرأتي وشريكة حياتي، ولن أدَعك تعتبرها خاصّتك بأيّ شكل من الأشكال، لأن ذلك تصرّف أرعن.

لالي : الشك في هذه الحالة إحساس خسيس سخيف. هيا لا تكترثْ لهذه المسألة. أنا أعلم علم اليقين بأنها زوجتك، وأحب أن تهتمّ أنت بها ...

سيلي : ما أبرعك هنا في إخفاء حقيقتك، أيها الخدّاع المنافق.

لالي (**يخاطب إسكاناريل**) : ماذا تعني ؟ هل تتهمني بأن قصدي غير شريف. فتعتبر سلوكي مهيناً مشيناً ؟ وهكذا تريد أن تسوّد صفحتي البيضاء ؟

سيلي : تكلّم، يا إسكاناريل، واستفسرْه لعلّه يُلقي ضوءاً على ما تودّ ان تستوضحه اياه.

إسْكاناريل : اراك تدافع عني بصورة أبلغ مما استطيع انا ان افعله، وقد عالجت الموضوع من الزاوية الضرورية لجلاء القضية.

المشهد الثاني والعشرون

سيلي، ولالي، واسكاناريل، وزوجته والمرافقة.

زوجة اسكاناريل (تخاطب سيلي) : أنا غير مستعدّة لمخاصمتكِ ولإظهار روح العداء والنقمة، يا سيدتي. لكني لست غبيةً، وألاحظ ما يجري حولي. فهناك مسعى غير مشكور لإغراء فتاة ساذجة لا تخصّني.

سيلي : هذا تصريح في غاية الحماقة.

إسْكاناريل (يخاطب زوجته) : لم يطلب أحد حضورك، أيتها البلهاء. أنت تخاصمينها عندما تدافع عني، وترتجفين خوفاً من أن تُحْرَمي وصْل عشيقك.

سيلي (تخاطب زوجة اسكاناريل) : لا تظني أبداً أن أحداً يبغي سرقته منك. (تلتفت الى لالي) : أنا أُلمس فظاعة هذا الكذب الذي يضايقني كثيراً.

لالي : ماذا تريدين ان تروي لي ؟

المرافقة : لست ادري متى تنتهي هذه البلبلة التي أسعى منذ أمد طويل الى ادراك معناها. وكلما بالغتُ في الإنصات الى شرحها، كلما ازداد غموضها بالنسبة اليّ، الى حدّ أني سأضطر في خاتمة المطاف الى التدخّل لإيجاد حلّ نهائي لها. (تبادر الى الوقوف بين لالي وعشيقته زوجة إسكاناريل) هيا أجبْني بصراحة، ثمّ دعْني أتكلّم. قل لي بربّك، ماذا يوحي اليك قلبك من اللوم والعتب في هذا الصدد.

لالي : ان عديمة الوفاء قد تخلّت عني وغادرتني الى رجلٍ آخر. وعندما حدثت الضجة حول زفافها المشؤوم، بادرتُ كالمهووس يدفعني هيامي الأعمى، الى المجيء، وقد خامرني الشك بأن حبيبتي قد أعرضت عن مودتي، فوجدتها قد تزوّجت.

المرافقة : وبمن اقترنت ؟

لالي (يشير الى اسكاناريل) : بهذا الرجل المراوغ.

المرافقة : كيف تشير اليه دون سواه.

لالي : أجل، هو بالذات.

المرافقة : ومن أخبرك بذلك ؟
لالي : هو نفسه، في هذا النهار.
المرافقة (**تسأل اسكاناريل**) : هل هذا صحيح ؟
إسْكاناريل : نعم، لقد صرّحت له بأنها زوجتي، وأعلنتُ أني متأهّل من عهد قريب.
لالي : أثناء اضطراب خواطري منذ برهة، رأيتك مشدوهاً أمام رسمي.
إسْكاناريل : هذا أيضاً صحيح. وها هو الرسم المشار اليه.
لالي : لقد ذكرت أنت لي أيضاً أن وثاق الزواج يربطك بمن كانت تُمسك بهذا الرسم.
إسْكاناريل (**يشير الى زوجته**) : بدون شك. ولقد انتزعتُه من يدها، ولولاه لما اكتشفت خيانتها، ومَن هو عشيقها.
زوجة اسكاناريل : ماذا تدّعي، ايها الدجّال الحقير ؟ لقد كان هذا الرسم تحت قدمي حين استشطْتَ غضباً وخاصمتني. (تشير الى لالي). لسوء حظي، ونظراً الى ضعفي وخوفي، أدخلت هذا الرجل الى بيتنا، بدون أن أتبيّن ملامحه في الرسم المذكور.
سيلي : أنا سبب هذه المغامرة، لأن رسمه وقع من يدي عفويّاً. (تخاطب اسكاناريل) وأُعيد اليّ بإيعاز منكَ.
المرافقة : لولاي، على ما أعتقد، لم يصل الأمر الى ما آل اليه حتى الآن.
إسْكاناريل : هل يُصدّق أي معتوه أن ما قيل هو الواقع الأكيد ؟
زوجته : أنا أخشى أن لا تتبدّد شكوكي، ومهما كان الشرّ غير جسيم، فأَغْلَبُ الظن أني ضحية خداع ذميم.
إسْكاناريل : تعالوا نوطّد العزم على التصافي ونحن لا نقصد سوى الخير. أنا أشكّ بنيتكِ اكثر مما تسيئين انتِ الظن بي، وأراني ميّالاً الى القبول بالإتّفاق المقترح عليك.
زوجته : ليكن الحلّ كذلك. ولكن، حذارِ من أن يبلغني ما يخالف النتيجة التي ارتضيناها.
سيلي (**تخاطب لالي، بعد أن تهامسا على حدة**) : يا إلهي، إذا تمّ الرأي على ذلك

ماذا أكون قد فعلتُ أنا ؟ عليّ أن أتحمّل مسؤولية غيظي. أجل، إعتبرتكِ ناكرة الجميل ناقضة العهد، فصمّمتُ بدوري على الأنتقام منك. والمصيبة التي جرّتها عليّ طاعة والدي منذ هنيهة، جعلتني أقبل بالزواج الذي طالما رفضت الموافقة عليه. لقد وعدت أبي، وهذا ما يقيّدني ... ها هوذا مقبل نحوي.

لالي : سَيَفي حتماً بوعده.

المشهد الثالث والعشرون

سيلي، ولالي، وكورجيبوس، واسكاناريل وزوجته، والمرافقة

لالي : ها قد رجعت، وأنا متيّم في هواها، لأرى الوعد المقطوع لي متمّماً، كما أعتقد، وحلمي الغالي بالاقتران بحبيبة قلبي محقّقاً.

كورْجيبوس : يا سيدي، أراك عدتَ إلينا، وأنتَ تتقلّى على جمر حبّك، لتشاهد إمنيتك حقيقةً محسوسة، وأَمَلك في الاقتران بحبيبتك سيلي واقعاً ملموساً. ارجوك أن تعلم أني أمين على الوفاء بما تعهّدتُ لك بإنجازه.

لالي : ماذا تقول ؟ هل هكذا تريد أن تفي بوعدك وتحطّم رجاء حياتي ؟

كورْجيبوس : نعم، يا سيدي، هكذا أقوم بواجبي، وابنتي تخضع لقراري.

سيلي : واجبي فوق كل اعتبار آخر، يا ابي وسأنفّذ ما وعدت أنت به.

كورْجيبوس : هل جوابكِ هذا من قبيل الإذعان لمشيئتي فقط، بدون أن تكبتي عواطفكِ وحبكِ نحو فالير ؟ ... ها أنا أبصر والده آتياً لتدبير الأمور.

المشهد الرابع والعشرون والأخير

سيلي، ولالي، وكورجيبوس، واسكاناريل، وزوجته وفيلْبْروكان، والمرافقة

كوزْجيبوس : ماذا جاء بك إلينا، يا سيدي فيلْبْروكان ؟

فيلْبروكان : سرّ خطير علمتُ به هذا الصباح، يَنْقُض الوعد الذي قطعتُه على نفسي. إن ولدي الذي رضيتْ ابنتك بالاقتران به، قد خدع الجميع بما عقده من صفقة خفيّة، وهو يعيش منذ أربعة أشهر بصحبة ليزا تحت سقف واحد كزوجين شرعيّيْن. وبصفتي والده يتوجّب عليّ تثبيت هذا الوثاق. وهكذا تَحُدُّ هذه القرابة من قدرتي على إبطال هذا الزفاف.

كوزْجيبوس : تعالَ نحلّ هذه العقدة المستعصية. فابنك بدون أن يستأذنك قد ارتبط بامرأة أخرى هي إبنتي سيلي التي منذ زمن بعيد قد وعدتَ بها صديقنا لالي، وهو شاب ثريّ فاضل، يحاول اليوم إبطال موافقتي على زفّها الى رجل سواه.

فيلْبروكان : إنه فتى ممتاز يعجبني جداً.

لالي : وأنا أتوق الى السعادة الدائمة التي ستغمر عندئذ حياتي.

كوزْجيبوس : اذاً علينا ان نحدّد اليوم المبارك لعقد هذا الزواج الميمون.

إسْكاناريل : ليس في الدنيا رجل تخدعه زوجته اكثر مني. فكما تَرَوْن، كل الدلائل تشير الى إثارة الظنون حولها. مع ذلك، لا بدّ لكم من ان تتذكّروا دائماً سوء طالعي، وأن لا تغرّكم معالم الخداع. وأن أبصرتموها بأمّ العين، إيّاكم ان تصدقوا ظواهرها.

(تمّت)

مَدرسَة الأزوَاج

أشخاص المسرحية

إسكاناريل	:	شقيقان
أريسْت	:	
إيزابيل	:	شقيقتان.
ليونور	:	
ليزات	:	مرافقة ليونور.
فالير	:	عاشق ايزابيل.
أزْكاسْت	:	خادم فالير.

المفوّض.

الكاتب العدل.

الأحداث تجري في باريس.

الفصل الأوّل
المشهد الأوّل

إسكاناريل، وأريست

إسكاناريل : لِنكفَّ عن الجدل، يا اخي، ولْيعشْ كل منّا كما يحلو له. وإن تكنْ أصغر مني سنّاً، إحسبْ نفسك متقدماً عليّ في العمر، وكُنْ حكيماً. مع ذلك أصارحك بأني لا أنوي التقيّد بنصائحك، لأني مصمّم على اتّباع هواي والعيش كما يطيب لي.

أريسْت : لكن إعلمْ ان الجميع يدينون طريقتك هذه.

إسكاناريل : أجل، كلّهم مجانين، وهم يشبهونك.

أريسْت : أشكرك كثيراً على مديحك هذا اللطيف.

إسكاناريل : كم أودّ أن أعرف ما يقصده بالضبط منتقدو سلوكي.

أريسْت : مزاجك الصارم الغريب الاطوار حيال المجتمع المساير، يبرزك بمظهر مُنَفِّر، حتى ان ملابسك بالذات تُضفي عليك شكلاً بربريّاً.

إسكاناريل : لا أنكر اني لا أتبع ازياء معظم الناس، لأني لا أحبّ مماشاة تَفنّن الأكثرية. فأنت اخي الكبير، وأشكر الله على كونك تتقدّمني بعشرين عاماً، الأمر الذي مع ذلك لا يستحقّ الذكر. ولكن لا تحاول ان تقنعني بأن أضع على رأسي قبعة صغيرة تكشف القسم الأكبر من رأسي وتعرّضه للرياح التي تعصف بشعري الأشقر وتضرب به وجهي، وأن أرتدي القيمص الضيّق الذي

يخنق انفاسي والسترة العريضة التي تنزل حتى خصري بأكمامها المتدلّية التي تنغمس في مرق صحني حين أتناول طعامي، وكذلك السروال المنتفخ القصير والحذاء المختزل المحلّي بالاشرطة الحريرية التي تجعلني أشبه الحمام المنفوش الريش ولا سيما حول قائمتيه، وتلك الأكياس الضيقة التي تسجن الأفخاذ المحبوسة، فلا تتيح للمرء أن يمشي إلّا متباعد الرجلَيْن كأنه يقفز قفزاً. سيرضيك منظري بدون شك إن وافقت انا على ارتداء هذه الملابس السمجة، لأنك أنت تفضّلها رغم سخافتها.

أريسْت : لا يغربْ عن بالك، يا أخي، ان علينا أن نرتدي ما يليق بمحيطنا، وأن نتجنّب كل شذوذ في تصرّفاتنا وأحاديثنا، كما تقضي الحكمة علينا. فلا نقصد الخروج على العادات والتقاليد بغرائبنا البعيدة عن الأعراف. فأنا كما تعلم، ليس من طبعي أن أتبع السبل البعيدة عن أذواق الأغلبيّة، ولا أتبارى في اعتماد ما تتشبّث به القلّة فقط، فأكون كالمهووس الذي يعاكس وحده أسلوب الجميع.

إسكاناريل : كلامك يدل على كونك كالعجوز الذي يخفي شيبه تحت شعر مستعار فاحم السواد.

أريسْت : هذه رغبة غير مستحبّة تأصلت فيك فأنت تحاول دائماً ان تذكّرني بعمري وتلومني على اني لا أتصرّف في حياتي مثلك. كأن الشيوخ لم يبق أمامهم سوى الموت والغياب عن مسرح الوجود، نظراً الى ما ينتابهم من العجز والاهمال والتقصير في مجال حبّ الظهور والتحّلي بأحدث الملابس وتصنّع البهجة والرشاقة.

إسكاناريل : مهما يكن الأمر، أنا لا أنوي أن أغيّر مظهري وأفضّل ان لا تكون ملابسي على آخر طراز بل ان تكون بسيطة فضفاضة، وأضع في قدمي حذاءً مريحاً لا يؤلم رجلي، تماماً كما كان يفعل أجدادنا واسلافنا. ومن لا يعجبه هندامي، ما عليه إلّا أن يتغاضى عن النظر اليّ.

المشهد الثاني

ليونور، وايزابيل، وليزات، وأريست، وإسكاناريل

ليونور (لإيزابيل) : أنا أتكفّل بالردّ اللازم، اذا سخر منك أحد.
ليزات (لإيزابيل) : أراه دائماً يلزم غرفته ويتجنب مقابلة الناس.
إيزابيل : هذه طبيعته التي لا يحب تغييرها.
ليونور : اني أشفق عليك منه، يا أختاه.
ليزات : لا تدهشي إن كان مزاج اخيه يختلف عنه كلّيّاً، وقد خبّأ لك حظّك مصيراً أفضل، لأنك تُصرّين على عدم الخروج عن المعقول.
إيزابيل : من العجب أنه حتى اليوم لم يحبسْك، ولم يوصد عليك الباب بالقفل، أو يحجزك معه ويقيّد حريتك.
ليزات : لو كنت أنا مكانك لأَوْدَيْتُه الى الجحيم ...
إسكاناريل :. الى أين سيصل بكما النقاش، يا ترى ؟
ليونور : لسنا ندري. كنت أضغط على اختي لكي تأتي الى هنا وتتنشّق هواء الإنعتاق المنعش. ولكن ...
إسكاناريل : يمكنكما ان تذهبا معاً حيث تريدان، لأنكما تبدوان منسجمتّيْن سويةً. أمّا أنا فأتحدّاكِ أن تخرجي الى حيث تشائين.
أريسْت : اتركهما، يا أخي، ولتذهبا حيث تتسليّان.
إسكاناريل : انا رهن إشارتك، يا عزيزي.
أريسْت : اراك تريد ...
إسكاناريل : الشباب يحفل بالحماقة، وكذلك الشيخوخة أحياناً.
أريسْت : هل تعتقد أنها لا ترتاح الى صحبة ليونور ؟
إسكاناريل : كلا، بل أظنها ستكون بمعيّتي اكثر ارتياحاً. إنما ...
أريسْت : لكن ...
إسكاناريل : إنما لا بدّ لها من الخضوع لإرداتي، لأني أعرف جيداً كيف أهتم كما يجب بشؤونها.

أريسْت : وهل لي أنا أيضاً أن أشغل بالي بما تحتاج اليه ؟
إسكاناريل : يا الهي. كل واحدة تفكّر كما يحلو لها، وهما لا تباليان بغير ذلك. ووالدنا صديقهن، قد أوصانا قبل وفاته بالانتباه الى سلوكهما. وكلّفنا كلانا معاً إمّا بأن نتزوجهما، أو إن أبيْنا، أن نسهر عليهما، لأننا نعرفهما منذ حداثتهما ولنا عليهما حقوق تشبه سلطة الأب أو الزوج، وان نوجّه مصيرهما كلتاهما بعناية ورعاية، وان اهتّم انا بنوع خاص بهذه، وأنت حسب مشيئتك ترعى شؤون من تميل اليها. فأرجوك أن تدعني أسهر على الأخرى كما يحلو لي.
أريسْت : يُخيَّل إليّ ...
إسكاناريل : ماذا يُخيّل اليك ؟ أنا أصرّح عالياً بأني أتكلّم بحقّ، ما يجب. أما أنت فيمكنك أن تدع فتاتك تتصرف بخفّة ودلال، بينما أنا لا مانع عندي أن تقتني جارية ومرافقة، وأن تتنزّه وتنعم بالراحة والإسترخاء، وان تغازل الفتيان بحرّية وجرأة، فهذا الأسلوب في الحياة يعجبني. مع ذلك أنا أصرّ على أن تكون حسنائي كثيرة الحيوية كما أرغب لا كما ترغب هي. وأن تكون أتبع لي من ظلّي، وأن لا ترتدي الملابس السوداء إلا في رابعة النهار فقط. وأن تلازم البيت كما تقضي عليها مبادئ الحكمة والرصانة. وأن تكون بارعة في تدبير أمور منزلها، تخيط وترفو في ساعات فراغها أو تحوك بعض الجوارب باجتهاد. وان تصمّ أذنيها عن أحاديث الهوى. وان لا تخرج ابداً وحدها بدون رفيقة، لأن الجسد ضعيف، وانا مرهف السمع، ولا أريد ان ينبت لي قرنان ما دمت شديد الانتباه والوعي. وبما إن ثروتها الطائلة تغريني، يلذّ لي ان اكون مسؤولاً عن ميولها، وأن ألبّي متطلّبات هيامها.
إيزابيل : ليس لديك موضوع آخر تتكلم عنه على ما ألاحظ ...
إسكاناريل : اسكتي، سأعلّمك عند اللزوم ان لا تتمرّدي وتحيدي عن طاعتي.
ليونور : ماذا تقصد، يا سيدي ؟
إسكاناريل : وحياتك، انا لا اوجّه اليك الكلام بخشونة، لأني واثق بأنك تتصرفين بحكمة وتبصّر.

ليونور : هل تجد من مانع أن ترافقنا إيزابيل ؟
إسكاناريل : اجل، لأنك بصريح العبارة، تفسرينها وتشوّهين اخلاقها، وزيارتك هذه لا ترضيني فتضطرينني هكذا الى عدم السماح لك بالمجيء الى هنا بعد الآن.
ليونور : هل تريد ان اخاطبك أنا أيضاً بصراحة ؟ أنا اجهل كيف تنظر الى كل ما تفضّلت وذكرته أمامي. لكني اعلم جيداً ما تفعله قلّة الثقة بالناس. ومع ان دمها ودمي هما بالولادة من مصدر واحد فنحن كأختين لا نتشابه بتاتاً، لأن تصرفاتها كل يوم تجتذبها اليك بازدياد، وتدفعها الى هوس الغرام والهيام.
ليزات : بالفعل، كل هذه التضييقات التي تصدر عنك تولّد فيها الكراهية. اذ ليس سوى الاتراك من يسجنون النساء. لأنهم وحدهم يعتبرونهم كالعبيد الذين يكْفرون بالله العليّ العظيم. وانا لا أنكر يا سيدي، اننا ضعيفات لا بد من مؤازرتنا والسهر علينا باستمرار. لكن، هل تظن ان هذه الاحتياطات تنفع في منع ما ننوي تحقيقه من أمانينا ؟ في الواقع نحن النساء عندما نقصد عملاً لا يقوى اي رجل على صدّنا عنه، مهما كان شديد الوعي والفطنة. وإن حاول شلّ حركتنا، تكون محاولته ضرباً من الجنون وتبوء بالفشل الذريع. فالأجدر بكم ان تولونا ثقتكم، ايها الرجال الأذكياء، ولا تغامروا في تعريضنا الى الشك المميت. فنسعى الى صيانة حقوقنا وشرفنا بوسائلنا الخاصة تلقائياً، ولا تحاولوا ان تلجأوا الى العنف لمنعنا عنوةً عن عمل ما نصمّم على بلوغه حتماً، لأن كيد النساء هو على الدوام أدهى من كيد الرجال.
إسكاناريل : اليك، ايها المعلم الخبير، ما تؤول اليه تربيتك التي لا تتساهل فيها ولا يرفّ لك جفن في فرضها بالقوّة.
أريسْت : حديثي، يا أخي، يضحكك. هي محقّة في ما تقدّمه من براهين دامغة. لأن الجنس اللطيف يحبّ التمتع بقليل من الحرية، ولا سبيل الى ضبط نزوات المرأة بالقسوة والخشونة. إعلم ان ما تصبو اليه انت من حفظه بالسياج والمزلاج، لا ينمّي فضيلتها، إن لم يردعها إباؤها وعزة نفسها عن الموبقات، وتحرّضها تربيتها السليمة على التشبّث بأهداب العفّة راضيةً، لا بالغضْب والاكراه. هذا امر غريب حقاً، احدّثك عنه بدون تبجّح، لأن المرأة لا تلتزم

جانب التعقّل مرغمة بل راضيةً. وعبثاً تحاول ان تتحكّم بأهوائها ما دام قلبها يدبّ حيث يحبّ، وإن جرّدتها من ميولها، لا احد يعلم الى اين تتّجه، ولا الى اين يوصلها جموح عواطفها.

إسكاناريل : كل هذا الكلام هراء، لا يخضع لأية قاعدة.

أريسْت : ربما. ولكن علينا ان نصلح إعوجاج الشباب باللين واللطف، وأن لا نرهقه باسم الفضيلة عن طريق الخوف والقسْر. فأنا قد طبّقت هذه الحكمة في تعاطيّ مع ليونور، ولم ألجأ الى القسوة حيال بعض ما بدر منها من حرية في سلوكها. وكنت دوماً متساهلاً في تحقيق رغباتها. فلم تؤدي بي الليونة والحمد لله الى الندم على ما فعلت. ولقد آلمني ان تجد الصحبة المسلّية واللهو والحفلات الساهرة والمسرحيات الهزلية التي أعتبرتها أداةً لتهذيب أذهان الشبان والصبايا كأنها مدرسة اجتماعية قائمة بذاتها، توطّد الأخلاق اكثر من اي كتاب مفيد. هي تحب ان تصرف بعض المال على الملابس والزينة. وانا اجتهد ان أحقق لها أمنياتها وأساير ذوقها. وكل هذه الترضيات يسعنا ان نؤمّنها لفتياتنا في أُسرَنا، لا سيما حين يريد الأب أن يزوج بناته حسب مشيئته. وها هي رغبة والدها تشجّعها على الاقتران بي. وانا لا أودّ ان أخالفه، لاني اعلم جيداً ان عمري غير المناسب يفوق سنّها. فأترك لها حرية الاختيار، بما أنا مستعد ان اغدقه عليها من المال الذي يناهز أربعة آلاف ليرة ذهبية سنوياً. وهكذا أؤمّن لنفسي ما ستجود عليّ به لقاءها من العطف واللطف والحنوّ، ويجعلها ترغب في هذا الزواج، ويعوّض لها عمّا بيننا من فارق السنّ. فتختار الإقتران بي، أو تبحث، إن شاءت، عن رجل سواي. أنا لا أنكر انها تستطيع ان تجد نصيباً افضل مني، ولا مانع عندي إن وقع اختيارها على غيري، هذا إن أبتْ أن تُزفّ اليّ.

إسكاناريل : ما أحلاك من عريس يستحق أروع شهر عسل مع أجمل عروس.

أريسْت : هذا مزاجي. وانا اشكر الله الذي أولاني هذه النعمة. لأني غير مستعدّ ان اتبع مفاد حِكَمك الصارمة التي تفضي الى جعل الزوجة والأولاد ينتظرون أجَل الآباء للتخلّص من جورهم وسيطرتهم، أو لوراثة اموالهم.

إسكاناريل : لا يغرب عن بالك ان الشباب عهد الحرية والمرح. وأنه لا

يتخاذل بسهولة امام اشواقه وأهوائه، وان عواطفه لا تنسجم ورغبتك عندما تفرض عليه تغيير عاداته.

أريسْت : ولماذا التبديل ؟

إسكاناريل : لماذا ؟

أريسْت : نعم، لماذا ؟

إسكاناريل : لست ادري.

أريسْت : هل هناك ما يسيء الى المروءة ؟

إسكاناريل : ماذا تقول ؟ اذا تزوجتها يمكنها أن تدّعي انها حرّة لتتصرّف على هواها.

أريسْت : وماذا يمنعها عن ذلك قبل الزواج وبعده ؟

إسكاناريل : ستضطر اذ ذاك الى مسايرة رغباتها حتى اقصى الحدود.

أريسْت : بدون اي شك.

إسكاناريل : وستنقاد الى طلباتها وشهواتها، وانت مضطرب الافكار، وستماشيها في سعيها الى الاستمتاع بالحفلات الساهرة والمجتمعات الصاخبة.

أريسْت : طبعاً.

إسكاناريل : وسيتقاطر على منزلك شبّان اللهو والسمر، ويحومون كالنحل حول العسل.

أريسْت : هل تعتقد ذلك ؟

إسكاناريل : ليُمعنوا في المتعة وتقديم الهدايا.

أريسْت : لا مانع من ذلك عندي.

إسكاناريل : وستصغي زوجتك الى المغازلات والمناجاة.

أريسْت : وما هي محاذيرها ؟

إسكاناريل : وستنظر أنت الى هذه الزيارات والاستلطافات بعين مزْوّرة لأنك واعٍ غير غافل ولا سكران.

أريسْت : هذا ليس بغريب.

إسكاناريل : اذاً، لا بدّ من ان يكون قد أصابك مسّ من الجنون. (**لإيزابيل**) ادخلي غرفتك كي لا تسمعي هذه الخرافات المقلقة.

أريسْت : انا اودّ ان أتّكل على شهامة زوجتي، وأواصل عيشي كما تعوّدته منذ صباي.

إسكاناريل : كم يسرّني ان اعلم أنك مخدوع.

أريسْت : انا لا أعلم إن كان حظي سيخذلني. لكني واثق بأني لن اكون هدفاً لأية ملامة، ما دمت دائم السهر على شؤوني، وأسعى باستمرار الى تتميم واجباتي على الوجه الأكمل.

إسكاناريل : لا تهتمّ اذاً، ايها الساخر المثالي. فكم يلذّ لي ان ابصر وأسمع رجل الستّين عاماً آسفاً نادباً سوء طالعه الذي يهرول اليه في كل مناسبة.

ليونور : انا أضمن له خلاف ما تتوقّعه انت اذا تزوج كما يتمنّى. وكن واثقاً بأنه سيكون قرير العين لو كنت انا زوجته.

ليزات : ان من يتّكل على ضميرنا يرقد قرير العين، ولو لم يكن ذلك في نظركم نصيباً مضموناً مباركاً.

إسكاناريل : تبّاً لكِ، يا صاحبة اللسان السليط والاخبار المشؤومة.

أريسْت : ما لك، يا اخي، تتلفّظ بهذه العبارات المزعجة. وداعاً. بدّل مزاجك وانتبه. فإن من شاء ان يضبط سلوك زوجته أرهقته المتاعب. على كل حال، أتمنى لك حظاً سعيداً.

إسكاناريل : وانا كذلك. ها هي الزمرة مجتمعة، بعضها يسامر البعض الآخر. فما أروع هذه الأسرة المتجانسة. شيخ قليل الاحساس يتبارى في ارضاء الصبايا، ويبعثر عواطفه تحت اقدام حسناء مغناجة تتحكّم بقلبه اللاهث سعياً وراء كنوزها. وهناك فساداً في حَرَم هذا المنزل السائب. فيتسنى هكذا للغادة اللعوب ايزابيل ان تجري وراء اشواقها بدون رادع ولا وازع، ولا تحرم ذاتها أطايب الدنيا. وإن أصاب شرف أسرتها نكسة، يمكننا أن ندعي بأننا نقوم كأصحاب حقّ في تفقد ما يخصنا من سلعٍ وخضراوات ودواجن.

المشهد الثالث

أَرْكاسْت، وفالير، واسكاناريل

فالير : يا ارْكاسْت، هذا أَرْكوس الذي اكرهه بسبب ما يبده من غيرة على الفتاة التي أعبدها، وهو الوصي القاسي عليها.
إسكاناريل : ألّا ترى ان تفشّي فساد الأخلاق أمر عجيب في هذه الأيام ؟
فالير : انا اودّ ان اتّصل به إن أمكن، كي انشئ صداقة متينة بيني وبينه.
إسكاناريل : لكن، بدلاً من أن تفسح له المجال لفرض قسوته حسب مبادئ المروءة الموروثة، على هذا المكان الذي يضجّ بالحرية المطلقة، يجدر بك ان ...
فالير : أظنّه لا يأبه لكونه هو المقصود بهذه الملاحظة.
أَرْكاسْت : إحذر نظرته الشريرة الغادرة التي يسلّطها علينا. وهلّم نبتعد من هنا.
إسكاناريل : أجل، لا بدّ لنا من مغادرة هذا المكان. فان المكوث هكذا في المدينة لا يولّد فيَّ إلّا ...
فالير : من الضروري ان أبادر الى اقتحام مقرّه عنوةً.
إسكاناريل : كنت أظن ان الأمور تسير على ما يرام.
أَرْكاسْت : هيّا إتّصلْ به وأنذرْه.
إسكاناريل : هل تريد ذلك حقّاً ؟ انا اشعر بطنينٍ في اذني. فالوقت يمرّ بسرعة، وبناتنا تكتفي ... هل هذا موجّه إلينا ؟
أَرْكاسْت : ألّا اقتربْ.
إسكاناريل : الى هنا لا يجرؤ أحد أن يأتي ... تبّاً له من شيطان بغيض. ما هذا التهجّم السافر ؟
فالير : هل يضايقك هذا التدخل، يا سيدي ؟
إسكاناريل : ربما.
فالير : ارجوك ان تشرّفني بتعريفي الى شخصك، يا سيدي، إذ يسرّني

الاستماع الى حلو حديثك بعد السلام عليك بكل اعتزاز.

إسكاناريل : هذا ما يبهجني انا ايضاً.

فالير : ويفرحني أن أؤكد لك بصراحة واخلاص اني مستعد لتقديم كل خدمة تحتاج اليها.

إسكاناريل : أشكرك على تلطّفك.

فالير : يسرّني أن نكون جيراناً، وأتمنى أن نصبح أصدقاء أوفياء.

إسكاناريل : هذا لسان حالي انا ايضاً.

فالير : هل بلغتك الأخبار المنتشرة في البلاط الملكي والتي أعتبرها صادقة ؟

إسكاناريل : انا لا أهتم بها كثيراً.

فالير : لكن هذه الأنباء تشتمل أحياناً على ما يسترعي الانتباه، ويوقظ حبّ الاستطلاع. فهلّا ذهبت، يا سيدي، لترى مدى الاهتمام الذي يُحاط به مولد وليّ العهد ؟

إسكاناريل : لن أتأخر مطلقاً.

فالير : لا بد من الاعتراف بأن باريس تُخبّئ لنا ألْف مفاجأة رائعة لا تجود بها المناطق البعيدة المنعزلة. قلْ لي : كيف تقضي اوقات فراغك ؟

إسكاناريل : بالانصراف الى تدبير شؤوني الخاصة.

فالير : الذهن يحتاج الى الراحة، وأحياناً ينهار الفكر نتيجة التعلّق بالأمور الجدّية. فماذا تفعل انت مساءً عندما تنسحب لتخلو بنفسك ؟

إسكاناريل : طبعاً ما يحلو لي.

فالير : بدون شك لا يسعك ان تقول سوى ذلك. جوابك صادق، والذوق السليم على ما يبدو، لا يميل إلّا الى التصرّف بشكل خاص لا يحيد عن هذا النحو. ولو لم اكن واثقاً بأنك كثير المشاغل لكنت ذهبت اليك لقضاء بعض الوقت بمعيتك بعد العشاء.

إسكاناريل : يا لك من رجل لبق مُقْنع.

المشهد الرابع

فالير، وأركاسْت

فالير : ما رأيك بهذا الجنون الغريب الأطوار ؟
أرْكاسْت : هو في حضوره عنيف، وفي غيابه لا يُؤمَن جانبه.
فالير : وهذا ما يثير حفيظتي.
أرْكاسْت : لماذا ؟
فالير : لأني احب ان ارى من أهواها تطغى عليها السلطة الوحشية، كالتنّين المتربّص الذي لا يدع مجالاً للتمتّع بأية روعة.
أرْكاسْت : هكذا ينمو أمل هيامك ويساعد على تحقيق أمانيك الكبيرة ألَا فاعْلم، لكي تكون ثابت الجنان، أنّ المرأة التي لا تكتسب أنت إلّا نصف ثقتها وعطفها، مثل جَوْر الأزواج والآباء، يعمل دوماً على مضاعفة مكاسب عاشقها الولهان. وبما أني لا أتبجح مطلقاً، وهذا جوهر علّتي، تراني لا أتقن الغنج والدلال. إلّا أني ساندت مراراً مساعي الباحثين عن الأفراح والليالي الملاح، فصادفتُ بعض الأزواج المزعجني الذين بدون احتجاج ولا صراخ، يعودون دوماً الى بيوتهم بهدوء. وبصفتهم معارضين مُدَجَّنين لا يفوزون بحق ولا بباطل حيال زوجاتهم، ولا يمكنهم أن يضبطوا سلوكهن لأنهم لا يتحلّون بعزم الرجال إلّا بالاسم فقط حين يَغُضُّون الطرف عن تسلّل العشّاق الماجنين الذين يدوسون خلسةً حرمة وثاق الزواج المقدس، وهم يدّعون أن سكوتهم وتغاضيهم هو حتماً لصالحهم بغية تحاشي الفضائح الصاخبة. ولولا صمتهم لوصلت الامور بهم الى الشيطان الرجيم. وبكلمة وجيزة، هذا هو حال الحسناء ايزابيل بالنسبة الى وصيّها وولي امرها الصارم العنيد.
فالير : انا أهواها منذ اكثر من اربعة اشهر، وحتى اليوم لم أجد فرصة لمحادثتها لحظة واحدة.
أرْكاسْت : الحب يبعث على الاستنباط ويمهّد تفتّق الحيلة، خلافاً لما هو حالك. ولو كنت أنا مكانك ...

فالير : ماذا كنت اجترحت من المعجزات ؟ فكما تعلم جيداً، لا سبيل الى مشاهدتها بعيداً عن هذا الوحش الضاري الذي يلازمها باستمرار. وبما ان ليس لديها من جيران أو خَدَم أشتري مؤازرتهم باغداق الهدايا والمكافآت السخية عليهم، كي يساعدون على الاجتماع بها وإرواء شوقي اليها ...

أَرْكاسْت : هي اذاً الى الآن لا تعلم بأنك تهواها.

فالير : لست على يقين من هذا الأمر المشكوك به. إذْ أني كإنسان غيور، حيثما إصطَحَبَ المستبدّ هذه الحسناء تراني على الدوام أُلْزم لها من ظلّها أسدّد أنظاري الى عينيها النجلاوين، وأحاول في كل مرة بدون جدوى ان اعبّر لها عن غرامي واشواقي. وهكذا تخاطب عيناي أَلْحاظها طويلاً بدون ان أتوصّل الى الوثوق بأنها أدركت أخيراً ما أودّ أن ابلغها اياه من حرارة توْقي وهيامي.

أَرْكاسْت : هذه الحرارة تستعصي على الأفهام أحياناً، إذا لم تعتمد على وسائل الكتابة والمخاطبة الصريحة.

فالير : وكيف العمل للخروج من هذا المأزق الحرج، والوقوف على كون غادتي قد أدركت اني أُقدّس حبّها ؟ أرجوك ان تنوّرني في هذا الموضوع الدقيق العويص الذي لا يزال في نظري غامضاً.

أَرْكاسْت : هذا ما سأحاول البحث عنه. تعال ندخل الى منزلك كي يتسنى لنا ان نتكلم بحرية ووضوح.

الفصل الثاني
المشهد الأول

ايزابيل، وإسكاناريل

إسكاناريل : انا أعرف البيت وساكنيه حسب ما وصفته انت لي.

إيزابيل (**على حدة**) : يا إلهي، ارجوك ان تساعدني في هذا النهار بالذات على الاهتداء الى خطة اكيدة لجلاء امر هذا الحب البريء الذي لا يزال خافياً على إدراكي.

اسكاناريل : لقد أخبرتني، كما قيل لكِ، ان اسم عاشقها فالير.

ايزابيل : نعم، نعم.

اسكاناريل : فهلا أرحتِ بالك وتركتني أتصرف كما يلزم. فمنذ لحظة خاطبت انا بنفسي هذا الطائش المحتال.

ايزابيل : أنا كفتاة واعية خطّطتُ مشروعاً جريئاً لبلوغ غايتي. لكن نظراً الى الصرامة التي أُعامل بها، عليّ أن اجد عذراً للتذرّع به امام كل مستفسرٍ عاقل.

المشهد الثاني

اسكاناريل، واركاست، وفالير.

اسكاناريل : علينا ان لا نضيّع وقتنا الثمين. ها قد وصلنا. لكن من ذا الذي يتقدّم نحونا ؟ يخيّل اليّ اني في حلم. أرجوك ان تقف. هيا قِفْ، ايها الآتي. هيا قف حالاً. أنا لا أستغرب، بعد انتشار هذا الضوء، اذا لَمَحْنا بعض حركات لطيفة. غير أني أودّ ان استعجل، وأن أتبيّن هذا الأمل المهووس ... تبّاً لهذا الثور الضخم الذي يقصد أن ينقضّ علي ويصرعني أرضاً، ويعترض سبيلي محاولاً عرقلة سيري كأنه عقبة كأداء تسدّ طريقي.

فالير : انا متأسف، يا سيدي.

اسكاناريل : أهذا أنت ؟ وانا أبحث عنك في كل مكان.

فالير : عني أنا، يا سيدي ؟

اسكاناريل : نعم، عنك انت بشحمك ولحمك. ألَا تُدعى فالير ؟

فالير : أجل.

اسكاناريل : اتيت لأتحدّث اليك، إن لم يكن لديك من مانع.

فالير : يسرّني ان اؤدّي لك أية خدمة تلزمك.

اسكاناريل : لا، لا. ليس من خدمة أطلبها. بل انا الذي أودّ أن أبذل في سبيلك كل خدمة جليلة. لذا آمل ان تصطحبني الى منزلك.

فالير : الى منزلي أنا، يا سيدي ؟

اسكاناريل : نعم الى منزلك. وهل هذا يدهشك ؟

فالير : بالعكس هذا الامر يريحني ويفرحني ويشرّفني ...

اسكاناريل : ارجوك ان تدع قضية الشرف جانباً.

فالير : ألَا تريد ان تدخل ؟

اسكاناريل : لم يعد من داع لذلك.

فالير : أتوسّل إليك، يا سيدي، أن تدخل.

اسكاناريل : لن أخطو خطوة واحدة أبعد من هنا.

فالير : ما دمت واقفاً في هذا المكان، لا يسعني ان استمع اليك.
اسكاناريل : امّا انا فلا أنوي أن أتحرك قيد انملة.
فالير : هيا، هيا، لا بدّ من المسايرة. ليأتنا أحد بمقعد كي يجلس عليه سيدي، ما دام لا يريد أن يخطو خطوة أخرى اكثر مما فعل.
اسكاناريل : أفضّل أن أتكلّم وأنا واقف.
فالير : وهل هذا معقول ؟
اسكاناريل : انا مضطر الى التصرّف هكذا.
فالير : تصرّفك هذا غريب حقاً وغير مألوف.
اسكاناريل : مسألة فريدة لا مثيل لها أن لا تصغي الى من يقصد التحدث اليك.
فالير : لا مناص إذاً من مطاوعتك.
اسكاناريل : حسناً تفعل، إذ لا حاجة الى كل هذه الرسميات. أخيراً هل تريد ان تنصت إليّ ؟
فالير : بدون شك، وبكل طيبة خاطر.
اسكاناريل : قل لي بربّك، هل تعلم أني وصيّ على صبيّة متوسطة الجمال تسكن في هذا الحيّ، إسمها ايزابيل ؟
فالير : نعم.
اسكاناريل : إن كنت تدري، فلا لزوم الى ابلاغك إياه. لكن، هل تعرف ايضاً اني فضلاً عن وصايتي عليها، انا متعلق بشخصها، وانوي ان اقترن بها، مهما كلف الأمر ؟
فالير : كلّا.
اسكاناريل : هذا ما أصرّ على إطلاعك عليه. فأسألك ان تصرف أنظارك عنها، وتريح بالك من ناحيتها، وتكفّ عن التفكير بها وملاحقتها.
فالير : من ؟ أنا، يا سيدي ؟
اسكاناريل : اجل، أنت. دعك من كل مواربة ونكران.
فالير : ومن قال لك اني أميل اليها ؟
اسكاناريل : مَن هو أهل لكل ثقة في هذا الموضوع.

فالير : أرجوك بإلحاح، يا سيدي، أن تذكره لي فوراً.
اسكاناريل : هي بذاتها، يا مغفّل.
فالير : هي، هي ؟
اسكاناريل : نعم هي. وهل تستغرب ذلك ؟ إنها فتاة شريفة أبيّة تحبني منذ صباي، وهي التي أفضت إليّ بسرها هذا، وكلّفتني بأن أنبّهك الى انها لاحظت انك تحوم حولها وتُسمعها كلاماً تخجل من ترديده، وترشقها بسهام أنظارك الجريئة التي تضايقها وتخدّش الصداقة البريئة التي تحفظها لك في أعماق صدرها.
فالير : تقول انها هي التي أخبرتك بكل ذلك ؟
اسكاناريل : نعم، لذا انا آتي لأبلغك كم يجرح تصرفك الملحّ هذا، إحساسها المرهف، وكم ودّت أن تبلغك فكرها. غير أن حياءها حملها على تكليفي بهذه المهمة الدقيقة لتنبيهك، كما قلت لك، الى ان قلبها قد اخلص الودّ لي وحدي دون سائر الرجال. فلا حاجة لغمزها بعينك الرفيعة. وإن كان لديك أقلّ قدر من عزة النفس، ان تعجّل وتتخذ الاحتياطات الضرورية للاقلاع عن التطفّل عليها. الى اللقاء. هذا ما شئت ان أبلغك اياه.
فالير : ما قولك، يا اركاسْت، بهذه التدابير ؟
إسكاناريل (على حدة) : لقد أذهلته المباغتة المحرجة.
أرْكاسْت : على ما ارى. وأنا أستنتج، أنها لا تضمر لك أي نفور، وأن هناك سرّاً خفيّاً، وإلّا لما كانت الفتاة تصرّ على صدّ كل محاولةِ تقرُّبٍ في هذا المجال، ولما لجأت الى مثل هذه الوسيلة.
إسكاناريل (علي حدة) : هذا كلام معقول ومقبول.
فالير : هل حقاً تظن أن هناك بعض الغموض ؟
أرْكاسْت : نعم ... أعتقد أن أحداً يراقبنا. فلنبتعد عن الأبصار.
إسكاناريل : فعلاً، دهشته ظاهرة للعيان. لأنه لم يكن ينتظر هذه الرسالة الواضحة. أرجوك ان تستدعي إيزابيل التي تعكس عيناها دوماً صورة تربيتها الأصيلة. فالفضيلة لا تخفى في سلوكها، وقلبها الصادق لا يتهرّب من الحقيقة الناصعة، حتى أنها لا تتردّد في إغاظة الرجل الذي تتمادى انظاره في غمرها بعواطفه المستهترة.

المشهد الثالث

ايزابيل، واسْكاناريل

إيزابيل : أخشى ان لا يكون هذا العاشق المتيّم قد فهم الرسالة التي قصدت إبلاغه اياها. فلن أتورّع، نظراً الى القيود التي تربطني بسواه، عن مواجهته بالجرأة اللازمة، لإيقافه عند حده في مغازلتي السافرة.

إسكاناريل : ها أنا قد عدتُ.

إيزابيل : وماذا يبغي هذا المتطفّل ؟

إسكاناريل : لقد أثّر كلامك الموجّه الى صاحبك، فبادر الى الانكار امامي بأن قلبه كان مغرماً بك. لكنني عندما اكّدت له رغبتك في إقصائه عن دربك، ظل صامتاً خجلاً. ولا أظنه بعد هذا الموقف الصريح يواصل مضايقتك.

إيزابيل : هل حقاً قد أربكه ما قلته له ؟ أخشى ان يكون العكس صحيحاً، فيعود الى حملته بإصرار أشدّ من السابق.

إسكاناريل : وعلى ماذا تبنين مخاوفك ؟

إيزابيل : ما كدت أنت تغادر منزلك لتتنشّق قليلاً من الهواء المنعش حتى لمحت من النافذة شاباً عند مفرق الطرق يظهر كأنه من قِبَل ذاك الثقيل الظل الجسور، يبادرني بالتحية ويلقي الى داخل غرفتي علبة تحوي رسالة منتفخة مختومة رددتها اليه حالاً. وما ان إجتاز الشارع الى آخره حتى خلْتُ الدنيا تنهال على رأسي وتسحق قلبي سحقاً.

إسكاناريل : ماذا تعني لك هذه الحيلة الوقحة ؟

إيزابيل : كان عليّ، ومن حقي، أن أردّ فوراً تلك العلبة والرسالة في داخلها، الى هذا العاشق اللعين المستهتر. وكان لا بدّ لي من رجل رزين يحملها اليه، لأني لا أجرؤ على القيام بذلك شخصياً ...

إسكاناريل : بالعكس، يا حلوتي، هذا الردّ يبرهن على عظم هيامك وتعلّقك بي، واني أشكر وأمتدح حسن تصرّفك الذي طمأنني وأفرحني للغاية.

إيزابيل : اذاً تفضّل.

إسكاناريل : حسن. لنرى ماذا أمكنه أن يكتب لكِ.

إيزابيل : لا، لا، حذارِ أن تفتحها.

إسكاناريل : لماذا ؟

إيزابيل : هل تريد أن توهمه بأني أنا التي فتحتها وتَلَوْثُ مضمونها ؟ ان الفتاة الشريفة العفيفة لا بدّ لها من ان تدافع عن عزة نفسها، وان لا تقرأ كتابات يرسلها اليها رجل غريب عن عواطفها. فحبّ الاستطلاع الذي يبرز في مثل هذا الحال، يدل على ان المرسل اليها قد تمتّعت بالاطلاع على ما أُريد ابلاغها من التصريحات المكتومة. وعندي ان إرجاع الرسالة مختومة سيثبت له أن أحداً لم يقرأها. وهذا يعبّر عن الاحتقار الذي يضمره له فؤادي. فيبرّد لظى هواه نحوي، ويحطّم امله في الوصول الى مرامه، فلن يجسر مرة اخرى على تكرار محاولاته السخيفة.

إسكاناريل : انت على حقّ في ما تعلنين. وفضيلتك التي تأسر كياني نظير حكمتك وتبصرّك، تبرهن لي على أن توصياتي قد تأصلت جذورها واثمرت في أعماق نفسك، فاقتنعتِ بأنك حقاً تستحقين ان تكوني اخيراً شريكة حياتي.

إيزابيل : مع اني لا اريد أن أُحرج موقفك. وما دامت الرسالة بين يديك تستطيع ان تفتحها إذا شئت وتطلّع على محتواها.

إسكاناريل : كلا، انا لا أحبّذ ذلك، مع أسفي على عدم تلاوتها. ورغم أن حجّتك مقنعة، أنا مستعد أن أردّ لك جميلك. فعلى مسافة أربع خطوات أودّ ان اقول لك كلمتين، ثم أعود الى هنا مرتاح البال، بعد أن أكون قد شرحت لك واقعي المفرح.

المشهد الرابع

إسكاناريل، واركاست

إسكاناريل : لست ادري في أي نعيم فؤادي يرتفع عندما تتربّع صبيّة رائعة مثلك بارتياح على عرشه، وأعتبرها كنز بيتي تغمره نبلاً وسعادة. وما افظع الجرم الذي يرتكبه المرء عندما يظن فورة الحب جناية. ويسيء الى الاخلاص من حيث لا يدري، فيرى فيه إهانة فظيعة ويشهّر به أمام المستهترين. فكم أودّ أن أعلم إن كان أخي يُقْدم على هذه الحماقة وهو لا يَفْقه أن البنت تَرْبَى على غرار من يرعاها.

أَرْكاسْت : ماذا تقول ؟

إسكاناريل : أجل، قل لسيدك ان لا يغامر ويكتب مرة اخرى رسائل ويبعث بها ضمن عِلَبٍ مذهّبة. لأن ذلك أغاظ إيزابيل كثيراً. وليعلم ان رسالته لا تزال مختومة لم يطّلع عليها أحد. وهذا خير شاهد على ان أشواقه في غير محلّها. فليفهمْ وليعتبرْ. فلذلك أَوْلى له من تحطيم قلبه بيده.

المشهد الخامس

فالير، وإركاست

فالير : ماذا أعطاك هذا الحيوان الناطق الشرس ؟

أَرْكاسْت : هذه الرسالة هي التي ارسلتها داخل علبة، يا سيدي. وقد زعم من سلمني اياها انها وصلت من قِبَلك الى ايزابيل. وقال لي انها ازعجتها واغضبتها، وبدون أن تفتحها وتقرأها ردّتها لك على الفور. فلا بدّ من ان تفتحها عاجلاً لترى إن كنت مخطئاً أو مصيباً.

نصّ الرسالة :

(ستدهشكِ هذه الأسطر بدون شك، لأنكِ ستلمسين فيها جسارة مني في كتابتها اليك ثم في طريقة ايصالها اليك. غير أنك ستعذرينني، لاني لم أعد أطيق صبراً على كتمان مشاعري نحوك. ان فكرة تهديدي بزفافك الى سواي بعد ستة ايام، لهو خطب في غاية الفظاعة يفوق كل المحن. ونظراً الى اصراري على تفادي هذه الكارثة بالنسبة اليّ، اعتقدت أن عليّ أن أتخطّى كل الاعتبارات كي أُصاب بالخيبة واليأس القاتل. لا تعتبري انك وحدك المسؤولة عن شقائي فيما اذا تحقق مصيري هذا المشوم بسبب إنهيار أحلامي وتبدّد أمانيّ بعدم تبلور إقتراني بك. لكن هذه الظروف التعيسة هي التي تولّد في أعماقي إلحاحي على تدارك بواعث شقائي. ولا أخفي عليك أن سعادتي رهن إشارة منك بقبولي زوجاً لك بالقريب العاجل. لذا أترقّب موافقتك بلا امهال على الاقتران بي وقبول حبي، وسيكون قرارك النهائي حكماً عليّ إما بالتعاسة والموت أو بالسعادة والحياة. والمهمّ ان لا تنسي أن الوقت مداهم وأن القلبين العاشقين يتفاهمان بنصف الكلمات.

أَرْكاسْت : ما رأيك اذاً، يا سيدي، في هذا الموضوع الخطير ؟ فالفتاة لا تجهل شعوري نحوها، وحيلتها في معارج الحب ليست بزهيدة. فهل كنتَ تصدّق انها تلجأ الى هذا الاسلوب البارع في الردّ المحكَم.

فالير : هذا دليل قاطع على براعتها. فإن ذهنها المنفتح ينمّ عن مقدار صدمتها وصداقتها، وهذا ما يزيدني تعلّقاً بشخصها الكريم وبحبها المثالي، لأنه يضيف سموّ عواطفها الى جمالها الفتّان الذي يهيمن على شغاف فؤادي.

أَرْكاسْت : ها هوذا المخدوع قد أقبل. ففكّر بما يتحتّم عليك أن تبلغه اياه.

المشهد السادس

اسكاناريل، وفالير، وإركاست

إسكاناريل : ليتبارك هذا القرار الذي يمنع ارتداء الملابس الفخمة. وهكذا تخفّ وطأة المصاريف الباهظة على الازواج الرقيقي الحال. وتتباطأ طلبات النساء وتقلّ في هذا المجال. وكم أنا ممنون من تدبير الملك الذي أصدر هذا المرسوم لإراحة الازواج من تكاليف الأناقة الباهظة نظير التطريز وأشغال الابرة الناعمة. لقد تمنّيت طويلاً وجود مثل هذه الاوامر كي تطلّع عليها إيزابيل وتتقيّد بها. ومن جرّاء ذلك تصبح حرّة بعد العشاء فتنصرف الى التسلية بدل الغوص في تهيئة زينتها لليوم التالي. وهكذا تهمل إعداد العلب المذهّبة وما تتضمنه من الرسائل الغراميّة المخجلة. لا تظن أن هذا الباب سيغلق تماماً في وجهها. فإنها ستجد. وقتاً لنصب شباكها وسماع قصص الحب والمغازلات. ولا يغربْ عن بالك بأي شوق وسرور تتلقى الصبايا وهج المجوهرات ورهج الهدايا الثمينة. صدّقني ان اكّدتُ لك أن لا شيء يبهجني بنوع خاص نظير المداعبات. فان ايزابيل رصينة وتحبّني طبعاً على صفاتي، وحتماً تزعجها ملاحقاتك اياها وتُنفّرها من سماجتك. فما عليك الّا ان تذهب وتبحث عن مُرادك في غير هذا المكان.

فالير : نعم، نعم. انت تعرف جيداً من اين تؤكل الكتف، يا سيدي. لذا اراك موفقاً على الدوام في مساعيك. بينما أنا أصادف كل المتاعب والعقبات في سبيل هواي المتعثّر. أنت تنجح في قطف ثمار حبّك اليانعة، وأنا اخفق باستمرار في مغامراتي الفاشلة غير المجدية. وهكذا لم أُجْنِ من هيامي بإيزابيل سوى الخيبة المرّة. وهذا لعمري ضرب من الجنون. فما بالي أثابر على هذا المنوال ؟

إسكاناريل : أجل هذا هو الواقع.

فالير : عليّ اذاً أن ألَمْلِم أذيال تعاستي، بعد أن اصطدمتُ بشخصٍ محظوظ

نظيرك، أرجع كيدي الى نحري وردّ لي الكيل كيلين واستأثر بسهولة بمن زاحمته عليها عبثاً في حومة الهوى.

إسكاناريل : هذه هي الحقيقة الناصعة التي لا تحتجب عن الانظار.

فالير : لم يبق لدي من أمل. وها أنا أتخلّى لك عن كل طموحي وأُخلي لك الساحة بدون أي احتجاج.

إسكاناريل : حسناً تفعل، يا مغفّل.

فالير : يؤلمني ان أسبّب لك بعض الاحراج، يا عزيزي. ولكن ما حيلتي إن أنت تطفّلت على حبيبتي وزاحمتني على احتلال قلبها الذي وقع في هواي زمناً طويلاً قبل أن تهاجمه وتطردني منه.

المشهد السابع

إسكاناريل، وايزابيل

إسكاناريل : لم يعترض عاشق يوماً دربي ونافسني على عروس أحلامي، لأنه لا يلبث ان يفقد موقع قاعدته ويُضطر الى الانسحاب، بعد ان يدفعني الى توطيد جذوري وإثبات تعلّقي بشخصك الحبيب كما رأيتِ، مع أنه أعلن مراراً غرامه وشوقه وتصميمه على اتخاذك زوجة. لكن يبدو أن حظي سعيد، فكان هواك من نصيبي. ورغم كل محاولاته للاستئثار بعواطفك فزتُ انا بفؤادك الغالي. فثقي بأنك لن تندمي على اختياري. ومهما تقلّبتِ الايام وتغيّرت الظروف سأكون عند حسن ظنك بي. ولن يؤول الى الندم تفضيلك حبي وتلبية نداء قلبينا المتشابكين المنسجمين، وقد أقرّ مزاحمي بعجزه عن اكتساب مودّتك، وأشاد بتفوّقي عليه في معركة هواكِ. لذا تريننى لا أُلومه ولا أندّد به لأنه في الحقيقة تفهّم الوضع أخيراً كرجل شهم عرف حدّه ووقف عنده.

إيزابيل (**بصوت خافت**) : انا لا أشكّ بصدق غرامه، وقد تبيّنت في عينيه براءة قصده ونواياه.

إسكاناريل : ماذا تقولين الآن ؟

إيزابيل : يعزّ علي أن تُرثي لحال رجل وان كنت لا اميل اليه. ولو توصلتَ الى سبر اغوار نفسي لأدركتَ كم آلمتني مثابرته على استدرار عطفي واستمالتي اليه.

إسكاناريل : وهل كان على يقين من حقيقة ميلك اليّ، وظلّ مواظباً على حبّك بطريقته العقيمة التي تستحقّ الازدراء ؟

إيزابيل : ألَا قُلْ لي : هل من المزايا المشكورة أن يفكّر المرء بخطف الاشخاص ؟ وهل من النبل أن يصمّم الرجل بعناد على الاقتران بفتاة قسراً رغم إرادتها ؟ وهل كنت انا رضيت بالحياة معه مكرهة بعد حصوله عليّ بهذه الطريقة الخسيسة ؟

إسكاناريل : ماذا تقصدين بهذه الاسئلة ؟

إيزابيل : لقد بلغني ان هذا العاشق الجاهل كان ينوي اختطافي وارغامي على الاقتران به، بدون ان أطلع طبعاً على خطّته السرية للوصول الى مأربه. فقد علم بأنك صمّمت على اتخاذي زوجة قبل مرور اسبوع من محاولته. لذا اراد الاستعجال ليسبقكك الى تحقيق حلمه واجباري على قبوله كشريك حياتي.

إسكاناريل : لكن عزمه لم يُفِدْهُ في هذا المجال.

إيزابيل : اسمح لي بأن أذكّرك بأنه مغ ذلك رجل لطيف لا ينوي ان يسبّب لي أي أذى.

إسكاناريل : إلّا أنه في مشروعه هذا لم يكن محقّاً، لا بل هو في نظري يستوجب الهزء والملامة.

إيزابيل : ان تمسكّك بي يثير جنونه. ولو كلّمته انت احياناً بجفاء لخشي غضبك وسخطك. لانه منذ ارساله تحريره البغيض اليّ ازعجني تعلّقه هكذا بي، وهو يظن أني أميل اليه، وربما أفضّله عليك. وهذا ما جعلني أؤجّل زفافي

إليك مهما حكم الناس على تصرفي زوراً، ريثما أحزم امري واتبيّن صحة اختياري وأقتنع بتفضيلي إياك.

إسكاناريل : حتماً هو مهووس.

إيزابيل : امامك يعرف الخبيث كيف يخفى دناءة مراوغته. لكن اياك ان تنخدع بتمليقه. لا بدّ لي من الاعتراف بأني تعيسة مسكينة واني رغم كل جهودي لأظلّ شهمة، حاولت أن أبعد عني أحابيله كعاشق جبان مستبدّ قد يدفعه غرامه الى ارتكاب احقر الحماقات.

إسكاناريل : لا تخشَيْ اذاه.

إيزابيل : بالنسبة اليّ، اذا لم تقم أنت بعمل جريء لتنقذ موقفي وتخلّصني من هوس هذا السمج، سأهجر العالم الذي يعذبني وانفض عني غبار الاستكانة والضجر، وأزيل من دربي عار الاستهتار الذي يجابهني به.

إسكاناريل : لا تتذمّري هكذا، يا حبيبتي الفاتنة، فأنا مستعد لمواجهته وتبديل الحال الذي تشكين منه.

إيزابيل : قلْ له اني على يقين بأنه سينكر ما يُنْسَب اليه من تشبّثه بي ومن محاولته اختطافي، وانه مهما كرر محاولاته، انا مستعدة لتحدّيه وتفشيل خططه. فعليه اذاً ان يثوب الى رشده ويقتنع بأني لست من نصيبه، لان مصيري قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمصيرك في حظيرة الحب والزواج. ومتى ادرك انه يسبّب لي الشقاء بعناده وإصراره العقيم سيعلم ايضاً اني لست مستعدةً لأن أُلْدَغ من الحجر مرّتين.

إسكاناريل : سأقول له ما يلزم، فاطمأنّي.

إيزابيل : لكن بلهجة حازمة تُفهمه أني حقّاً قد خاطبه بكل صراحة وأمانة.

إسكاناريل : أؤكّد لك اني سأقوم بمهمتي خير قيام.

إيزابيل : سأنتظر رجوعك بفارغ الصبر. فعجّل بربّك إن شئت بكل ما أوتيت من قوة. لأني اكاد اذوب شوقاً الى رؤيتك كلما ابتعدت عن ناظري ولو لحظة.

إسكاناريل : سأعود اليك، يا حياتي، على جناح السرعة. هل تظنّين ان هناك حبيباً أصدق وأفضل مني تعيده لهفته اليك لينعم بقربك في جنّة هواك ؟ ما

أسعدني بجوارك، وما ألذّ مشاهدتك الى جانبي. لانك المرأة الوحيدة التي اصطفيتها وملكتها على عرش فؤادي المتيّم بحبك. فهكذا تكون الزوجات المخلصات، أو يُحرّم علي الاقتران بسواك. لأني أكره النساء المائعات المستهترات اللواتي يجعلن رجالهني الشرفاء مضغةً في افواه كل باريس. فيا خيبة امل من يذهبون ضحية سلوك زوجاتهم اللعوبات المتهتكات.

المشهد الثامن

فالير، وإسْكاناريل، وإركاست

فالير : ماذا أتى بك الى هنا، يا سيدي ؟

إسكاناريل : حماقاتك.

فالير : ماذا تقول ؟

إسكاناريل : انت تعلم عن اي موضوع أكلّمك. كنت أعتقد أنك أعقل ممّا برهنت عليه. فقد خدعتني بأحاديثك الطليّة وبعثت الشك في نفسي بآمالك ونواياك المهووسة. لا بد من أن تكون لاحظت اني تعمّدت حسن معاملتك. لكنك في نهاية المطاف تضطرني الى الاستشاطة غضباً. أوَلا تستحي ممّا تُقْدِم عليه من استنباط المشاريع المحجلة، ومحاولة خطف فتاة شريفة، وعرقلة زواجنا الذي سيدخلني واياها جنّة السعادة والهناء ؟

فالير : من قصّ عليك هذه الخرافة المضحكة التي تتهمني بها ؟

إسكاناريل : لا تحاول الانكار، فان ايزابيل نفسها قد اطلعتني على جميع تفاصيلها. وأنا أحذّرك أوّلاً وآخراً من هذه المهزلة التي تزعجني كثيراً. إعلمْ أنها اختارتني كفارس أحلامها نهائياً، ووهبتني قلبها وقالبها، وهي تفضّل الموت على استبدالي برجل سواي، ولا سيما إن كنت هذا البديل الوقح الذي لم يفهم حتى الآن انه غير مرغوب لديها بتاتاً. واذا لم تضع حدّاً لمضايقاتك

التي لا تكفّ عن تكرارها حيالها، سأعرف انا كيف أغيّر لك رأيك بأجدى الطرق وأسرع الوسائل. فتعقّلْ إذاً وتبصّرْ وارْعَوِ عن غيك.

فالير : صحيح ما قلته لك في هذا الموضوع، كما سمعته الآن على لسانك، وها أنا أقرّ بأن رجائي في استمالتها أضحى ضئيلاً جداً، وأعدك بأن لا أعود الى هذا المسعى مطلقاً بعد الآن. لأني أودّ أن احترم وأساير مشيئتها حسب ما أبدته هي لي.

إسكاناريل : ألا تثق بكلامي ؟ هل تشكّ بما نقلته اليك من رغبتها الأكيدة التي صرّحت هي لي بها مراراً ؟ وهل تريد ان تثبت لك وجاهيّاً ما تشكوه من تطفّلاتك وملاحقاتك الصبيانية لنيل رضاها. انا لا مانع عندي ابداً من ان تبرهن لك هي بنفسها عن اختيارها النهائي بملء رضاها أن تُزفّ اليّ. فاتبعني، وستلمس لمس اليد صحة ما ابلغتك اياه من موقفها الصريح الذي تصرّ هي عليه ولا تريد أن تتراجع عنه قيد شعرة. لأن قلبها كما أكرر عليك للمرة المئة، ولا ولن يتأرجح بيني وبين أي رجل سواي، وانها ستصبح حتماً شريكة حياتي ورفيقة عمري.

المشهد التاسع

ايزابيل، واسكاناريل، وفالير

إيزابيل : ماذا تقول ؟ أنت تأتي به اليّ. وما هي غايتك من ذلك ؟ هل تنوي ان تخدم مصالحه أمامي ؟ هل حقاً تودّ امتحان أمانتي، وتسمح لنفسك بأن تضطرني الى مقابلته ومسايرته وتحمّل سماجة زياراته اثناء حضورك ؟

إسكاناريل : يا حبيبتي، أنت تعرفين مقدار تعلقي بشخصك الغالي على قلبي. لكنه الى الآن، لا يصدّق هذا المراوغ المحتال، ما كلّفتني انت بقوله له عن قرار زواجنا نحن الاثنين قريباً جداً. لا تنسَيْ اني انا بذاتي أبيّن له مبلغ الكره

الذي تضمرينه له، وكم أنت مقتنعة وواثقة بحبّي وعطفي، وعلى لسانك اجتهدت ان أُفهمه جسامة غلطه في التشبّث بما يحفظه لك عبثاً من هواه الذي تنفرين انت منه صراحة، فقصدتِ ان تكرريه له بنفسك كي لا يبقى لديه ذرّة من الشك.

إيزابيل : ماذا تقول ؟ ألّا يزال لديك من شكّ في ما اكّدته له مراراً وتكراراً ؟

فالير : أجل، إن كل ما ردّده لي هذا الرجل الدجال، على لسانك، يا سيدتي، قد فاجأني فعلاً. وانا لا ازال اشكّ فعلاً بقرارك النهائي الذي يحكم على حبّي بالإعدام، ولا أريد أن أصدّقه، وأنا أصرّ على سماع هذا الحكم المشؤوم من فمك.

إيزابيل : لا، لا. لا سبيل لهذا الحكم ان يباغتك، ما دمت لم اترك لك مجالاً لتأمَل بتحقيق امنيتك، ونيل رضاي واستدرار حبّي استجابةً لهواك. فإن موقفي كان دوماً واضحاً نحوك، ولم ادع يوماً لك ذرّة من الرجاء في امكان تلبيتي انا نداء عواطفك. أجل، أريد ان تعرف جيداً اني لست من نصيبك، وان قلبي اختار أليفه وارتضى حبيبه بشخص عاشق سواك عرف كيف يوقظ اشواقي ولهفتي. بينما أنت لم تظفر مني الّا بالحذر والنفور. فأنا أتوق الى اليوم القريب الذي أربط فيه مصيري بوثاق الزواج المبارك بمن عشقتْه نفسي، وأبتعد عن درب هواك الى الابد. وإلّا تمنيت ان افقد حياتي اذا لم يتسنَّ لي تحقيق امنيتي في الاقتران بمن احب. هذا واقع مفرح اصبو الى انجازه كأعز احلامي. أكرّر لك اني افضل الموت الف مرة على ان أزجّ بنفسي في جحيم الارتباط بمن لا أميل اليه.

إسكاناريل : انا مستعد لأن احقق لك حتماً حلمك هذا الغالي على قلبي انا ايضاً.

إيزابيل : هذا هو الامل المنشود الذي يبهجني ويؤمّن لي سعادتي.

إسكاناريل : سيكون لك قريباً ما تتوقين الى التمتع به.

إيزابيل : انا أدري بأن التصريح بحريةٍ بما بحت به تحمّر له خدود العذارى.

إسكاناريل : لا داعي للخجل بتاتاً.

إيزابيل : لكن في الحال الذي وصلنا اليه، لا بدّ للحرية من أن تسود بين كل

فتاة ومن اختارته كعريس أحلامها، ومن الارتباط به بوثاق الزواج المقدس بدون امهال.

إسكاناريل : اجل هذا هو عين الصواب، يا مهجة فؤادي.

إيزابيل : ما عليك اذاً الا ان تبرهن لي عن حرارة حبك وصدق نواياك.

إسكاناريل : انا على أتمّ الاستعداد لبذل كل غالٍ ونفيس في سبيل اسعادك.

إيزابيل : هيا اذاً حقّق لنا احلامنا، ولا تشمّت بنا أعداءنا.

إسكاناريل : لن يطول انتظارك ذاك اليوم الميمون الذي سننال كلانا معاً فيه غاية المنى، وستدخلين الجنّة بصحبتي من بابها العريض.

فالير : نعم، يا سيدتي، الآن تبيّنين لي ما حاولت مراراً عديدة أن أُمتع به ذاتي. وبما أن حضوري يزعجك، فأنا أعدك بأن لا ترَيْ مطلقاً صورة وجهي فيما بعد.

إيزابيل : وهذا من أغلى أمنياتي. ما دمت لا ارتاح لمرآك. وارجو منك أن تنقذني من كابوس مثولك امام عيوني.

إسكاناريل : هيا، هيا اذاً.

إيزابيل : هل أهنته بمخاطبتي اياه بهذه اللهجة الخشنة ؟

إسكاناريل : ابداً، أنا لا أقصد ذلك. لكني بدون مبالغة، أصرّح لكِ بكل أمانة وتأكيد أني أُثير حقده الى اقصى مداه.

إيزابيل : في الحقيقة لا استطيع ان اكون صادقة اكثر ممّا فعلت.

فالير : أجل، ستكونين في غاية السرور والارتياح خلال الايام الثلاثة القادمة، ولن يقع نظرك بعد اليوم عليّ بسبب ما تكنّين لي من الكراهية.

إيزابيل : حسناً تفعل. فالوداع الذي ما بعده لقاء.

إسكاناريل : انا ارثي لحاله التعيس. ولكن ...

فالير : انت لا تريدين ان تسمعي تنهيدات قلبي، يا سيدتي، وانا لا ألومك على شعورك، ولا اتذمّر من مزاحمي، لا بل منذ الآن فصاعداً سأساعد على تحقيق حلمكما. الوداع.

إسكاناريل : مسكين انت، ايها الفتى المعذّب القليل الحظ. هيا عانقني، يا اخي، للمرة الأخيرة، وودعني الوداع الذي لن يكون له بيننا لقاء بعده.

المشهد العاشر

ايزابيل، واسكاناريل

إسكاناريل : انا ارثي لحاله حقاً.
إيزابيل : هو لا يستحقّ هذا الندب، يا عزيزي.
إسكاناريل : في الحقيقة، ان اخلاصك لحبّي يبهج فؤادي، يا عزيزي، وأودّ ان أجزيك عنه خيراً. وأرى ان ثمانية ايام تشكّل بالنسبة اليك انتظاراً طويلاً. ولكي اسعدك بأعجل مدى قررت أن أقيم حفلة زفافنا حتماً يوم غد.
إيزابيل : يوم غد حقاً ؟
إسكاناريل : انت تستغربين هذه العجلة من قبيل الحياء، وانا واثق بأنك ستفرحين للغاية بتقريب هذا الموعد، وترغبين في احلاله فوراً اثناء هذه اللحظة بالذات.
إيزابيل : ولكن ...
إسكاناريل : هيا بنا اذاً ننجز جميع تجهيزاتنا واستعداداتنا.
إيزابيل : يا إلهي، الهمني كل ما يحقّق رغبات عريسي وأمانيه السارة.

الفصل الثالث
المشهد الأول

ايزابيل

إيزابيل : يخيّل اليّ أحياناً ان الموت أهون ألْف مرة من خشية هذا الزفاف المرتقب الذي يسوقني اليه محيطي. وان كل ما فعلته للهرب ممّا اخاف وقوعه يرضي لائمي. فالوقت يداهمني، وقد اقبل الليل بظلامه. فما عليّ الّا ان أمضي بدون وجل وأنجز ارتباطي بحبيبي.

المشهد الثاني

اسكاناريل، وايزابيل.

إسكاناريل : انا عائد، وغداً تتحقق رغبتي ...
إيزابيل : يا الهي.
إسكاناريل : أهذه انت، يا حبيبتي ؟ الى أين أنت ذاهبة في هذه الساعة المتأخرة ؟ تقولين أنك أحسست ببعض التعب فمضيت الى غرفتك لترتاحي. وانسحبت انا، بعد ان التمست أنتِ مني ان أرجع باكراً في اليوم التالي.

إيزابيل : هذا صحيح. ولكن ...
إسكاناريل : ماذا جدّ إذاً ؟
إيزابيل : أنا محتارة، ولا أدري كيف أظهر لك عذري وحجّتي.
إسكاناريل : ما الامر ؟ ماذا جرى في هذه الاثناء ؟
إيزابيل : هناك سرّ مباغت. فقد اضطرتني اختي الى الخروج في هذه الساعة، وطلبت مني أن أغادر غرفتي حالاً لتأوي هي اليها.
إسكاناريل : ولماذا ؟
إيزابيل : امر لا يُصدَّق. هي تقول انها تحبّ العاشق الذي نبذته أنا.
إسكاناريل : هل تعني فالير ؟
إيزابيل : نعم، هي تهواه الى حدّ الجنون. ولكيّ تقدّر مبلغ هيامها، تصوّرْ انها أتت وحدها الى هنا في هذه الساعة المتأخرة لتكشف لي عن هموم غرامها، وتعلن لي انها ستموت غمّاً اذا لم تحقق حلم حبّها الذي تغذّيه منذ أكثر من عام، ما دامت تبادل عشيقها هذا سرّاً عواطفه وتلبّي نداء قلبه قلبها، وبات الآن من أوجب الواجبات عليهما أن يعجّلا في الارتباط بوثاق الزواج لإنقاذ موقفهما الحرج قبل افتضاح امرهما ...
إسكاناريل : من تعنين ؟ فالير ؟
إيزابيل : كم أنا مستاءة من نفسي، لاني دفعت من أغواها الى أحضانها. وها هي الآن تلتمس مني ان اساعدها على تدارك استهتارها وستْر فضيحتها. لأنها لم تتمكن من إمهال ما تورّطا كلاهما في التسرّع بممارسته في خلواتهما الغرامية. وها هي الآن تطفئ باسمي أنا لواعج صاحبنا العاشق الولهان. وأنا غير قادرة على عرقلة ما قد باشراه من علاقات خفيّة، لأنه سيوافيها متستّراً من ناحية الشارع الخلفي الذي يؤدّي الى حجرتي. وانا ما كدت أفصله عن حياتي، حتى بادرا كلاهما الى توريطي وزجّ اسمي في هذه العلاقة المشينة، وجعل الناس ظاهراً يظنون بي أسوأ الظنون، نظراً الى ما كان يتباهى به من تودّده علناً اليّ لاستمالتي ونيل رضاي، والقبول به زوجاً معزّزاً.
إسكاناريل : هل تعتقدين أن الأمر سيبلغ الحائط المسدود ؟
إيزابيل : انا اكاد انفجر غيظاً. ما أغبى اختي ؟ تبّاً لها من قليلة الذوق والتوقّع.

ألا تستحي من سفالة تصرّفها والوله الذي تظهره لهذا النوع من العشاق الذين يتبدّل حبّهم كل يوم. أنَسِيَتْ كرامتها، وداست مروءتها امام وقاحة رجل لم تربط السماء مصيرها بمصيره في حظيرة الزواج المبارك.

إسكاناريل : هو يستحقّ هذا التنديد والاستهزاء، وأنا سعيد بتورّطها هي.

إيزابيل : اخيراً. كان الاجدر بها ان تستخدم خيبة أملي كحجّة دافعة لكي تعنّفه على سفالاته التي لا تُحصى، وترفض له طلباته، ولا سيما هذه الليلة بالذات. لكنها لم تمانع أيّاً من اشواقه الملحّة، فسكبت هذا المقدار من الدموع السخينة وتنهّدت وتأوّهت وندبت حظها العاثر، ولامت بيأسٍ ما يثيره فيها من اللوعة قنوط نفسها الحزينة. وأنا من شدّة تأثري أشفق عليها من كل قلبي. ولكي تبرّر السخافة التي ارتكبتها هذه الليلة، وقد هيّجت أشجاني واستدرَّتْ عطفي، كدت ان أجيء « بلوكريس » وأعدها تنام هنا، لأنك طالما اثنيت خطأً على فضائلها. إلّا نك باغتّني بعودتك هذه السريعة عن رأيك السديد.

إسكاناريل : انا في غنى عن كل هذه الاسرار التي ربما قَبِلها اخي بحقّ. لكنني أخشى ان يراني احد من الخارج، وكذلك التي أريد أن أكرّس لها عمري، لانها خجولة، وأصيلة، وبعيدة عن كل الشبهات، هيّا بنا نطرد هذه الخدّاعة ونطهّر المكان من أشواقها الرجسة ...

إيزابيل : اراك تَصِمُها بالكثير من الرذائل. واذا اشتكت وتذمّرت فبحقّ تفعل. أمّا أنا، إن كظمتُ غيظي وتريّثت في حكمي، فلأن الواجب يقضي عليّ بذلك لأنها أختي. فصبراً عليّ حتى أخرجها من غرفتي وأرتبّ وضعي.

إسكاناريل : هيا اذاً الى العمل.

إيزابيل : غير أني ارجوك ان تتوارى عن العيان، وأن تنظر اليها باشفاق وهي تغادر المكان.

إسكاناريل : ان امتنعتُ أنا عن لومها فإكراماً لك. ولكن حالما تخرج، سأبادر الى مقابلة اخي، وإطلاعه على كل ما اقترفته من ذنوب بمشاركته.

إيزابيل : ارجوك أيضاً ان لا تأتي على ذكري أمامه. ليلتك سعيدة. أنا ماضية لأخلو بنفسي في هذه الأثناء.

إسكاناريل : الى الغد، يا حياتي، وبفارغ الصبر سألقاك باكراً. لن أخفي أمراً عن اخي المسكين الذي أغمض عينيه إله النوم « فيبوس » الغاشم، لأني اخلص له الودّ واكره له المذلّة والإهانة.

إيزابيل (**داخل البيت**) : انا أقدّر مدى حساسيّتك واستيائك. غير أن ما ترغب فيه شقيقتي لهو من رابع المستحيلات، وبمقدار ما أعتبر شرفي غالياً عليّ، لا يسعني أن أغامر به. فالوداع. هيا انسحبْ قبل فوات الأوان.

إسكاناريل : ها اني اسمعها تسبّ وتلعن بلسان سليط. وخشية ان تعود الى هنا، هيّا نوصد الباب في وجهها.

إيزابيل : يا الهي، لا تتخلَّ عني في هذه الشدّة.

إسكاناريل : اين تستطيع أن تذهب ؟ تعالَيْ نتبع خطاها.

إيزابيل : اثناء اضطراب خواطري، أجد الليل حليماً يقلّل مخاوفي تحت جنح الظلام.

إسكاناريل : هيّا الى منزل عاشقها نفاجئهما في مغامرتهما الدنيئة.

المشهد الثالث

فالير، وإسكاناريل، وايزابيل

فالير : نعم، نعم، انا مصمّم على بذل بعض الجهود هذه الليلة. من هو القادم الى هنا، يا ترى ؟

إيزابيل : لا تأتِ بحركة، ولا تحدثْ اية ضجة. فأنا ايزابيل، يا فالير. وأحذّرك من المبادرة الى ارتكاب اية حماقة جديدة.

إسكاناريل : لقد كذبتِ عليّ، يا خبيثة، فقد تبيّن لي ان زميلتي هي شقيقتك. والشرف الذي تدّعينه، تتقيّد هي به بكل حذافيره. وأنت تقلّدين صوتها وتنتحلين إسمها.

فالير : نعم، هذه هي الحقيقة الوحيدة التي لا أتمناها كمصير لي. وأنا أعاهدك بأن أذهب منذ الغد الى حيث ارتبط بك بوثاق الزفاف المبارك.
إسكاناريل : تبّاً لك من احمق تكذّب الواقع وتصدّق نفاقك المفضوح.
فالير : ادخل بأمان. فأنا أجابه « أركوس » اليقظ الشجاع بكل عزم وعنفوان. وقبل ان يتمكّن من تجنُّب حماستي، سأسحق قلبه سحقاً.
إسكاناريل : أعدك وعداً صادقاً بأن لا أنوي انتزاع هذا الخسيس من امام غضبك. لان غيرتي لن تفوق إيمانك، ولن احول دون صيرورتك زوجها الشرعي. تعالَ نباغتهْ ونواجههْ بهذه المتهتّكة. لأن ذكرى والدها الشهم جديرة بالاحترام نظير الاهتمام الذي أبديه بشقيقتها، وهذا أقلّ واجب لإحاطتها بالصَّوْن الذي تستحقّه. هيا اذاً.

المشهد الرابع

اسكاناريل، والمفوّض، والكاتب العدل، ومرافقه

المفوّض : ما الخبر ؟
إسكاناريل : أحيّيك، يا سيدي المفوّض. ان حضورك وانت في لباسك الرسمي ضروري فيما بيننا. إتبعني من فضلك واسعفني بإيضاحاتك.
المفوّض : كنت خارجاً ...
إسكاناريل : المسألة تقتضي العجلة.
المفوّض : ماذا تقول ؟
إسكاناريل : لنتقدّم الى الداخل ونفاجئ معاً شخصين لا بدّ من ان يجمعهما رباط الزواج. فالفتاة التي تنتسب الينا أغواها واستغلّها رجل يُدعى فالير، وقد إختطفها واقتادها الى بيته منتزعاً اياها منْ وسط نبيل واسرةٍ فضيلة عريقة. لكن ...

المفوّض : اذا كان الامر كما تقول، فالمناسبة مؤاتية بما أن فيما بيننا كاتباً عدلاً.

إسكاناريل : سيدي.

الكاتب العدل : اجل فيما بيننا كاتب عدل رسمي.

المفوّض : وهو أيضاً رجل مشهود له بالمروءة والامانة.

إسكاناريل : هذا لا شك فيه. ادخلوا من هذا الباب بدون ضجة، ولا تَدَعو أحداً يخرج من هنا، وستكافأ اتعابكم بكرم وسخاء، شرط ان لا تقبلوا رشوة من أي انسان.

المفوّض : ماذا تعني ؟ هل تظن ان رجال العدالة ...

إسكاناريل : انا لا أتهمكم، يا سادة. سأستدعي اخي على وجه السرعة. ها أنا ذاهب اليه، وهو إنسان بعيد عن الغضب والصخب.

المشهد الخامس

اريست، واسكاناريل

أريسْت : من يطرق الباب ؟ أهذا أنت، يا أخي، ماذا تريد ؟

إسكاناريل : تعالَ، ايها المفكّر الألْمعيّ. والفتى الرجعي الذهن. هيا سأريك ما يدهشك ويثير إعجابك.

أريسْت : ماذا تقصد ؟

إسكاناريل : اني آتيك بنبأ يسرّك جداً.

أريسْت : ما هو ؟

إسكاناريل : أرجوك أن تخبرني أوّلاً اين ليونور التي تعزّها وتكرمها ؟

أريسْت : لماذا هذا السؤال ؟ هي على ما أعتقد تُمضي سهرة حافلة عند إحدى صديقاتها.

إسكاناريل : نعم، نعم ؟ هيا اتبعني لترى في أية سهرة ستجد هذه الحسناء اللعوب.

أريسْت : لماذا تقصّ علي هذه الحكاية الغريبة ؟

إسكاناريل : وقد نمقّتها بأسلوب مشوّق : « لا يجمل بالانسان ان يعيش كمراقب صارم، إذ يمكنه أن يكتسب القلوب عن طريق اللين. أمّا وسائل الحذر والتضييق والحجز فلا تستطيع ان توطّد فضائل النساء والفتيات، بل تدفعهنّ الى سبل الشرّ بالقسوة والإكراه، بينما جنسهنّ اللطيف يتطلّب بعض الحرية والتسامح. في الحقيقة اخذت هذه المحتالة نصيبها من الانشراح، وتطوّرت فضيلتها باتّجاه المسايرة وروح الانسانية والتساهل.

أريسْت : الى اين سيصل بنا هذا النمط من الاحاديث المحرجة ؟

إسكاناريل : هيا بنا، يا اخي البكْر، فهذا الموقف يناسبك، كثيراً. وأنا مهما كلّف الأمر، لا أودّ ان احرمك ثمار هذه الحِكَم المهووسة. فهذه هي النتيجة التي أدّى اليها مفعول دروسك المشؤومة حيال الشقيقتين. فالواحدة تهرب من هذا العاشق المتيّم، والاخرى تلاحقه وتسعى للالتصاق به مغرورة بوعوده الخلّابة.

أريسْت : اذا لم تفسر لي هذه الاحجية الغامضة ...

إسكاناريل : الاحجية مفادها ان الحفلة الساهرة أُقيمتْ عند السيد فالير حيث شاهدته يسرع الخطى، وهي الآن ترتع بين ذراعيه.

أريسْت : من تقصد ؟

إسكاناريل : ليونور، طبعاً.

أريسْت : أرجوك ان تكف عن المزاح.

إسكاناريل : المزاح ؟ هذا المزاح حقيقة اكيدة بالنسبة الواقع. ايها المغفّل المسكين أقول لك واكرر القول ان فالير يحتضن عزيزتك ليونور وقد مال اليها بعد أن حاول كثيراً استمالة ايزابيل عبثاً.

أريسْت : هذا الكلام الذي يبدو ارتجاليّاً ...

إسكاناريل : لن يصدّقه احد، وإن شاهده بأم العين. فلقد اغاظني، مع أن فحواه بعيد الاحتمال والوقوع.

أريسْت : ماذا تعني، يا اخي ؟

إسكاناريل : يا الهي. انا لا اختلق رواية. إتبعني فقط لترى، وستبصر ما يقنعك، وتلمس اني لا اتخيّل اية رواية وهمية، بل أؤكد لك ان قلبيهما غارقان في بحر الهوى منذ اكثر من عام.

أريسْت : الظواهر تخدع أحياناً. وأنا استبعد مثل هذه العلاقة غير المعقولة. لأني منذ حداثتي لم اكن يوماً ديّاناً صارماً، لا سيما فيما يخصّها هي شخصيّاً، بل كنت قد أعلنتُ اني لن أبدي أي احتجاج أو تذمّر في موضوع ما تميل اليه.

إسكاناريل : أخيراً، سترى وتحكم على سير القضية التي اتيت لأجلها بالمفوض والكاتب العدل، لأننا كلانا يهمّنا ان يتمّ هذا الزواج الضروري ليصبح على الفور وضعهما قانونياً وشرعياً بغية ستْر شرفها المدنّس. اذ اني لا أعتقد ان تكون جباناً الى درجة ان تتهاون في هذا الإجّراء الدقيق، ولا توافق على الاقتران بها رغم هذه الوصمة المشينة، متجاوزاً هذا العار بدون أن تحكّم عقلك وإباءك.

أريسْت : طبعاً لن أتدنّى الى هذه الخساسة التي تدلّ على الضعف والخساسة، حين أمتلك أنا قلبها بالغصْب والإكراه. لكني لا استطيع ايضاً ان أصدّق أخيراً أنّ ...

إسكاناريل : هذا كلام فارغ، ولا بدّ من أن نضع حداً نهائياً لهذه الحكاية البذيئة.

المشهد السادس

المفوض، والكاتب العدل، واسكاناريل، وأريست

المفوّض : هنا يجمل بكم ان لا تستخدموا كل إمكاناتكم، يا سادة. واذا كانت تمنياتكم كلها محصورة بالزواج، ستجدون في هذا المكان منهلاً عذباً يروي غليلكم. فكلاهما يهدفان الى الزفاف، وقد أعرب فالير عن رغبته في

الاحتفاظ بالمرأة التي يحتجزها، وجعلها زوجة شرعية له.
أريسْت : هذه الفتاة ...
المفوّض : هي في عهدته ولا يسعها ان تخرج عن طاعته. فالأمل ان توافق على ما يناسبهما كلاهما ولا غنى لهما عنه مطلقاً.

المشهد السابع

المفوض، وفالير، والكاتب العدل، واسكاناريل، واريست

فالير (**يطل من النافذة**) : كلّا، يا سادة، لن يدخل احد الى هنا. فلا تحاولوا فرض ارادتكم. انتم تعرفون من أنا، وعليّ أن أقوم بواجبي، وان اطلب توقيعكم على ما يعرض عليكم من حلّ. وليس امامكم الّا ان تباركوا هذا الزواج. واذا لم تكونوا من هذا الرأي، لا بدّ لكم من ان تقضوا على حياتي اذا صمّمتم على حرماني من حبيبتي.
إسكاناريل : كلا، نحن لا ننوي ان نفصلك عنها. ولأن العريس لم يتخلَّ بعد عن ايزابيل، فلْنستفدْ من غلطته.
أريسْت : لكن، هل العروس هي ليونور ؟
إسكاناريل : أصمتْ، ايها الغبي.
أريسْت : هيّا أخبرني.
إسكاناريل : إهدأ ولا تشاكسْ.
أريسْت : أودّ ان أعلم ...
إسكاناريل : ما بك ؟ أرجوك أن تسكت.
فالير : ختاماً، مهما حدث، لقد وعدت ايزابيل، وهي قد قطعت لي عهداً. ولم يعد هناك من مجال للاختيار ولتمحيص الأمور ودرسها. اذ ليس باليد من حيلة لتغيير الواقع الأكيد.

أريسْت : ان ما يعلنه هذا الرجل ليس ...

إسكاناريل : أصمتْ بربّك ولا تزد كلمة واحدة مما تعرفه. فالمفروض ان يبقى في سرّك، بدون ان تواصل حديثك. فكلانا نوافق على ان تصبح زوج التي توجد الآن في بيتك.

المفوّض : اجل، هكذا يجب ان تنتهي هذه المشكلة. وسيظل مكان اسم العروس خالياً، لأني لم ابصرها قط. فوقّع، والفتاة بعدئذٍ ترتّب امورها كما تشاء.

فالير : انا موافق على ذلك.

إسكاناريل : وانا ايضاً غير مخالف. وسنفرح هكذا كلنا. فوقّعْ اذاً انت كذلك، يا اخي، لكي تسير المسائل في مجراها الطبيعي.

أريسْت : لكن، لماذا كل هذا التكتّم والالتباس ؟

إسكاناريل : هيّا وقّع، ايها المعرقل الغبيّ.

أريسْت : انت تتكلم عن ايزابيل، وهو يقصد ليونور.

إسكاناريل : أوَلَا توافق، يا أخي، على ان تكون هي العروس ؟ وان تدعهما يتدبّران كلاهما أمورهما معاً ؟

أريسْت : بدون شك.

إسكاناريل : وقّع اذاً، وها أنا أسبقك الى التوقيع.

أريسْت : سأسايرك، وإن كنتُ حتى الآن لم أفهم بعد ما يجري تماماً.

إسكاناريل : ستتّضح لك الامور حتماً.

المفوّض : وسوف نعود الى الموضوع.

إسكاناريل : هكذا أؤكّد لك ان المؤامرة توشك فصولها ان تكتمل.

المشهد الثامن

ليونور، وليزات، واسكاناريل، واريست

ليونور : مسكين هذا الشهيد. كم يبدو لي الشبان المهووسون مزعجين.
ليزات : كل منهم يودّ ان يرضيك وينال إعجابك ولا يعرف كيف.
ليونور : وانا لم أشاهد ما هو أسمج مما جرى. كم وددت ان تتبسّط المناقشة التي دارت حول هذه المعضلة السخيفة. يظن البعض بسبب غرورهم ان الرياح تجري دوماً كما تشتهي السفن، ويعتقدون انهم تصرفوا وتكلّموا كأفضل ما ينبغي. لكنهم حين تؤدّي بهم حماقتهم الى التذمّر والصراخ، يزداد إذ ذاك الإزدراء بعشق العجوز المتصابي الذي يلذّ لي اكثر من سواي أن أتذوّق وَهْمَ حماسه المبالغ بعد فوات الأوان، وهو يتودّد ويداعي ويتصابى كأنه شاب مهووس خليع. أوليس هذا هو الواقع المؤسف المرير ؟
إسكاناريل : اجل هذه هي الحقيقة المزعجة. ها هي الفتاة تطلّ ومعها خادمتها.
أريسْت : لا تغضبي، يا ليونور، فمن حقّي أن أشتكي. وأنتِ تعرفين جيداً اني لا اقصد ان اغيظك. فإن لم أعارضْ ولم أحتجَّ على تصرّفك رغم المناسبات العديدة التي سنحت لي لأفعل ذلك، وتركت لكِ الحريّة المطلقة لتحقّقي امنياتك بدون ان تحسبي لعواطفي ومشاعري أي حساب، فتبعتِ هواك وتجاهلتِ مرارة خيبتي. لكني لست مع ذلك نادماً على حسن معاملتي التي أمّنتْ لك مصلحتك بدون أن تأبهي لصداقتي المهدورة.
ليونور : لا افهم لماذا تحدثني الآن بهذه اللهجة. إعلم أن نظرتي اليك لم تتبدّل ولم يَنْقُصْ تقديري صفاتك ومواهبك. وإلّا لكان إغفالي مؤهلاتك وشخصيتك جرماً شنيعاً، وإن كنت أنا قد أرضيت ميلي. فإن شئت أنتِ أن تلبّي رغباتي، سيربطني بك منذ الغد وثاق الزواج المقدس الذي لن تنفصم عراه بيننا أبداً.
أريسْت : على أي اساس تبني تصريحك، يا اخي ؟

إسكاناريل : ماذا تريدين ان تبيّني ؟ ألا تودّين ان تغادري منزل فالير ؟ أنت لم تكلّميني اليوم بتاتاً عن غراميّاتك، ولم تكون منذ سنة على الاقل تحنّين كثيراً وتشتاقين اليه.

ليونور : من الذي رسم لك عني هذه الصورة الجميلة، ووصف لك أوضاعي الرائعة هذه في دنيا الغرام ؟

المشهد التاسع

ايزابيل، وفالير، والمفوّض، والكاتب العدل، واركاست وليزات، وليونور، وإسكاناريل، وأريست.

إيزابيل : أَلْتمس منك الصفح الكريم، يا اختي، إن كنت اسأتُ اليك ولطّخت اسمك بما سمحتُ به لنفسي من حرية الكلام. إن الارتباك المفاجئ الذي عراني قد دفعني الى هذه اللفلفات المخجلة. ومثالك الأعلى يدين تصرفي المستهتر هذا. غير أن الحظ قد عامل كل واحد منا بطريقة تناقض الاخرى. لذا لا يسعني، يا سيدي، ان أعذرك. فأنا أخدمك اكثر مما أعرقل مشاريعك. وقد ساهمتِ السماء في تهييء ظروفنا. وثبت لي اني غير جديرة بما تتمناه لي من خير. ففضّلتُ ان أرى نفسي في عصمة رجلٍ غيركَ، لأني لا استحق عطفك عليّ وإخلاصك لي.

فالير : اما أنا فإني أرهن حياتي وسعادتي، يا سيدتي، بمشيئتكِ كي تمنّي بها عليّ حسب رضاك.

أريسْت : تمهّلْ، يا اخي، وارقبْ الامور بصبر وهدوء لعلّ الايام تخفّف من شقائك. ومهما كنتَ أنت مخدوعاً، أرجوك أن لا تستدرّ شفقة اي انسان.

ليزات : انا أقدّر سعيه، واشكر ما يبذله في سبيلي من جهود خيّرة.

ليونور : لست أدري إن كانت مساعدتك تستحقّ التقدير حقّاً، لأن مقدار خدماتك يفوق كل ثمن وثناء.

أَزْكاسْت : وإن حكم عليه حظه العاثر بأن يكون مخدوعاً، أرجو أن تخفّف عليه أوضاعه وطأة خيبة أمله.

إسكاناريل : لا، لا. لا استطيع ان اكتم دهشتي، لان خيانته تطغى على تعقّلي وحسن ظنّي. وأنا لا يسعني أن أتصوّر أن ابليس اللعين ربما كان مصدرّ لؤمها وغدرها. ولو عثرتُ عليها لكنت امتصصت منها بأقسى الوسائل، وبلا رحمة أو شفقة. لأن من يثق بإمرأة مثلها يكون كمن يستجير من الرمضاء بالنار، ما دام جنسها اللطيف قولاً، هو سبب بلايا العالم اجمع فعلاً. لذلك انا اتبرّأ من هذا الجنس الخدّاع الذي لا يُؤْمَن جانبه، وأتمنّى من كل قلبي أن يظل في قبضه الشيطان الرجيم.

أَزْكاسْت : حسناً تفعل، فأنت لا تظلمها.

أريسْت : تعالَ الآن نذهبْ الى بيتي، يا سيد فالير. وسنسعى غداً الى تلافي غضبها.

ليزات : أمّا أنتَ فإن شاهدتَ أزواجاً كالذئاب المسعورة نظيره، فما عليك إلّا ان ترسلهم الى مدرستنا، مدرسة الازواج المغفّلين، لكي نروّضهم.

(تمّت)

المزعِجُون

أشخاص المسرحية

أراسْت : مركيز عاشق اورفيز
لامونْتاني : صديق إراسْت
ألْسيدور : خادم إراسْت
أورْفيز : حبيبة إراسْت
ليسانْدر : عاشقة إراسْت
ألْكانْدر : فيكونت صديق إراسْت
ألسيب : صديق إراسْت
أورانْت : منافس إراسْت
كاليمان : منافسة اورْفيز
دورانْت : رفيق إراسْت
كاريتيديس : عالِم يوناني
أُورْمان : رفيق إراسْت
فيلانْت : صديق إراسْت
داميس : رفيق إراسْت
لشْبين : خادم إراسْت
لا ريفيار واثنان من رفاقه

الفصل الأول

المشهد الأول

أراسْت ولاموُنتاي

أراسْت : على أي كوكب، يا إلهي، كان عليّ أن أُولَد حتى أكون في منأى عن المزعجين، لا تحلّ بي المصائب باستمرار. يبدو ان حظّي العاثر يدبرها لي ويطالعني كل يوم بصنف جديد منها. إلّا ان محنتي اليوم لا توازيها بليّة أي منحوس غيري. فخُلْتُ أني لن أتمكّن من الخلاص منها. ورحت ألْعن ألْف مرة تفكيري هذا الساذج الذي حملني على اعتبار المهزلة كأنها دعوة الى غداء شهيّ حيث ظننت أني سأكون سعيداً. لكني بالعكس عانيت قسوة عقاب ذنوبي. ولا بدّ لي من أن أقصّ عليك حكاية مشكلتي التي جعلتني استشيط غضباً. كنت على خشبة المسرح مستعدّاً لسماع حوار الرواية التي بلغني عنها الكثير من الإطراء، وكان الممثلون الصامتون على وشك ان يباشروا إلقاء أدوارهم. وإذا برجلٍ ضخم يرفع صوته الخشن بجسارة ويصرخ بَغْتَةً : « هيّا أحضروا مقعداً بسرعة »، وبضجّةٍ أدهشتِ الحضور أثناء أدقّ لمحةٍ من المسرحيّة المشوَّشة. ممّا دعاني الى التساؤل : « يا إلهي، ألَا يجمل بالفرنسيّين المهذّبين ان يحافظوا على حرمة جيرانهم الواعين ؟ وهل وصلنا الى حدّ أن نُظهر على المسرح امام الجمهور بطريقة جنونية أشنع معايبنا التي انتقدها جميع أصحابنا في كل مكان. وفيما انا اهزّ كتفيّ إشمئزازاً، شاء الممثلون ان

يواصلوا القيام بأدوارهم. لكن الرجل المذكور عندما جلس أحدث صخباً جديداً ثم نهض واجتاز أرض المسرح بخطى سريعة، بينما كان باستطاعته ان يمرّ جانباً بهدوء، ووضع في الصف الأول مقعده الذي حمله بعناء. وبظهره العريض حجب النظارة عن أبصار العديد من المشاهدين، وحرمهم رؤية معظم الممثلين. فارتفع ضجيج كان استحى منه أي شخص آخر، غير أنه هو لم يأبه لذلك عن عزمٍ وتصميم. وظلّ في مكانه، كأني به لسوء طالعي يحرّضني بقوله : « هيّا، أيها المركيز، تعالَ اجلس الى جانبي. كيف حالك ؟ أرجوك ان تسمح لي بمعانقتك ». فاحمرّ وجهي خجلاً لمبادرة هذا الثقيل الظلّ إيّاي بمثل هذا الكلام، وخشيت أن أبرز كمحبّذٍ لسماجته، إذ أنه راح يطرح علي ألف سؤال باستهتار، وبصوته الأجشّ الذي جاء أعلى من أصوات الممثلين انفسهم. ثم أخذ الجميع يشتمونه ويلعونه. ولكي أوقفه عن مواصلة كلامه، قلت له : « اني أُصغي اليه ». فسألني : « ألَا ترى ذلك، أيها المركيز » ؟ غير أني وجدت سؤاله غريباً، لأني لست غبيّاً، وأميّز جيداً إن كان تصرّفه مقبولاً، لأن الشاعر « كورناي » كثيراً ما كان يتلو عليّ معظم مقطوعاته. وراح يختصر لي مواقف الرواية مُسْبقاً، ويُنبئني بما سيجري مشهداً فمشهداً، ويلقي عليّ الاشعار غيباً قبل ان يفوه بها الممثلون. ومهما قلت له أن لا يتحمّل هذا العناء، أصرّ على مواصلة إعلامي بما سيجري، وإنْ بَتَرَ لي لذة معرفة الأحداث في حينها كالعادة. وكم منَّيتُ نفسي بالخلاص من سماجة سلوكه في ختام المسرحية. لكن سيل حديثه ظل متدفقاً من فمه، وراح يسرد لي مغامراته وإنجازاته، ويحدثني عن خيوله ومآثره الفريدة، وعن نفوذه في البلاط الملكي، عارضاً علي خدماته الكريمة بكل طيبة خاطر. فشكرته بإيماءة لطيفة وأبديت له عزمي على الانصراف بحركةٍ مهذّبة. غير أنه عندما فهم رغبتي دعاني الى الخروج معه، قائلاً : « هيّا بنا، أيها المركيز الى الطريق، لأريك عربتي التي تليق بأمير وزعيم خطير، فتشاركني في امتطائها كي اوصلك حيث تشاء. فشكرته معتذراً بأني مدعوّ الى تناول الطعام. فبادرني : « إن كان الأمر كذلك، وانا أحد اصدقائك، هلّا اصطحبتني معك ». فبيّنتُ له بلطفٍ استغرابي ذنبه. فأجابني : « اني ارافقك لمواصلة البحث الذي باشرته معك.

فأنا مُتْعَب من تلبية الدعوات العديدة التي أتلقّاها. إلّا أني ارافقك الآن اكراماً لمعزّتك. ولأني مسرور جداً بمعيتك ». فلم يسعني إلّا أن أكظم غيظي. ولم ينقذني من هذا السمج الثقيل الظلّ سوى إلتقائه بأحد معارفه، إعترض سبيله واوقفه بإلحاح ليطرح عليه سؤالاً. فاغتنمتُ أنا الفرصة لأتوارى، وأتملّص بهدوء من رفقته المفروضة عليّ فرضاً، بعد أن ذقتُ الأمرَّيْن من فضوله وبذاءته. وقد لعنتُ في سرّي امثاله المزعجين المتعنّتين. وهكذا تخلّصت من حراجة موقفي معه.

لا مونْتاني : هذه خيبات مريرة تشوب أحياناً ملذات الحياة الاجتماعية. إذ ليس كل ما في الوجود يرضي ذوقك. ما دامت الظروف تأبى إلّا ان تخبّئ لكل واحدٍ منا مزعجين مباغتين، لولاهم لكان الانسان في اسعد حال.

أراسْت : لكن بين جميع من أزعجوني، لا بدّ من ان أذكر بنوع خاص داميس الوصي على فتاة احلامي التي أهيم بحبها. فهذا الشخص البغيض ينغّص عليّ حياتي ويهدم لي كل أحلامي وأمنياتي. واذا صادفت حبيبتي، لا تجرؤ على النظر اليّ اثناء حضوره. وأنا الآن أخشى ان تكون ساعة موعدي قد فاتت، اذ اني اتفقتُ مع عزيزتي أورْفيز على مقابلتها في هذا المكان.

لا مونْتاني : أعتقد ان موعد اللقاء يمتدّ بعض الوقت، ولا بأس إن تأخرتِ المقابلة قليلاً.

أراسْت : هذا صحيح. غير أني أخاف ان يكون تأخّري سبباً كي تتهمني حبيبتي بالاهمال وقلّة الاكتراث.

لا مونْتاني : حتى اذا كان هذا الحب الصادق الذي برهنت أنت عنه بجدارة، قد أصبح في عرفها، جريمة نكراء بحقّك، فإنّ ما يكنّه لك فؤادها من المودّة يجعلها لا تبصر شيئاً من نقائصك.

أراسْت : على كل حال، هل تظن انها تهواني بهذا المقدار ؟

لا مونْتاني : ماذا تقول ؟ هل تشكّ بمحبتها المعلنة والمؤكدة مراراً وتكراراً ؟

أراسْت : لا يغربْ عن بالك أن القلب المفعم حباً يحتاج الى اثباتات متواترة. لأنه يخشى ان يضطرم هياماً، وأن يتطرّق اليه الشكّ والطمع بالاستزادة كلما فكّر وأمعن في الإعجاب بجمال عروس احلامه وحسن خصالها.

لا مونْتاني : ارى ان قميصك عند العنق مفكك الأزرار
أراسْت : هذا لا يهمّني.
لا مونْتاني : دعني من فضلك أزره لك.
أراسْت : أُفٍّ منك. أنت تكاد تخنقني. بربّك، أتركْه كما هو.
لا مونْتاني : مهلاً. انتهيتُ من ذلك.
أراسْت : هذا تطفّل لا مثيل له. لانك كدت تقرض عنقي بأظافرك.
لا مونْتاني : ما انحفك.
أراسْت : أتركِ الحال على ما هو، ولا تهتمّ بأمري.
لا مونْتاني : كم أنت عدو الترتيب.
أراسْت : انا لا أبالي به مطلقاً.
لا مونْتاني : إسمح لي على الأقلّ ان انفض عن قبعتك الغبار المتراكم الذي يغطّيها.
أراسْت : هيّا نظّفها جيداً، إن كنت تصرّ على ذلك.
لا مونْتاني : هل تعجبك الآن بعد أن خَلَتْ من الأقذار ؟
أراسْت : المهمّ ان تعجّل في ما تقوم به.
لا مونْتاني : ألّا ينفر ذوقك من إهمالك هذا ؟
أراسْت (**بعد الانتظار برهةً**) : كفاك عناء.
لا مونْتاني : بربّك، قليلاً من الصبر.
أراسْت : انت تكاد ترهقني.
لا مونْتاني : اين حصرتَ نفسكَ لكي تَلُمّ كل هذا الغبار الكثيف ؟
أراسْت : تكاد تهري لي قبعتي من كثرة فَرْكها.
لا مونْتاني : ها هي قد نظفت وأصبحت كأنها جديدة.
أراسْت : أعطني إياها.
لا مونْتاني (**يدع القبعة تسقط على الأرض**) : العفو.
أراسْت : ها هي على الأرض، وقد إتّسخت ثانيةً. تبّاً لتطفّلك المُتْعِب.
لا مونْتاني : دعني انفضها.

أراسْت : هذا لا يعجبني كثيراً. ما أبلدك. انت كالخادم الذي يُرهق سيده بشدة مبالغته في التفاني لكسب رضاه.

المشهد الثاني

أُورْفيز، وألْسيدور، واراسْت، ولامونتاني.

أراسْت : ما سبب غياب أورْفيز ؟ ها هي مارّة. لكن الى أين هي ذاهبة مسرعةً هكذا ؟ وأي رجل يجتذبها ؟ (يحيّيها عند عبورها، فتدير له ظهرها). ماذا تفعل ؟ أتراني أمام عينيها وتتظاهر بأنها لا تعرفني ؟ بماذا أتهمها ؟ ما قولك بتصرّفها ؟ هيّا تكلّمّ وافدني حالاً.

لا مونْتاني : انا لا أفوه بكلمة خوفاً من أن أبدو مزعجاً.

أراسْت : تكون أغبى المزعجين اذا لم تتكلّم. ففي وضعي المقلق، أنا لا أتحمّل هذه الاهانة الحقيرة. ألَا قُلْ لي ما يريح بالي ويُطمئن قلبي. كيف تريد أن لا أسيء الظن بها ؟ تكلّمْ، بماذا تنعت تغاضيها ؟ هيّا قُلْ لي ما هو رأيك الصريح ؟

لا مونْتاني : أفضّل الصمت، يا سيدي. إذ لا يسعني أن أفصح عن فكري.

أراست : تباً لك من عديم الاحساس أراك لا تقلّ عنها سماجة.

لا مونْتاني : مع ذلك، أفضّل الامتناع عن إبداء رأيي.

أراسْت : وهل هذا يعفيك من التقصير ؟

لا مونْتاني : نعم، اذ ربما لا يرضيك جوابي.

أراسْت : بالعكس، أودّ أن أعرف ما هو شعورك إزاء قلّة ذوقها.

لا مونْتاني : وماذا عساي أن أقول ؟

أراسْت : عاقبتْك السماء على عدم اكتراثك. فأنت في نظري، كما سبق وأعلنت لك، أغبى المزعجين أجمعين. (يخرج لامونتاني). تبّاً له من مغفّل. ما احمقني في محاولتي معرفة رأيه السخيف في هذا الحادث المشؤوم الذي آلمني، وإن دل على شيء فعلى الإزدراء والاحتقار.

المشهد الثالث

ليسائدر، واراست

ليسائدر : تحت هذه الاشجار أبصرتك عيناي من بعيد، ايها المركيز، فبادرت الى موافاتك. ونظير أحد أصحابي الأعزّاء، عليّ ان انشدك بعض الالحان الشائعة التي يرضى عنها خبراء أهل البلاط الملكي، وقد نظم العديد منهم اشعاراً ساحرة. غير أني انا ابن الحَسَاب والغنى، صاحب المواهب والمواقف التاريخية البارزة، لا أرغب مع كل ما أنا عليه من نعمة، أن أُظهر لك حقيقة حالي، كما فعلت الآن أمامك. فأرجوك أن تصغي اليّ بانتباه. (ينشد أُغنيته).

أراسْت : آه منك.

ليسائدر : هذه نهاية فاخرة. (يعيد انشاد خاتمة أُغنيته اربع أو خمس مرات). كيف وجدتها ؟

أراسْت : حقاً في غاية الروعة.

ليسائدر : الايقاع ليس بالانضباط المرغوب. لكن النغم حنون. (يغني ويرقص ويتكلّم في آن واحد، ثم يطلب من اراست ان يقوم بدور المرأة في مختلف حركات الرقص). ألَا انظر الى الرجل الذي يمرّ هكذا، ثم تتبعه المرأة، ومعاً ينسجمان ويفترقان، ثم تأتي المرأة الى هنا. هل إنتبهتَ الى هذا الانعطاف الذي أقوم به، وهذه القفزة الرشيقة وهذه الخطوة اللطيفة، تارةً وجهاً لوجه، وطوراً ظهراً لظهر. ثم الى إنضمام الاثنين معاً ؟ (بعد الانتهاء). كيف وجدت هذا الرقص، أيها المركيز ؟

أراسْت : ممتاز. كل هذه الخطوات رائعة، رائعة جداً.

ليسائدر : أنا أفوق مهارةً أبرع اساتذة الرقص.

أراسْت : هذا ظاهر للعيان.

ليسائدر : المهم في حركات الرقص رشاقة التنقّل والإنسياب.

أراسْت : لا استغرب ذلك منك.

ليسائدر : هل تريد، على سبيل الصداقة، أن أدرّبك عليها ؟

أراسْت : في الوقت الحاضر، ليس لدي وقت ...
ليساندر : اذاً سنقوم بذلك متى تشاء. لو كنت أعرف هذه العبارات الجديدة لكنّا تلوناها معاً وأنشدنا اكثرها إبداعاً.
أراسْت : في مناسبات أخرى.
ليساندر : الوداع. ان العزيز باتيسْت لم يشاهد رقصي، وها أنا ذاهب للبحث عنه والإتيان به الى هنا، لأن لكلَيْنا ميلاً شديداً لمثل هذه الالحان. وسأرجوه ان ينظّم لنا حفلات غنائية راقصة في اقرب حين. (يخرج وهو يغنّي)
أراسْت : يا الهي. هل حكمتْ عليّ السماء بأن أتحمّل كل يوم حماقة بعض السخفاء، وأن أضطر الى مسايرتهم والاستماع الى سماجتهم والتصفيق غالباً لغبائهم ونشاذهم ؟

المشهد الرابع

لامونتاني، واراست

لا مونْتاني : أورفيز وحدها، يا سيدي، قادمة من هذه الجهة.
أراسْت : انا اشعر باضطراب وقلق، لأني لا أزال واقعاً في هوى هذه الشيطانة الشرسة، بدلاً من أن احقد عليها كما يجب بسبب سوء معاملتها.
لا مونْتاني : اسمح لي، يا سيدي، أن أصارحك بأن منطقك المشوَّش يخبط خبط عشواء، لذا لا يسعك ان تستولي على فؤاد فاتنتك. مع ان كل الحقّ الى جانبك اذا استشطّت غضباً عليها. لأن حلاوة اللسان تأسر الجنان، وزلّة اللسان لا تُغتفر.
أراسْت : يؤسفني ان أصارحك بأني مقصّر في تأديبها وتوجيهها الى طريق الصواب.

المشهد الخامس

أُوزْفيز واراست، ولامونتاني

أُوزْفيز : اراك اليوم عابس الوجه مقطّب الجبين. فهل يضايقك حضوري، يا تُرى ؟ ماذا دهاك، وماذا يقلق بالك ؟ هل وصل بك الشوق الى التنهّد حين تبصرني ؟

أراسْت : سؤالكِ في محله، يا للأسف. لأن صرامتك تحز في قلبي وتكاد تخنقني. وهل هناك أفدح من تجاهل ما سبّبته لي من المآسي ؟ ومجرّد حديثكِ يجعلني أُقضي ...

أُوزْفيز (ضاحكةً) : هل هذا ما يحزنك ؟

أراسْت : ما لكِ تسخرين من شقائي، يا عديمة الإنسانية ؟ إن هزأك بتعاستي لا يليق بك. فأنت وحدك، يا ناكرة الجميل، تعذبين مهجتي وتحطّمين آمالي وعواطفي، بمجرّد كون ألحاظك قد سيطرت على كياني.

أُوزْفيز : لا يسعني إلّا ان أضحك لدى اعترافاتك هذه التي تثبت لي انك مهووس ومضطرب الشعور. فان الرجل الذي تتكلّم عنه بعيد عن ان ينال إعجابي. فأنت شخص مزعج أودّ التخلّص من بذاءته. أجل انت في نظري متطفّل أحمق، تأتيني متملّقاً بلسانك المعسول، وتمدّ اليّ يد الصداقة، بينما أنا لا أُحسّ نحوك إلّا بالكره والبغض الشديد. وحين اقصد الابتعاد عنك لأُخفي ازاءك حقيقة عواطفي، ترافقني حتى عربتي وأنت ممسك بيدي متودّداً، الأمر الذي لا يلبث ان يربكني كأني أراك تداهمني من طرفٍ خفيّ.

أراسْت : هل أفهم منكِ، يا اورفيز، أن أمامي بعض الأمل كي يصفو لي قلبك الشغوف ؟

أُوزْفيز : لا اقوى على رفض كلامك هذا الحلو، وأنا أحاول أن أبرّر موقفي حيال شكواك من فتوري. فأنا بسيطة التفكير، وحنوّي يجاور حدود السذاجة ...

أراسْت : بالله عليك، لا تستائي مني يا ذات الجمال القاسي، فأنا أريد أن

أصدّقك كأني أعمى لا أبصر تحفّظك في ما توجّهينه اليّ من عباراتٍ حلوة ومريرة معاً. أرجوك ان تنظري بعين العطف الى لوعة عاشق متعثر الحظّ سيقدّر ويحترم فضائلك الى آخر ايام عمره. لك ان تعبثي بوفائي، وان تحرميني نعمة هواك وتتباهي امامي بميلك الى سواي. فان حنيني سيظلّ يستجدي سحر لحظك. وأنا مستعد لتحمّل كل ما تسومينني اياه من عذاب في تعلّقي بشخصك الغالي وسأموت في ظلّ غرامك بدون ان أشتكي من جرح الهوى.

أُورْفيز : لأن مثل هذه المشاعر تسيطر على مهجتك، لا بدّ لي من جهتي ...

المشهد السادس

أَلْكائدر، وأورفيز، وأراست، ولامونتاني

أَلْكائدر : إسمح لي بأن أقول كلمة، ايها المركيز. وأنتِ، يا سيدتي، أرجوك أن تعذريني إن تماديتُ في الحديث وتجاسرت على مخاطبتك سرّاً. اني اسمح لنفسي، ايها المركيز، ان أَلْتمس منك خدمة. هناك رجل يطيل التأمّل فيّ. فأرجوك، لكي لا أكون محقوقة ان تمضي اليه وتستدعيه. فأحذّره من اني في هذه الحالة سأضطر الى الدفاع عن نفسي وردّ كيده الى نحره.

أراسْت (**بعد فترة صمت**) : انا لا أودّ هنا ان اكون القاضي، وإن كنتُ جنديّاً قبل ان اصبح مُغازلاً. فلقد خدمت في صفوف العسكرية زمناً طويلاً وأعتقد أني تمرّست في الدفاع، ولن يتعذّر علي ان انتقل الى الهجوم في سبيل رضاك. ولن اخشى مقارعة الجبانة بشجاعتي، وسأرفع يدي في وجه العدوان وأنساق الى مبارزة المتطاول وانتصر للحق. لان مليكنا يأبى التخاذل، ويُخضع للعدل جميع كبار رجال دولته، وهو يتصرّف كعاهل قدير كريم. اني اخدمه بكل إخلاص واتجنّب كل ما من شأنه ان يضايقه، وانفّذ راضياً كل اوامره. وإن أحتاج الأمر الى مخالفة رأيه، إبحثْ عن سواي. انا أتكلّم بحرّية ضمير، أيها

الفيكونت، ومستعدّ لكل خدمة تلزمك في ظل العدل والقانون. والآن وداعاً. وليذهب المزعجون الى الجحيم. لكن اين توارت حبيبة قلبي ؟

لا مونْتاني : لست أدري.

أراسْت : وأنا لا أعرف اين مضت الحسناء. ارجوك ان تبحث عنها في كل مكان. وأنا انتظر هنا على أحرّ من الجمر.

رقصة الفصل الأول

القسم الاول :

يدخل لاعبون، وهم يصرخون ويضجّون. وعندما يصل أراست يحين موعد :

القسم الثاني

فيأتي متطفّلون ويدورون حوله حتى يتعرّفوا اليه ويجبروه على الإنسحاب فترةً.

الفصل الثاني

المشهد الأول

اراست

أراسْت : هل انفرط عقد من دأبوا على إزعاجي ؟ أعتقد أنهم يتقاطرون اليّ من كل حدب وصوب. وانا أهرب منهم وأشاهدهم دائماً حولي. بينما انا أبحث عمن يهواها قلبي، ولا ألاقيها. فيباغتني الرعد والمطر ويسدّا عليّ سبل النجاة. فألتمس من السماء أن تمنّ عليّ بطرد جميع المزعجين من حولي. فالشمس تميل الى الغروب، وأنا متعجّب كيف لم يرجع خادمي بعد.

المشهد الثاني

ألْسيب، واراسْت.

ألْسيب : نهارك سعيد.

أراسْت : ماذا تريد ؟ اشعر بأن حبّي خائب على الدوام.

ألْسيب : ارجوك ان تتعزّى، يا مركيز، على أثر هذه اللعبة الغريبة التي خسّرتني يوم امس، حين نازلتُ « سان بوفان »، اكثر من خمس عشرة نقطة.

وهذه ضربة موجعة أرهقتني منذ البارحة، وسأذكرها طويلاً. أجل هي خسارة فادحة لن أنساها، ولن أسعى الى تكرارها. لم ينقصني سوى ورقتين. وخصمي كان يحتاج الى ورقة « بستوني ». وعندما وزّعت أنا، أخذ ستّ اوراق، وطلب الاعادة. لكني تمنّعت. فحملتُ « أس السباتي »، ويمكنك أن تتصوّر سوء حظّي، الأس والملك والولد والثمانية والعشرة « الكبّا ». ثم تعادلنا، كأن الدورة في احسن حالاتها. وكذلك الملكة والملك « الديناري » والعشرة والملكة « البستوني ». ومقابل اوراقي الخمسة « الكبّا » حصلت على الملكة أيضاً فشكّلت مع ما في يدي خمسة اوراق هامة. لكن خصمي كان لديه أس، وبدون دهشة فتح على الطاولة مع اوراق « الديناري » وورقة سادسة. وكنت قد فَصَلْتُ الملكة والملك. وبما انه يحتاج الى البستوني « طلعتُ » بدون إرتعاش، وظننت اني ربحت نقطتَيْن وحيدتَيْن. لكن مع السبعة « الديناري » كان لدى خصمي أيضاً أربعة « بستوني ». فألقى الورقة الأخيرة وأحرج وضعي. ولم أعدْ أعرف بأي الأسَيْن أحتفظ. فرميت بأس « الكبّا » كما يحق لي، على ما أظنّ، غير أنه ألْقى بأربعة « سباتي » معاً أو بستة « كبّا ». ووجدت ذاتي خاسراً. والأنكى أني لم استطع أن أنبس ببنت شفة. تبّاً لك، أعطني حقاً بهذا الضرب الفظيع، إلا اذا ابصرت الورق مسبقاً وهذا ما لا يُصدَّق.

أراسْت : غالباً ما يحالف الحظّ الانسانَ في ضروب اللعب الكبيرة.

ألْسيب : ستحكم بنفسك، اذا كنت مخطئاً، واذا كنت قد خَنِقْتُ بدون سبب. فهذه هي خطّة اللعب التي ابيّنها لك الآن. وها هو نصيبي، كما قلت لك، وهذا هو ...

أراسْت : فهمت كل شيء من شرحك هذا لي. ورأيي الصريح في ما يثير قلقك هو الحلّ الأنسب. لكني مضطر الآن الى مغادرتك لأمرٍ هامّ جداً. فالوداع. عليك ان تتعزىً عن المشكلة التي تضايقك.

ألْسيب : من ؟ أنا ؟ لن أنسى أبداً هذه المحنة التي انقضّت عليّ كالصاعقة. وسأرويها لجميع اصحابي. (يهمّ بالخروج، ويتظاهر بالعودة. ثم يخاطب نفسه قائلاً) : ستّة (كبّا) تساوي نقطتين.

أراسْت : اين نحن في هذه اللحظة ؟ فحيث إتّجهتُ لا أبصر حولي غير المهووسين. يا إلهي. لقد فرغ صبري.

المشهد الثالث

لامونتاني، واراست

لا مونْتاني : لم استطع، يا سيدي، ان ابدي غير هذا النشاط.
أراسْت : لكن، ألَا تأتني بأي نبأ ؟
لا مونْتاني : بدون شك، أودّ ان اعلمك بما قد يغيّر وجهة مصيرك.
أراسْت : ماذا تقول ؟ كلّي آذان صاغية لسماعك. تكلّمْ.
لا مونْتاني : هل حقاً تتوق الى معرفة ذلك ؟
أراسْت : نعم، نعم. أسرِع بالقول.
لا مونْتاني : تمهّل، رويداً، يا سيدي. لأن نَفَسي انقطع من شدّة ركضي.
أراسْت : هل يلذّ لك ان تعذّبني بإطالة انتظاري.
لا مونْتاني : بما أنك مستعجل هكذا لمعرفة ما يهمّك امره، أقول لك اني تلقّيت تعليمات من الشخص الجذّاب الذي لا تجهله ... وأنا لا أتبجّح بغيرتي على مصلحتك، فقد قطعت مسافة طويلة، لكي احظى بهذه الغادة الفاتنة، واذا ...
أراسْت : تبّاً لهذا التباطؤ.
لا مونْتاني : لا بدّ من الاعتدال في كل الامور. فإن « ساناك » الفيلسوف ...
أراسْت : « ساناك » أصبح أحمق، على ما أظنّ، لأنه حتى الآن لم يقلْ ما يهمّني وأنتظره بفارغ الصبر. ألَا قُلْ لي أخيراً ما تعرفه.
لا مونْتاني : تلبيةً لرغبتك، أقول إن حبيبتك أورْفيز هي بهيمة متشبّثة برأيها تماماً كما هي متعلّقة بشخصك.
أراسْت : أكْمِلْ.

لا مونْتاني : هذه الحسناء تقول لك ...
أراسْت : عجّلْ، ماذا تقول ؟
لا مونْتاني : إحْزَرْ.
أراسْت : ألَا تدري اني لا احبّ المزاح والمداعبة ؟
لا مونْتاني : هي تطلب منك ان لا تغادر هذا المكان. لكي يتسنى لك ان تراها عما قريب، عند رحيلها من أحد الارياف لتأتي وتلتقي هنا ببعض المزعجين المغرورين من أهل البلاط الملكي.
أراسْت : انا انوي أن أمكث في المكان الذي اختارته لتواجهني. لكن بما ان تلبية رغبته تسرّني، دعني أتفحّص ما يرضيها. فأنا مصمّم على أن أنظم لها قصيدة عصماء تنال إعجابها. « يتمشّى وهو يحلم ».

المشهد الرابع

أورانت، وكاليمان، واراست.

كاليمان : هل تظن أنك تنجح عن طريق المعاندة ؟
أورانْت : أعتقد أن حجّتي أقوى من حججك كلّها.
كاليمان : اودّ أن يسمع النقّاد دواعي الْظرفين.
أورانْت : لديّ هنا رجل ليس بجاهل، ويتيسّر له ان يحكم فيما بيننا بنزاهة. فاسمح لي، ايها المركيز، ان أقول كلمة : « ما رأيك إن دُعيت أنت الى الفصل فيما بيننا بموضوع نزاعنا الذي هزّ شعورنا كلنا، لا سيما في ما يتعلق بأوصاف أفضل العشّاق.
أراسْت : هذه مهمّة صعبة الأداء، تحتاج الى حَكَم أبرع مني.
أورانْت : لا، لا. انت متواضع، لا تحبّ احداث ضجّة حول شخصك. ونحن نعرف جيداً مقدرتك، ونعرف أيضاً ما ينسبه الجميع اليك من بُعدك عن حبّ الظهور ...

أراسْت : من فضلك ...

أورانْت : على كل حال، ستكون أفضل حَكَمٍ يفصل فيما بيننا، ولا نطلب منك إلّا ان تكرّس لنا القليل من وقتك.

كاليمان : وسأبقى الشخص الذي سيدينكم. فإذا صحّ ما أجسر على اعتقاده، سيحكم هذا المسؤول بأن الحق الى جانب أحدكم.

أراسْت : أوليس من سبيل الى التغلّب على مزاحمي، باستنباطي ما ينقذ موقفي في هذه المنافسة الحامية ؟

أورانْت : انا لا أشك بمقدرته ونزاهته، ولا أخشى ان يُصدر حِكْماً بإدانتي. لأن النقاش الذي يحتدم بيننا، يدور حول ما اذا كان الواجب يحتّم على العاشق ان يكون غيوراً.

كاليمان : أو بالأحرى، لتفسير فكرتي وفكرتك بأسلوب أوْلى، لا بدّ من معرفة ما اذا كان الواجب يقضي على الغيور بأن يُرضي اكثر ممّن لا يغار.

أورانْت : من جهتي، بدون مناقضة، أفضّل العاشق الأخير الذي لا يغار.

كاليمان : أمّا انا فأميل الى الحبيب الأول الذي يغار.

أورانْت : أعتقد ان الفريق الفائز هو من يبدي أوفر مقدار من التقدير والاعجاب.

كاليمان : أنا أفضّل العاشق الذي يعرف كيف يولّد في الصدور حبّاً لا مزيد عليه.

أورانْت : نعم، لكن الشوق والهيام يتجلّيان بصورة مميّزة في الإخلاص اكثر مما في الغيرة.

كاليمان : وهذا هو شعوري بالذات نسبةً الى من يهواني، لأني افضّل ان يتعشّقني حبيبي بقدر ما يغار عليّ.

أورانْت : تبّاً لك. لا تكلميني بعد الآن، يا كاليمان عن المحبّين الذين يوازنون بين الحب والحقد. وبذلك يخلطون بين الحلو والمرّ بشكل مزعج، لأن، في أعماق كيانهم، لا بدّ من أن تحرّك عواطفهم غرائز غير محمودة العواقب، ربما أدّت الى الإجرام في بعض الظروف لدى البرابرة الذين تعميهم نزواتهم واشواقهم عن ملاحظة نواقصهم. فينساقون وراء لمحات غير واضحة المعالم

تغلّفها المظاهر الحزينة. فيتأفّفون من أوضاعهم الجائرة. وعندما يبرق امام عيوننا وهج الشك المحرق نهيم في دياجير الأسى والبغضاء، دليلنا الوهم والكره نحو من نعتبرهم خطأ أعداءنا. أخيراً نخلط بين الوفاء والمراوغة، وننحدر في الشجار الى هوّة المشاكل والكوارث، حين لا تعود قلوبنا تميّز بين الحقّ والباطل، بين الإخلاص والغدر. فنخطئ مرامينا، ونضلّ سواء السبيل ولا نبلغ محجّتنا. فأنا شخصياً أفضّل العشّاق الذين يوحون بالتقدير والاحترام، لأن وفاءهم يوطّد أسُس الحبّ والهيام.

كاليمان : تبّاً لكَ. لا تكلّمني هكذا بعد الآن عن امثال هؤلاء العشّاق المغرورين الذين لا يثبتون على رأي، ولا يتبعون أسلوباً مرضياً في هواهم المغلّف بالضباب. فتراهم محبّين فاترين، لا تكتوي قلوبهم بنار الهيام، ولا يخشون أن يفقدوا عروس أحلامهم، بل يَدَعون عشقهم ينام على حرير الإطمئنان دون أن يفكّروا بمزاحم قد يختطف منهم فؤاد حبيبتهم. وهكذا يظلّ غرامهم بارداً لا يثير فيهم اية لهفة او غيرة. بينما يظل سواهم يتقلّب على جمر الشوق الدائم الذي لا يعرف الهدوء والصفاء، ويظلّ يقظاً فطناً يناجي عروس احلامه ويداعي عواطفها، ويجد أقصى اللذة في تفانيه وتلبية رغباتهما، يلوم نفسه ويعتذر إن أساء التصرف، وربما لم يتردّد في البكاء والتكفير لنيل رضاها واستجداء مفاتنها.

أورانْت : اذا كان الحماس في الحب يعجبك، فأنا أعرف في باريس أشخاصاً يذهب بهم الغرام بعيداً حتى أنهم لا يتردّدون عن القتل أحياناً في سبيل إرواء غليل شوقهم والمحافظة على وهج حبّهم.

كاليمان : اذا كان يرضيك الابتعاد عن الغيرة، فأنا أعرف رجالاً يشبهونك ويتعذّبون في الحب نظيرك، ولا يتردّدون عن المغازلة والعناق بكل سهولة وسرور.

أورانْت : أخيراً ستعلنين قرارك في اختيار حبيبك المفضّل.

أراسْت : كم أودّ أن أُرضيكما وأُفرحكما معاً بدون ان أتذمّر أو اشتكي ممّن ينال الحظوة في عينيك. فالغيور يُمْعِن في عشقه، والآخر يُتقن اكثر منه فنون الهيام والغرام.

كاليمان : حقاً، مداعبتك طريفة. لكن ...
أراسْت : يكفيني ان نكون أنا وأنت قد تعادلنا. والآن أستأذنك للانصراف.

المشهد الخامس

أورفيز، واراست

أراسْت : أنتِ متأخرة، وأنا أشعر باستغراب انّ ...
أُورْفيز : لا، لَا. لا تكفّ عن هذا الحديث الطليّ. أنت تلومني على تأخّري، بينما يسعك الاستغناء عن مشاهدتي.
أراسْت : عبثاً تريدين أن أطْمئِن. وتؤنبينني على ما أتحمّله من ألَم الصدّ والبعاد. ارجوكِ ان تنتظري قليلاً ...
أُورْفيز : من فضلك، دعْني والتحقْ بأُصحابك. « تخرج ».
أراسْت : يا الهي. هل تحتّم عليّ ان أواجه مؤامرات المزعجين والمزعجات وأبصر أعز أمنياتي تتحطّم أمامي ؟ غير أني مع كل مقاومتي، يسرّني ان أرى البراءة تشعّ من عينيكِ.

المشهد السادس

دورانت واراست

أورانْت : كم نشاهد، ايها المركيز، كل يوم مزعجين لا يكفّون عن تبديد مسرّاتنا، ودأبهم أن يلاحقونا ويضايقونا. وها أنا مزمع أن اقصّ عليك حكاية أحد أغبيائهم.

أراسْت : أنا أبحث هنا عن واحد منهم، ولا بدّ لي من العثور عليه.
أورانْت (يتمسّك به) : هيّا، يا مركيز، إستمع اليّ فأحكي لك روايته اثناء الطريق. كنا جماعةً متنوّعة الشخصيات، ذهبنا بالامس الى صيد الغزلان. وبتْنا ليلتنا في مكان بعيد من الغابة المترامية الاطراف. ولما كنت اجد في الصيد لذة فائقة، أحببت ان اطلق لهوايتي العنان، فسرحت في الغابة، وكنّا وطّدنا العزم على تكاتف جهودنا في ملاحقة غزال شارد يحتاج الى عشرة بنادق يمتاز أصحابها بمهارة الرماية. فرحنا نجري وراءه، وقد انقسمنا الى فريقين بعد اصطدامنا بتدخّل أحد اهالي القرية المجاورة ممتطياً فرسه الاصيلة. ثم أقبل ابنه وهو أحمق من أبيه، لأنه إدّعى كونه من ابرع الصيادين، ورجانا جميعاً ان نقبل بانضمامه الينا في صيدنا. وقانا الله وحمانا من عناد الأدْعياء المغرورين اذا حملوا السلاح وهم لا يتقنون فنون القنص، ولا سيما عندما لا يكونون بصحبة زمرة على شاكلتهم من المزعجين غير المبالين. واذا به بعد الكرّ والفرّ والمطاردة يسدّد طلقاته الى الغزال الذي تلاحقه الكلاب، فأخطأه. عندئذ انفردتُ أنا بمتابعته على متن مطيّتي التي تعرفها.
أراسْت : لا، لا أظن اني رأيتها.
أورانْت : ماذا تقول ؟ حصاني نشيط بقدر ما هو جميل المنظر. اشتريته منذ بعض الوقت من السيد « كافو » الذي لم يمتلك ارشق منه، وهو جواد اصيل مرفوع الرأس، طويل العنق، ضامر الخصر، صلّب القوائم، حيوي الحركة. بالاختصار، هو رائع لا مثيل له. ولم اقبل باستبداله بحصان قُدِّم هدية الى الملك، وفوقه مئة ليرة ذهبية. فكنت أمتطيه وكلّي اعتزاز وافتخار، وانا منطلق كالسهم خلف كلاب الصيد، لا يجاريني في العدْو أحد من رفاقي الصيادين. فطاردت الغزال الفتي، وانا مسرع خلفه، كما تراني، أيها المركيز، كأني شهاب منساب بدون أي تحفّظ. واذا بالغزال يحيد عن دربه ويركض في اتجاه آخر. في هذه الأثناء لاحقه الصياد الغبي الذي أخطأه مراراً. حتى اذا قاربه اشهر عليه بدل البندقية، مسدسه الحربي وافرغ في رأسه كل رصاصاته خلافاً لأعراف الصيد وقوانينه السائدة. فاستأتُ جداً من تصرّف هذا المغرور الأرعن الذي لم يخجل من إظهار جهله في ممارسة هذا الفن النبيل. فما كان

مني إلّا ان تركت حفلة الصيد، وعدت الى منزلي حانقاً.

أراسْت : حسناً فعلت. فهذا كان منك خير ردّ مفحم على حماقته وسخافته. وما عساك تفعل حيال مزعج أخرق كهذا ؟ الوداع.

أورانْت : عندما تشاء، سنذهب الى مكان ما، حيث لا نصادف نظير هذا القروي الجاهل الذي يخالف أبسط قواعد الصيد.

أراسْت : اجل، يُخيّل اليّ ان صبري قد فرغ. فاعذرني، والى اللقاء قريباً.

رقصة الفصل الثاني

القسم الأول :

لاعبو الكريات يوقفون اراست لكي يقيسوا مدى إلقائهم اياها، يتجادلون في نسبة نجاحهم. يتخلّص منهم ويَدَعهم يرقصون بخطوات مزدوجة، ويقومون بكل الحركات المألوفة في هذه الرقصة.

القسم الثاني :

حاملو المقاليع يأتون لمعارضتهم، فيُطردون.

القسم الثالث :

محتذو نعال ومحتذيات، بصحبة آبائهم وغيرهم، يُطردون هم أيضاً بدورهم لافساح المجال للرقص.

القسم الرابع :

يرقص بستاني وحده، ثم ينسحب مُخلِياً الساحة لتقديم الفصل الثالث.

الفصل الثالث
المشهد الأول

اراست، لا مونتاني

أراسْت : صحيح من جهة انّ جهودي قد أثمرت، وهذه الحسناء المتشدّدة قد لانت. لكن من جهة اخرى، قد قسا عليّ سوء حظي وزاد عذاب حبّي. نعم، ها هو داميس وصيّها ومزعجي الاكبر يضاعف رفضه ثانية، ويحرمني تحقيق أغلى أمنياتي في مشاهدة ابنة اخيه الحبيبة، ويريد أن يزوّجها غداً الى عريس سواي. على كل حال، تنازلتْ أورْفيز رغم ممانعته الى منحي هذا المساء موعداً طلبتُه انا منها لمقابلتها، ورضيتُ بأن تستقبلني سرّاً في منزلها. وما احلى المواعيد السرّية التي يُقحِم الهوى فيها صاحبه، لانه يستعذب تذليل الصعاب، واستباحة المحرّمات. وها أنا ذاهب الى موعدي الذي اقتربت ساعته، ويحلو لي ان اكون بين يديها قبل حلوله لا بعده.

لا مونْتاني : هل تريد ان ارافقك ؟

أراسْت : لا، لا. أخشى ان يسهّل وجودك معي تنبيه من لا يروقهم لقائي هذا.

لا مونْتاني : ولكن ...

أراسْت : لا أحبّذ حضورك الى جانبي.

لا مونْتاني : ما عليّ إلّا ان انقاد الى رغبتك. ولكن على الأقل إن تبعتك عن بعد ...

أراسْت : أودّ ان تكون مطيعاً. فهلاً أقلعت عن قلقك عليّ، وظللت في كل حين خادمي الأمين كما عهدتك.

المشهد الثاني

كاريتيديس، واراست

كاريتيديس : الوقت باكر، يا سيدي، ولا يجدر بي ان أمضي في هذا الحين الى اي مكان. فأنت من عادتك ان تطيل النوم دائماً، ولا تستيقظ صباحاً الّا بعد صياح الديك بزمن طويل.

أراسْت : هل تريد مني شيئاً، يا سيدي ؟

كاريتيديس : عليّ ان اقوم بواجب جليل نحوك، وتراني عازماً ... سامحني على جسارتي التي تدفعني الى ...

أراسْت : بدون تكليف قل لي ماذا تريد ان تبلغني ؟

كاريتيديس : نظراً الى سمّو الاخلاق والشهامة والكرم وجميع الصفات الحميدة التي تتحلّى بها، وتتردّد على ألسنة الناس بالاعجاب والثناء ...

أراسْت : نعم، هذا لطف زائد منك، أرجوك ان تتجاوزه، يا سيدي.

كاريتيديس : لَمِن الصعب ان يرتفع المرء من مستواه الوضيع الى مصافّ كبار الأفاضل أمثالك. وكم وددت ان يودني اليك من يليق به ان يتداول معك ويقدّمني اليك ويشرح لك من أنا.

أراسْت : اسماء القوم في وجوههم، يا سيدي، والمكتوب يُقرأ من عنوانه.

كاريتيديس : أجل أنا عالم أقدّر فضائلك، لا كالعلماء اللاتين المحدثين، لأني أنتمي الى جماعة الإغريق القدماء العريقي الأصل. لذا أنا أُدعَى السيد كاريتيديس.

أراسْت : يا سيدي كاريتيديس، ماذا تريد أن تقول لي ؟

كاريتيديس : اودّ ان أتلو عليك معروضاً، يا سيدي. ونظراً الى علو مقامك

الرفيع، أجْسُرُ ان ألْتمس منك ان ترفعه الى الملك.

أراسْت : يمكنك أن تقدّمه أنت بنفسك، يا سيدي.

كاريتيديس : لا أنكر إمكان ذلك. لكن الملك لا يتكرّم باستقبال أي كان. وأنا لا أستطيع التوصّل الى دخول أبعد من قاعة الحرس. ويكاد يستحيل علي عمليّاً ان أتخطّى هذا الحدّ، وأن أخرج من هناك بسهولة. فجئت أطلب وساطتك بيني وبين جلالته. اذ انك نظراً الى كرامة أسرتك تحظى بهذ الشرف العظيم ...

أراسْت : هيّا أعطني هذا المعروض لأرفعه الى الملك.

كاريتيديس : ها هوذا. لكن على الأقلّ إطّلع عليه واستمع الى تلاوته.

أراسْت : لا أريد.

كاريتيديس : ألتمس منك ذلك، لتكون على بيّنة من امري.

الى الملك :

مولاي،

« خادمك المتواضع المطيع الأمين، والعالِم الكبير، أحد رعاياك، والمخلص لك، الفرنسي الجنسية، الأغريقي الأصل والنزعة، وقد اخذ بعين الاعتبار التجاوزات الجسيمة التي تُرتكب في كتابات لافتات المنازل والمخازن والحانات والملاهي وغيرها من امكنة مدينة باريس الممتازة، وذلك بسبب جهل المؤلفين الأغبياء وأخطاء الإملاء الفظيعة من كل نوع، بدون الاكتراث لأصول الكلام والاشتقاقات والابتكارات، مما يُضرّ بآداب الجمهور ويشكل فضيحة لغوية مشينة، ارى ان الوقت قد حان لوضع حدّ لهذا الاستهتار المعيب الذي لا يُغتفر لا سيما في نظر الأجانب والالمان بنوع خاص، فضلاً عن معظم قرّاء هذه اللافتات والكتابات المغلوطة ...

أراسْت : هذا المعروض طويل النص، وقد يضايق ...

كاريتيديس : لا، لا يا سيدي، لا يجوز ولا يمكن أن يُحذف منه حرف واحد.

أراسْت : اذاً عجّلْ وانهي قراءته.

كاريتيديس (يتابع) « ... ألتمس من جلالتك ان تُنشئ لصالح دولتك العليّة

ومجد امبراطوريتك الواسعة، لجنة مراقبة مؤلفة من وكيل ومصحّح ومُعيد ومنسّق عام لمعالجة هذه الكتابات الخاطئة، وذلك لإرضاء معرفتك السامية النادرة الوجود، ولخدمة مصالح الدولة وجلالتك بتعميم إرادتك الملكية السنيّة، وذلك باللغات الفرنسية واللاتينيـة واليونانيـة والعبريـة والسريانيـة والكلدانية والعربية ... ».

أراسْت (**يقاطعه**) : جيد جداً. أعطني إياه بسرعة، وانسحبْ. وانا سأوصله الى الملك بأقرب فرصة. إعتبر حاجتك هكذا مقضية.

كاريتيديس : ليس المقصود فقط تقديم المعروض للملك، المهمّ ان يراه ويتلوه. وأنا واثق بأنه سيأمر بإجراء اللازم. لأن عدالته التي تشمل كل الضروريات ستحمله على عدم إهمال قضية هامّة كهذه، ولن يستطيع أن يرفض[٩] طلبي. ولكي أطيع فضلك علي الملأ، أرجوك أن تكتب لي اسمك واسم أسرتك كاملاً لأني مستعد ان أُنْظُم قصيدة مدح تشيد بوساطتك الخيّرة في كل صدْرٍ وعجْزٍ من أبياتها.

أراسْت : غداً أرسل اليك ما تطلبه مني. وأنا لا أغفِل مقدرتك العلمية المميّزة بالنسبة الى من يدّعون المعرفة، وهم في الواقع من نوع الحمير الأغبياء الذين يتندّر الجميع بحماقاتهم وسخافاتهم.

المشهد الثالث

أوزْمان، واراسْت

أوزْمان : لأن قضية هامّة تأتي بي الى هذا المكان، قصدتُ أن يخرج ضيفك الثرثار قبل أن أكلمك.

أراسْت : حسن. ولكن عجّل، لأني عازم على الإنصراف.

أوزْمان : أخشى ان يكون الرجل الذي غادرك قد سبّب لك بعض المضايقة يا سيدي، بزيارته الطويلة المملّة. فهو عجوز متطفّل يفتقر الى صفاء الذهن ولا

يتورّع عن ازعاجي انا ايضاً في اغلب الأحيان، سواءً في قصر لوكْسمْبور أو في قصر التويلّري. وهو يرهق الجميع بتفاهة مشاريعه واحاديثه السقيمة. لأنه من جملة العلماء الذين لا فائدة تُرجى منهم. وقد خفْتُ ان يرهقك بطلباته الكثيرة، فجئت، يا سيدي، أخفّف وطأة اتصاله بك وأحول دون مضيعة وقتك الثمين سدىً.

اراست : هذه مطالب هؤلاء الناس الذين ليس لديهم شيء ويطالبون بكل شيء. وانت الذي بنيْت ما يُغني جميع ملوك الأرض.

أُوزْمان : لا بأس عليك. أرجو من الله ان لا يجعلك ضحية هؤلاء المهووسين المزعجين. فإن لا أُعير ترّهاتهم أذناً صاغية. لذا أتيتك بما يتضمّن كلاماً حكيماً وفكراً سديداً، أود ان يصل الى مسامع مولانا الملك، وأنا حريص على الرسالة المختومة التي تنطوي على اقتراحي السليم الذي لا يُقارن بتاتاً بالإلتماسات البذيئة التي تخدّش الآذان. فأنا مدبّجها رجل رزين بعيد عن إسفاف الأدعياء المتبجّحين، لا أتكلّم بالملايين، بل أحصر مطلبي بالقليل المعقول. فأرجوك ان تتكرّم وتقدّم معروضي هذا للملك باسم الشعب، وباسمي انا العالِم المفضال الذي أمثّل هذا الشعب من خلال هذه الشكوى المحقّة التي يدلّ مطلعها على مدى النفع العميم الذي ستسفر عنه ...

أراسْت : حسن. سنتكلم عنها مرة اخرى في وقت لاحق، لاني الآن مستعجل.

أُوزْمان : واذا وعدتني بأن تكتم الخبر، كشفت لك عن أمر خطير.

أراسْت : لا، لا. أنا لا أودّ ان اعرف سرّك.

أُوزْمان : لن افشي لك أي سرّ، يا سيدي، بل أريد أن أُطلعك على قضيتي بكلمة وجيزة. المهمّ ان لا يسمعنا احد. فالمسألة العجيبة التي أقصد اطلاعك عليها هي ...

أراسْت : ربما كان هناك من يسترق السمع، يا سيدي، فعليك أخذ الحيطة.

أُوزْمان : ستدرك مدى الفائدة التي ستنجم عن معروضي، حين أشرع في شرح تفاصيله وفحواه. أنت تعرف كم من الاموال يجمع الملك من المرافئ البحرية كل عام. والأمر الذي لم ينتبه له بعد أي مسؤول، هو أن فرنسا يجب عليها ان

تهتمّ بفوائد المرافئ البحرية على طول الشواطئ بدون استثناء. وهذا سيؤدّي الى جمع مبالغ طائلة من المال، فيما اذا ...

أراسْت : الموضوع نافع، وسيعجب جلالة الملك. الوداع الآن، وسنلتقي قريباً.

أُورْمان : على الأقلّ عِدْني بأن تساند هذه القضية حال وضعها على بساط البحث.

أراسْت : نعم، نعم.

أُورْمان : واذا شئت أن تقرضني ليرتين ذهبيتين، ستستردّهما فوراً من العائدات التي يحقّ لي استجرارها على حساب تنفيذ هذا المشروع، يا سيدي الكريم ...

أراسْت : بكل طيبة خاطر. وارجو ان لا يتعدّى هذا المبلغ ما أدفعه عادةً للفضوليّين الدخلاء. وها أنت تلمس كم تكلّفني من الليرات زياراتهم المزعجة. وآمل ان أخرج من هذه الورطة بأقل خسارة ممكنة. هل هناك من يأتي نظيرك ليبدّد لي وقتي ؟

المشهد الرابع

فيلانْت، واراست

فيلانْت : لقد بلغني الآن نبأ في غاية الغرابة.

أراسْت : ما هو ؟

فيلانْت : حاول رجل منذ برهة ان يشاجرك.

أراسْت : ان يشاجرني أنا ؟

فيلانْت : وما الفائدة من إنكار ذلك ؟ لقد علمت من مصدر موثوق به ان احداً جاء منذ هنيهة لمقابلتك. ونظراً الى الصداقة المتينة التي تربط بيني وبينك أتيت لأضع كل إمكاناتي بتصرّفك.

أراسْت : أشكرك على غيرتك، وكن على يقين بأنك ...

فيلانْت : لذا أرجوك أن لا تخرج أو تذهب الى أي مكان بدون أن أكون بمعيّتك، هذا إن لم تصطحب أحد خدامك ايضاً.

أراسْت : أعدك بأخذ جميع الاحتياطات اللازمة.

فيلانْت : ولماذا تريد ان تخفي مشكلتك عني ؟

أراسْت : أقسم لك، ايها المركيز، بأن من أبلغك ذلك قد مازحك.

فيلانْت : عبثاً تكتم القضية عني.

أراسْت : لتنقضّ الصاعقة عليّ وتهلكني ان كنت أحاول أن ...

فيلانْت : هل تظنني ساذجاً كي أصدّقك ؟

أراسْت : أُقسم لك اني لا أخفي عنك انّ ...

فيلانْت : لا تعتقد أبداً اني غبيّ سريع التصديق الى هذا الحدّ.

أراسْت : أُقسم لك اني لا أخفي عنك انّ ...

فيلانْت : لا تعتقد أبداً اني غبيّ سريع التصديق الى هذا الحدّ.

أراسْت : هل تريد أن تؤدّي لي خدمة ؟

فيلانْت : كلّا.

أراسْت : أرجوك أن تَدَعني وشأني.

فيلانْت : لا سبيل الى ذلك، ايها المركيز.

أراسْت : هل هذا كل ما لديك من اللطف والأنس، لا سيما الليلة في هذا المكان ؟

فيلانْت : لن اغادرك، وأينما ذهبت سأتبع خطواتك مثل ظلك.

أراسْت : بما أنك تبحث عن المشاكل، انا مستعد لمشاجرتك، ليس إلّا لإرضاء غيرتك على مصلحتي. لكن ذلك سينقلب عليك ويثير سخطي الى درجة ان يفلت مني زمام سيطرتي على اعصابي.

فيلانْت : كم يصعب عليّ ان اقبل خدمة من يتظاهر بصداقتي، ولكن بما اني في نظرك لا أراعي مصلحتك أقول لك الوداع. وستتدبّر أمورك بدون مساعدتي.

أراسْت : ستكون حقاً صديقي عندما تتركني أرعى شؤوني بنفسي. لكن مع

ذلك، تأمّل كم ينوبني من الأذى حين يفوت الأوان الذي تَحَدَّد لي كموعد لمجيئك إليّ.

المشهد الخامس

داميس، ولسْبين، واراست، ولا ريفيار.

داميس : ماذا تقول ؟ هل يأمل المحتال أن يحصل رغماً عني على مبتغاه ؟ لكن غضبي لن يمكّنه من الوصول الى غايته.

أراسْت : أظنّ ان احداً ينتظر على باب أورْفيز. فمن يكون ؟ هناك دائماً من يريد ان يعرقل مساعيها.

داميس : نعم، لقد علمت ان ابنة أخي رغم احتياطاتي، ستلتقي هذا المساء اراست في بيتها بدون ان يكون هناك بينهما شخص ثالث.

لا ريفيار : ماذا يمكنني ان أنتظر بعد إغتياب هؤلاء سمعة سيدي ؟ تعال نقترب على مهل بدون ان ندع احداً يعرفنا.

داميس : وقبل ان ينال مأربه لا بدّ لنا من التشفّي منه. فليأتِ من تكلّمتِ عنه، لأنال منه كما اشتهي. وفي نهاية المطاف انتقم بإسم اراست، وأثأر لشرفي المهان، وأُذِلّ كبرياء الدخيل بتفشيل موعده في هذا المكان بالذات، حيث ينوي ان يقابلها، فأغسل بدمائه عار جريمته.

لا ريفيار (**يهاجمه بمساعدة رفيقيه**) : قبل ان يقضي غضبي على حياتك، يا خائن، ستجد هنا من يجابهك ويذيقك هول العذاب.

أراسْت (**يستلّ سيفه**) : مهما حاول ان يفاجئني بتلويث شرفي، تستعجلني الامور لأبادر الى نجدة عمّ حبيبتي. وأنا هنا، يا سيدي، لأهبّ الى إغاثتك وتخليصك.

داميس (**بعد هرب المعتدي**) : يا الهي. من أرسله الى انقاذي من هلاك محتّم، ولمن انا مدين بهذا العون العاجل ؟

أراسْت : لم أقم، وأنا أخدمك، إلّا بتصرّفٍ عادل واجب.
داميس : يا رب، هل سمعتْ أذني برهان الوفاء ؟ هل هي يد اراست ؟ ...
أراسْت : اجل، اجل، يا سيدي. ها أنذا أنعم بما أسديته اليّ من معروفٍ نبيل في إقصائي عن حقدك الذي ألْحق بي افظع ما انتابني من المحن.
داميس : ماذا تقول ؟ هل تظن أني أنا من قَصَدَ إهلاكك ؟ هذا كثير عليّ ولا قِبَل لي على احتماله. وإلّا كان عليّ أن أحْذَرك. ومهما إدّعيت محبتي والاخلاص لي، فإن هذه البادرة الخيّرة الكريمة لا بدّ لها من ان تُزيل ما قد يسود بيننا من عدوان. اني أخجل من غلطتي وأُلوم هوى نفسي الأمّارة بالسوء، لأن حقدي قد أنزل بك الظلم مدة طويلة. ولكي أدين ذاتي على هذه الاساءة، اعترف بأني منذ هذا المساء أسعى الى تحقيق أعزّ أمنياتك.

المشهد السادس

أورْفيز، وداميس، وراست، ولسبين

أُورْفيز (**آتية وبيدها مشعل من الفضة**) : ما هذه المغامرة التي هزّت كياني رهبة، يا سيدي ؟ ...
داميس : يا ابنة أخي، ليس في الأمر ما يزعجك هكذا. فهي التي، بعد ما لُمْتك على تصرّفك، قد سَعَتْ الى جعل اراست يتزوّجكِ. وبيدها دفعت عني غائلة الموت الذي كنت أخشاه. لذا أودّ ان تمتدّ اليها يدي لأُصافحها شاكراً.
أُورْفيز : ان كنت تروم أن تفي ما تدين به لها، فأنا أعترف أمام الجميع بأنه انقذ حياتي.
أراسْت : لقد فاجأتني بهذه المباغتة الغريبة الى حدّ جعلني أشكّ بأني الآن في يقظة لا في حلم.
داميس : لنحتفل اذاً بهذه المناسبة السعيدة، ولينضمّ الينا عازفو الكمان ويطربونا فيزيدوا بهجتنا. (حين تبدأ آلات الكمان بالعزف يُطرَق الباب).

أراسْت : من يطرق الباب هكذا بشدّة ؟
لسْبين : هؤلاء المقنَّعون الذين يحملون الطبول والآلات الموسيقية الصاخبة.
(يدخل المقنَّعون ويملأون الساحة).
أراسْت : ما هذا ؟ دائماً وفي كل مكان يلاحقنا المزعجون. هيّا، ايها الحرّاس، أَخرِجوا من فضلكم هؤلاء الرعاع.

رقصة الفصل الثالث.

القسم الأول :

حرّاس مسلحون بالرماح يطردون جميع المقنّعين المزعجين،
ثم ينسحبون ليُخلوا المكان للراقصين كي يتحرّكوا على هواهم.

القسم الأخير :

أربعة رعاة وراعية يختتمون حفلة الرقص
بمرح وابتهاج.

(تمّت)

دُونِ كارِسْيَا دِي نَافَار

أشخاص المسرحية

دون كارْسيا : أمير نافار، وعاشق ألْفيرا.
دونا ألْفيرا : أميرة مقاطعة ليون.
ألِيز : أمينة سرّ ألفيرا.
دون ألْفونْسو : أمير مقاطعة ليون، يعُتقد انه أمير قشتالة (كاسْتي)، باسم مستعار هو دون سيلْفو.
دونا أنْيِيس : كونْتِيس، عشيقة دون سِيلْفو، وحبيبة موريكا مغتصب أمارة ليون.
دون ألْفارو : أمين سرّ دون كارْسيا، وعاشق أليز.
دون لوبيز : أمين سرّ آخر لدى دون كارْسيا، وعاشق ألِيز المرفوض.
دون بيدْرو : فارس دونا أنْيِيس.

الأحداث تجري في مدينة أسْتورْك الاسبانية،
في أمارة ليون

الفصل الأول
المشهد الأول

دونا ألْفيرا، وألِيز.

دونا ألْفيرا : هذا الاختيار بين حبيبَيْن لا يفضّ المشكل الذي تسبّبه عواطف العاشق المتيّم، دون ان يروي الامير في هذا الموقف الحرج، غليل قلبه، على ما يظهر. فإن دون سيلْفو نظيره قد تجلّت في عينَيْه معالم انتصار البطل المجيد. وفضائل كلا الطرفَيْن بالإضافة الى عِراقة الحسب والنسب تُبرز في المغرمَيْن ميلاً سافراً الى هذا التفضيل المعلن. وأنا من جهتي لن أتوانى عن ذكر اسم الفائز في هذه المعركة العاطفية، اذا ما كان للاستحقاق وحده أفضلية الظفر. غير ان هذه القيود الهابطة في السماء لتجمع بين القلوب هي التي تدفعني الى تحقيق المصير المحتّم. لذا اخترت بين الاثنَيْن دون كارسيا.

أليز : هذا الحب الذي يملأ قلبك، لم يبدّل مجرى حياتك. لأن ميلك ظل طويلاً يتأرجح حائراً بين هذا العاشق وذاك.

دونا ألْفيرا : أجل، بين هذَيْن المتنافسَيْن النبيلَيْن في حومة الغرام إضطررت، يا أليز، الى خوض معركة ضارية، لأني عندما كنت أنظر الى الأول، لم أجد فيه ما يستدعي اللوم، ولأن نفسي كانت تميل اليه بشيء من الحذر والانحياز، بينما كنت مضطرة الى قبول الثاني بكثير من التضحية. لكن دون سيلْفو في آخر الأمر نال رضاي بما بذله في سبيلي من العطف والرعاية. مع أني كنت

أعارض ما يجري في عروقه من دم اسرة كستيّ (قشتالة) الوثيقة الصلة بابنة ملك مقاطعة ليون، وقد ربطتْ بيننا وشائج قربى عريقة، فضلاً عما يربط بين أبي ووالدها من مصالح مشتركة. وهكذا تربّع أحدهما على عرش قلبي، وأنا آسفة لإقصاء الآخر عني بكثير من الإحترام. اذ اشفقت على ما ابداه لي من هيام ومن رغبات ملحّة بغية استدرار عطفي، وهو يحاول أن يبدّد ما كنت أشعر به من ميل الى سواه.

أليز : لكن حب العاشق الأول، كما علمت، إصطدم برفضك المبرم، فاضطر الى تحويله نحو دونا أنْيِيس، رغم ما يربط بينك وبين هذه الكونتيس من أواصر الصداقة المتينة. فعندما إنكشف هذا السرّ لعينيك تصرّفت بحرية تامة، وبدون خوف أصررت على الابتعاد عن هذا المحب، غير مبالية بما يقدّمه لك من براهين مودّته.

دونا ألْفيرا : لا شكّ في اني أحبّذ هذه البادرة التي بيّنتْ لي أن دون سيلْفو أصبح من المقرّبين إليك، رغم ما يسوم ذلك قلبي من عذاب أليم. ثم رحتِ تبتعدين عنه خشية ان تسوء الامور بيني وبينك بسببه.

أليز : لكن بدون ان يَبلُغه على لسانك أي كلام ودّي، هل تلومينه اذا شكّ بنواياك وبتوجيه عواطفك نحو سواه.

دونا ألْفيرا : لا، لا. هذا الحسد المقيت لا يبرّر سخطه المحموم. فقد أخبرته أنا ان باستطاعته ان يكتسب حبك اذا استخدم لغة رقيقة في مخاطبتك، ولجأ الى التنهّد والنظرات المسترحمة واحمرار الخدّيْن والسكوت أحياناً للإفصاح عن نداء قلبه الولهان. فكثيراً ما يكون وضح النهار أبلغ بما لا يُقاس في المناجاة من عتمة الليل، لأن جنسنا اللطيف يتمسّك كثيراً بالشرف الرفيع الذي لا يسمح بالإفصاح عمّا نشعر به من العواطف النبيلة. أنا أعترف بأني شئت ان أعدِّل سلوكي وأعمد الى الموازنة بين صفات هذا وذاك. ولكن عبثاً نحاول أن نخالف رغباتنا الحقيقية الخفيّة. اذ لا بدّ لنا من كَبْت بعضها، وإرخاء العنان للبعض الآخر نظير ماء الجدول النقي المنساب، وهو يجري من الينبوع على سجيّته. ولا أخفي عنك أن صداقتي لدون سيلْفو، مهما هزّت مشاعره، كانت

تضلّلني بدون علمي، وتفرض على الامير مثل هذا الجحيم، بمجرّد بَوْحي بأكثر مما كنت أودّ أن أصارحه به.

أليز : أخيراً، اذا كانت الظنون التي تحوم حول هذا العاشق الظريف باطلة، وانت ذاتك تحكمين بأنها لا تستند الى أساس من الواقع، فما عليك إلّا ان تعزّزي إعتقادك. مع أن هناك تصرّفات تدلّ على غيرة حاقدة وتؤدي الى أوْخم العواقب، طبعاً اذا انطلقتْ من حبّ مباغت لا يروق لنا. غير أن ما يُظهره العاشق من تفجّعه، لا بدّ من ان يُلفت انتباهنا ويستدرّ عطفنا. لأنه بذلك يعبّر عن أصدق ما يحفظه صاحبه بين ضلوعه من هيام. وكلّما استبدّت بنا الغيرة، كلّما ازداد هوانا زخماً نحو أمير مميّز ...

دونا ألْفيرا : لا تتشبّثي كثيراً بهذه الحكمة المأثورة. فإن الغيرة في كل زمان ومكان لم تكن إلّا مسخاً بغيضاً لا سبيل الى تجميل بشاعته المُذلّة. وكلما كان الحب عزيزاً مترفعاً كانت معاكسته اكثر إيلاماً. وهذا تماماً حال الامير العاشق الذي يوحي بالاحترام للمُغْرَم الحقيقي الذي يطغى عليه حسده ويسلبه كل طمأنينة وسرور، ويجابهه بانظار عاشق منافس يرفض التفاهم والوئام. لا، لا. ان هذه الظنون تجرح فؤادي فتضطرني الى التصريح بأفكاري الحقيقية بطريقة سافرة. فأقول ان دون كارْسيا عزيز على قلبي، وليس مستبعداً ان يستقطب عواطفي ويمتلكها بما يبديه من شجاعة في ادارة شؤون مقاطعة ليون وما يُظهر من ميل نبيل الى اكتساب حبي، متغلّباً على كل الصعاب ومتحدّياً جميع العراقيل التي تعترض سبيل تحقيق احلامه بإجراء مراسم زفافي اليه. وأنا مرتاحة الى اختياره الموفّق، يا اليز، وسعيدة بأن اكون شريكة حياته، واربط مصيري بما كُتِب له من غار الامجاد وغبطة الهناء، أشاطره تذوّق افراح الفردوس في ظلال هيام هادئ أمين. فإن العواطف الصادقة ترتع دوماً في جوّ الملذات المشروعة، لا تشوبها مجازفات مهووسة أو تقلّبات مزاجيّة مقلقة. وانا الآن اشكر حسن حظّي الذي وضعني بين يديه. واذا أعادت الظروف المؤاتية أخي الينا لينعم مرفوع الرأس بمقامه السامي، يكتمل فرحي بمشاهدة شخصه الحبيب، وأكون مسرورة اذا علمت بأنه تخلّص نهائياً من هوسه وغيرته. فأنا مقتنعة بأن الواجب يقضي عليه بصدّي أنا دونا الفيرا، إذْ لا سبيل

الى الربط بيني وبينه بوثاق الزفاف الذي لا أوافق عليه، والذي سينقلب حتماً الى جحيم، لا يطاق لكلَيْنا في حال تحقيقه عنوةً.

أليز : حتى إن شعرتِ بميلٍ الى رجل آخر، يا سيدتي، سيتّجه حبك دائماً، على ما أعلم، الى الامير. وحين يقرأ اشواقك في عينيك ...

دونا ألْفيرا : أنا لا اريد، يا أليز، ان تفضح انظاري ما أخبئه في أعماق صدري، بل افضّل ان يبوح له بها لساني عندما يحين الأوان المناسب. أمّا الكتابة فتجعل من اليد شاهداً على العاشق الولهان لا سبيل الى تكذيبه. وعليك في هذا الحال ان تحولي دون وصول أي سطر مني الى هذا الامير المتربّص.

أليز : ارادتكِ، يا سيدتي، شريعة لا بدّ من تطبيقها. وانا أحمد الله على تنويع الأذواق. اذ ينظر البعض الى أمرٍ ما كأنه إهانة، والبعض الآخر كأنه مديح. أمّا أنا فأرى في مصيري حلاوة يتوق إليها العاشق، وأصفّق انا لها ابتهاجاً وارتياحاً. بينما هو يكاد يقتله السأم من جرّائها. ولكن ما يضايقني حقّاً هو أن لا يبدو من دون الفارو أي اكتراث لما يهمني.

دونا ألْفيرا : أنا لا أظنّ أنه بعيد من هنا ... بل ها هوذا قادم.

المشهد الثاني

دونا الفيرا، ودون الفارو، وأليز

دونا ألْفيرا : عودتك ادهشت الجميع، فماذا لديك من أخبار ؟ هل سيأتي دون ألْفونسو، وهل لنا أن نترقّب رجوعه قريباً ؟

دون ألْفارو : نعم، يا سيدتي. ان أخي الذي ربي في قشتالة (كاستيّ) يعتقد ان وقت رجوعه قد حان. حتى الآن صاحبك دون لويس الذي كان يحيا في حذر دائم من الملك المناوئ، قد أخفى عن مسؤولي الدولة، مكان إقامته، وذلك ليتجنب غضب الخائن موريكا المستبدّ الذي حاول مراراً ان يقتلعه ويحكم مكانه. لذا لم يأمن، رغم مساعيه المخلصة، من شر تظاهره الباطل

بالتودّد والوفاء. لكن الشعب الذي انتفض بسبب تحامله عليك ظلماً وبهتاناً، لم يشأ أن يهادن قوّته الغاشمة. وكذلك هذا الشيخ الكريم. ظن أيضاً أن الوقت قد حان فقصد تحقيق الأمل بالنجاح الذي تاق اليه وانتظره عشرين عاماً. وحاول القيام بانقلابه في مقاطعة ليون، وانزل ضربته المريعة بكبار الدولة وبالشعب معاً. بينما كانت قشتالة تجنّد عشرة آلاف رجل لتُردّ الى الامير الأصيل كل حقوقه المشروعة. ولكن لا بدّ أوّلاً من صيانة سمعته، وهو لا يودّ العودة إلّا على رأس جيشه، لكي يقتصّ من المغتصب الجبان الذي خان عهد مولاه. ويردّ الإعتبار أيضاً الى مقاطعة ليون المحتلّة والى شخص دون سيلفو الذي هبّ الى إغاثة والده المخلوع ...

دونا ألْفيرا : أجل ان نجْدته الفعالة راودت أملنا في الانتصار. لكني أخشى ان ينوء أخي تحت عبء واجباته.

دون ألْفارو : نعم، يا سيدتي. تصوّري انه أمام العاصفة التي أثارها المغتصب، كان كالإعصار يهزه هزّاً. وها هي الأصداء التي وصلتنا من مقاطعة ليون تنبئ بعض المقرّبين بأن الكونتيس دونا أنْييس ستقترن به.

دونا ألْفيرا : إن تزوج هذه الفتاة الممتازة، يكون قد بحث عن سند قوي تحتاج اليه اسرته. أما أنا فإلى الآن لم أتلقَّ منها هي أي خبر، لذا تراني قلقة. لكني أعلم جيداً ان قلبها كان دائماً ينفر من هذا الطاغية.

أليز : اعتبارات عديدة في مجال الشهامة والعواطف تعترض رفضها وتحثّها على ...

دون ألْفارو : ها هو الامير قد أقبل الينا.

المشهد الثالث

دون كارْسيا، ودونا الفيرا، ودون الفارو، وأليز.

دون كارْسيا : جئت، يا سيدتي، لأثبّت من النبأ الحلو الذي شاع منذ برهة. ان شقيقك الذي يهدّد طاغية تثقل الجرائم البربرية على كاهله يملأ صدري رجاءً باستعادتي حقوقي الشرعية. وتصرّفه يفرش دربي بالمجد المحفوف بالمخاطر، الامر الذي يفرحني ويحزنني معاً. فبواسطته سأسترجع إن شاء الله عزّي بعدما انتابني الخزلان والظلم. ومَن غيره قادر على إحباط مؤامرة الخيانة ليعيد اليّ كرامتي وسلطتي الموروثة. وما يعجبني اكثر هو أن يكون شقيقك من يعيد اليّ مقامي الرفيع. وهكذا أسترجع ايضاً حبك الغالي. هو يعمل المستحيل ليُرجع اليّ تاجي واعتباري في نظر الجميع. وأملي أن لا ينظر اليّ إلّا لشخصي بالذات، كما تمنيت الف مرة، وأن لا يكون له من خلال هذا الصنيع أي مأرب أو مطمع خفيّ بجمالٍ فتّان كبهائك. غير أني استبعد حدوث ما يعكّر صفاء مثل هذه التضحية الصادرة عن مودّة ووفاء من قِبَل اخيك لارجاع دولتي اليّ أنا سيّدها.

دونا ألْفيرا : انا اعرف جيداً، ايها الامير، انك قادر على استرجاع حقوقك المغتصبة، كما أنت بليغ في تنميق الحديث عن ألْفِ انجازٍ ناجع تخطيطاً وتنفيذاً. لذا ليس بالغريب ان تستردّ دولتك بواسطة اخي المخلص. وأومن بأني انا دونا الفيرا لن أبخل ببذل الجهود اللازمة للتغلّب على ما تلاقيه في دربك من المصاعب.

دون كارْسيا : نعم، يا سيدتي، أنا ادرك تماماً ما تتفضّلين بقوله. وأعرف جيداً ان قلبي يطمع عبثاً بنيل رضاك، وأن العقبة الكبيرة التي تعترض سبيل ما احفظه لك من هيام ليس بسرٍّ في نظر كل انسان من محيطنا.

دونا ألْفيرا : كم يسمع المرء خطأً ما يظنّ أنه بلغ مسمعه صحيحاً. ومن المغالاة في الحب أحياناً، ايها الامير، كثيراً ما يتشبّث الانسان بغلطه. وبما أن عليّ أن أتكلّم، هل تودّ ان تعرف متى يمكنك أن تكتسب مودّتي وتأمل باستمالة عواطفي ؟

دون كارْسيا : هذه منّة تجودين بها علي، يا سيدتي.

دونا ألْفيرا : حين تتقن كسب مودّتي كما يجب، يصبح هواك حقيقة ملموسة.

دون كارْسيا : ومتى يكون ذلك ؟ وكيف يتسنّى للمرء ان لا يبهره نور عينيك النجلاوين ؟

دونا ألْفيرا : عندما لا تبرُز أشواقُك ما تستحي منه الحسناء التي يملأ حبّها صدرك.

دون كارْسيا : هذا ما يصبو اليه فؤادي بكل جوارحه.

دونا ألْفيرا : أجل، حين لا توقظ ايحاءاتك في صدري مشاعر مشبوهة.

دون كارْسيا : أنا لا أكنّ لك سوى التقدير والاحترام.

دونا ألْفيرا : عندما يتسنّى لك ان تنقذني من غضب مسخٍ بغيض، وتسدي اليّ خدمة جليلة لن انساها ما حييت.

دون كارْسيا : هذا صحيح، يا سيدتي. لكن قلبي لا يرتاح كثيراً الى طلبك. لأني لست مطمئنّاً الى نواياك نحوي. فإن انقذتك من خصمك، ماذا يضمن لي عرفانك جميلي ؟ اذا لم تؤكّدي لي الآن شخصيّاً بأن لا تحرميني القليل الذي ألْتَمسه من حنوّك.

دونا ألْفيرا : شكواك ايها الامير، في غير محلها. فأنا محتارة في اختياري بين شخصك ودون سيلْفو الذي لا يُضفي غيرته عليّ. وها أنا أسمع من فمك ما لا يجعلني ارتاح تماماً اليك. لأنك تفرض عليّ ان أصرّح لك بحبّي بدون ان تمنحني الوقت الكافي لأتبيّن وأتلمّس إتّجاه ميل قلبي.

دون كارْسيا : يا سيدتي، لست غبيّاً كي لا أدرك مرامك. لا أنكر أني ربما كنت جسوراً اكثر من المعتاد. وأعلم أنك تقدّرين قليلاً شجاعتي، وهذا ما يحملني على الأمل باكتساب كامل رضاك.

دونا ألْفيرا : يسرّني ان تكون وطيد الحزم بعيد النظر، أيها الامير، وأن لا تبخل ببذل الكثير من جهودك في سبيل رضاي.

دون كارْسيا : نعم، يا سيدتي. يكفيني ان تقولي كلمة واحدة، لكي تريني

أطوع من بنانك مهما كانت المخاطر والعقبات التي سأجابهها، جسيمةً. (يأتي دون بيذرو، وبيده ورقة).

دونا ألْفيرا : أنا قلقة، لأن البريد قد تأخر. هل أعتبر أن هذه الرسالة التي تشغل بالك، ايها الامير، تضطرك الى التريّث في إتخاذ قرارك النهائي ؟

دون كارْسيا : ظننت أن هنالك سرّاً بينكما، ولم أشأ أن أتطفّل عليكما.

دونا ألْفيرا : ان ما اسمعه منك بلهجة جديدة يدل على أنك غير مطمئنّ، وتخشى حدوث تبدّل مباغت. فاسمحْ لي بأن اصارحك بأني أنا التي فوجئتُ بهذا التغيير غير المرتقب. فما هو السبب ؟ هل لي أن أعرفه ؟

دون كارْسيا : نعم، سببه علّة انتابت قلبي الحائر.

دونا ألْفيرا : كثيراً ما يُصاب الانسان بعلل خفيّة تحتاج الى معالجة سريعة. فهل يسعني ان أعلم مصدر اضطرابك ؟

دون كارْسيا : أحياناً نحن نحتاج الى دواء خاصّ.

دونا ألْفيرا : أرجوك، أيها الأمير الضعيف، أن تبادر الى مداواة دائك الذي أعتقد انه ليس متأصّلاً في الجسم، بل في النفس.

دون كارْسيا : هذه الرسالة، يا سيدتي، هل أصل العلّة، وأتوجّس منها شراً. لأني ادركت ما ترمين اليه، وما تتهمينني به. فإذا ...

دونا ألْفيرا : دعْكَ من هذه الرسالة، وحوّلْ افكارك الى ما هو أهّم ...

دون كارْسيا : أنتِ تنعتينني بالضعيف وبالحسود الغيور. لا، لا. عليّ هنا، يا سيدتي، ان اصارحك بأن قلبي لم يضطرب قط بسبب هذه الرسالة. وإن أنتِ أتحتِ لي المجال كي أبرر تصرّفي، ثقي بأني لن أفعل.

دونا ألْفيرا : اذا تعنّتَ وأصررت على هذه السلبيّة، اكون مخطئة لأني ادفعك الى العنف. ولكن عليك أوّلاً ان تعرف من هو كاتبها.

دون كارْسيا : لقد تعوّدتِ دوماً ان تريني أسايرك، فأصبح تماديك بالنسبة اليك متعة لذيذة تحبّين تذوّقها.

دونا ألْفيرا : أجل، أجل، ايها الامير الخطير. أرجوك ان تتناول الرسالة وتتلوها لي.

دون كارْسيا : لكي أدخل البهجة الى قلبك على الاقلّ، يمكنني أن أقول ...

دونا ألْفيرا : قُلْ ما شئتَ. المهم ان تعجّل وتقرأ.
دون كارْسيا : هي من قِبَل دونا أنْييس، على ما أرى.
دونا ألْفيرا : هذا يسرّني ويسرك على السواء.
دون كارْسيا (يقرأ) : « رغم الكره الذي ولّده احتقار الجميع، انعكس ميل الطاغية اليّ. ومنذ غيابك راح يصبّ عليّ جام غضبه ويعاملني بشراسةٍ لكي يخضعني لمشيئته، وهو دائب على تحقيق زفافك الى ابنه.
غير أن المتسلّطين عليّ بدافع الجبانة والمروءة المزيّفة، حسب إدعائهم، يوافقون على هذا المشروع الدنيء، وأنا لا أدري متى وكيف ستكون نهاية عذابي الاليم. غير أني افضل أن أموت كي لا يُقال اني كنت راضية بذلك. على كل حال، أتمنى لك، يا عزيزتي الفيرا، حظاً أسعد من الذي ألْقى من خلاله العذاب والهوان.
دونا أنْييس »
(ثم يعلّق قائلاً) : نظراً الى فضيلتها السامية، لا يُخشى عليها من الزَلَل.
دونا ألْفيرا : سأرد على هذه الصديقة الوفية. لكن عليك، ايها الامير، أن تتّقي من يدّعي الحق بتنبيهك الى وجود الخطر. ها قد هدأت خواطرك بما ألْقتْه الرسالة من ضوء على مشكلتك. واحمدْ ربّك على أن الأمر انتهى هذه المرة بخيرٍ وسلامة. وكي لا أكون كاذبة، أضيف : قد يمرّ بي زمن ربما تتبدّل فيه عواطفي.
دون كارْسيا : ما هذا الكلام ؟ هل حقاً يمكن حصول ذلك ؟ ...
دونا ألْفيرا : سأفعل ما اراه مناسباً. فالوداع. تذكّر كلامي. ومهما كان ما يظهر لي من حبك عظيماً، أرجوك أن تبرهن لي عن صدق عواطفك نحوي.
دون كارْسيا : ثقي بأن قضيّتك تسترعي كل اهتمامي، وبأني أفضّل فقدان حياتي على إمكان نقض عهدي لك.

الفصل الثاني
المشهد الأول

اليز، ودون لوبيز

أليز : كل ما أعلنه الامير هو كلام صادق، وهذا ما يدهشني. لان العاشق، وإن كان نبيل القصد تدفعه أشواقه الى الغيرة، وهذا امر طبيعي لا استغربه. غير أن ما يحيّرني، يا دون لوبيز هو أنه يُملي عليك ظنونه وشكوكه فتتأثّر أنت بها. وفي هذا المكان بالذات حيث كادت عيناك أنت، يا دون لوبيز، تثيران فيّ كوامن الغيرة، استفاق في أعماقي إحساس لم يفاجئني. حقّاً هذا تصرّف جديد من نوعه يحرّك أحاسيس الغيرة فيّ الحب، وقد برعتَ أنت في إثارتها.
دون لوبيز : لا استبعد أن ينتقد كل واحد منّا هذا السلوك. فكل إنسان يكيّف مشاعره حسب رغبته. واذْ اربكني ما كان من هواكِ، بتّ أميل الى التقرّب من الأمير.

أليز : هل تعلم أنه يسيء الى صالحه إن حاول سلوك هذا السبيل ؟
دون لوبيز : بربّكِ، متى شاهدناك، يا اليز الفاتنة ؟ لا يغربْ عن بالك أن الناس يبحثون عن فوائدهم لدى الرجال الكبار ؟ لذا ترين المتلّقين يحومون حول من يُصغي اليهم، ويتسترون على معايبه، ويتلافون ما قد يؤذيه من ثرثرتهم، شرط ان يغتنموا الفرص الملائمة. وللوصول الى اهدافهم لا يتأخرون عن الإشادة بكل ما له صلة بغرامياته .. فيصفّق كالبلهاء لما يرونه من

إنجازاته، ويغفلون كل ما لا يرضيه، وهذا سرّ بقائهم معه على صلة وثيقة. لأن النصائح الصادقة تزعجه في أغلب الأحوال، وتحرم أصحابها من الوثوق بهم. وهكذا لا يستفيد من مثل هؤلاء الرجال سوى المراوغين الذين يسكتون عما فيه. من ضعف أو خلل ولا ينتقدون أخطاءه، بل يسترون ما يبلغهم عنه من مذمّة وإزدراء.

أليز : هذه الحِكَم قد تفيدهم بعض الوقت. لكن هناك نقائص لا بدّ من تدارك تبعاتها، وفي تصرّفات الكبار لا مناص من بروز ثغرات مهما حاول المراؤون أن يكتموها. لذا تحتّم عليّ أن أكلّم الامير بحرّيّة عن سياستك، لعلها تفيد في تزلّفك اليه.

دون لوبيز : بقدر ما احاول أنا أن أخفي هذه الحقائق، أعرف جيداً ان أليز تكتم الأسرار، فلن تنقل هذا الحديث الى أحد. على كل حال، لا داعي للخوف من وصول هذه الظنون الى من يعنيهم أمرها، لأنّ شكوك الأمير الغيور ليست في محلها. وإن لاكت الالسنة الطويلة ما يضايقه سماعه، لا أريد أن أزيح عن كاهلي عبئاً قد يؤدي الى أسوأ العواقب.

أليز : على كل عاشق نبيه ان يفعل ما يتوجّب عليه.

المشهد الثاني

دون الفارو، واليز.

دون ألْفارو : أخيراً علمنا بأن ملك نافار أعلن، لإرضاء الأمير أنّ فِرَقاً جديدة قد أُرْسِلَتْ لنجدتنا، وذلك في سبيل انقاذ حبّه التعيس المتمايد. وأنا متعجّب من مبادرته بهذه السرعة ... ولكن ...

المشهد الثالث

دون كارسيا، وأليز، ودون الفارو

دون كارْسيا : ماذا تفعل الأميرة ؟

أليز : اظنّ أنها تكتب بعض ارسائل، يا مولاي. سأعلمها بأنك هنا.

المشهد الرابع

دون كارسيا. (وحده)

دون كارْسيا : سأنتظر حتى يتمّ المقدّر. فقد حدث شغب جديد. ويجب عليّ كأمير، أن لا تقودني الأهواء العمياء الى هاوية لا قرار لها من القنوط والضياع. عليّ ان أستلهم ضميري وأن اتريّث في الانسياق وراء هواجسي. يجمل بي ان أعيد تلاوة نصف الرسالة الموجود في حوزتي، وأستنتج مضمون النصف الآخر، لكن، ألّا يكفي هذا النصف للكشف عن مدى حزني وتعاستي ؟

« مهما كان خصمك ...

عليك أنت أن ...

وفي داخلك جزء ...

من العقبة الكبرى ...

أنت تعامل بحنوّ هذا ...

لكي أتملّص من أيدي ...

حبّها وواجباتها ...

لكن ذلك قبيح في ...

هدِّئ لوعة هواك ...

واستحقّ الإلتفاتة التي ...
ولا تعاند أبداً ذاك ... »

أجل، مصيري يتوضح بهذه الكلمات. فان قلبه، نظير يده، يبرز هنا مجالهما، مع معاني هذه التعابير المشؤومة. فإنّ فحواها لا يحتاج الى بقيّتها لكي يصبح مفهوماً تماماً. على كل حال، لا بدّ من أن أتصرّف بهدوء، وأن أعامل الخائن بحذر شديد. لأن ما توصّلت الى ادراكه يستدعي الحيطة. ها هيذا قادمة. يجب أن أحكّم عقلي، وأن لا أتساهل حيال عشيقة تحاربني من الخارج.

المشهد الخامس

دونا الفيرا، ودون كارسيا

دونا ألْفيرا : انتَ شئتَ ان أدَعَك تنتظر.

دون كارْسيا : ها، ها. ماذا تخبّئين هنا ؟

دونا ألْفيرا : الآن علمت بأن والدك الملك يؤيّد مشاريعك، ويوافق على تحوُّلك الى واحد منّا. فأبهجني جداً هذا التساهل.

دون كارْسيا : نعم، يا سيدتي. وأنا ايضاً سررت. لكن ...

دونا ألْفيرا : سيصعب على الطاغية ان يتحاشى الصواعق التي يتوقّع انقضاضها عليه. وأجرؤ أن أُشيد بشجاعتك ضمن جدران مدينة أَسْتورْك التي تُنْتَزع من يده، فأَعتبرها ملاذاً لي من غضبه. ليته يستولي على مقاطعة ليون برمّتها، فيقع رأس هذا الطاغية تحت سلطانه.

دون كارْسيا : سيذيع نبأ انتصاره خلال بضعة ايام. فأرجوك أن تخوضي حديثاً آخر، وتخبريني، يا سيدتي، لمن كتبت منذ أن قادتك ظروفك الى هذا المكان ؟

دونا ألْفيرا : لماذا هذا السؤال ؟ وماذا يقلق بالك في هذا الصدد ؟

دون كارْسيا : ليس سوى حبّ الاستطلاع.

دونا ألْفيرا : حبّ الاستطلاع هو وليد الغيرة.
دون كارْسيا : لا ليس مطلقاً ما تظنّين. فإن رغبتك في هذا المضمار تمنعني عن ذلك.
دونا ألْفيرا : لا أودّ أن أبحث عن السبب أكثر مما فعلت. لقد كتبت مرتين الى الكونتيس المقيمة في ليون، ومرّتين ايضاً الى المركيز دون لويس المقيم في بورْكوس. فهل يريح بالك جوابي هذا الصريح ؟
دون كارْسيا : أولم تكتبي بتاتاً الى شخص آخر، يا سيدتي ؟
دونا ألْفيرا : كلّا، لم أكتب. وإلحاحك هذا يدهشني.
دون كارْسيا : أرجوكِ ان تفكّري جيداً وتتيقّني، إذ ان نسيانك قد يورّطكِ.
دونا ألْفيرا : كلامي في هذا الموضوع مصدره ثقة لا يرقى اليها الشك.
دون كارْسيا : أحياناً، كلامك هو مدعاة تضليل وخداع.
دونا ألْفيرا : ما هذا الكلام، أيها الأمير ؟
دون كارْسيا : أجل، يا سيدتي.
دونا ألْفيرا : يا الهي، ما هذا الافتراء ؟ هل فقدتَ رشدك الى هذا الحدّ ؟
دون كارْسيا : نعم، نعم، فقدته لأني في زعمك، من شدة يأسي، قد تناولت سمّاً زعافاً، كاد يقضي على حياتي. إذ خُيِّل إليك أني صدّقت تصريحك حين غرّني لطفك الكاذب.
دونا ألْفيرا : اية خيانة يمكنك أن تُلصقها بي ؟
دون كارْسيا : ما أدهى لسانك المراوغ. وما أبرع تمويهك. لكني اعرف كيف أنجو من حبائلكِ. ألقي نظرة فاحصة على هذه الاسطر، وتعرّفي الى دلائل غشّك. فبدون مشاهدة الباقي، يسهل عليّ أن أفضح الوسائل التي لجأتِ اليها.
دونا ألْفيرا : هل هذا ما يقلق بالك ؟
دون كارْسيا : ألا تخجلين من رؤية هذه الرسالة ؟
دونا ألْفيرا : أنا لا أجد فيها ما يدعو الى الخجل.
دون كارْسيا : ليس أهْون من تكذيب هذه الاسطر التي لا تحمل اي توقيع ...

دونا ألْفيرا : لماذا تكذبيها، وقد كتبتُها انا بيدي ؟
دون كارْسيا : اني أقدّر صراحتك وإقرارك بأن هذه كتابتك. لكنّ الرسالة موجّهة الى شخص لا يأبه لها، أو على الأقلّ لا يكنّ أي عطف الى اية صديقة أو أي نسيب.
دونا ألْفيرا : لا، إنها موجّهة الى عاشق ربّيته انا على يدي، بل الى حبيب اهيم في هواه.
دون كارْسيا : ماذا أسمع، أيتها الفاسقة ؟
دونا ألْفيرا : قف عند حدّك من الأدب، أيها الأمير الخسيس، فإن جبانتك هي عنوان حقارتك. كن على يقين بأن قلبي لن يخضع ابداً لرغباتك. وأنا هنا لن أقدّم لك أي حساب. مع أني مصمّمة على انقاذ سمعتي من براثنك. وسأقاوم كل محاولة ستُقْدم عليها في هذا الميدان. وهذا أيضاً إيضاح كافٍ لا بد لك من ادراك معناه، وسأدافع عن مشاعري حتى آخر أنفاسي. انت مقتنع تماماً من براءتي، وسأفعل المستحيل لإدانة تماديك وتطاولك.
دون كارْسيا : هذا كلام تلقينه جذافاً، ولن يكون له اي وزن في نظري.
دونا ألْفيرا : ستبلغك أخباري قريباً. تعالي، يا اليز.

المشهد السادس

دون كارسيا، ودونا الفيرا، واليز.

أليز : سيدتي.
دونا ألْفيرا : لاحظي على الأقلّ إن كنتُ قادرة على تقديم بعض الخدمات، وبلمحة عين لدى أية إشارة أستطيع أن أحيطه علماً بما يجري. بذلك تخفّ وطأة المفاجأة التي أحْدَثَها ما سطّرته يدي من العبارات. هيّا أجيبيني. أين وضعتِ هذه الرسالة ؟
أليز : يجب علي، يا سيدتي، أن أعترف لك بأني مذنبة. فأنا لا أدري كيف

بقيت الرسالة على المائدة. والآن علمتُ بأن دون لوبيز الذي سمح لنفسه بالدخول الى جناحي الخاصّ، تسلّل وبحث في كل مكان حتى عثر عليها. وحين فتحها، حاولتْ ليونور أن تنتزعها من يده قبل أن يقرأها. فهجمتْ عليه وحاولت انتزاع الرسالة التي انشطرتْ الى نصفَيْن، بقي كل منهما في اليد التي تمسك به. وما لبث دون لوبيز أن بادر الى الهرب بسرعة، متشبّثاً بالقسم الذي لم تتمكّن ليونور من اخذه منه.

دونا ألْفيرا : هل بحوزتك النصف الآخر ؟

أليز : نعم، يا سيدتي، ها هوذا.

دونا ألْفيرا (**تخاطب اليز**) : ناوليني إياه، لأرى من يستحق اللوم. حسناً. (تخاطب دون كارسيا) : والآن إجمع هذا النصف الذي أحتفظ به، الى نصفك، ثم إقرأ لي بصوت عال لأسمع بوضوح ما تتضمنّه الرسالة من معلومات.

دون كارْسيا : **الى الامير دون كارْسيا. ها، ها.**

دونا ألْفيرا : تابع القراءة. عليك ان لا تكترث لهذا التوجيه.

دون كارْسيا (**يقرأ**) : « وإن كنت خصمك، ايها الامير، عليك أن تنتبه الى ما اقول، وأن تخشى من نفسك أكثر ممّا تخاف من سواك، وأن تهدم اليوم بالذات ذاك العائق الذي يحول دون تحقيق حلم هواك.

(أنا احبّذ كثيراً ما فعله دون كارسيا لينتشلني من أيدي الخاطفين الغاشمين. فإن مودّته وواجباته عزيزة على قلبي. غير اني اكره غيرته الشديدة.

« انقذني من الغضب الذي يصبّه عليّ، واستحقّ فائق التقدير الذي احتفظ به لك. وحين أُضطرّ الى تأمين هنائك لا تعاند وترفضه، لانك لن تجد له بديلاً).

دونا ألْفيرا : والآن قُلْ لي : ما رأيك ؟

دون كارْسيا : اصرح لكِ يا سيدتي، بأني لا ازال غير قادر على تصديق ما أبصرتْه عيناي وسمعتْه أذناي. وأرى أن في شكواي الكثير من الظلم الذي لا يُطاق، وأني لا قبل لي على تحمُّل وطأة هذا العذاب.

دونا ألْفيرا : كفى. واعلم اني ما قصدت أن تقع هذه الرسالة تحت أنظارك، إلّا لكي أُكذّب ما جاء فيها من إدّعاءات باطلة، وأؤكّد لك مئة مرة ما قلته أنا سابقاً وما قرأته أنت في هذه اللحظة بالذات. فالوداع، أيها الأمير.

دون كارْسيا : يا للأسف. أتساءل الى أين تريدين أن تهربي، يا سيدتي ؟
دونا ألْفيرا : الى حيث لن يكون لك أي وجود، أيها الغيور الثقيل الظلّ.
دون كارْسيا : أعذريني، يا سيدتي، انا العاشق المسكين الذي جعلتْني الظروف في عرفك مذنباً بغيضاً. فقد أثير غضبكِ، وأظلّ معرّضاً للملامة اكثر من البراءة. ليس من امل حلو لا يشوبه الخوف. وهل يمكنك ان تعتقدي لحظةً ان قلبي هائم، لو لم تنبئك بذلك هذه الرسالة، ولو لم يرتجّ ضميري هلعاً تحت وقر الصواعق التي كادت تهدم كل كياني ؟ انت احكمي إن كانت غلطة كهذه لا تهدّ حيل أي عاشق آخر، ليتني أستطيع أن أكذّب مثل هذا البرهان الساطع ...
دونا ألْفيرا : اجل، أنت قادر على فعل ذلك. لأنك رغم عواطفي المعلنة، تلاقي ظنونك تجاوباً أكيداً. فلا تخف، إذ ان اعترافي يتحدّى شهادة العالم أجمع.
دون كارْسيا : كلما قلّ إمكان استحقاقنا ما نأمل به من خير، كلما ازدادت دواعي تحقيقه وفوزنا بالنجاح الذي يبدو رجاء حصوله ضئيلاً في نظرنا. لأن العديد من الشكوك يحوم حول سلوكنا. أمّا أنا من جهتي وقد نلت قليلاً من الحظوة في عينيك الطامحتين بالعطف والحنوّ، فإني أكاد لا أصدّق ما أكسبتْني اياه جسارتي من سعادة وهناء. فاعتقدت ان قوّتك وسماحة نفسك قد ساهمتا في نيلي رضاكِ المشوب ببعض القسوة ...
دونا ألْفيرا : وهل يسعني أن أنحطّ في الجبانة. الى هذا المستوى ؟ فأتّخذ أنا موقفاً يبدو معيباً، وانقاد الى الدناءة والحقارة، وأخون مبادئي ومشاعري. وحين أكون أمامك ألجأ الى قناع من الرقّة واللطف لأستر تباعدي عنك. فالمجد لا يغريني، كما تدري، وكما اعلنته انت لي مراراً. فاعلمْ اذاً ان قلبي لن يتذلّل ولن تستطيع أية سلطة على الأرض دفعه الى التسكّع. ومهما بدر مني من دلائل طيبةٍ مشكورة، لم تستحقّها انت يوماً، سأظلّ انا فوق كل هذه الشبهات، رغم هيمنتك، لأن الحقد لن ينجح في اخضاعي وإكراهي. فأنا أتحدّى غضبك، وأعلن لك بأني لست، ولن أكون يوماً جبانةً.
دون كارْسيا : اذاً، انا مذنب، ولا انكر ذلك. غير أني ألْتمس منك أن تَمُنّي

عليّ بحلمك. واذا كان غضبك لا يلين، وكان جرمي لا يستحق غفرانك، أُنظري بعين عطفك الى قلبي الولهان الذي يتمنّى رضاك ليكون اسعد الناس. وإن اعتبرتِ أنّ تصرّفي قد أزعجك، أرجو ان تعلمي بأني لا أقوى على العيش ساعة واحدة، إن لبث غيظك مسلطاً سيفه على رقبتي. على كل حال، لا تنسَيْ أني نادم على إساءتي اليك. فما عليك إلّا ان تجودي عليّ بعفوك. وان لم يكن هناك من أمل في مسامحتي، فهذا سيفي أستلّه وبطعنة قاضية أنهي حياتي لأستريح من عذاب صدّك. تبّاً لقلبي اذا لم ينعم دوماً بحنوّك، وما أكرمك إن قبلتِ اعتذاره وندامته. وإلّا فضّلتُ الموت الف مرّة على استمرار بعدك عني وحرماني من بلسم أَلْطافك. وهذا جلّ ما أصبو إليه، وأَلْتمسه من عواطفك الرقيقة الكريمة.

دونا أَلْفيرا : آه منك، ايها الامير القاسي، البارع في المجاملة.

دون كارْسيا : تكلمي، يا سيدتي، واستجيبي لتوسلي.

دونا أَلْفيرا : هل كُتبَ عليّ ان أظلّ هدف استعطافك بعد ان أغظتني بكل استهتاراتك ؟

دون كارْسيا : لا سبيل للفؤاد ان يُهين عندما يطفح حباً. واذا ارتكب هفوة فلا غرو انه يستحقّ العفو والغفران.

دونا أَلْفيرا : الحب لا يسامح مثل هذا التصرّف الأرعن.

دون كارْسيا : أشواقه .. تزداد بقدر تصاعد حرارته. وكلما ازداد هياماً تضاعفت آلامه.

دونا أَلْفيرا : لا، لا تخاطبيني بعد الآن بهذه اللهجة المحرجة، فأنت لا تستحقّ مني إلّا السخرية والازدراء.

دون كارْسيا : لماذا تكرهينني هكذا ؟

دونا أَلْفيرا : أريد على كل حال أن أغيّر نظرتي اليك. لكني، يا للأسف، أخشى أن تفشل محاولتي، وأن يتضاعف غيظي الذي يسبّب انزعاجك، فلا يفضي ذلك بعدئذٍ إلّا الى تحريضك على الانتقام مني.

دون كارْسيا : لا تبذلي أي جهد لتلافي هذا العذاب، بما أني، لكي تتخلّصي

من مضايقتي، اعرض عليك تعجيل موتي. فأصدري حكمك عليّ بالإعدام وأنا انفّذه طائعاً في الحال أمام عينيك.

دونا ألْفيرا : من لا يعرف الحقد، لا يستدعي الموت.

دون كارْسيا : وانا لا أقوى على العيش بعيداً عن طيبة قلبك. فامنحيني صفحك عن جسارتي، وحُلّي المشكلة إما بمعاقبتي أو بغفران ذنبي.

دونا ألْفيرا : يا للأسف، أظهرت نحوك في الماضي كثيراً من السماح. فإن قبلت ان أعفو عنك، أفلا يكون ذلك مني نقيض شعوري الحقيقي ؟ وكيف السبيل الى مقابلة شرّ الجرم بعدم احتقاره وبالتجاوز عنه ؟

دون كارْسيا : هذا كثير. عليك أن تصفحي عني، ايتها الامير الفاتنة.

دونا ألْفيرا : دَعْكَ من هذا. فأنا ألوم نفسي على ضعفي حيال إلحاحك.

دون كارْسيا : أخيراً، أنا ...

المشهد السابع

دون لوبيز، ودون كارسيا

دون لوبيز : يا مولاي، أتيت لأطلعك على سرّ خطير لا بدّ من أن تحذر عواقبه.

دون كارْسيا : لا تكلّمني عن سرّ ولا عن تحذير في هذه الأوضاع التي تغمر هواي بالسعادة بعدما وقع عليه نظري من دليل قاطع، ولم يعدْ لدي من شكّ في صفاء الأجواء بيني وبين حبيبتي. ولا أريد سماع مثل هذه الأخبار المشؤومة. فأرجوك ان لا تتابع كلامك.

دون لوبيز : انا اريد ما يرضيك، ولا غاية لي إلّا خدمة مصلحتك. لقد ظننت أن السرّ الذي اكتشفته صدفةً يستحقّ إطلاعك عليه. ولكن بما أنك ترفض الوقوف عليه، أودّ أن أقول لك، يا مولاي، لمجرّد تغيير الحديث، أن الأهالي في مقاطعة ليون يرون أبناء الأُسَر ينتزعون الاقنعة عن وجوههم لدى علمهم

باقتراب حشود الجنود من قشتالة وان الشعب يواجه ملكه الأصيل ببهجة تجعل الطاغية المعتدي يرتعد هلعاً.

دون كارْسيا : لن تنتصر قشتالة. بدون ان نشاطرها هذا الفخر والمجد، لأن جنودنا هم على أتمّ الاستعداد لزرع الرعب في قلب المغتصب موريكا. لكن ما هو السرّ الذي جئت تطلعني عليه ؟ هاتِ ما عندك من الأبار.

دون لوبيز : يا مولاي، لا نبأ لدي أنقله إليك.

دون كارْسيا : هيّا، تكلّمْ. لم أعدْ أطيق الانتظار.

دون لوبيز : أقوالك، يا مولاي، أعلمتني اكثر ممّا انتظره. وبما ان ما يمكنني ان أبوح به لا يرضيك، على ما ألاحظ، يجمل بي أن ألازم الصمت.

دون كارْسيا : اخيراً، أُلحّ بإصرار على معرفة ما حدث.

دون لوبيز : لن أخالف أمرك. لكن وفائي لشخصك العزيزي، يا مولاي، يضطرني الى البوح بسرّ دفين. وأفضّل أن نخرج من هنا لكي أطلعك عليه، تاركاً لحكمتك أمر تقرير ما يجب عمله.

الفصل الثالث
المشهد الأول

دونا الفيرا، وأليز.

دونا ألْفيرا : ما رأيك، يا أليز، بضعف قلبي الغريب الاطوار ؟ وبماذا أنبأك تساهلي حيال الأمير ؟ وما قولك اذا انهارت مقاومتي بسرعة، ورغم كل كراهيتي في جو المرح الذي يحيط بنا، اذا فقدت شجاعتي، وعفوت عن هذه الاهانة المخجلة ؟

أليز : انا اودّ ان تصفحي عمّا مضى، وليس أنبل من الغفران عند المقدرة. لا سيما والمذنب المحبوب قد جثا عند قدميك كاظماً كل سخطه وغضبه بدافع ما يكنّه لك من الحب والتقدير. لذا يجمل بك ان تشملي بعفوك كل إهاناته وتهديداته الماضية، لأن المسامحة من شِيَم الكِرام.

دونا ألْفيرا : لا تنسي ان ما أسمعني اياه، واحمرّت له وجنتاي حياءً خاصة في المرة الاخيرة، لا تُغتفر، لانه لم يترك مجالاً للصلح. وأنا كرامتي عزيزة لن اتهاون في صيانتها والدفاع عنها مهما كلّف الأمر. فإذا صدق في آخر المطاف ووفى بوعده في المستقبل تكفيراً عن إساءاته. لكن ثقي بأني لن أرضى بأمير نافار زوجاً إلّا اذا شفي تماماً من علّته النفسية واطمأنّ قلبي الى عدم تكرار ذنوبه الماضية.

أليز : ولكن، ما هي إساءة طائشة تصدر عن عاشق غيور ؟

دونا ألْفيرا : هل هناك رجل اكثر حماقةً منه يبالغ بالسخط والاذلال ؟ وبما أني أبذل أقصى جهودي عندما أصمّم على الاعتراف بحبّه، وبما ان شهامة جنسنا اللطيف في جميع الازمنة الصعبة تقاوم بشدة مثل هذا الإقرار، فإن المحب الذي يتجاوز هذه العقبة لا بدّ له من الشك بالوعود. ولن يكون مُلاماً اذا لم يُؤْمن بصدق العهود إلّا بعد التجربة والاختبار.

أليز : انا من جهتي لا أسمح لنفسي إلّا بالقليل من الإرتياب في مثل هذه المواقف الحرجة. وكم يواجه من الخطر أي انسان يقع في حبائل الهوى ليقتنع، يا سيدتي، بأنه محبوب حقّاً، إذا ...

دونا ألْفيرا : لنكفّ عن النقاش، فلكل منّا رأيه. ويحزّ في قلبي أخيراً أن أشعر بأنّ عواطفي مجروحة، واني رغماً عن إرادتي أُحسّ بما لا يسعني أن أصفه من الضيق الذي ينبئني بأني انا والامير قد نختلف مجدّداً، رغماً عمّا تلقّيته منه من تأكيدات، آمل أن تكون هذه المرة صادقة ... لكن، يا الهي، ماذا يفعل الآن هنا دون سيلفو الآتي من قشتالة ؟ آه، لماذا أراه بجواري ؟ ...

المشهد الثاني

دون سيلفو، ودونا الفيرا، واليز.

دون سيلفو : انا أعلم أنّ قدومي يدهشكِ، يا سيدتي، وكذلك دخولي الى المدينة بدون رسميّات كأني خصم لا يسرّ استقباله، خاصة بعد احتجابي عن عيون الجنود زمناً. حقّاً هذا حدث لم تكوني تتوقعينه. وأنا أعتبر تحمّسك لمواجهتي كضرب من المعجزات. ولقد ارتعش فؤادي، وشقّ عليّ الابتعاد عنك فغامرت بكل رصيدي من التبصّر، وبادرت الى مشاهدتك العزيزة. وها أنا قادم لأقول لك اني أشكر الله على سلامتك، واني قاسيت الأمرَّيْن في البعد عن شخصك الحبيب، اذ اني في هذه المناسبة أفسحت المجال لمنافسي كي ينال حظوة في عينيك. أجل، يا سيدتي، إضطررت ردحاً من الزمن الى التغيّب

مرغماً، وانا احفظ لك في أعماق صدري مشاعر أجمل وأصدق مما ربما باح لك هو بها. لذلك ترينني في هذه اللحظة بين يديك ألْتمس عطفك ورضاك.

دونا ألْفيرا : انا أعرف، يا مولاي، أنّ لك قلباً يخوض غمار المعارك غير هيّاب، وينتزع النصر انتزاعاً من سواعد الأعداء. ولا أشك لحظة بغيرتك وكرمك، وتفانيك في سبيل الانتقام لكرامتي. اني خاضعة لمصيري الذي يتقرّر في قشتالة. والجميع يدرون بما أبداه الكونت والدك من صداقة وإخلاص لجلالة الملك اخي. فبعد أن ساعده حتى آخر لحظة من مقاومته، لم يتردّد في منحه حق اللجوء الى دولته. وهو منذ عشرين عاماً يحتضنه ويحميه من الغضبات البربرية والمحاولات اللئيمة التي تهدف للغدر به، ويسعى جاهداً ليعيد اليه عرشه مُعزَّزاً، وانت شخصياً تكافح مثله لترد عنّا عدوان المغتصبين. أولست سعيداً بمبادراتك الكريمة، وببذل الغالي والنفيس لتمتين المودة فيما بيننا ؟ وها أنا أراك، يا مولاي، لا تألو جهداً لربط مصيري بمصيرك. يكفي شاهداً على ذلك ما تجود به نحوي من أفضال لا تُحصى. لكن، لا يغربْ عن بالك ما أنا غائصة فيه من سوء الاحوال، وانا مدينة ايضاً بالكثير في هذا الحقل لشخصٍ سواك. فلا تتعَجّب إنْ شاهدتني يوماً مرتبطة بأمجاد رجل آخر قادتني اليه ظروفي المستبدة.

دون سيلفو : نعم، يا سيدتي، فؤادي لا يكفّ عن الرثاء لحالك، وأنت تدفعينني بكلامكِ الجليّ الى هذا التصريح. واعلمي أن الشكوى تبدو غير محقّة عندما تصدر عن انسان بحقّ شخص اكبر منه سنّاً وقدراً. إن المساعدة التي تَلْقَيْنها انتِ واخوكِ من مزاحمي اللدود لهي بالنسبة اليّ عذاب مرهق. لكن هذا الألم، يا للأسف، ليس الأفظع. فالضربة القاضية هي أن أجد هذا المزاحم مفضّلاً عليّ. صدّقيني اني لا أجهل ما لخصمي من جميل عليك أيضاً، وهو يفوقني فخراً ومجداً. وما كلامي الآن سوى برهان على ما أحفظه لك من الودّ. مع ذلك ها أنا أقود جيشاً برمّته، وأخوض معركة طاحنة وكلّي تَوْق الى التغلّب عليه والفوز بحبك ونيل رضاك وأنا موقن بأنك تميلين الى سواي. لكني أصرّ على الاخلاص لكِ وأحنّ الى إحراز النصر في نافار. آه، يا سيدتي، ليتني أعلم ما هو ذنبي كي أستحقّ هذا الجفاء الصارم ؟

دونا ألْفيرا : لا تسألني ما لا طاقة لعواطفي ان تمنحك إيّاه. ولا تلمني على فتوري الذي اراه يؤلمك. أجبْ نفسك بما يسعني أن أردّ به عليك. لأني لا أجهل ان السبب الذي يدفعك هو نبيل وسامٍ. ولا اخالك ترضى بأن أرتكب بحقّك خطأً مميتاً أنت تأباه لي ولك. فعلينا كلانا إذاً أن نقنع راضين بما حكمتْ به علينا الظروف من تضحيات قاسية. أنت محقّ في شكواك حين تلومني على رفضي. أجل، يا مولاي، هذه جريمة بحقّك وبحقّي انا ايضاً، لان إباءك لا يطاوعك على المغامرة في اكتساب حب جديد. أنا أفهم وضعك وأقدّر موقفك الحرج. غير أني مع ذلك ألْتمس منك أن لا تفرض عليّ ما تصبو الى تحقيقه حيالي، وان تحترم اختياري. وهنا أُلْفت إنتباهك الى الحب الذي تحفظه لك الكونتيس الرقيقة، وأنت غير مبالٍ بها، يا مولاي. ارجوك ان لا تنسي ما تعانيه هي لأجلك، وانصفْ فؤادها الذي يهواك.

دون سيلفو : لا تلوميني، يا سيدتي، ولا تدفعيني الى ما لا طاقة لي على مجاراتك فيه. بكل صراحة، حاولت ان أميل عنكِ إليها. لكن هيهات أن أستطيع معاندة قلبي. وبما اني أخاطبك بصدر رحْب، لا اخفي عنك، يا سيدتي، أني رغم كل جهودي لم أتوصّل الى تحويل مودّتي. أنا أعرف، يا سيدتي أني أخون عهد أميرة فاضلة لا تستحقّ إلا التقدير والاحترام. ولكن ما حيلتي، وقلبي لا يطاوعني، وانا مضطر الى التخلّي عن شخص عزيز على قلبي، بُعادُه عني يجلب لي جميع مشاكل الدنيا.

دونا ألْفيرا : انت لا تعاني إلّا من معضلة لا تريد أن تدرك فحواها. لا بدّ لنا من ضبط عواطفنا والتغلّب على ضعفنا بتحكيم عقلنا، وإلّا كان مصيرنا الهلاك المحتّم.

المشهد الثالث

دون كارسيا، ودونا الفيرا، ودون سيلفو

دون كارْسيا : انا أعلم، يا سيدتي، أن مقابلتي تأتي في غير محلها، وأنها تشوّش أفكارك، وان حضوري الى هنا غير معقول ولا مقبول.

دونا ألْفيرا : أجل، مشاهدتك فاجأتني واذهلتني، لأني لم أكن لأترقّبها بتاتاً.

دون كارْسيا : نعم، زيارتي لم تكن منتظرة، يا سيدتي، لكن، مع ذلك يسرّني ان أعرف رأيك، وأن أقوم بالواجب الذي يليق بكِ.

دون سيلفو : انا فخور بمواجهة بطل شهم في شخصك الكريم، يا مولاي. ومَن لا يعترف بفضل فتوحاتك ويُعجَب بشجاعتك ومروءتك ؟

دون كارْسيا : غير أن عظماء الفاتحين الذين يشيد الملأ بانجازاتهم، لا يحبّذون كتْم الأسرار، ولا يحتاجون الى شهود لاثبات بطولتهم. لأنهم منذ حداثتهم تعوّدوا الشهامة والمجد بدافع العواطف النبيلة التي تطفح بها صدورهم، هم لا يتنازلون الى التنكّر وارتداء غير أزيائهم التقليدية. فلا تظنّ أنهم يتجنّبون صحبة من ليسوا من طينتهم ولا من هم دونهم في علوّ المقام.

دون سيلفو : لست أدري إن كان أحد يلومني على سلوكي. فبما أني قمت بهذه الزيارة سرّاً، وأنا أعرف أن مثل هذه المشاريع بحاجة الى الوضوح، لم أبحث عن العتمة ايها الامير، لأسير في ظلّها. وحين اقوم بأي عمل يخصّك، لن أعمد الى التذرّع بالمفاجأة التي لا تلائمك، بل أسعى الى تنبيهك قبل وقوعها. على كل حال، علينا أن نبقى في المسائل العادية، وأن نحوّل نقاشنا الى القضايا الأخرى، غير ناسين امام مَنْ نحن نتحدّث.

دونا ألْفيرا : انت مخطئ، ايها الأمير، فإن زيارته هي بمثابة ما يجعلك ...

دون كارْسيا : الإصرار على مشاجرته فكرة غير مجدية، يا سيدتي، وعليك أن تخفي نواياك في هذا الصدد، فذلك افضل، لا سيما عندما يريد هو أن يتكتّم في مجيئه الى هذا المكان. فالتحمّس للدفاع عن تصرّفاته لا يُقنع احداً بأن حضوره قد باغتك هكذا.

دونا ألْفيرا : مهما كانت ظنونك متطرّفة، هي لا تهمّني كثيراً الى حد أن أتنكّر لها.

دون كارْسيا : فكّري مليّاً بفخر الأبطال هذا، واشرحي أوضاع قلبك بدون تردّد. فإن زيادة الإهتمام به هي نوع من التستّر. لا تشجبي الآن ما سبق وأعلنت موافقتك عليه. بُتّي في أمره بكلمة وجيزة، وقاومي كل ضغط، وقولي انك تحسّسين عواطفه، وأن لمجيئه الى هنا بهجة مستحبّة.

دونا ألْفيرا : واذا شئتُ أن أحبّه، هل يسعك ان تمنعني ؟ هل لك على مشاعري أية حقوق ؟ واذا رغبت في تحقيق أحلامي هل لك عليّ اية سلطة لتحرمني من التمتع بحسناتها. إعلمْ أن الإمعان في الشموخ قد يخيّب آمالك. وإن نويتُ ان اكتم عنك شعوري، لن اصرّح لك بأني احبّ الكونت. لكن اعلمْ اني اجلّه وأقدر اخلاقه حق قدرها. لأن فضائله السامية تعجبني كثيراً وتليق بأميرة. واذا جرّدني مصيري من حرّيتي، هل أجرؤ على حجب مودّتي عنه ؟ لن أكون ضحيّة أهوائك واستهتارك. ها أنا أصارحك، وأكرّر لك الوعود، لأنك انت ترغب في ذلك، ولأني لا استطيع إخفاء أحاسيسي عنك. فهل هذا يرضيك، وقد كشفت لك مكنونات صدري، وهل يقنعك شرحي هذا المستفيض ؟ فلأبدّد عنك ضباب الشك، لا بدّ لي فَسْحَة بضعة ايام. ومع ذلك اذا صمّمت على نيل رضاي، لا يبرحُ من بالك، ايها الكونت، ان وجودك بقربي ضروري. ومهما بلغت أهواؤك من التسامح، لا بدّ من معاقبة الطاغية رغم كل ما أُوتي من دهاء. والأوْلى أن تصمّ أذنَيْك عن ثورات غضبه. أرجوك ان تثق بكلامي وان تتصرف حسب ما أشير به عليك.

المشهد الرابع

دون كارسيا، ودون سيلفو.

دون كارْسيا : الدنيا تضحك لك. وروحك المرح يطغى على همومك في هذه الظروف. فابتهجْ كما يحلو لك، واهزأ بالفوضى المسيطرة على محيطي. وهكذا تتمتّع بالانتصار على خصمك. لكن اعلمْ أنك لم تبلغ الغاية التي تهفو اليها. لأن الغضب يستبد بي الآن لأسباب عديدة موجبة، واليأس يشلّ تفكيري. لكن كل ما يرتكبه المخدوع من حماقة يهون اذا ما أشادت ناكرة الجميل المعلومة، بحبك أمامي. وسأجد وسيلة فعّالة لأشفي غليلي من استبدادها ولأحول دون اقترانك بها.

دون سيلفو : هذا التحريم لا يضايقني. وسنرى ان الانتظار سيكون عقيماً. وكلّ منّا حسب مقدرته وظروفه سيعرف كيف يصون سعادته ويتخلّص من براثن شقائه. لكن، بما ان بين الاخصام لا بدّ لمن هو الاكثر شهامة من ان يلاقي الخيبة اذا انحدر في البذاءة الى أدنى مستوى، ولا يحتاج الى الحماس من ينفتح ذهنه على الخير وحسن النية. انقذني من ضيقي الخفي، وسهّل لي سبيل الانسحاب من هذا المأزق الحرج.

دون كارْسيا : لا، لا. لا تخفْ من مواجهة محنتك. فلن تدوس هنا ما فُرض عليك من نظام عادل. ومهما دفعني غيظك الى تمليقك لإرضائك، ايها الكونت، انا اعرف ما يجب عليّ أن أفعله. درب الحرّيّة مفتوح أمامك، فاخرج متى شئت معزّزاً بما تمتلكه من خصال حميدة. وليكن معلوماً لديك أن جرأتي وحدها تستطيع ان تضع حدّاً نهائياً لفتوحاتك.

دون سيلفو : عندما نخوض هذا الميدان الشامل، سيدافع ذراعنا القوي عن جميع مصالحنا، وينهي النقاش الذي طال أمده بيننا.

الفصل الرابع
المشهد الاول

دونا الفيرا، ودون الفارو.

دونا ألْفيرا : عُدْ الى من أرسلك، يا دون الفارو، واقطع الأمل من إقناعي بالتغاضي عن مرارة الاهانة. فإن جرح قلبي لن يلتئم، والعلاج الذي يُقدَّم لي لا يزيدني إلّا الماً. فهل تظنّ اني اودّ سماع ريائه ؟ كلّا، ثم كلّا، فقد أثار أقصى غضبي. أمّا ندامته التي حملتك على المجيء الى هنا، فلن تفيدك. ولن تستدّر صفحي وعطفي.

دون ألْفارو : هذا حقّاً يستدعي الشفقة، يا سيدتي. لم يتوصّل القلب يوماً، مهما كانت توبته صادقة، الى التكفير عن إهانة مقصودة. واذا كان عذابه قد حنّن فؤادكِ وسامحتِه، فأنا أعلم بأن الامير بلغ من العمر مرحلة تحمل اندفاعه على الاستسلام. واثناء فورة عواطفه لا تترك أشواقه الحارّة مجالاً للتفكير والتروّي. أمّا دون لوبيز، وقد إستمدّ حذره من مصدر سيّئ النيّة، فقد ثبّت غلطة سيّده، ولم يتورّع عن فضح سرّ الكونت، كما بلغك أمره. فركن الأمير الى نصيحة ضلّلت قلبه بناءً على تحذير خاطئ احدث هذه الضجة الصاخبة. لكنه سرعان ما عاد عن غلطه، واقتنع ببراءتكِ. وها هي مطاردته لدون لوبيز دليل دافع على ندامته.

دونا ألْفيرا : لم يَحُن الوقت لتصديق براءتي، لأنه لا يملك البرهان القاطع

على ذلك. ألَا قُلْ له أنّ عليه أن يدقّق ويمحّص المسألة، وان لا يستعجل في اتّخاذ قراره خوفاً من الشطط في حكمه المتسرّع.

دون ألْفارو : يا سيدتي، هو يعرف جيداً ...

دونا ألْفيرا : أرجوك، يا دون الفارو، ان لا تتوسّع كثيراً في هذا الموضوع الوارد في غير محله. لأنه يوقظ أحزاني ويطعن فؤادي، أجل، هناك مصاب أليم يباغتني. فقد أزعجني كثيراً موت الكونتيس الكريمة، وليس لي من أسىً سواه ينغّص اليوم عيشي.

دون ألْفارو : لا صحّة لهذا النبأ، يا سيدتي. وعَوْدتي الى الامير غير ممكنة.

دونا ألْفيرا : نعم، كانت هذه الكارثة أليمة، ولم يستحقّها صاحبنا.

المشهد الثاني

دونا الفيرا، واليز

أليز : كنت انتظر خروجه، يا سيدتي، لأقول لك إن من يودّ حقّاً ان تتنفّسي الصعداء، يشقّ عليه حزنك في هذه الآونة. أمّا مصير دونا أنْيِيس فلا يلبث ان يتوضّح. وقد جاء مجهول للاطّلاع على هذا الموضوع الحميم، وطلب لذلك مقابلتك كأنك من ذويه.

دونا ألْفيرا : لا بدّ من أن أراه، يا أليز. فليأتِ عاجلاً.

أليز : لكنه لا يريد أن يبصره أحد سواكِ. ويلتمس هذا المرسَل ان يقابلك، يا سيدتي، بدون أن يكون أحد شاهداً على وجوده هنا.

دونا ألْفيرا : اذاً سنكون وحدنا. وسأصدر اوامري بهذا المعنى. وستهتمّين انت بجلبه الى هذا المكان، حيث سأنتظره بفارغ الصبر، بدون ان أدري إن كان هذا الإنسان يأتيني بالخير أو بالشرّ.

المشهد الثالث

دون بيدْرو، وأليز.

أليز : اين كنت ؟
دون بيدْرو : إن كنت تبحثين عني، يا سيدتي، فها أنذا.
أليز : اين الآن سيّدك ؟
دون بيدْرو : ليس بعيداً عن هنا. هل تريدين أن آتي به ؟
أليز : أجل، قُلْ له أن يجيء، لأني انتظر قدومه بفارغ الصبر. وليطمئنّ أنْ لا أحد سيراه. لست أدري بأي سرّ سيبوح لي، حتى يتّخذ كل هذه الإحتياطات ... ها هوذا قد وصل.

المشهد الرابع

دونا أنييس، وأليز.

أليز : نحن بانتظارك. يا الهي، لقد عملنا ... لكن ماذا أرى ؟ ها، ها، يا سيدتي، عيناي ...
دونا ألْبيس (**مرتدية ثياب فارس**) : لا تكشفي أمري، يا اليز. بل دعيني أتلمّس مصيري الحزين تحت ستار موت مصطَنَع قد ينقذني من أيدي مضطهديّ الشرسين. فأنا بهذا الزيّ استطيع ان أفهم مرام أهلي. وبواسطته قد تحاشيت هذا الزفاف الرهيب الذي كنت بسببه ذقت الأمرَّيْن لو تمّ. لذا يتحتّم عليّ أن أخفي عن الجميع سرّ مصيري الغامض، كي اتجنّب مغبّة الظلم الذي تعرّضت له اثناء هربي.
أليز : استغرابي ما جرى عَلَناً قد فضح نواياكَ. فادخل ايها الفارس الى هنا، وادفنْ تنهداتك ومشاعرك الحافلة بالبهجة التي أدخلتها بتهيّب الى قلب

الأميرة. ستجدها جالسة وحدها، وقد أصرّت هي بنفسها على دخولك بحرّيّة الى هذا المكان بدون ان يبصرك أحد. قُلْ لي أوليس القادم الينا دون الفارو بنفسه ؟

المشهد الخامس

دون الفارو واليز

دون ألفارو : أرسلني الأمير لأبلغك انه يُقدّر مسعاكِ. لكن، أيقني، يا اليز الحلوة، انّ عليك أن لا تأملي بأية مساعدة. فإذا لم تبادليه حديثاً وجيزاً سيغمر الحزن نفسه ...

المشهد السادس

دون كارسيا، ودون الفارو، واليز.

دون كارْسيا : إرثي لحالي، يا اليز، فقد انهالت عليّ المصائب من كل صوب، واشفقي على تعاستي، وعلى ما حلّ بي من كوارث جسيمة.
أليز : بعينَيْن غير اللتَيْن تنظر بهما الى الاميرة، كنتَ، يا مولاي، شاهدت ما فعله بك الأسى الذي يعصر قلبك. غير أن السماء سمحت لكلٍّ منّا أن يرى الأمور من زاوية مختلفة. وبما أنها تلومك بدافع ما تخصّها به من غيرتك، أظهِرْ لها بعض المسايرة، واجتهد أن تخفي عن ناظريها كل ما من شأنه ان يجرح عواطفها. ان للعاشق حسب مزاجه طريقةً خاصّة تلائمه، يحاول ان يطبّقها على مزاج حبيبته. ولعله يعيد الكرّة مئة مرّة حتى ينصهر قلباهما في

بوتقة العواطف المتبادلة فينسجما معاً ويتّفقا على مودة مشتركة. وهذا هو فن التنسيق بين الحبيبَيْن إذْ اننا كبشر نحبّذ دائماً ما يشبهنا بالميول والافكار.

دون كارْسيا : أعرف ذلك جيداً. ويؤسفني أن أجد مصيرنا متناقضاً. فرغم كل جهودي، لا بد لي من ان أنصب فخاً لاصطياد قلبٍ يشقّ علي أن أتجاهله. المهمّ ليس ان تندّد بي ناكرةُ الجميل تحت انظار مزاحمي فينطلق لسانها بالتصريحات المشؤومة، وتغمره بالمزيد من الحنوّ الذي ينقلب عليّ عذاباً مبرّحاً. وبما أن إغراءاتها المتوالية قد أيقظت اشواقي فقد عزّ عليّ أن أشاكسها وأن أعمد الى صدّها. لذا اعتبرت غير لائق بي أن لا أتجاوب وما تسلّطه الحسناء عليّ من سحر جمالها ودلالها. فبادرت الى موافاتها للاعتذار منها متغافلاً عمّا سبق وأظهرته لي من جفاء وبعاد.

أليز : ارجوك ان تتيح لها الفرصة لتغيير موقفها، ولا تسارع، يا مولاي، الى مقابلتها الآن خشية احراجها.

دون كارْسيا : إن كنت حقاً تودّينني، يا اليز، حرّضيها على مقابلتي. فهذا أقلّ ما ألتمسه منك أوّلاً. لأني مصمّم على ان لا أغادر هذا المكان قبل ان يتأكّد لي زوال تمنّعها المتشامخ.

أليز : أتوسّل اليك أن تؤجّل تنفيذ رغبتك هذه حالاً.

دون كارْسيا : لا، لا تعارضيني، ولا تجدي لها عذراً يعزّز تشامخها.

أليز : لا بدّ، يا مولاي، من إيجاد وسيلة لاستدراجها الى قبول مواجهتك. فأرجوك ان تنتظر قليلاً، ريثما أكلّمها في هذا الموضوع.

دون كارْسيا : قولي لها إني أقْصَيْتُ من محيطي ذاك الذي ازعجني حديثه. وإنّ دون لوبيز لن ...

المشهد السابع

دون كارسيا، ودون الفارو

دون كارْسيا : يا الهي. ماذا أرى ؟ هل يتحتّم علي أن أصدّق ما يقع في هذه اللحظة تحت نظري ؟ لا بدّ من أن يكون ذلك دليلاً صادقاً. وهذا ما يزيد الطين بلّة. بل يُخيَّل اليّ أني أتلقّى ضربة قاضية. كنت قبلاً أكافح الظنون التي تقضّ مضجعي. لكن الوضع أضحى اليوم يهدّد قلبي بالانسحاق والهلاك.

دون ألْفارو : ماذا أبصرتَ، يا مولاي، حتى انهارت معنوياتك ؟

دون كارْسيا : شاهدت ما أكاد لا أصدّقه. ولو حدث انقلاب هائل في طبيعة الكون لما أدهشني اكثر من هذا المنظر. لقد قُضيَ الامر ... هذا مصيري ... ولا يسعني أن أنطق بكلمة واحدة.

دون ألْفارو : ارجوك، يا مولاي، ان تتذكّر ...

دون كارْسيا : رأيت ... تبّاً للانتقام البغيض. يا الهي.

دون ألْفارو : ما هذه الضربة المباغتة ؟ ...

دون كارْسيا : انتهت حياتي، يا دون الفارو، وباتت المسألة حقيقةً ملموسة.

دون ألْفارو : لكن يا مولاي، من يستطيع ؟ ...

دون كارْسيا : كل الدنيا انهالت على رأسي. أنا ضحية ... أنا ضحية خيانة فظيعة. قتلني قدري. هناك رجل ... هل أستطيع قبل أن ألْفظ انفاسي الأخيرة، أن أقول لك ؟ ... لقد رأيت رجلاً يعانق الخائنة ألفيرا.

دون ألْفارو : يا مولاي، أؤكّد لك ان الاميرة الفاضلة أطهر من أن ...

دون كارْسيا : لا، لا، لا تحاول نفي ما قد شاهدته أنا بأم العين. لا سبيل مطلقاً الى تبرير ما أقدمتْ عليه الخدّاعة، يا دون الفارو، وقد أبصرتُ بهاتيْن العينَيْن وضعها المشين.

دون ألْفارو : كم تخدعنا حواسّنا، يا مولاي، فنعتقد ان الباطل حقّ، وأنّ الوهم واقع ملموس. هكذا هو حال الاميرة التقية التي لا يسعها أن ...

دون كارْسيا : ارجوك ان تدعني وشأني، يا دون الفارو. لأن إسداء الفصح

يصدم في بعض الاحيان. وأنا لا أسترشد الّا عواطفي وإحساسي.

دون ألْفارو : يجمل بنا ان لا نصغي الى هذه الدوافع النزقة.

دون كارْسيا : كم اصابتني هذه الحادثة في صميم فؤادي. بقي عليّ ان أعرف من هو هذا الرجل الخسيس، لأقتصّ منه بيدي ... ها هي قد أقبلت. هل أتمكّن من كظم غيظي أثناء حضورها ؟

المشهد الثامن

دونا الفيرا، ودون كارسيا، ودون الفارو

دونا ألْفيرا : ماذا تريد ؟ واي أمل ساقك الى هنا ؟ بعدما صدر عنك من غريب التصرف لإرضاء هواجسك المهووسة ؟ ألّا تزال لديك الجرأة للمثول أمامي ؟ وأية بدعة جديدة تريد ان تعرضها عليّ ؟

دون كارْسيا : ما من فظائع تضاهي دناءتك التي ليس لها من مثيل. فالأقدار، والابالسة، والملائكة معاً لم تُقْدِم على عمل خسيس ولئيم وبذيء اكثر مما بدر منكِ.

دونا ألْفيرا : حقاً كنت اترقب اعتذارك عن إهانتي سابقاً. لكن ما اراه واسمعه منك الآن هو لهجة أخرى أغرب من كل ما صدر عنك في الماضي.

دون كارْسيا : نعم، نعم. هذه مشكلة جديدة. وأنت لا تنتظرين مني ان أكشف لك من هو الجاني، وأُلْقيه مكبلاً بالقيود عند قدمَيْك. أوَلَيست مصادفة مشؤومة أن تتراءَيْ لي من خلال باب مفتوح قليلاً، وتدعيني أشاهد عارك الذي يعني في الوقت ذاته هلاكي ؟ أوَيكون هو العاشق السعيد الذي عاد أدراجه الى أحضانك، أم هذا منافس آخر أجهل اسمه ؟ يا إلهي، زوّدني بالقوّة اللازمة كي استطيع ان أتحمّل آلامي المبرّحة. إحمرّي الآن خجلاً، يا فاسقة، فهذا أمر غير مستغرب، بعد أن سقط القناع عن وجه خيانتك السافرة. هذا بالذات هو باعث لوعة حبي المنبثقة من الشكوك العديدة البشعة، ومصدر

الشقاء الذي ارتسم في عينيّ. لكن، رغم كل عنايتك لستّر عهرك، أنبأني قدري بما كنتُ أخشاه. فلا تتوقعي ان اتغاضى وان لا انتقم لكرامتي، أو أتلقّى جزائي فتلتصق بي مذلّتك وحقارتك. أنا أدرى الناس بأن لا أحد يقوى على دخول قلبك عنوةً. لذلك لا أجد مجالاً لعدم الشكّ، لوْ لم ينطق بكل صراحة فمك الذي حكم هكذا على فؤادي بالإعدام، ولما كان عتبي إلّا على نصيبي المرير. من جهة أخرى، أعتبر ان تصرفك هذا خيانة سافلة تستحقّ أقسى العقاب. لا، لا، لا تأملي بمصالحتي بعد هذا الغدر المكشوف. فأنا لم أعد املك وعيي، إذ انهالت عليّ الخيانات من كل الجهات، وزجّني حظي العاثر في وضع زريّ ذليل. لا بد لحبّي من الانتقام، ومن صبّ جام غضبه على رأس من سبّب لي هذا اليأس القاتل.

دونا ألْفيرا : كفى، فقد استمعت طويلاً الى مهاترتك، وجاء دورك في الإصغاء الى ما أودّ أن ابلغك إياه بصراحة متناهية.

دون كارْسيا : بأية خطابة بليغة، وبأيّ أسلوب منمّق ؟

دونا ألْفيرا : اذا كان لديك ما تقوله لي ايضاً، يمكنك ان تضيفه الى ما تدفّق من فمك وسردته لي بمرارة، فأنا كلّي آذان صاغية. وإلّا، دعني أمتّعك أنا برهةً بالاستماع الى طلاوة حديثي المشوِّق.

دون كارْسيا : هيا يا شري، يا سفيهة، فأنا أُنصت اليك. يا إلهي ألْهمني نعمة الصبر.

دونا ألْفيرا : ها أنا أكظم غيظي مرة أخرى، وأودّ بدون انفعال أن أجيب على كلامك المشبع بسموم الحدّة والعنف.

دون كارْسيا : انتِ ترَيْن جيداً ...

دونا ألْفيرا : لقد سمعت ما قلته لي من بذاءة، فبقدر إمكانك أرجوك أن تردّ لي جميلي. أنا راضية بنصيبي، لأني لا أجد أفضل منه على الأرض. أرى الى جانبي عاشقاً أعمى، لا يتردّد ولا يتورّع عن إضطهادي. وفي جميع تعابيره الغراميّة الفجّة، لا يحفظ لي أية كرامة أو أي اعتبار، فضلاً عن مظاهره الكاذبة باستمرار. نعم، هذا ما ألْمسه لمس اليد. لا تقاطعني. أكرّر لك أن حظي تعيس الى أقصى حدّ. فإنّ قلبك الذي يبوح لي بحبه هو في الواقع من ألدّ أعدائي.

مع ذلك، أنا أتغاضى عن اساءتك، وأسكت على مضض عن إهانـاتك وتهديداتك المتكرّرة. فأرجوك ان تكذّب واقعك، وأن تصلح أحوالك.

دون كارْسيا : وهل هناك من مجال لذلك ؟

دونا ألْفيرا : لا بدّ من الانتباه قليلاً لتعرف قراري. عندئذ يتحتّم على كلّ منّا أن يسارع الى مصيره. أنت الآن على شفير الهاوية. وقلبك الذي سيناقشك الحساب سيدهورك أو ينتشلك. فإذا أعدت إليّ، أيها الأمير، رغم المباغتة، ما يجب عليك أن تردّه، وأن تسألني برهاناً آخر غير الذي قدّمه لك لتتخلّص من الاضطراب الذي تغوص في لججه، ولم تقتنع بعد ببراءتي، ولم تتراجع عن إتهاماتك بحقّي، عليك أن تؤمن بدون جدل، بما يبوح لك به فؤادي من شعور مكتوم. وإلّا يكون جحودك جرماً إضافيّاً لا يُغتفَر وخيانة نكراء ما بعدها خيانة. ولن يبقى أمامك من باب للأمل ببلوغ امنياتك. بالإختصار، إعلمْ جيداً أني أُفضّل الموت ألْف مرة كما سبق وأكّدت لك، على القبول بأن أُزفّ اليك. فعليك اذاً أن تختار أحد هذين الأمرَيْن، وثقْ بأن لا ثالث لهما.

دون كارْسيا : ألم يعد بالإمكان الإهتداء الى حلّ مناسب ؟ أوَليس لديكِ اقتراح أجدى من الذي تفضّلتِ به ؟ في الحقيقة اراني ضحية قلبي المنحوس الذي جرّحته بسهام لحظكِ وجعلته اسير هواكِ، وحكمتِ عليه بالصدّ والجفاء، وانت تدّعين البراءة في هذه الجناية الفظيعة.

دونا ألْفيرا : إقتنعْ بأن عليكَ أن لا تطمع بعد الآن بحبّي، كما أنا لا ارتضي مودّتك.

دون كارْسيا : انا مستعدّ لتقبّل جميع التضحيات.

دونا ألْفيرا : ستندم، على كل حال، لأنك عاشق مستبدّ فاشل.

دون كارْسيا : لا، لا. هذا حديثٌ منحرف هُراء، وانا بدوري أُحذّرك وانبئك بأن غيري من سيندم. والخائن أيّاً كان لن ينجو من غضبي وانتقامي.

دونا ألْفيرا : هذا كثير. وفؤادي المنسحق لن يظلّ على ما هو من الطيبة والرقّة. لندعْ العَقوق يسبح في بحر أهوائه، وليغرق في أمواج غروره وحقارته. (تنادي اليز) : يا اليز. (ثم تواصل مخاطبة دون كارسيا) : أرجوك أن لا تنسى ان

إذلالي هكذا لا يطاق. (تدخل اليز فتقول لها): من فضلكِ، أخرجي هذا الشخص، وأبلغيه أن ينتظرني قليلاً.

دون كارْسيا: وهل يمكنني أن أصبر؟

دونا ألْفيرا: ترقّب وستلاقي ما يرضيك.

أليز: هذا أسلوب جديد يلجأ اليه الغيور الحسود.

دونا ألْفيرا: إحذرْ غضبي، ولا تثابر على خطّتك، بل تذكّر كم كلّفتك غالياً ظنونك المهووسة، هذه الظنون التي ظلمتْني، لانها في غير محلّها. أُنظرْ جيداً الى هذا المحيا المُشرق، وقُلْ لي اذا كانت دونا أنْييس لا تبدو لعينيكَ من خلاله وضّاءة الملامح.

المشهد التاسع

دون كارسيا، ودونا الفيرا، ودونا أنِييس ودون الفارو، وأليز

دون كارْسيا: يا الهي.

دونا ألْفيرا: اذا كان إرتباكك يضايقك، هناك أشخاص تستطيع أن تستشيرهم، وسيزيلون حتماً عن صدرك كل الشكوك. إن موتها حيلة بارعة ابتكرتْها لتهرب ممّن يضطهدها، وكانت بهذه الفكرة تخفي بغيتها، لكي تتمتّع اكثر بمفعول هذا التظاهر بالموت. سامحيني، يا سيدتي، اذا كان الواجب يتطلّب مني ان أقبل بذلك لأفضح اسراركِ والهيكل اثناء انتظارك. لكني حين تعرّضتُ لمغامراتك، فقدتُ حرّيتي في جميع تصرّفاتي، واصطدمت شهامتي بظنونك، فعذّبتني بطريقة لا تُحتمل. واذا بك أيها الحاسد الوقح تفاجئني بمعانقات مُفعَمَة غيرةً. أجل، هذا ما أثار غيظي وجعلني أخجل من سلوكك المشين. يمكنك ان تبتهج، ايها الطاغية الظالم، بهذه الايضاحات التي قصدت أن أذكرها لك عمداً. واعلمْ اني لن أنسى هذه الطعنة القاتلة التي سدّدتها الى فؤادي. واذا نقضت انا يوماً عهودي فلْتنقضّ عليّ صواعق السماء وتسحقني.

(تخاطب دونا أنييس) هيا، يا سيدتي، هيّا نغادر هذا المكان الذي تسكنه عفاريت الجنّ، ولنهربْ عاجلاً من هذا الجوّ المحموم لنتحاشى هياجه الشرس، ولنلْتمس الخلاص أخيراً من قبضته الفولاذية الخانقة.

دونا أنييس : يا الهي. ما أبغض نواياك العنيفة التي حوّلت فضائلك الى رذائل فَظيعة.

دون كارْسيا : ما هذا الضوء الكئيب الذي يكشف غلطتي ويُضفي على حواسّي بشاعة كريهة، ولا يترك في قرارة نفسي سوى الندم القاتل. آه، يا دون الفارو، الآن أيقنت انك على صواب. لكن جحيم قلبي يغصّ بالأفاعي التي سامتني مرّ العذاب، وزرعت الحقد في أعماق صدري. ما الفائدة ان أحببتُ بشوق عارم، وإن كانت جميع نوايا حبيبي تنفث سموم الشقاء والذلّ في كل أرجاء كياني. عليّ ان انتقم قبل تنفيذ حكمه فيّ بالاعدام. قُلْ لي بماذا تنصحني اليوم بعد أن فقدت كل أهداف وجودي. وان كنت أضعتُ الامل بتحقيق أمنياتي، فإن سأمي العيش أصبح لديّ أشدّ مرارة من العلقم.

دون ألْفارو : يا مولاي ...

دون كارْسيا : لا، يا دون الفارو. موتي بات ضرورة ملحّة. اذ لم يبقَ من اسباب اللهو. ودواعي الاهتمام ما يمكنه ان يُشغلني. فأرجوك أن تؤدّي عني خدمة جليلة لهذه الأميرة الفاضلة. وبذلك اكون كمن يبحث عن مغادرة الدنيا بشهامة وامتنان. لأني اذا مُتّ في سبيل هواها، ستأسف هي وتحزن على زوالي، وتكون بذلك قد ثأرت لنفسها، « لأنها لإرضاء طموحها، قد أنزلت بي أقسى العذاب ». لا بدّ اذاً من ان أقتل بطعنة نجلاء من يدي، هذا الحقير المدعو موريكا الذي نفرتُ منه وكرهتُ الوقاية التي أبداها في اغتصابه عرش قشتالة بضجيج جهنّمي. وهكذا اروي غليلي بتذوّقي حلاوة القضاء على خصمي وتبديد آماله وأمجاده هباءً.

دون ألْفارو : هذه خدمة، يا مولاي، بعيدة المدى خطيرة العاقبة قادرة على محو جميع إهاناتك. لكنها مغامرة ...

دون كارْسيا : هيا، هيا. فالواجب يدعونا لتنفيذ هذا المشروع الرهيب الذي يلائم ما يخامرني من شك ويأس.

الفصل الخامس

المشهد الأول

دون الفارو، وأليز

دون ألْفارو : لم يباغتْني مطلقاً بهذه المفاجأة، إذ قرّر أن يقضي على حياة الطاغية موريكا، ومن شدّة غيظه قَلَب الاوضاع رأساً على عقب. ولِكَي يبرر اعتداءه هذا باغتصاب العرش، حاول أن يطلب الصفح، مدّعياً لتخفيف جرمه أن له شريكاً في هذه الخيانة النكراء. لكنه ما لبث أن علم ان هذا الشريك قد فاز بما كان هو ذاته يحلم بالسيطرة عليه. وها هو اليوم دون ألْفونْسو يظهر وكأنه هو المنتصر، وينال غار الظفر والمجد. ثم جاء الى هنا ليصطحب شقيقته الأميرة. وقد أُذيع أن ذلك تمّ مكافأةً له على إنجازه، لأنه استرجع ايضاً بهذه الخدمة عرشه الذي اغتُصب منه.

أليز : نعم، بلغ مسمع دونا الفيرا هذا الخبر السارّ الذي أكّده لنا دون لويس العجوز، واعلمنا كذلك ان مقاطعة ليون تترقب هي أيضاً عودة دون ألْفونْسو السعيدة المظفّرة. وهي من جهتها ابتهجت بتحقيق أمنيّتها، إذ قدّم لها شقيقها، الزوج الذي طالما حلمت به. وهذا القليل الذي سمعته يُنبئني بأن دون سيلفو هو هذا الزوج المرتَقَب.

دون ألْفارو : هذه ضربة قاضية تسحق قلب الأمير ...

أليز : هي قاسية بدون شك، وأنا أرثي لحاله على اثر هذه الخيبة المريرة. إذ

اراه لا يزال يميل الى الأميرة، ويعتبرها كأعزّ انسان لديه في الدنيا. وهي من جهتها مسرورة بقدوم أخيها ووصول الرسالة ايضاً. لكن ...

المشهد الثاني

دونا الفيرا، دون الفارو، وأليز، ودونا أنْييس.

دونا ألْفيرا : أرجوك، يا دون الفارو، أن تستدعي الأمير الى هنا، وأن تستمع الى الكلام الذي سأوجهه اليه حول هذا الحدث المباغت، كي تكفّ عن إتهامي بالتبدّل. وهكذا أُفرغُ جعبتي ممّا أضمره له من البغض بسبب جرمه غير المنتظر، وإن كان قد تغلّب عليه وأخمد سعيره، فضلاً عن الكره الشديد الذي اشعر به نحوه. وهو لا يزال شخصياً في وضع يُرثى له كما كنت اتوقّعه، لأنه اصرّ على امتلاك قلبي بالعنف عنوةً. لكن، قبل أن يعجّل القدر ويختطف روحه وشيكاً، كنت ألْمس الخشونة والصلف في هيامه. ومهما حاول بشتى الوسائل ان يكتسب ودّي، يظل سعيه في نظري إهانة لا تغتفر. وها هي الظروف تثأر لكرامتي المهانة وتنقذني من نواياه الخبيثة. أجل، رقّ قلبي الحسّاس لدى تلقّيه الضربة المدوِّخة، مع أنها اعتقتني من أُسْر غرامه. وها أنا أبحث عن السلوان والتعزية حيال الكارثة التي حلّت بهذا العاشق البائس، وبتّ اعتبر أنّ تعلّقه بي، وإن كان فاشلاً، يستحقّ اليوم مني الاشفاق على صاحبه المنكوب.

دونا أنْييس : من المؤسف، يا سيدتي، أن تعودي الى معالجة هذا الموضوع، والى تذكّر العواطف العاصفة التي كانت تتصادم في صدره وترتد عليك. وما فعله في سبيلك ... ها هو قد شحب لونه واصطبغ وجهه بإصفرار الموت الذي قصف زهرة حياته وخلّف من بَعْده الألم والحسرة.

المشهد الثالث

دون كارسيا، ودونا الفيرا، ودونا أنييس، وأليز.

دون كارْسيا : لست أدري، يا سيدتي، بأي وجه أقابلك، وقد فرضتُ عليك حضوري الذي لا تستسيغينه ؟

دونا ألْفيرا : لست في وارد الحديث عن نفوري، ايها الأمير. لأن ظروفك قد غيّرت نظرتي اليك. وبالنسبة الى الأحوال المؤلمة التي تعترض سبيلك، فقد همد غضبي وخيّم السلام على نفسي. أجل، رغم ما تلقّاه حبك من محن قاسية أثارت عليك الأحقاد، ورغم ما أيقظتَه من ظنون حول شخصي، وما الصقته بي من حقارات أدمت فؤادي، أعترف مع ذلك بأني أُرثي لحالك الى حدّ جعلني انظر الى فوزي حاليّاً ببعض الأسف والألم، وأكره الحسنات التي أمّنتْها لي هذه الخدمات الجليلة. لأن القصد من وراء كل ذلك كان جرّي الى التضحية بحبّي. وكم أودّد اليوم أن أعوّض عن تلك الأوقات التي دفعتني الى قَسَم اليمين وأنا أسعى الى نقض عهودي. لكنك تعلم علْم اليقين أن قدَرَنا يكمن أحياناً في صيانة المصلحة العامة التي تتشابك ومصالحنا الشخصية. وإذا بمشيئة السماء ترأف بي وتتصرّف بتوجيه مصيري بغية إعادة اخي الى عرشه. فعليك، أيها الأمير، أن تطاوع قساوة القدر مثلي، في إرجاع الحقوق الى أصحابها حتى بالعنف اذا اقتضى الأمر كما هو حالنا، أيها الأمير الكريم. فإن أسعدتْكَ الاحوال وارجعتْ اليكَ سلطتكَ وكظم غيظكَ وانت في أحلك ساعات الشدائد. لأن مسايرة الأقدار هي بحدّ ذاتها عظمة قوامها شهامة الشجعان. فلا تقاوم هذه المعاكسات المذهلة، وافتح اسوار استوْرْك لأخي الذي انتظرته أنا طويلاً، ودعْني أردّ له الحقوق التي يلتمسها مني، وقد صمّم قلبي على إرجاعها اليه. وانسياقي هذا المؤلم الذي يفرض ذاته على أمنياتي ربما لن يبلغ الحدّ الذي يحلم به طموحكَ غير المحدود.

دون كارْسيا : هذا منكِ، يا سيدتي، سخاء نادر يرمي الى تخفيف المحنة التي انوء تحت وقرها. اذ بإمكانك ان تسهّلي انقضاض الصواعق على رأسي، وأنا

في وضعي الحاضر لا يسعني أن أوجّه اليك كلمة إعتذار، لأني أستحق ما هو أقسى من هذا العقاب العادل. ثقي بأني أعلم جيداً بأن لا حقّ لي بالتذمّر ممّا أعانيه من الشقاء بسببك. فمن أين أبدأ بملامة نفسي على ما تجرّأتُ واقدمتُ عليه ؟ وها أنا التعيس ألْمس الآن فظاعة جرمي اذْ تسلّطتُ زمناً على عواطفك. وحين حاولت أن أؤدّي لأسرتك خدمة كلّفتْني تضحيةً جسيمة، قادتني الظروف الى فرصة فريدة بالقضاء على منافس عنيد. بعد ذلك لم يبق لي، يا سيدتي، أيّ مطلب. لكني أراني الآن عاجزاً عن معاندة قدري، وقريباً سيأتي دون ألْفونْسو الى هنا وقد طلّت بشائره من مقاطعة ليون كأنه يطير الينا على جناح السرعة كي يقبض ثمن الاطاحة بالطاغية المغتصب. لا تَخشيْ أبداً من أن تقوى أيّة مقاومة على الوقوف في وجه عنفواني الذي أعتزّ به. فليس هناك من مجهود بشري لا يتفانى في المحافظة على حقوقك، وأنا شخصياً أتحدّى كل ما يمكن أن يهدّدك من ضيق. واني على اتم الاستعداد لتجشّم جميع المخاطر، اذا انتِ باركتِ طبعاً فيض ما أبذله لأجلك من مشقّات، يا سيدتي، بدون أن أُسيء الى عواطفك. فأنا أترك لك ملء الحرية في فتح منافذ أسْوار أسْتورْك امام العاهل السعيد شقيقك، وأتحمّل مغبّة جسارتي وإقدامي على هذه المغامرة.

المشهد الرابع

دونا الفير، ودونا أنبيس، واليز.

دونا ألْفيرا : لا تظنّي، يا سيدتي، أن اليأس الذي يعرّضنا للمتاعب سيتوصّل الى تهدئة خواطري. فإن مصلحتك هي أغلى من كل ما يجلب لي الراحة والهناء. لأن دوام المودّة هي أفضل عندي من انتصار الحب على الظروف المعاكسة.

دونا أنْبيس : هذا الحدث هو في نظرك، يا سيدتي، من الامور التي تعرّض

مصيري الى مضايقات طائشة. وربما لجأت السماء الى استخدام وساطتك المجدية. واذا تنهّدتُ انا حيال هذا التبديل، فلأني أشجب تحقيق رغباتي إن كانت نذير شؤم وتفضي الى القضاء على الصداقة السائدة بيننا. انا أخاف أن لا أكون مستحقّة ما تحيطينني به من عطفك واهتمامك، وأخشى أن تسيئي الظن بمقدرتي على صيانة حبك ومصلحتك.

دونا ألْفيرا : الأحْرى أن تنّدّدي بسكوتك الطويل الذي ساعد على إحراج قلبَيْنا منعاً. لأن سرّنا هذا الذي يشمل وضعَيْنا في ظل المشاكل والقلاقل والمطامع الطائشة أحياناً، يمهّد السبيل لإزالة كل تقدير حيال مواقفنا السليمة. فهل يأتي قريباً موعد قدوم من نستبعد حضوره ؟ ...

دونا أنْييس : أُذْكُري الذئب وهيئي القضيب، يا سيدتي. ها هوذا يطلّ علينا.

دونا ألْفيرا : ظلّي هنا، اثناء إلتقاء عينيّ الحائرتَيْن بنظراته الجشعة، ولا تخرجي، يا سيدتي، لكَيْ تكوني شاهدة على ما يحزّ في نفسي، وما سأنطق به من عبارات قاسية.

دونا أنْييس : انا موافقة، يا سيدتي، على البقاء، مع أن الأَوْلى بي في وضعي الحاضر أن أتحاشى سماع هذا الحديث الشائك.

دونا ألْفيرا : نجاحي، اذا أعانتني السماء وجادت عليّ بسلامة التفكير والتعبير، لن يُحرجك.

المشهد الخامس

دون سيلفو، ودونا الفيرا، ودونا أنْييس.

دونا ألْفيرا : قبل ان تتكلّم، أسألك بإلحاح أن تتنازل، يا مولاي، وتستمع الى أقوالي لحظةً. لقد بلغت آذاننا شهرة ساعدك الجبّار، وانا معجبة نظير الجميع بانتصاراتك الباهرة التي في فترة قصيرة دعمت حسن حظّنا. فقدّرتُ بالتالي أفضالك الشاملة حق قدرها. لأن انجازاتك الخالدة قد أعادت اخي الى عرش

ابيه. وهو يعترف بجميلك وبكرم اخلاقك. فلا تدعْ، يا مولاي، هذا الصنيع المجيد يُحمِّل عنقي نيراً ثقيلاً يفوق طاقتي. أنت تعرف مبلغ المودّة التي أحفظها لشخصك العزيز. لذا أرجوك أن تنظر بعين التفهّم الى امتناعي عن الاستفادة. من هذا المعروف الجليل، وأن تعفيني من التعرّض الى ما سيمارسه عليّ أخي من الإلحاح تبعاً لتربّعه على العرش. فإن مقاطعة ليون تستحقّ ثمناً أغلى، هو في هذه المناسبة أن تمنحني قلباً لم يَمِلْ حتى الآن الى أي مخلوق سواي، ملتمسةً من سموّ فضائلك ان تتكرّم عليّ بهذه الهدية التي اغمر كياني بالسعادة اكثر ممّا لو حصلتُ عليها بالإكراه. وطلبي هذه المنّة السخية، من قبل محبٍّ كريم لا تعني أنّ قلبي تأرجح الى الآن محتاراً في التفضيل بينك وبين سواك من العرسان. كلّا، يا مولاي، أما مصمّمة على ان اكون لك، ولن يكون في الدنيا من سلطة عليّ سوى شخصك الغالي الذي سألوذ دوماً بعطفه وحماه ...

دون سيلفو : انا واثق بجدّية وعودك الحاضرة، يا سيدتي، مع أني في الماضي قاسيت طويلاً من تردّدك، وأودّ ان أختصر موقفي بكلمتَيْن : لو كان حذرك الخاطئ قد حملك نوعاً ما في السابق، فاليوم سَرَت الضجة في كل مكان بأن موت الطاغية منحني الفخر والمجد. لكن الشعب وحده، حسب خبرتنا الواسعة، يجعل دون لويس يمارس حقّه ويحرز البطولة والنصر، وقد حامت الإشاعات حول اسمي في هذا المضماو. لان دون لويس، كي يدعم مشروعه المعلوم، لجأ الى التشهير بسمعتي الطيبة، بعد أن ساعده أهلي على احتلال المدينة. وبإذاعة هذا النبأ حمّس ساعدك الجبار الذي قضى على المغتصب ودفعه الى الإسراع في انزال ضربته القاضية. ثم بحميّة متبصّرة عرف كيف يحلّ المشاكل العالقة، بمؤازرة احد ذويه، كما علمت. وهذا سرّ يباغتك بمقدار ما فاجأني أنا أيضاً. أنت تنتظرين أمجاد أخٍ أصبح اليوم السيد المطاع في مقاطعة ليون، كما ابرزتّه الاوضاع الحالية. نعم أنا دون ألْفونْسو، مصيري معزّز ومضمون في حمى الاسرة التي تحكم قشتالة، وهو وليد الصداقة والوفاء بين الأمير والملك والدنا. لقد علم دون لويس بكل التفاصيل التي تُكتنف هذا السرّ، وعليه أن يُبيِّن للجميع صحّة وقائعه. هناك أمور أخرى تشغل بالي،

وتخلق بمناسبة هذا الحدث، خلافاً حادّاً بين أخي وعاشقي. وقد ولّد هذا السرّ تغييراً طبيعيّاً في اهدافها. واذا برباط الدم الواحد الذي يجمع بيننا قد فصلني انا وعزلني، بسبب الحب الذي استحوذ على فؤادي. وفي هذه الاثناء، وددت ان أجد سبيلاً الى ردّ الجميل للحبيبة دونا أنْيِيس، مقابل سائر الأفضال التي أغدقتْها عليّ بدون حساب. ونظراً الى ما يهدّدها في هذه الساعة من شقاء، أشعر بأن مقاطعة ليون تناديني الى تسنّم العرش الذي ينتظرني، مع أني لا أجد في وضع التاج على رأسي ما يسرّني ويرغّبني. وإن قبلتُ به، فلأتذوّق أفراحه وأتمكّن بالتالي من التعويض عن المتاعب التي سبّبتها لكِ. فأصبح هكذا لي الحق بأن أرجو نيل رضاك. إذاً حدّدي من فضلك بكلمة حاسمة منك، إمّا تحقيق أعزّ أحلامي، أو نهاية عمري قطعاً.

دونا ألْفيرا : لا تتعجّب إن تأخرتُ عليك في الإجابة، يا مولاي. لأن هذه المستجدّات قد أذهلتني للغاية. لا استطيع أن أؤكد لك إن كانت دونا أنْيِيس متوفّاة، أو على قيد الحياة. لكن، بواسطة هذا الفارس، وهو من أخلص اصدقائي، يسعك بدون شك ان تتلقّى أخبارها.

دون سيلفو، أي دون ألْفونسو : يسرّني من خلال هذا التناقض أن أبصر جمالك الرائع. وأنا أتساءل : ما هي نظرتك الى مستهتر، جريمته أنه ...

دونا أنْيِيس : حذار أن توجّه اليّ إهانة جديدة، أو أن تغامر بادعائك أن قلباً قد أساء اليك. أنا أرفض هذه الفكرة، والاعتذار يجرح فؤادي. ثق بأني لم ألْقَ أية إهانة، وأنا بمعيّة الأميرة، وبأنّ كل ما سبّبتُه انا لك من ضيق يقبل العذر. أما شوقك اليّ فليس بذنب. وبالنسبة الى الشموخ الذي يبدو مني عادةً، إعلمْ أنك وإن كنت مذنباً، فمن المحال أن تتوصّل الى التقليل ممّا أشعر به نحوك من الإزدراء. ولن تستطيع قوّة على وجه الأرض ان تخفّف من وطأة اهانتك، كي أنساها وأسامحك.

دونا ألْفيرا : كيف تخاطب هكذا، يا أخي، شقيقة روحي العزيزة ؟ أنا أحبّذ ميلك اليها وأبارك المغامرة التي تتوّج الصداقة البريئة الطاهرة المخيّمة على قلبيكما اللذين أخلص أنا لهما الودّ ؟ ...

المشهد السادس

دون كارسيا، ودون الفيرا، ودونا أَنْييس ...

دون كارْسيا : من فضلك أَخْفي عني سروري، يا سيدتي، ودعيني ألْفظ أنفاسي الأخيرة، وأنا أعتقد أن الواجب لا يخلو دوماً من بعض العنف. أنا أعرف أنك تمتلكين المقدرة على تحقيق أمنياتك التي لا تعارضها رغباتي. فأنتِ تلاحظين ذلك، وأنا لا أقوى على مخالفة وصاياكِ. لكنني أعترف لكِ بأنّ هذا المرح يباغتني بسبب صرامتي، وأخشى ان لا استطيع ضبط شعوري. سأعاقب ذاتي، لو أمكنني تحرير إرادتي من الازعان الذي ألازمه ولا اقوى على مقاومته. أجل، فرضتْ توصياتكِ على نفسي، التألّم بصمت وخضوع من جراء تعاسة حبّي. لأن أمرك الذي أصدرته، جاء ثقيل الوقع على فؤادي، وأنا مصمّم على الموت طوع أوامرك. غير أني، مرةً اخرى أصرّح لك بأن الفرح الذي يُترع صدري يعرّضني الى صدمة قاسية لا تتحمّلها حتى النفس الأكثر حكمةً في هذه الظروف العصيبة، وإن تجاوبتْ بصعوبةٍ وهذه المشاعر الرقيقة. وفّري عليّ، يا سيدتي، ألم هذه الإجابة البليغة، وامنحيني على سبيل الشفقة برهةَ تأمُّل. وإن جار عليّ الزمان، أرجو من عينَيْك النجلاوَيْن ألّا تكونا شاهدتَيْن على ما أرزح تحت وطأته من شقاء رهيب. وهذه أقلّ منّة يمكنني أن أطمح إليها من لدنك، لا سميا عندما يخيب أمل عاشق فاشل مثلي. أنا لا أرفض نعمتك، يا سيدتي، لأمد طويل. فإن غيابي سيعفيكِ من المسايرة ويريح قلبك العطوف من هذا العناء. سأذهب الى حيث لا يبلغني نبأ زفافك إلّا عبر الأقاويل. ولن يشكّل ذلك صدمة لي، يا سيدتي، إذْ اني سأدري به بدون ان تبصره عيناي كمشهد انا مضطر الى رؤية ادقّ تفاصيله.

دونا أنْييس : دَعْني، يا مولاي، أوجّه اللوم إلى شكواك. فما ألْحقتَ بالاميرة من الهموم، وكذلك هذه الافراح التي تئنّ أنت منها، كلّها مصدرها الحسنات التي تُغدقها عليك. هي في الحقيقة تفتخر بما تحقّقَ من أحلامك، مع أنها تجد خصماً لك في شخص أخيها، ليس هو إلّا دون ألْفونْسو الذي لهج الجميع بذكره في كل مكان حين شاع سرّه بين الملأ.

دون سيلفو، أيْ دون ألْفونْسو : أشكرُ السماء، لأن قلبي بعد طول العذاب وبدون ان تُحْرَمي أنت من أيّ عزيز لديك، قد تحقّقتْ جميع آمالك. وأنا أتذوّق ان تُحْرَمي أنت من أيّ عزيز لديك، قد تحقّقتْ جميع آمالك. وأنا أتذوّق الآن حلاوة تحقيق أحلى رغباتي، وأستعدّ كلّياً لمساعدتك على نيل مراد قلبك العطوف.

دون كارْسيا : يا للأسف، يا مولاي، هذه المنّة ستضايقني، وهي تلبّي أغلى امنياتي. لكني أخشى ان تنقلب الظروف عليّ، وأن يحظى بالسعادة شخص سواي. لكن كشف هذا السر البهيج يجعلني جانياً في نظر حبيبتي، ويثير ظنونها وشجونها التي طالما نصحوني عبثاً بأن لا أوقظها. لذلك بتّ اخاف التقرّب اليها لئلّا أفقد الأمل المنعش بما أرجوه من تتميم سعادتها. نعم، بتُّ لا استغرب أن تكرهني. لاني أجد نفسي غير أهل لنيل صفحها وغفرانها. ومهما ساعدتني أوضاع اليوم، لا أرى أمامي سوى تمّني الموت الذي يريحني من تراكم هموم الحب على رأسي.

دونا ألْفيرا : كلا، كلا، ايها الأمير. أرجوك أن تبدي حيالي بارقة أمل حلو لكي تنسيني ما عانيتُه من حَيْرة وضياع. فإن شكواك واحترامك والامك كلها اخترقت صدري، وأرى فيها صورة حيّة للصداقة الحقّة. كما أني أؤمن بأن تعاستكَ تستحقّ العطف والمواساة. أنا أرى، ايها الامير، ان الواجب يحتّم عليّ أن أكون حليمةً رحيمة إزاء أخطائك ونقائصك السابقة، أكانت غيرتك مزعجة أو لا. فأنا الآن واثقة تماماً بأن شقيقي ومليكي، بدون أي تردّد، يسعه أن يمنحك يدي.

دون كارْسيا : في غمرة هذه الاحداث السارّة، كم يبهجني هذا الإعتراف الخطير، ويسكب على قلبي فيضاً من بلسم السعادة والهناء.

دون سيلفو، أي دون ألْفونْسو : أودّ، يا مولاي، ان يكون هذا الزواج، بعد كل ما دار حوله أخيراً من المناقشات البنّاءة، عنوان اتحاد قلوبنا وبلادنا. لكن الوقت هنا يداهمنا، ومقاطعة ليون تستدعيني. فهيّا بنا ننصرف الى أفراحنا، ونروِ غليل اشواقنا. وبتآزرنا وتضافر جهودنا ومساعينا نتخلّصِ نهائياً من أنصار الطاغية المنهار.

(تمّت)

النِسَاء العَالِمات

أشخاص المسرحية

كريزال : رجل ميسور صالح.
فيلامانْت : زوجة كريزال.
أَرْمانْد : ابنتا كريزال وفيلامانْت.
هنْرييت :
أريسْت : شقيق كريزال.
باليز : شقيقة كريزال.
كليتانْدر : عاشق هنرييت.
تريسوتان : رجل مثقف.
فاديوس : عالم.
مرْتين : خادمة مطبخ.
لابين : خادم كريزال.
جوليان : خادم فاديوس.

الأحداث تجري في باريس.

الفصل الأوّل

المشهد الأول

أرْمانْد وهنْرييت

أرْمانْد : عندما تكون المرأة عازبة يحوم حولها الشبان كخليّة النحل، لأنها كالزهرة التي توشك أكمامها أن تتفتّح. لكنها متى تزوّجت تُترك لمصيرها الذي قد يكون بائساً.

هنْرييت : نعم، يا اختي.

أرْمانْد : هل جوابك هو لمسايرة تفكيري أم لوصف الحقيقة كما ترينها ؟

هنْرييت : لماذا، يا اختي، لا تحبّذين الزواج ؟

أرْمانْد : تبّاً له من ورطة نحن في غنى عنها.

هنْرييت : ماذا تقولين ؟

أرْمانْد : أكرّر لك، تباً للزواج وأنصاره، إنه يقيّد الفكر ويكبّل الحرية بالسلاسل ويذلّ العنفوان. وهو فضلاً عن ذلك، يذيب الشخصية. فلا ترتعدْ فرائصك لما أرتأيه، ولا يحزنْ قلبك لامتعاضي منه.

هنْرييت : كلما تلفّظت بكلمة زواج أرى نصب عينيّ رجلاً وأولاداً وأسرة. ولا أجد فيَ كل هذه الميزات أي داع للتنكّر والرفض والنفور.

أرْمانْد : ماذا يزعجك من موقفي ؟

هنْرييت : في سنّي، أي مصير تريدين أن انتظر غير ارتباطي بزوج انتسب اليه، يحبّني وأحبّه، وأتفيّأ بعطفه وابتهج بصدق وفائه، وأنعم بجاذب إغرائه.

أَزْمائد : يا الهي. كم تتدنّى أفكارك الى حقارة الازعان والخضوع، وكم تذلي نفسك لأهواء زوج يتحكّم بميولك ويربكك بتربية الأولاد. دعي عنك هذا الانصياع للأشخاص العاديين السذّج وانبذي التقيّد بمثل هذه العراقيل الخسيسة، واطمحي الى ما هو نبيل، وترفّعي عن الأحاسيس المبتذلة وعن الملهاة الرخيصة التي ينحصر الزواج في إطارها. لأن المثقفات مثلنا لا تليق بهن إلّا المآثر السامية التي يجب عليك أن تتشبّثي بها وتفضّليها على كل ما عداها. وجّهي أنظارك الى كل ما يمتّ الى العلم بصلة وثيقة، ويشرّف أصحابه القلائل الذين يشار اليهم بالبنان ولا يتجاوز عددهم اصابع اليد. اجتهدي أن تكوني ممّن يرتفعن فوق المستوى العامّ نظراً إلى ما يمتَزْنَ به من صفاء الذهن وحدّة الذكاء وسعة الاطلاع. دعي حب الدرس والاطلاع يقودك الى المعالي، وزوّدي تلافيف دماغك بآراء قادة الفكر وأعلام التقدّم، ولا تسلّمي قيادك الى مشيئة زوج تظل إرادتك رهينة اهوائه واسيرة نزعاته ورغباته. اعتصمي بالفلسفة التي ترتقي بالانسان الى شوامخ المدنية وقمّة المجد في رحاب العقل المنفتح على كل طريق جميل. ولا تنساقي وراء تفاهات تسيطر على معظم أفراد البشر، وتخضع المرأة لنير عبوديّة الرجل باسم شريعة الزواج الجائرة، ضاربةً عرض الحائط بكل مشاعرها وكل محاولاتها للتحرّر والخلاص من سجنها الضيّق الذي تزجّ فيه نفسها بقبولها قيوده الثقلية القاسية. اذ تضطر الى مداراة من يفرض عليها سلطته. بينما يمكن كل امرأة أن تنصرف الى تنمية شخصيتها ومداركها والحفاظ على حقوقها بما تمنحها اياه مراتع الفلسفة الواسعة من حرية غير محدودة. على كل حال، كلانا نستطيع السير على خطى والدتنا : انتِ من الناحية النفسية والفكرية والاحلام الإستقلالية، وأنا من ناحية الحواسّ والمتعات الأرضيّة. انتِ في ما يعطي ثماراً روحية منوّرة، وأنا، يا أختي، في كل ما تجود به الطبيعة عليّ من ترضيات دنيوية.

أَزْمائد : عندما يقتدي الإنسان بسواه عليه أن يأخذ عنه الخصال الحميدة، لا أن يقلّده تقليداً أعمى بعاداته المزعجة كالسعال والبصق على الأرض.

هنْرييت : ما كنت لتتبجّحي بما أنت الآن عليه، لو كنت اخذت عن أمك صفاتها الكريمة. فأنتِ لا تنظرين الى ما تحلّتْ به من براعة التدبير وحسن

التصرف، وهذا نوع من أنواع فلسفة الحياة. فأرجوك أن لا تنسي ما امتازت به من طيبة القلب، وان تتجنّبي ما يمكن أن يلحق بك من غبن اذا اردت أن ترفضي كل عون من أي شخص صغير أو كبير يودّ أن يرفع رأسه في هذه الدنيا الحافلة بالفوضى والفجور.

أَرْمانْد : اجد أن ذهنك لا يريد التخلّص من عنادك إلّا بالبحث عن زوج يحميك ويدير شؤونك. ألا اعلمي من فضلك، على كل حال، أن اختيارك كليتاندر ليس في محله وليس هو أكمل الرجال.

هنْرييت : ماذا لا يعجبك فيه ؟ أترينه مجرداً من كل الخصال المشكورة حتى تعتبريه غير لائق بي ؟

أَرْمانْد : لا، أنا لا مأخذ لي عليه كرجل، بل ما أجده فيه خالياً من الشهامة هو السعي الى الاستيلاء على ما يخص سواه. ولم يعد خافياً على أحد أنه يستلطفني أنا ويخطب ودّي باستمرار.

هنْرييت : لا مجال لنكران ما تقولين. لكنني ارجوك أن لا تقعي في أخطاء غيرك من الذين لا يحبّذون وثاق الزواج ولا يرون فيه إلّا انحطاطاً بشرياً، وانت منصرفة بكلّيتك الى تقديس الفلسفة التي آليت على ذاتك أن تجعليها قبلة وجودك. وهكذا إن كنت أنتِ لا ترغبين في الاقتران بكليتاندر، لماذا تحاولين أن تمنعيني أنا التي أميل اليه من أن أرضى به زوجاً ؟

أَرْمانْد : لا تنخدعي وتنساقي وراء ميولك، ولا تغترّي بما يقدمه لك من بخور الثناء، لكي تتهافتي على ما يعدك به كزوج محب من عطف ورعاية واخلاص.

هنْرييت : انا لا اتصدّى لما فيك من مزايا نبيلة ؟ فاذا رفضت أنتِ الارتباط بهذا الشاب الممتاز، لماذا تريدين أن تحرميني أنا من حسناته ومن قلبه الوفي وقد اختارني كشريكة حياته ؟

أَرْمانْد : وهل تجدين في تزلّف عاشق مسكين، حفظاً لكرامتك وصوناً لمصالحك ؟ ومن ناحية اخرى، من قال لك اني اقاوم في قرارة نفسي كل ميل اليه ؟

هنْرييت : هو ذاته الذي صرّح لي بذلك وأنا صدّقت تأكيده من خلال ما يبديه نحوي من تقدير وتفضيل.

أَرْماند : لا تكوني ساذجة الى هذا الحد، فتصدقي إدعاءات من يبوح لها بهيامه ويعدك بالوفاء والاخلاص، وهو يخادع نفسه، لأن قلبه يهوى سواك ولا يلقى سوى الصدّ والخزلان.

هنْرييت : أنا لست على بيّنة ممّا تدّعين. فإذا كنت تجدين لذة في قهر الرجال، فلا تذهبْ بك الظنون بعيداً وتتوهّمي ما ليس له في الواقع من وجود ... ها انذا أبصره قادماً الينا، ولن يبخل علينا في إجلاء هذه القضية المعقّدة.

المشهد الثاني

كليتاندر وارماند وهنرييت.

هنْرييت : لكي تحكم بيننا، أنا وأختي، في مناقشة عويصة أوقعت بيننا خلافاً، ارجوك أن تبيّن لنا، يا كليتاندر، من منّا نحن الشقيقتين تفضّل ؟

أَرْماند : انا لا أريد أن أفرض عليك رأيي، لأني لا أعرف تماماً مدى الاثر السيّئ الذي سيتركه بينك وبينها تصريحي بحضوركما هنا معاً.

كليتانْدر : (لأرماند) : لا، يا سيدتي. ان قلبي الذي لا يكتم سراً، لا يخشى ان يبدي ميله بوضوح. ومثل هذه الصراحة لا تمنعني من البوح بمكنونات صدري علناً وإظهار تفضيلي بجرأة وإباء. (يشير الى هنرييت) أني أحب وأقدّر هذه الصبية، بدون أن أقصد ازعاجك بهذا التصريح، خاصةً لأنك أنت تطلبينه. لقد اجتذبتني ملامحك الفاتنة وتعلّقت عواطفي بشخصك الكريم وهام فؤادي بصفاتك الحميدة. لكن ذلك لم يلاق تجاوباً من ترفّعك فجرحتِ شعوري بفتورك، ولمست في تشامخك إمتهاناً لكرامتي فعدلت عما كنت أمنّي به نفسي من لهفة تخصّيني بها انا الذي رجوت يوماً أن تشمليني بعطفك ورعايتك ولم يَنُبْني منك سوى الاستعلاء والجفاء. (يشير الى هنرييت) غير أني عوّضت عن خيبة أملي فيك بما غمرتْني به عيون أختك الحسناء من لطف وحنّو ومودة صادقة هي في نظري أثمن كنز في هذه الدنيا. فواست أساي

وكفكفت دمع رجولتي وكرامتي التي دستِها أنتِ بترفّع وجفاء، وسكبتْ على جرح قلبي بلسم حنوّها وانعشت في أعماق كياني ما كاد يخنقه صدودك في صدري من أمل ورجاء. فأرجوك الآن، يا سيدتي، أن لا تعيدي الكرّة، وتسحقي فؤادي ثانية بعد أن وجد من عرف كيف ينقذه من ألم الشموخ والازدراء.

أَرْمانْد : كفاك تهجماً وتجريحاً. من قال لك أن في نيّتي تكرار ما تتهمني به من استهتار ؟ ومن يهمّه هذا الأمر الآن، يا ترى ؟ أنا من جهتي لا انكر أني استلطفت وسامتك زمناً. واليوم، ألا ترى من العار أن تجابهني، لا سيما في حضور أختي، بما صارحتك به من شعوري نحوك في وقت من الأوقات.

هنْرييت : مهلك، يا أختي، هل نسيتِ ما تقضي به عليك اللياقة من مجاملة الأصدقا ومن لجْم فورة غضبك في هذا الموقف الحرج ؟

أَرْمانْد : أأنتِ التي تذكريني بما يجب علي أن أفعل، انا التي ألقّن الدروس في اللياقة وحسن التصرّف ؟ هل حملك حبك على ملامتي أنت ايضاً بهذه الطريقة الخشنة ؟ لا تنسي أن الواجب يضطرك الى التزام حدود التهذيب بدون اللجوء الى جرح شعور اختك الكبرى في موضوع عاطفي خاص، من الأفضل أن لا تفرض إحدانا فيه رأيها على شقيقتها.

هنْرييت : اشكرك جزيل الشكر على ما تكرمتِ به من امثولة في ما اؤكد لك أني لا ابغي من كلامي سوى صالحك. لذا اقول لكليتاندر بدون أن يحاول إرضاء احدنا على حساب مشاعر شقيقتها.

كليتانْدر : سأجتهد ان اعبّر بجلاء عن رغبتي الحقيقية في مَن اختارها فؤادي.

أَرْمانْد : لا تظني يا اختي، ان موقفك الصريح يؤثر على عواطفي.

هنْرييت : أنا ايضاً لا اريد، يا اختي، ان يزعجك كلامي. فأنت حرّة في أن تحكّمي طموحك وتغلّبيه على حبك. وان كان في أعماق صدرك أي ضعف يحول دون اظهار ميولك، ما عليك إلّا أن تدعمي تفضيل كليتاندر وتساعديني على التوصّل الى الاقتران به، بل ارجوك أن تعملي على تحقيق أمنيتي الغالية ...

أَرْمانْد : بسخريتك هذه تدوسين قلبك الذي يأبى أن ينالك أيّ سوء.

هنْرييت : لا مبرر لظنّك هذا الجائر. فأنا شقيقتك، ويعزّ عليّ أن أراك تتدنّين الى ربط مصيرك بمشيئة رجل لا يليق بك.
أَرْمائد : أنا لست من رأيك في هذا الموضوع. فلا تحاولي حملي على دعم فكرتك.
هنْرييت : هذا شأنك، يا أختي. لكنني أسألك أن تتروّي في ما ترومين التمسّك به من أوهام على حساب حريتك وأحلامك.

المشهد الثالث

كليتاندر وهنرييت

هنْرييت : تصريحك بالنسبة اليها لم يكن مفاجأة لي.
كليتانْدر : لا بد من الصراحة حيالها. لأن هوس كبريائها يحتاج الى مثل هذا التوضيح، وبما أنك تشجّعينني، يا سيدتي، فأنا انوي أن اقابل والدك ...
هنْرييت : الأفضل أن تستميل، امي، لأن أبي لا يمانع أي طلب يخصّني. لكنه لا يضع موافقته دائماً موضع التنفيذ. فهو طيب القلب، ويرضى في بادئ الأمر. لكن من الضروري اقناع والدتي لإتمام المشروع. فهي التي تفرض ارادتها، وهي التي تدبّر بواطن الأمور، وكلمتها هي وحدها النافذة في كل قرار. لذا أسألك أن تنال رضاها وموافقة عمتي ايضاً. لأن لكل منهما تأثيراً لا يستهان به على رأي والدي. فإن نجحت أنت في استمالتها الى وجهة نظرك تفوز لا محالة بمبتغاك.
كليتانْدر : ان طبعي الصريح يأبى أن يتملق اختك، لأن النساء العالمات ليس لهن على قلبي أي نفوذ، ما دمت لا أستسيغ نزعة المرأة الى السيطرة والصدام. فالعالمة الهائمة في متاهات التقدّم والرقّي لا مكان لها في قلبي. وكم اود أن تتجاهل ابنة حوّاء في بعض الأحيان ما تعلم علم اليقين أنه تبجّح منها وتشامخ. لأن درايتها في أغلب الأحيان تجني عليها وتحرمها تقدير أقرب المقربين اليها. فبدون أن تقصد وبدون أن تُثبت سعة اطلاعها بالبراهين الحسّيّة تُعدّد مثلاً

اسماء المؤلفين والكتّاب وتستخدم الكلمات الرنانة في أحاديثها لتزيد تأثير عباراتها وتسترعي انتباه سامعيها الى حكمها ومغزاها. أنا احترم السيدة والدتك، لكني لا أستطيع أن أوافق على أوهامها، واردّد مثلها ما كانت تكرّره من مديح وثناء على ابطال الفكر والثقافة والعلم. وبينما صديقها تريسوتان يضايقني، بل يرهقني بعنتريّاته، لا ارى غضاضة في اعجابها ببعض الرجال الافذاذ الذين تضعهم في أعلى مراتب الرقي. غير أن تقديرها رجلاً غرّاً دعيّاً يذم الناس في كتاباته، ويدّعي احتكار المعرفة، وفي النتيجة يستعمل الباعةُ، لقلّة الرواج، أوراق مطبوعاته لصرّ سلعهم في سوق اللحوم والخُضَر، فلا يسعني أن أوافق على صحة رأيها فيه.

هنْرييت : اجل ان كل مؤلفاته وخطاباته تبدو لي مملة جملةً وتفصيلاً. وانا من رأيك، ونظرتك الصادقة اليه. ولكن بما أن له تأثيراً كبيراً على والدتي، لا بدّ من أن تداريه كثيراً. فالمحبِ يغازل عادة من استولت على قلبه. وهو في هذا الوضع يحاول أن يستميل اليه كل الخلائق لينال رضاهم. ولكي لا يدع اي شخص يعارضه، لا يتورّع حتى عن محاولة استرضاء كلاب الحيّ كي لا يزعجه نباحها عندما يزور حبيبته.

كليتانْدر : اجل، الحق الى جانبك. غير أن السيد تريسوتان مع ذلك يثير في نفسي الاشمئزاز العميق بعجرفته. ولا أتردّد في أن أعلن أني ممّن يحبّذون بعض كتاباته، وإن نابني من جرّاء ذلك معارضة بعض الأصحاب. المهم أن أنال حظوة في عينيه. فمن خلال كتبه تعرفت اليه ومن بذاءتها تبيّن لي إدعاؤه العلم وطموحه الفاشل الى بلوغ العُلى الذي ليس ابداً من أهله — لأنه بآرائه التي يخبط فيها خبط عشواء وترضي غروره، وتفضح سخافته من حين الى آخر لا يستحقّ في الواقع إلا الشفقة على قصر نظره وضيق تفكيره. ولو أدرك قيمة كتاباته الحقيقية الزهيدة لغيّر نظرته الى نفسه حتماً، ولما ظنّ أنه ظفر في محاولاته الثقافية، بما يجنيه من غار المجد قائد الجيش المنتصر في معركة حامية الوطيس جال فيها وصال وتفوّق.

هنْرييت : لله درّ العيون التي تبصر حقيقة كل هذه الوقائع.

كليتانْدر : وكما أن غالباً ما يتجلّى إلهام الشاعر في مطلع ابيات قصيدته،

هكذا بدت لي بوضوح معالم حماقته، فراهنتُ يوماً وانا في القصر الملكي، انه لا يقوى إلّا على الجعجعة هناك، وذلك من مجرّد كلامه التافه، وبدون أن يسبق لي أن أعرفه شخصياً، أدركت أنه هو بذاته كما توقّعت.

هنْرييت : حول ماذا كان يدور حديثه ؟

كليتانْدر : لا، أنا لا اريد النيل منه، بل أورد هذه الحادثة كنموذج ... ها أنا أرى عمتك. أرجوك أن تسمحي لي بما أودّ أن أعرضه لها من واقع حالنا، أنا وأنت، واكشف لها من واقع حالنا، أنا وأنت، واكشف لها سرّ حبنا ورغبتنا في الزواج، لعلّي أحظى برضاها وبموافقة والدتك ايضاً بالطبع.

المشهد الرابع

كليتاندر وبالينز

كليتانْدر : ارجوكِ ان تجودي علي، يا سيدتي، بالإصغاء الى ما اودّ، أنا العاشق، بانتهازي هذه الفرصة السعيدة أن اكشفه لك من هيامي الصادق ...

باليز : يا لك من مهذّب. اياك أن تفتح لي قلبك على مصراعيه. فإن كنت من عشّاقي عليك أن تكتفي بالتلميح ومن عينيك أفهم ما تريد أن تبوح لي به من غرام وهيام. بإمكانك أن تتصرّف كما تشاء، وان تناجيني وأن تتغنّى بمحاسني، لكن بدون أن تعرب صراحةً عما يختلج بين ضلوعك من هوى. فأنا مستعدة طبعاً للتغاضي عن جميع مداعباتك الصامتة، بشرط أن لا تتدخل شفتاك للبوح بأشواقك، وإلّا اقصيتك عني الى الأبد، وابعدتك عن ناظريّ.

كليتانْدر : قلبي متيّم بهوى هنرييت التي سحرتني. بجمالها، وكل رجائي ان تتجاوب مع نداء حنيني الى ألطافها.

باليز : لا أنكر أن عيونك قد استرعت انتباهي، ولا بد لي من أن اقدّر شعورك. لأني لو بحثت في كل القصائد الغرامية لما وجدت شخصاً يستحق اللهفة أكثر منك.

كليتانْدر : هذا ليس مجرّد تقدير، يا سيدي، بل هو اعتراف بما أكنّه من حب

راسخ في قلبي نحو هنرييت التي أسرتْ كل مشاعري، هنرييت التي لم يعد لي من أمنية في الحياة سوى الاقتران بها نظراً الى ما يشدّني نحوها من شوق جارف.

باليز : لقد ادركت الآن ما يعني لك هذا الاسم الحبيب على فؤادك. لكن لا بدّ لي من أن ابيّن لك أن هنرييت لا ترغب كثيراً في الزواج مهما أشدْت بتعلّقك في هواها.

كليتانْدر : ارجوك، يا سيدتي، ان تري الأمور على حقيقتها ولا تتخيّلي ما لا وجود له في الواقع. فأفكار هنرييت هي بعيدة كل البعد عمّا تتصوّرين.

باليز : يا الهي. أنا لا استنبط أي ادعاء، بل أصارحك بما يجول في خاطري. وما عليك الا أن تحاول بوسائلك الخاصّة أن تقنعها بحبّك وشوقك، عساها تلبّي رغبتك في الاقتران بها.

كليتانْدر : ولكن ...

باليز : انا لا أودّ أن اتعدّى معك هذه الحدود. ألا ترى كيف أحمرّ حياءً مما قد قيل في هذا الموضوع ؟

كليتانْدر : أتمنّى أن أموت لو جننت بحبك، لكني عاقل و ...

باليز : لا، لا. لا أود أن أستمع اليك اكثر مما فعلت. (تخرج).

كليتانْدر : تبّاً لها من ثرثارة مهووسة. وهل يمكن أن يكون ما نطقتْ به إلّا هراءً وكلاماً غير معقول. على أن ألْتمس مساعدة شخص سواها يفهم مشكلتي ويعينني بإخلاص على حلّها.

الفصل الثاني

المشهد الأول

أريست

أريسْت : اجل سأحمل اليك الجواب بأسرع ما يمكن. وسأضع كل ثقلي وامكاناتي، اذا لزم الأمر. ما أكثر إلْحاح العاشق ولجاجته عندما يريد أن يصل عاجلاً الى بغيته.

المشهد الثاني

كريزال وأريسْت

أريسْت : حفظك الله، يا اخي.
كريزال : وحفظك أنت ايضاً، يا شقيقي.
أريسْت : هل تدري ماذا أتى بي اليك ؟
كريزال : لا، لست أدري، ولكن كلّي آذان صاغية للاستماع إليك.
أريسْت : انت تعرف كليتاندر منذ زمن بعيد.
كريزال : بدون شك، ولاحظت أنه يتردّد كثيراً عليك.
أريسْت : تُرى، ماذا يريد منك، يا اخي العزيز ؟
كريزال : انا أعرفه جيداً وأقدّر فيه سداد الرأي وطيبة القلب وحسنْ الطويّة.

وأخشى أن لا يوجد كثير من أمثاله في الرصانة واللياقة.
أريسْت : لقد قادتني قدماي اليك، طبعاً لمفاتحتك بأمر جليل.
كريزال : في الماضي، عرفت أباه اثناء سفري الى روما.
أريسْت : جميل جداً.
كريزال : ولقيت فيه، يا أخي، رجلاً ممتازاً يتحلّى بالأخلاق والصفات الحميدة.
أريسْت : هذا ما يقال عنه في كل مكان.
كريزال : كنّا في تلك الأيام كلانا في الثامنة والعشرين، ننعم بمباهج الشباب. وكل منّا يتباهى بما حباه الله به من وسامة ومرح وميل إلى التمتع بأطاييب الحياة.
أريسْت : لا اخالفك في ذلك.
كريزال : فنلنا حظوة في أعين سيدات روما، وكان الجميع يلهجون بذكر مغامراتنا العاطفية معهنّ. وكم حَسَدَنا من الفتيان على ما بلغناه من نجاح في مداعباتنا ومسامراتنا.
أريسْت : هذا فعلاً يستحق الذكر. ولكن، دعنا ندخل في صُلْب الموضوع الذي جئتني لأجله.

المشهد الثالث

باليز (تدخل متمهّلة متنصتّة) **وكريزال وأريست.**

أريسْت : لقد انتدبني كليتاندر لأشرح لك تعلُّق قلبه المشغوف بحب هنرييت.
كريزال : من تعني ؟ ابنتي أنا ؟
أريسْت : اجل، كليتاندر غائص في هواها، ولم أجد أبداً عاشقاً متيّماً نظيره.
باليز (**لأريست**) : لا، لا. أنا أفهم قصدك، غير انك تجهل حقيقة القصّة. وهي تماماً خلاف ما تتخيّله.

أريسْت : ماذا تقولين، يا اختي ؟
باليز : كليتاندر يبالغ في وصف مشاعره نحو هنرييت، وهو مغرم ومشغول بسواها.
أريسْت : أنتِ لا شك تمزحين. هل يهوى غير هنرييت ؟
باليز : نعم، أنَا واثقة مما قلت.
أريسْت : لكنه هو ذاته أخبرني بأنها تشغل قلبه وفكره.
باليز : هل هذا صحيح ؟ هل تصدّقه حقاً ؟
أريسْت : انا قادم اليكم بتكليف منه هو نفسه، لأطلب اليوم يدها من أبيها.
باليز : جميل جداً.
أريسْت : وشوقه ورغبته الملحّة دفعاني الى التعجيل بالسعي لتحقيق هذا الزواج.
باليز : ليس أغرب من هذا التصرف الأهوج، كأن هنرييت لعبة بين ايدينا نتسلّى بها. مهما كانت الأحوال، يا أخي، أرجوك أولاً أن تتحرّى الأمور وتكشف سرّ هذا الاستعجال، لتجنّب إرتكاب أية غلطة تكون عواقبها وخيمة.
أريسْت : بما أنكِ تلمّحي الى محاذير خطيرة تعرفينها ونجهلها، ارجوكِ ان تذكري لنا اسم المرأة التي يحبّها.
باليز : هل تريدان حقاً أن تعرفاها ؟
أريسْت : أجل، بكل تأكيد.
باليز : هو يحبني أنا، دون سواي.
أريسْت : أنتِ ؟ يحبّك أنت ؟
باليز : نعم، أنَا بذاتي.
أريسْت : ما هذا المزاح، يا أختي ؟
باليز : لماذا تتعجب، يا عزيزي، وما المدهش في ما كشفت لكما عنه من سرّه. أوليس في مظهري ما يسترعي الانتباه ويجتذب الإحساس ؟ وهل للقلب قاعدة في من يعشق ؟ أو تتجاهلان دورانت ودأميس وكلايونت وليسيداس الذين كانوا كلهم يحومون حول شخصي كقفير النحل.
أريسْت : وهل أحبك جميع هؤلاء الرجال ؟

باليز : أجل، بكل قواهم.
أريسْت : وهل باحوا لك صراحة بأنهم يعشقونك ؟
باليز : لم يتمادَ معي أحد منهم الى هذا الحدّ. بل اكرموني واحترموني بدون أن يجرؤوا على الكشف لي عن مخبّآت صدورهم ولم يذكروا كلمة واحدة ممّا يجيش بين ضلوعهم من حب دفين. غير أني فهمت من تفانيهم في تلبية رغاتي وتهافتهم على إدخال السرور الى قلبي بصمت، أن رصانتهم كانت بالنسبة الى إدراكي خفايا الأمور، أبلغ تعبير عمّا يكنّونه لي من هيام عميق مكتوم.
أريسْت : من مدة طويلة، ما عدنا رأينا داميس الذي انقطع عن زيارتك.
باليز : انا أعلم أن حديث دورانت يغيظكم. لذا لم يعد يتردّد علي كما كان يفعل سابقاً.
أريسْت : وقد تزوّج كل من كلايونت وليسيداس.
باليز : لأني لم أستجب نداءات فؤادهما وحرارة حبهما.
أريسْت : هذا في نظرك أنت، يا اختي.
كريزال (لباليز) : لا بد لك من التخلّص من هذه الأوهام.
باليز : أوهام ؟ أتظن أن أقوالي أوهام ؟ هل أتوهّم أنا باليز ؟ حقاً هذا لطيف منك، يا أخي. لكني ابتهجت أنا بهذه الأوهام، ولم أكن لأدري أن أحلامي ما كانت إلّا أوهاماً، لو لم تعلنا لي ذلك كلاكما معاً (تخرج).

المشهد الرابع

كريزال وأريست

كريزال : حتماً أصاب شقيقتنا مسٌّ من الجنون.
أريسْت : وذلك يزداد معها فداحة يوماً بعد يوم. لنتكلم عن كليتاندر الذي طلب منك يد هنرييت. فأي جواب تريد أن تقدّم له، وقد كشف لنا عن حبه وهيامه بها ورغبته الشديدة في الاقتران بها ؟

كريزال : وهل هذا يحتاج الى سؤال ؟ أنا موافق من كل قلبي على هذا الزواج الذي لا أجد أنسب منه.

أريسْت : أنت تعلم جيداً أنه ليس ميسوراً نظير ...

كريزال : هذا أمر ثانوي في نظري. لأن صاحبنا المذكور غني بالفضائل والمزايا الحميدة. وأرى أن صفاته أكبر كنز في الدنيا. ثم أني كنت أنا ووالده روحاً واحداً في جسدين، نظراً الى الصداقة المتينة التي كانت تربط بيننا.

أريسْت : تعالَ اذاً تكلّم زوجتك ونقنعها.

كريزال : يكفي أن أقبله أنا كصهرٍ.

أريسْت : نعم، ولكي تدعم قبولك، يا أخي، لا مانع من الحصول على رضاها ايضاً. هيّا بنا ...

كريزال : هل تسخر منّي ؟ لا ضرورة لما تطلبه الآن. فأنا مسؤول عن زوجتي، وآخذ مسألة إقناعها على عاتقي.

أريسْت : لكن ...

كريزال : اقول لك أن رأيي هو الأهمّ. فلا تعارضني. ها أنا ماضٍ لمفاتحتها بالأمر كما قررت ولن اتراجع عنه.

أريسْت : ليكن لك ما تريد. وأنا ايضاً ذاهب لأجسّ نبضَ هنرييت في هذا الموضوع الخطير الذي يهمها بالدرجة الأولى، وأعود لأطّلِع على ...

كريزال : عقدة ابنتي محلولة لأنها تريد الاقتران به. ها أنا ذاهب الى زوجتي لأكلمها في القضية بدون إمهال.

المشهد الخامس

مرتين وكريزال

مرْتين : كم هو حظي سعيد. مع الأسف، كلام الناس صحيح، مَنْ يُغرِق كلبه في النهر يدّعي انه مصاب بداء الكَلَب. وخدمة الغير ليست حقاً شرعياً علينا.

كريزال : ما بك، يا مرتين ؟ ما الأمر ؟

مرْتين : ما بي ؟
كريزال : نعم. مما تشكين الآن ؟
مرْتين : ما حلّ بي هو أنني طُردت اليوم من خدمتكم، يا سيدي.
كريزال : ومَن طردك ؟
مرْتين : السيدة زوجتك.
كريزال : لم أفهم ما تقولين. أوضحي، لماذا طردتك ؟
مرْتين : لقد هدّدتني إن لم أغادر هذا المكان بأن تضربني مئة جَلْدَة.
كريزال : لا، لا. ستبقين عندنا، ولن نستغني عنك لأني أنا ممنون من عملك. وأنتِ تعلمين أن زوجتي عصبية المزاج. لا اريد أن تذهبي ...

المشهد السادس

فيلامانت وباليز وكريزال ومرتين

فيلامانت (تلمح مرْتين) : أرى أنك لا تزالي هنا، يا خبيثة. هيّا اخرجي حالاً، يا لئيمة. هيا غادري البيت فوراً، ولا تريني صورة وجهك بعد الآن.
كريزال : مهلاً، مهلاً.
فيلامانت : كلّا. لقد قُضي الأمر وطردتها.
كريزال : ماذا تقولين ؟
فيلامانت : اريد أن تخرج هذه الوقحة حالاً وسريعاً من هنا.
كريزال : لكن قولي لي ماذا فعلت ؟ وأي جرم إرتكبت ؟ لكي تصرّي على ...
فيلامانت : ماذا تقول ؟ هل تساندها وتعارضني ؟
كريزال : ابداً، ابداً، أنا أريد ...
فيلامانت : هل تُفضّلها عليّ أنا زوجتك، وتدافع عنها هي الخادمة.
كريزال : يا الهي. أنا لا ادافع عنها. لكنني أسألك ما هو جرمها ؟
فيلامانت : وهل أطردها انا بدون سبب موجب شرعيّ.

كريزال : أنا لا أقول ذلك. لكن الناس ليسوا ...

فيلامانت : لا، لا. يجب أن تغادر المحتالة هذا المكان للحال، تماماً كما أقول.

كريزال : خففي لهجتك. هل قلت أنا ما يعارض رأيك ؟

فيلامانت : أنا لا أرضى بأن يعارضني أحد في ما أقرّره.

كريزال : وانا معك من هذا القبيل.

فيلامانت : عليك اذاً بصفتك زوجي، أن تساندني وتصبّ جام غضبك عليها كما أفعل أنا.

كريزال : هذا ما سأفعله أنا أيضاً. (يلتفت الى مرتين) زوجتي على حق في طردك، يا محتالة. غير أن جرمك يقبل العفو.

مرْتين : ماذا فعلت أنا، يا سيدي ؟

كريزال (بصوت خافت) : بالحقيقة، لست أدري.

فيلامانت : ها هي تنساق وراء مزاجها الذي لا يحترم إرادة أي إنسان.

كريزال : هل كسرتْ مرآةً أو قطعةً من الصيني، يا عزيزتي، كي تستحقّ فورة غضبك.

فيلامانت : هل تريد أن أطردها واحنق عليها هكذا لأتفه الأمور ؟

كريزال (لمرتين) : ماذا قلت ؟ (لفيلامانت) المسألة اذاً خطيرة جداً.

فيلامانت : بدون شك. وهل أنا امرأة غبية بلا عقل ولا منطق ؟

كريزال : هل سرقتْ قنينة مشروب أو قطعةً من الفضيّة عن سابق عمد وتصميم ؟

فيلامانت : ما ذكرته لا أهمية له بالنسبة إليّ.

كريزال (لمرتين) : تبّاً لك من لعينة ماكرة. (لفيلامانت) هل فاجئتها وهي متلبّسة بالجريمة ؟

فيلامانت : الأمر أدهى من ذلك بكثير.

كريزال : وما هو هذا الأمر الأدهى ؟

فيلامانت : قلت لك أدهى، أدهى بما لا يقاس.

كريزال : وكيف ارتكبت هذه الخدّاعة ما هو أدهى ؟ ...

فيلامانت : إنها بوقاحة منقطعة النظير، وبعد تلقينها الدرس ثلاثين مرة لم تتعلّم بل افلتت من فمها غلطة بذيئة خسيسةً لا يسامحها بها أقلّ سادة القواعد اللغوية شأناً.

كريزال : أهذه هي المعضلة اذاً ؟

فيلامانت : ماذا تعني ؟ أبَعْدَ كل توبيخاتي الموجهة اليها، تتجاسر وتصرّ على الانحراف عن أسس العلم الحديث، وقواعد اللغة التي لا يسمح بمخالفتها إلّا للملوك ؟ بينما يضطر الجميع الى احترامها والتقيّد بها.

كريزال : ظننت أنها ارتكبت جريمة نكراء.

فيلامانت : ماذا تقول ؟ ألا تجد جرمها فظيعاً لا يغتفر ؟

فيلامانت : لا ينقصني إلّا أن تسامحها أنت بهذا الخطأ الفاضح الناجم عن جهلها وعنادها.

كريزال : وقانا الله من عاقبته الوخيمة.

باليز : ها أنت تنظر الى الموقف الحرج بازدراء، وتشفق على حالها هي التي تهدم كل ما نسعى الى بنائه. مئة مرّة صحّحنا لها اغلاطها، وهي لا تزال مصرّة على تكرارها بعناد لا يُطاق.

مرْتين : كل ما تقولينه، يا سيدتي، قد يكون صحيحاً. غير أني لا أستطيع التعوّد على كلامكم الغريب.

فيلامانت : تبّاً لك من وقحة. هل تعتبرين كلامنا المنقّح غريباً، يا جاهلة، يا عديمة الفهم والادراك ؟

مرْتين : عندما يتكلّم الانسان بالصواب ويمزج عباراته بكلمات مشبوهة يصعب عليّ فهم معناها ...

فيلامانت : هذا نموذج من غلطها. ومن يطلب منها أي تأويل ؟ تبّاً لدماغها المغلق المتمرّد. هل يسعنا أن نتحمّل منك حديثك البذيء الذي نصححه لك باستمرار، وترفضين أن تقبلي إصلاحه ؟

مرْتين : يا الهي. انا لم ادرس مثلكم، ولم أتعلم القواعد ابداً. وأتكلم ما هو سَهْل عليّ، كما تعوّدت أن أفعل على الدوام.

فيلامانت : وهل هذا يحتمل سماعه لا سيما منك، يا غبية ؟

باليز : هذا جهل مطبق لا يقبله أي مخلوق.
فيلامانْت : بل جرم لا يغتفر، اذ إنه يخدّش الآذان لدى سماعه.
باليز : انا من جهتي أعترف بأنها عديمة الذوق جاهلة لا تميّز الصحيح من الخطأ، خاصّة في ما يتعلّق بقواعد اللغة.
مرْتين : ومن قال أني أريد ان أهين جدّي أو جدّتي ؟
فيلامانْت : أصمتي، أيتها الوقحة.
باليز : كلامك يدل على جهلك وعدم ادراكك، يا حمقاء.
مرْتين : لا يهمني أمر الطريقة التي تطلبين مني أن أخاطبك بها، إن كانت مطابقة لمزاجك أو لا.
باليز : حقاً أنت فلّاحة ابنة فلاحين. لأنك تجهلين الأصول، كما نرى، ولا يهمك أن تحسّني لغتك وترقّي حديثك وتميّزي بين الفعل والاسم والحرف.
مرْتين : بكل صراحة أعترف لك، يا سيدتي، بأني فعلاً، لا أعرف أسماء الأشخاص الذين ذكرتهم الآن :
فيلامانْت : حقاً أنت غارقة في ظلام جهلك.
باليز : هذه الألفاظ الثلاثة تدل على أنواع الكلمات التي تنطقين بها في كل احاديثك، يا بلهاء. وعليك أن تجيدي استعمالها وربط بعضها بالبعض الآخر لتأتي اقوالك صحيحة مطابقة للقواعد ومنسجمة أيضاً.
مرْتين : أنا لا يهمني إن كان ما اقوله صحيحاً ومطابقاً للقواعد التي لم أتعلّمها كما كرّرت لك مراراً.
فيلامانْت (لباليز) : بالله عليك، كفّي عن متابعة هذه المناقشة العقيمة. (لزوجها) ألا تخرجها من هنا ؟
كريزال (على حدة) : اذا كان عليّ أن اساير أهواء زوجتي عليك أنتِ ان تخرجي الآن، يا مرتين.
فيلامانْت : ماذا اسمع ؟ هل تخشى أن تجرح شعور هذه الخادمة الحقيرة، حتى تخاطبها كمن يلتمس منها معروفاً.
كريزال (بصوت مرتفع) : أنا، لا ابداً. هيّا أخرجي. (بصوت خافت) اذهبي، يا إبنتي المسكينة.

المشهد السابع

فيلامانت وكريزال وباليز.

كريزال : هل أنت الآن راضية ؟ ها هي قد مضت. لكني لا أوافق على تصرّفك هكذا. لأنها فتاة مخلصة في عملها، وأنت تصرّين على طردها لأتفه الأسباب.

فيلامانْت : أحقّاً تريد أن أترك هذه الفلاحة الجاهلة في خدمتي لكي تخدّش باستمرارٍ أذني بكلامها البذيء المليء بالأخطاء اللغوية التي لا تطاق. انها لا تتقيد بأية قواعد، ولا بأي منطق سليم، كأنها تتكلم في سوق اللحوم والخُضَر.

باليز : لا أنكر أن حديثها ركيك، وانها تخطئ الف مرة كل يوم بحق سيبويه، وان كلامها سمج يدل على مدى جهلها وقلة ذوقها. أنا أفضّل أن اسمعها وهي تغسل الخضر والفواكه بدون أن تخلط بين أنواع الكلام من أفعال وأسماء وحروف، بين المفرد والمثنى والجمع وبين المذكر والمؤنث. في الواقع، يهون عليّ أن أراها تحرق المشوي على النار المتأججة، وأن تزيد ملح السلطة أكثر من اللازم عند تتبيلها بشرط أن لا تخدّش أذنيّ بأقوالها المهشمة الثقيلة. مع أني احب الحساء اللذيذ والمآكل الشهية، وانا أعرف جيداً أن معظم الشعراء والكتّاب لا يحسنون الطهو وشغل المطبخ.

فيلامانْت : هذا حديث مفروغ منه. لكن، من الصعب على الانسان أن يتحمّل الشواذّ والأخطاء الكلامية، ولا يجيد الحديث الصحيح الخالي من الأغلاط، اذ يبدو كجسم رشيق يرتدي الاسمال البالية الرثة. ولا بدّ لنا نحن المثقفين من أن نتحلّى بما وصل اليه العلم من تقدّم ورُقي.

كريزال : لا انكر فائدة ما تبدين من ملاحظات. غير أن جسدي هو ملكي وأنا حرّ في إلباسه الأسمال البالية، إن كانت عزيزة عليّ.

باليز : لا تنسَ إن زينة الجسم هي الروح والثقافة والعلم الواسع الآفاق. وعندي ان للروح الأفضلية المطلقة على البدن المادي، فعلينا أن نتحلّى كلنا

بدون استثناء بالعلم الرفيع المستوى والثقافة العالية التي تنهض بالانسان الى اعلى ذرى المعرفة والمدنية.

كريزال : اذا فكرت بتغذية روحك، ما عليك إلّا أن تأكلي اللحوم الدسمة كما يقال، وان لا تأبهي ابداً للعناية الصحية الضرورية ...

فيلامانت : العناية والدقة هما أساس كل تقدّم، وانت بعيد في هذا المضمار مراحل عن هذه النقطة الجوهرية.

باليز : بالصواب نطقتِ، يا عزيزتي.

كريزال : هل تريدان ان تستمعا كلاكما الى ما يجول بخاطري ؟ هل ترغبان في أن ينفجر دماغي أو أن ينفرط كبدي من جرّاء ترديد هذه السخافات التي لا طاقة لي ولا لأيٍّ كان أن يتحمّلها ؟

فيلامانت : كيف تقول هذا ؟

كريزال (لباليز) : إليك أوجّه كلامي، يا اختي. أراك تستائين من أي خلل في تطبيق القواعد، وأنت غير معصومة عن الوقوع في الخطأ. ان تمسكك بالكتب لا يرضيني. لأنك فضلاً عن مجلّد بلوتارك الذي يثير حفيظتي، عليك أن تحرقي كل ما تحويه مكتبتك من مؤلفات، وان تتركي العلم لأربابه الاختصاصيّين. عليك أيضاً أن تقنعي بما أنت فيه، ولا تحاولي أن تطالي القمر البعيد المنال، بل عليك أن تضعي نفسك في مستوى المحيط الذي تعيشين فيه، وان تطبعي في نفوس اولادك روح الفضيلة وحب عمل الخيّر. أما المرأة اجمالاً فيتحتّم عليها أن تقنع بفلسفة الاقتصاد في المصاريف وإدارة البيت، وأن لا يشرئبّ عنقها لتبصر ما وصل إليه فلاسفة العصر وأساطين العلم وقادة الفكر البشري. لأن آباءنا وأمهاتنا اكتفوا بما حصلوا عليه من وسائل العيش الأصلح والاهتمام الضروري بمحيطهم بدون التطلّع الى الأعلى. فنمتْ اسرهم وازدهرت بما انتجته أنامل الامهات من اشغال الابرة التي كانت بالنسبة اليهم ككتاب المطالعة الوحيد بدون أن يَطْمَعْنَ بالتحوّل الى شاعرات ومؤلفات. بينما أجد الآن حولي هؤلاء النساء يتفلسفن ليطّلعن على كيفية دوران القمر ومركز النجمة القطبية وسَيْر كواكب الزهرة وساتورن والمرّيخ، وأنا لا أعرف عنها شيئاً. فلماذا هذا السعي الى البعيد للالمام بما لا ينفعهنّ في تربية اولادهن

وإدارة مطابخهنّ، وهنّ يجهلن كيفية إعداد ما يلزم لإنماء الأُسْرة، ما دُمْنَ يحاولن تقليد العلماء والارتقاء الى مصافّهم. والمطلوب منهن أن يُحسنّ ما هنّ مسؤولات عنه في ادارة شؤون بيوتهنّ. فهذه تحرق الطبيخ لأنها تتلهّى بقراءة قصة، وتلك تحلم بنظم قصيدة، بينما أنا عطشان أنتظر من يسقيني جرعة ماء. أجل عندي خادمة مسكينة، ولكن زوجتي المزاجية تشاجرها لأتفه الأسباب، الأمر الذي يعكّر صفاء جوّ المنزل، ثم تطردها وتحدث ضجة جهنمية حول عدم امتثالها لأوامرها. وبهذه الملاحظة أقصدك طبعاً بسبب تصرفك غير المتّزن، يا أختي. لأني لا أحبّ تشبثك بالعلم الذي تدّعين أنه حلية يجب أن تزدان بها المرأة، ولا تبجّحات السيد تريسوتان الذي شجّعك على قرض الشعر وتنسيق القوافي. ولذلك يترقّب ان تُغدقي عليه المديح، وصوته يَخُنّ كالجرس المكسور.

فيلامانت : ما هذا الاسفاف الحقير بالتفكير والتعبير ؟

باليز : هل من حقارة أدنى من انتقاد في غير محله، لا سيما في موضوع لا يُلمّ بدقائقه الناقد الذي يدّعي ان معدنه يفوق نقاوة اي معدن سواه. أنا لا أبغي التشامخ على من حولي بل أودّ أن أساوي من ارتقى في محيطي وترفّع عن البذاءات والتفاهات وأحذو حذوه في الإعتدال.

المشهد الثامن

فيلامانت وكريزال

فيلامانت : هل لديك أي اعتراف جديد.

كريزال : انا، كلّا. لنقف في حوارنا عند هذا الحدّ. فما جرى قد جرى. ولنتداول في موضوع آخر، مثلاً، استعلاء إبنتك الكبرى أرماند التي لا تكتم امتعاضها عن الزواج، فهي متفلسفة ولا عتب لي عليها في ذلك، لأنه مسألة شخصية. وهي نظيرك لا يعجبها شيء. لكن اختها التي لا تشبهها من هذا القبيل مهما كان حيوياً، لا بد من أن نشجّعها على اختيار شاب تقترن به ...

فيلامانت : وانا ايضاً افكّر في ذلك، وأودّ أن أُطلعك على ما أراه مناسباً. ان السيد تريسوتان الذي نتّهم بالسماح له بأن يتردّد علينا، وهو لا يحظى برضاك، افضّله أنا كزوج لابنتنا، لأني أدرى منك بمن تحتاج إليه. واذا لم توافق عليه، فهذا أمر غير هامّ بالنسبة اليّ، ما دمت عازمة على مفاتحتها بشأنه كزوج ملائم، ولديّ الحجج الكافية لجعل رأيي مقبولاً. وإن أقدمتَ أنت على التدخّل في الموضوع، سأعرف كيف اتصرف لفرض ما أجده أنا الأفضل.

المشهد التاسع

اريست وكريزال

أريسْت : لقد رأيت زوجتك خارجة من هنا، ولاحظت أنك تبادلت واياها أطراف الحديث.

كريزال : نعم.

أريسْت : أهنئك على نجاحك. هل لبّينا رغبة هنرييت ؟ هل وافقت زوجتك المصون ؟ وهل تمت الصفقة ؟

كريزال : ليس تماماً بعد.

أريسْت : هل رفضت ؟

كريزال : كلّا.

أريسْت : هل هي متردّدة ؟

كريزال : لا، ابداً.

أريسْت : ما المشكلة اذاً ؟

كريزال : انها تقترح عليّ أن أقبل بصهر غيره.

أريسْت : برجل سواه ؟

كريزال : أجل، بعريس آخر.

أريسْت : ما اسمه ؟

كريزال : السيد تريسوتان.

أريسْت : ماذا قلت ؟ السيد تريسوتان ؟ ...

كريزال : نعم هو بعينه الذي يتحدّث دائماً عن الشعر واللغة اللاتينية.

أريسْت : وهل رضيت أنت به ؟

كريزال : أنا ؟ لا، ابداً. معاذ الله.

أريسْت : وبماذا أجبتها ؟

كريزال : لم أحْرِ أي جواب، ولم ارتبط بأية نتيجة.

أريسْت : حجّتك قوية، وهذه خطوة نحو ما نريده. هل اقترحت عليها على الأقلّ اسم كليتاندر ؟

كريزال : كلّا. بما أن اسم غير صهرٍ كان مطروحاً على بساط البحث، وجدت من الأنسب ان لا اتقدّم بأي عرض.

أريسْت : هكذا يتبيّن لي أن حرصنا لم يقدّمنا قيد أنملة. أولا تخجل من تهاونك. كيف تقبل بأن تبدو رجلاً ضعيفاً الى هذا الحد امام زوجتك، وَدَعْها تتخذ قراراً هاماً كالذي نحن بصدده، ولا تحرّك ساكناً ؟

كريزال : يا إلهي، أنت تتكلّم، يا اخي، على هواك. ولا تدري كم تضايقني القلاقل. فأنا ألوذ بالهدوء واللين والسلام. بينما زوجتي تقيم الأرض ولا تقعدها بمزاجها الحادّ، وذلك باسم الفلسفة التي تعتبر نفسها من أشدّ انصارها حماسةً. وهذا سرّ سكوتي وتغافلي عن غضبها ومشاكستها، يحدو بي الى مسايرة اهوائها. وعلى هذا النحو، تراها تحتقر الخير وتقاوم الحق عندما لا تماشي الوقائع تشبثها وعنادها في أتفه الأمور. ولأني لا أريد أن أقف بوجه رياح عاصفتها الهوجاء، تجدني أداريها أحياناً وأتخلّى عن حقوقي بصفتي رب البيت، وأدعها لشياطين عنفوانها وأتملّقها أحياناً كي أنجو بنفسي من ثورة حماقتها.

أريسْت : انا لست من رأيك، يا أخي. لأنك بجبانتك تركت زوجتك تسيطر عليك. وقد بَنَتْ سلطتها طبعاً على انقاض ضعفك حيالها. فما بالك تتركها تصول وتجول في أهم القضايا التي يعود البتّ فيها اليك أنت سيّد الأسرة. وها هي تقودك الآن من ارنبة انفك في مسألة زواج ابنتك. فهلّا أثبتَّ لزوجتك، ولو مرة واحدة، أنك رجل، واجبرتها وإنْ بصعوبة، على النزول عند مشيئتك

المحقّة. ليتك تتحمّس هذه المرة وتقول لها : انا اريد كذا. وتفرض ما يعود اليك حق إقراره، ولا تترك لها مجالاً لتتذرّع بواجبات الثقافة والفلسفة التي هي منها براء، لتوطيد تفوّقها وهيمنتها عليكم، يا أخي. وهي في سرّها تهزأ حتماً بجبانتك وانهزامك أمام إصرارها لا أكثر ولا أقلّ. فهلّا اثبتَّ وجودك هذه المرة في شؤون عائلتك التي تحمل إسمك.

كريزال : هذا كلام شاف. أنا أعرف اني مقصّر، يا أخي. واليوم أنوي أن أظهر رباطة جأشي وحزمي وعزمي على تنفيذ رغبتي.

أريسْت : هذا ما أودّ سماعه من فمك، يا رجل.

كريزال : لا انكر أن الإزعان لنفوذ المرأة هو من أحقر معايب الزوج الضعيف.

أريسْت : هكذا تكون الرجال، وإلّا فلا.

كريزال : بعد أن استغلّت كثيراً ليني ولطفي حيالها.

أريسْت : هذا صحيح.

كريزال : وتلذّذتْ باستبدادها على حساب كرامتي بسبب تساهلي.

أريسْت : بدون ادنى شك.

كريزال : سأعلّمها اليوم أن ابنتي هي ابنتي، واني أنا رب البيت المطاع، وانا الذي أختار لها زوجاً يكون صهري المفضّل.

أريسْت : الآن بالصواب نطقت، وبالمعقول تسلّحت كحجة قاطعة مقنعة.

كريزال : أنت تحبّذ كليتاندر وتعرف مكان اقامته، فأرجوك أن تستدعيه في الحال، يا أخي، لنبتّ بالأمر معه بدون إمهال.

أريسْت : ها أنذا مسرع اليه.

كريزال : كفاني ما تحمّلته من المهانة حتى الآن. واليوم سأبرهن للجميع أني رجل، لا أعبأ بالتهويل ولا أهاب التهديد والوعيد، لا سيما من قبل زوجتي المتفلسفة المتغطرسة.

الفصل الثالث

المشهد الأول

فيلامانت وأرمان وباليز وتريسوتان ولابين

فيلامانت : لنتوقف عند المقاطع البليغة التي يجب علينا أن نُمعن النظر في جميع معانيها.

أرْمانْد : انا كلّي شوق الى تفحصها وتذوق روعتها.

باليز : وأنا كذلك أودّ الوقوف على كافة تفاصيلها.

فيلامانت (لتريسوتان) : أنا معجبة بكل ما تتلفظ به شفتاك.

أرْمانْد : كلامك أحلى من العسل على مهجتي.

باليز : وانا ايضاً استلطف كل ما تسمعه اذناي من بلاغة نطقك.

فيلامانت : لا نضع الوقت في التشوّق والانتظار.

أرْمانْد : هيا بنا اذاً الى العمل.

باليز : ولنقطف عاجلاً زهور العبقرية الفوّاحة.

فيلامانت : ولنروِ غليل تلهّفنا الى ثمار البيان والفصاحة التي تغصّ بها القصيدة الأخيرة.

تريسوتان (لفيلامانت) : يا للأسف، هي مولودة جديدة، يا سيدتي، تكاد ترى النور، وقد تمخّضت عنها شاعريّتي كبنت الساعة.

فيلامانت : ولكي ندرك سموّ مستواها، يكفي أن تكون أنت ناظمها.

تريسوتان : أشكرك على ثنائك الذي يأتي في محله بصفتك ملهمتها.

باليز : ما هذه البلاغة.

المشهد الثاني

هنرييت وفيلامانت وأرماند وباليز وتريسوتان ولابين

فيلامانْت (لهنرييت التي تهمّ بالانسحاب) : مهلك. لماذا تهربين ؟
هنْرييت : لأني أخشى الاشتراك في حوار مبطّن كهذا.
فيلامانْت : لا، لا. هيا اقتربي واصغي وساهمي في سماع الدرر النادرة.
هنْرييت : أنا لست من متذوّقات الصيغ العذبة كما يجب، لأني لا أمتلك براعة تنسيق القوافي.
فيلامانْت : هذا لا يهمّ. اذ لديّ اقتراح أريد أن أفاتحك به.
تريسوتان (لهنرييت) : ارى أن العلوم لا تجتذبك اليها كسواك من السيدات. لأن رغبتك في الانفراد بالاعجاب والثناء تطغى على كل ما فيك من مشاعر.
هنْرييت : حقاً أنت تبالغ في الحكم عليّ. لأني لا أميل الى هذا ولا ذاك مما ذكرت.
باليز : أرجوك أن تنتبه قليلاً إلى قصيدتي المولودة الجديدة الموعودة.
فيلامانْت (للابين) : هيا، أيها الصبي، أجلب لنا مقاعد لنستريح عليها. (يسقط الخادم، ويرمي معه المقعد الى الأرض) ما هذا الإهمال ؟ وهل هذا وقت الوقوع، بعد أن تعلّمنا المحافظة على توازن الأجسام ؟
باليز : الا تدري، ايها الجاهل، ما هي أسباب سقوطك ؟ أوّلها حتماً عدم تقيّدك بقانون جاذبية الأرض.
لابين : لقد فهمت ذلك بعد وقوعي على الأرض.
فيلامانْت : (للابين وهو يخرج) ما اثقل ظلّه.
تريسوتان : من حسن حظه انه ليس من الزجاج، وإلا لتحطّم.
أَرْماند : ما اخفّ ظلك وألطف استنتاجك.
باليز : انه حقاً مَعِين لا ينضب.

فيلامانْت : هيّا قدّم لنا بعض الغذاء الروحي الشهي.

تريسوتان : تعطشك الى سماع البديع لا تكفيه ثمانية ابيات جديدة كي يرتوي. لذا يجمل بي أن أضيف اليها ما تعتّق في خوابي الماضي من خمرتي المشعشعة تطلّ من خدْرها كأميرة محجّبة، وترفع خمارها عن محياها المشرق بأضواء الدلال والسحر الحلال، وتنير ببريق لحظها ما تخلقه حولها من جوّ البهجة والمرح.

أَرْمانْد : انا لا اشك لحظة في سموّ هذه الأُوِيقات الخالدة.

فيلامانْت : هيا اسمعنا اذاً، ولا تُطِلْ انتظارنا اكثر مما فعلت.

باليز (تقاطعه كلّما حاول مباشرة الإلقاء) : انا اشعر بأن قلبي منذ الآن يرقص طرباً. لأني أعشق الشعر وأهوى ما انسجم وحلّق من الأبيات، لا سيما التي تناجي الأرواح وتتغنّى بالأحبّة.

فيلامانْت : اذا واصلنا حديثنا، لن ندع لشاعرنا مجالاً لإلقاء حرف واحد علينا.

تريسوتان : قصيدة ...

باليز (لهنريت) : اسكتي، يا ابنة أخي، من فضلك.

أَرْمانْد : دعيه يقرأ.

تريسوتان : قصيدة الى الأميرة أوراني، حول إصابتها بالحمّى :

ما بال تحفّظك قد رقد،
وأروع الحركات قد فقد.
فاحتجبت عن الأنظار،
ومنك البنفسج غار.

باليز : ما احلى هذا المَطْلَع.

أَرْمانْد : وما أعمق هذا الوصف والتشبيه.

فيلامانْت : انه حقاً يملك قريحة سيّالة.

أَرْمانْد : لا بد من تقدير هذا التعبير «تحفّظكِ قد رقد» الذي يفيض رقة وعذوبة.

باليز : ولا ننسَ الإنسجام بين «الاحتجاب عن الأنظار ــ والبنفسج غار».

باليز : لنسمع الباقي بانتباه.
تريسوتان : تحفظّك قد رقد،
ثم استفاق ووعد.
وحبيبك الولهان،
بالصبر استعان.
أَرْمانْد : ما هذا البيان الساحر في « التحفّظ قد رقد ».
باليز : ولا تَغْفَلي عن « استفاق ووعد ».
فيلامانْت : وهناك ايضاً « الحبيب الولهان ــ بالصبر استعان ».
تريسوتان : طلّي وانظري، واهملي العزّال،
ففي سمائك البدر التمام جال
ومن عليائك انزلي الى الحبيب،
الذي هتف قلبه أنتِ الطبيب.
باليز : ما اروع هذا الغزل الفائق الذي استحوذ على شعوري المرهَف.
أَرْمانْد : دعنا، ايها الشاعر الساحر أن نعجب بجمال فنك.
فيلامانْت : هذه الأبيات اخترقت أعماق فؤادي، وهيمنت نشوتها على شغاف نفسي.
أَرْمانْد : فعلاً، لم اسمع في حياتي أرقّ من هذه الأبيات الخالدة التي تغذّي الروح.
فيلامانْت : ما احلى هذه التعابير، وما أعمق هذه المعاني السامية.
أَرْمانْد : حقاً، هذه المقاطع تخلق حولنا جوّاً حالماً من الشوق والهيام.
باليز : أنا من رأيك، يا عزيزتي، وقد أسكرتني الى آخر مدى.
أَرْمانْد : كم أودّ ان أكون أنا قد نظمتها.
باليز : انها فعلاً تساوي أطول قصيدة عصماء.
فيلامانْت : ليس من يدرك مثلي عذوبة ألفاظها ودقة معانيها.
ارمان وباليز : ما هذه المبالغة.
فيلامانْت : اذا تأملنا في « طلّي وانظري، واهملي العزّال » نشعر تماماً بما تضمّنته هذه الصياغة من سحر وبلاغة. ثم « في سمائك البدر التمام جال »

نجد أبدع تعبير وتصوير. ونستنتج منها أن شاعرنا الخصب الخيال يعزف على أوتار قريحته التي تأسر المهج، أعذب الالحان والأنغام.

باليز : انا ايضاً أشهد على طول باع ساحرنا المجلّي الذي أثبت عن جدارة أنه حقاً سيّد القوافي.

فيلامانت (لتريسوتان) : لا بد من أن تكون، وأنت تنظم هذه القصيدة الفريدة، قد سكبت فيها الكثير من وحيك وفيض فصاحتك وبلاغتك حتى جاءت بهذا السبك والانسجام.

تريسوتان : ما هذا الأطناب في الثناء ؟

فيلامانْت : حقاً، صوّرت، إطلالة هذه الأميرة المحمومة بريشة رسّام بارع. فأرجوك أن تعيد مقاطعها لنمعن في تذوّق دقائق وصفها البديع.

فيلامانْت : لا سيما مقاطع التشبيه والتعبير الممتاز.

أُرْمانْد : من فضلك، أرجوك أن تزيدنا نشوة باستعادة روائعها الفاتنة.

تريسوتان : « طلّي، وانظري، واهملي العزّال ... »

فيلامانت وأرماند وباليز : لله درّك من شاعر فياض القريحة.

تريسوتان : « ففي سمائك البدر التمام جال ... »

فيلامانت وارماند وباليز : ما هذا الابداع.

تريسوتان : « ومن عليائك انزلي الى الحبيب ... »

فيلامانت وارماند وباليز : يا الله، ما هذه الصياغة البارعة.

تريسوتان : « الذي هتف قلبه أنتِ الطبيب ».

فيلامانْت : هذه قمة النبوغ والسحر الحلال.

ارماند وباليز : حقاً، حقاً لم نسمع أروع من هذا الشعر الساحر البيان.

تريسوتان (يضيف) : ما بالك في الليل والنهار،

عندما تستحمّين وانتِ بالإزار،
تسحرين الكون بمفاتنك،
وتداعبين الأشواق بأناملك.

فيلامانْت : هذه غاية الروعة والجمال.

باليز : بها تبلغ نشوتي ذروتها.

أَرْماند : ولا تبقي هنا للمتعة من مزيد.
فيلامانت : حتى بلغت بي أعلى درجات الارتعاش الروحي.
أَرْماند : ما اعذب « عندما تستحمّين وأنت بالإزار ».
باليز : بل ما أجمل « تسحرين الكون بمفاتنك ».
فيلامانت : وهل هناك ابلغ من « تداعبين الأشواق بأناملك » ؟
أَرْماند : في كل مقطع، ألمس رخامة اللفظ وانسجام المعنى.
باليز : وما أبدع التعبير « أسبح في جوّ سحرّي ».
فيلامانت : أنا لا أجد أقدر من رسم الصُوَر بهذه الألوان الزاهية.
تريسوتان : اذاً، أعجبتكم ابياتي هذه ...
فيلامانت : لقد أسرتنا ونقلتنا الى عالم ساحر من الخيال المحلّق الخصيب.
باليز (لهنرييت) : أما تأثرتْ احاسيسك بهذا الشلال من الفصاحة والبيان ؟ وهل تكونين، يا ابنة أخي، مجبولة من طينة غريبة عنّا حتى لا تنبسي ببنت شفة حيال هذه القصيدة الرقيقة الفاتنة.
هنْرييت : في هذه الدنيا، كل اناء لا ينضج إلّا بما فيه. وأنا لم أتعوّد تذوّق هذه المظاهر الثقافية.
تريسوتان : ربما لم تنسجم أشعاري وذوق سيدتي.
هنْرييت : لا، ابداً. إني لم استمع اليها بكل انتباه.
فيلامانت : هاتِ، يا استاذ، قصيدة اخرى، من فضلك.
تريسوتان : لديّ أبيات عنوانها :

في عربة أُرْجوانيّة،

مهداة الى سيدة من الأصحاب.
فيلامانت : عناوينك تحوي على الدوام جاذباً غير مألوف.
أَرْماند : طبعاً لأنه فضلاً عن غزارة قريحته وخصب خياله، يبتكر دوماً كل جديد طريف ونادر الوجود.
تريسوتان : « شاء الحب أن يتحفني بأحلى المآقي ... »
فيلامانت وارماند وباليز : ما هذه الروعة.
تريسوتان : « ولأقابله بالمثل بذلتُ نصف ارزاقي.

وحين رأيتُ العربة المتهادية الجميلة،
مرصّعةً بأكداس الذهب، وداخلها الخميلة،
أخذتْ بمجامع القلوب ساحرة العيون الكحيلة،
وردّت انظار الحسّاد والعزّال أبصاراً كليلة ».

فيلامانت : « أبصاراً كليلة » تحوي منتهى الإبداع.

باليز : إطارها حقاً ساحر، يستحق الملايين.

تريسوتان : « عندما اطلّت هذه العربة المتهادية،
يزينها الذهب وأبهج الألوان الزاهية،
وجدت العيون مشدودةً الى صاحبتها اللامعة.
متباهيةً بما رفلت به من ثياب العزّ الرائعة
تدلّ على نبالة لابستها ومكانتها العالية،
أيْقِنْ بأن كل هذا البذخ من أموالي الغالية ».

أرْماند : لم نسمع أبداً مثل هذا الوصف الساحر.

فيلامانت : انه أصدق برهان على الفكر الثاقب والذوق السليم الفائق.

باليز : « وجدت العيون مشدودة الى صاحبتها اللامعة
متباهيةً، بما رفلت به من ثياب العزّ الرائعة ».
وهذا ينسجم تماماً مع آخر بيت :
« أيْقِنْ بأن كل هذا البذخ من أموالي الغالية ».

فيلامانت : لست ادري اذا كنتَ، منذ ان عرفتك، قد فتحت أمامي آفاق المعرفة غير المحدودة، وايقظت في أعماقي تذوّق الجمال والروعة في حقول الشعر والنثر على السواء.

تريسوتان (لفيلامانت) : إن كان لديك ما تعرضينه علينا من بنات افكارك السامية، هاتِ ما عندكِ لنسكب عليه فيض إعجابنا.

فيلامانت : لم يعد لديّ من أبيات شعر ألقيها الآن. بيد أني أستطيع أن أقرأ لكنّ ثمانية فصول من مخططات مجتمعنا العلمي. فإن أفلاطون قد وضع مشروع إنشاء « جمهورية » وقد كتبه بالطبع نثراً. وانا ايضاً اضطررت الى سبكه في هذا القالب، إذ لم يكن من مجال لنظمه شعراً والتحليق في سماء

الخيال. لأني لا أميل إلى مثل هذه الأعمال التي تبعدني عن أجواء العواطف وتشدني إلى دنيا القوانين والشرائع الأرضية.

أَرْماند : وهذا بالنسبة إلى جنسنا اللطيف نوع من الإهانة، إذ يُقصينا عن مراتع الفن والذكاء الخلاق، ومظاهر الاغراء من تبرّج وثياب وأزياء تتبارى فيها الابتكارات والتصميمات الفاتنة وأبهى المنسوجات والحليّ ومستحضرات التجميل.

باليز : لا بد لنا من أن نترفّع عن هذه الاغراءات المادية التي لم تنصفنا في مجالات التقدم والارتقاء.

تريسوتان : احترامي وتقديري للجنس اللطيف أمر مشهور عنّي غنيّ عن التعريف. واذا خصصت العيون الفاتنة بإكرام فريد، فذلك يعود الى ما أحفظه لصويحباتها من بنات حواء في قلبي من مودة واحترام وتقدير.

فيلامانت : نحن طبعاً نبادلك هذا الشعور ونكبر فيك توقّد الذهن وعلّو الثقافة وسعة الاطلاع. خلافاً لغالبية بنات جنسنا اللواتي لا يكترثن لهذه الناحية من الميادين العلمية. وكم منّا نحن النساء مَن عشقن العلوم والفنون وبرزن في حقول الإستنباط والابداع، والتأليف والتصنيف والاختبارات النفسية والاجتماعية. وقد إنصرفن الى نشاطات نافسن فيها الرجال، حتى على حساب كبْت عواطفهنّ أحياناً وامتناعهنّ عن الزواج.

تريسوتان : اعتقد أن لكل حادث حديث ولكل داء دواء.

أَرْماند : انا يعجبني ابيقوروس في معتقده ونظامه الذي يحبّذ إرخاء العنان لعواطف الانسان.

باليز : انا من جهتي أحب النعومة، وأميل الى الحياة السهلة المرحة، وأقدّر معالم الذكاء والفطنة.

تريسوتان : أمّا ديكارْت فقد فضّل التحفّظ والتقيّد بالنظام.

أَرْماند : انا ايضاً أحبّ ما ابرزه بتحفظٍ من عالمه الحافل بالكواكب والنجوم.

أَرْماند : كم أتوق الى الاجتماعات الرسمية والى الوقوف على الاكتشافات العلمية.

تريسوتان : المعروف عنك أنك واضحة الرؤية، لأن الطبيعة لم تحجب عنك أيّاً من أسرارها الغامضة.

فيلامائت : بالنسبة اليّ، أنا لا احبّذ الخفاء، ولا أعرف من المتفوّقين من سبحوا في اجواء الفلك العالي البعيد عن العيان.

باليز : بينما أنا لم أبصر أبداً رجالاً حازقين، بل اشباحاً تتعثّر خطاهم في ظلال التردد والشك.

أزمائد : لذا ترانا نتعمّق في مبادئ الفيزياء والقواعد والتاريخ والشعر والاخلاق والسياسة.

فيلامائت : حقاً، للاخلاق اليوم بوادر تجتذب اليها المهج والنفوس، وكانت في الماضي تشدّ اليها فطنة الأذهان وحصافة العقول. غير أن حصة المتمسّكين بأهداب الفضيلة هي الأكبر دائماً، ولا أجد في الكون أرصن من هذا الإتجاه الرزين.

أزمائد : من جهة اللغة علينا أن نُلمّ بقواعدها. فلا نتبجّح بأن في استطاعتنا أن نقوم في نطاقها بتغييرات أساسية. وهكذا حملنا في صدورنا الكراهية والحقد المكتسب أو الغريزي، تجاه الألفاظ، أفعالاً كانت أو اسماء أو حروفاً، لا نتخلّى عنها بتاتاً، ونصدر عليها احكاماً متفاوتة، اذ أننا نودّ أن نطهّر النثر والشعر من شوائبهما.

فيلامائت : لكن أجمل مشروع يحققه مجمعنا العلمي هو عمل نبيل أعتزّ به، وهدف مجيد يهفو اليه شتى المثقفين وخلفائهم، قوامه ربط المقاطع البذيئة بأحلى الصيغ التي تبعد الملامة عن أصحابها. وهذه مهزلة لا نهاية لها في نظر الأشرار اينما كانوا لأنهم كأكوام النفايات لا ينجم عنهم سوى النتانة. والفساد وتخديش الحياء لا سيما الانثوي.

تريسوتان : هذه مشاريع تستحق الاعجاب.

باليز : ستطّلع على قوانيننا عندما تصبح جاهزة.

تريسوتان : لن تعدم واحدة منكنّ وسيلة لتكون عاقلة حكيمة.

أزمائد : ستكون في ما يخص شرعتنا، الحَكَم في الأعمال المطروحة للدرس والنقد. وبموجب قوانيننا سيدين لنا النثر والشعر معاً. ولن تكون هناك ثقافة

خارجاً عن نطاق وجودنا في الأجواء الملائمة. وفي كل مكان سنجد ما نكرّر قوله، ولن تخفي واحدة منا مقدرتها على الكتابة والتأليف.

المشهد الثالث

لابين وتريسوتان وفيلامانت وباليز وارماند وهنرييت وفاديوس

لابين (لتريسوتان) : هناك رجل يريد التحدّث اليك، وهو لابس ثياباً سوداء ويتكلّم بلطف ونعومة.

تريسوتان : هذا هو العالِم الذي أصرّ على التشرف بمعرفتك.

فيلامانت : يمكنك ان تصطحبه معك. لذا أمنحك ملء الحرية، وأفوّض اليك امر التصرف كما تراه مناسباً. (لأرمان وباليز) : علينا أن نظهر له سعة معلوماتنا ونغدق عليه الحفاوة اثناء استقباله. (لهنرييت) : الى أين أنتِ ذاهبة ؟ لقد أفهمتك بصريح العبارة اني بحاجة اليك.

هنْرييت : ماذا تريدين ؟

فيلامانْت : تعالي. سأخبركِ فيما بعد.

تريسوتان : هذا هو الرجل الذي يتوق الى مشاهدتك. ولا أخشى أية ملامة على استقبالك رجلاً غريباً عن وسطك؛ يا سيدتي. مع العلم أنه يستطيع أن يحافظ على مكانته بين المثقفين.

فيلامانْت : الشخص الذي يقدّمه، قد تحدّث طويلاً عن قيمته الانسانية.

تريسوتان : هو على جانب كبير من الذكاء كسائر المؤلّفين، ويتقن لغتنا نظير اهالي البلاد.

فيلامانْت : ويعرف كذلك اللغة اليونانية.

أرْماند : ما أرخم ألفاظ هذه اللغة.

فيلامانْت : الاستاذ يعرف اليونانية ؟ أسمح لي يا سيدي، حباً باليونانية أن اعانقك عناق الأخوة. (يدع الجميع يعانقونه حتى هنرييت التي لا تميل اليه) : .

هنْرييت : أعذرني، يا سيدي. انا لا أعرف اللغة اليونانية.
فيلامانْت : اني احترم كثيراً جميع الكتب اليونانية.
فاديوس : اخشى أن اضايقك بما احمله بين ضلوعي من تقدير لشخصك الكريم. وآسف إن كنت شوّشت عليك قليلاً، بعض محادثاتنا الموفّقة.
فيلامانْت : انت تعلم، يا سيدي، انك باتقانك اليونانية، لا تخسر أبداً.
تريسوتان : إنه يجيد نظم الشعر وكتابة النثر، ويمكنه أن يريك بعض تآليفه في هذين الحقلين.
فاديوس : من عيوب المؤلفين في كتاباتهم أنهم يرهقون قرّاءهم بتطويل شروحهم والتبجّح في كل مكان، في القصر وفي الباحة وفي الشارع وفي الأسطبل، بما يُلْقُونه من أشعارهم السقيمة على من يريد أن يصغي اليهم. وانا لا اجد شخصاً اكثر حماقةً في نظري، من مؤلف يلتمس المديح من الجميع ويطرح كتاباته على اوائل القادمين ويضطرهم الى تحمّل سماجته في السهرات خاصةً. بينما أنا لم أمارس هذا النوع من المبادرات الجنونية. لا سيما عندما يكون نتاجه أقرب الى التفاهة والهذيان منه الى الابداع. وهذه بعض أشعاري التي نظمتها للعشاق الجُدد، أودّ أن أُلقيها عليكم واكون لكم من الشاكرين اذا اردتم ان تعلموني بما تبعثه فيكم من شعور يستحق الذكر.
تريسوتان : لا بد لأبياتك من أن تحوي روعة لا تتضمّنها سواها.
فاديوس : النعومة والابداع من الظواهر البيّنة التي تتّسم بها اشعارك المستحبّة.
تريسوتان : تعابيرك المنمّقة وكلماتك المختارة تميّز قصائدك بكاملها.
فاديوس : في أشعارك يلمس الجميع ما تورده من أمثالٍ وحِكَم.
تريسوتان : من جهتي، لقيت في نظمك مهارة تيوكريت وبراعة فرجيل.
فاديوس : ابياتك تجمع بين الطلاوة والبلاغة والغزل الرقيق. وهكذا فاقت ما ابتدعه هوراس في زمانه.
تريسوتان : وهل أناشيدك المرحلة أحلى من الغزل الذي يفوح منه شذى الوفاء ؟
فاديوس : وهل هناك ما يعادل رشاقة كتاباتك ؟
تريسوتان : ليس أبرع من تعابيرك المتناسقة.

فاديوس : ولا أشدّ مرحاً من أبياتك المتناغمة.
تريسوتان : حقاً، أنت قد مهرت في حبْك مواضيعك.
فاديوس : وأنت في تشويق قرائك.
تريسوتان : ليت بلادك تقدّر اعمالك القيّمة ...
فاديوس : ليت هذا العصر يعطي كل ذي حق حقه.
تريسوتان : لكنت اجتزت الشوارع في عربة مرصّعة بالذهب.
فاديوس : ولكانت الجماهير رفعت لك الأنصاب والتماثيل. (لتريسوتان) : هذه بعض ابيات أودّ إلقاءها على مسمعك لكي ...
تريسوتان : أوَليْس لديك عدد منها عن حمّى أصابت الأميرة أوراني ؟
فاديوس : اجل. تُليت علينا بالأمس، عندما كنت بصحبة بعض الأصدقاء.
تريسوتان : هل تعرف من نظمها ؟
فاديوس : كلا. لكني أعرف أن هذه الأبيات، اذا اردت أن أقيّم نَظْمها، لا اتردّد في القول انها لا تساوي كثيراً.
تريسوتان : العديدون يجدونها تستحق الاعجاب.
فاديوس : هذا لا يمنع ان تستحق الشفقة ايضاً. ولو اطّلعت عليها لكنت من رأيي حتماً.
تريسوتان : انا أخالفك في هذا التصريح، وأؤكد لك ان القليلين بين الشعراء يسعهم أن يجاروه في نظم مثلها.
فاديوس : وقاني الله من التورّط في نظم أبيات من مستواها.
تريسوتان : اكرّر عليك ان القليلين يستطيعون نظم مثلها. والبرهان على ذلك هو أني أنا الذي نظمتها.
فاديوس : انت ؟
تريسوتان : نعم، أنا.
فاديوس : لستُ أدري كيف قمت أنت بهذا العمل.
تريسوتان : يزعجني جداً ان لا أكون عند حسن ظنك.
فاديوس : لا بد من أن أكون قد سهوت قليلاً لدى سماعها أو أن قارئها لم

يَفِها حقها من جودة الالقاء. على كل حال، دعْنا منها، ولنستمع الآن الى ابياتي.

تريسوتان : أعتقد أن موضوعك اكل الدهر عليه وشرب، وأصبح من عصر سالفٍ غير مرغوب.

فاديوس : مع أنها خلبت ألْباب سامعيها أينما القيت.

تريسوتان : رغم ذلك، هذا لا يمنع ان لا تعجبني شخصياً.

فاديوس : هذا اسوأ ما كنت أترقبه من إنسان في مستواك.

تريسوتان : ربما كانت قيّمة في نظر المتحزلقين.

فاديوس : لكنها على كل حال، لا تثير إعجابك.

تريسوتان : يؤسفني ان تنسب تقدير غيرك لنفسك.

فاديوس : تبّاً لوقاحتك التي تتهمني بما هو من أكبر المعايب في شخصك.

تريسوتان : ما أقبحك، ايها الغبي العنيد. أنت لا يسعك إلّا تسويد الصفحات البيضاء.

فاديوس : ما أنتَ إلّا سارق القوافي، والمفتري على مواهب الشعر.

تريسوتان : ما امهرك في التخبّط بانتحال النظم والتأليف، يا مختلس الشعر وناقل الكفر.

فاديوس : تبّاً لك من دعيّ تافه ...

فيلامانْت : هيّا اعترف بنَسَب ما سطوتَ عليه من اشعار سواك، وردّها الى صاحبها الحقيقي، ايها اللص الخسيس، يا مَن تدّعي لنفسك تآليف الاغريق والرومان.

فاديوس : إذهب واعتذر من سكان قبور مدفن برناس، يا من يكفيك أن تكون قد هشّمت اشعار هوراس.

تريسوتان : تذكر كتابك الساقط الأخير، والتنديد الحقير الذي لقيه عن استحقاق.

فاديوس : وهل نسيت انت أن بائع كتبك كان مصيره المستشفى.

تريسوتان : مجدي وطيد وشامخ، لا سبيل لك ان تطاله لتحطّمه.

فاديوس : كم أودّ ان ارسلك الى ناظم قصائد الذم والقدح ليفيك حقّك.

تريسوتان : بل أنا الذي أودّ ان ارسلك اليه ليصبّ عليك سيل نقمته وحقده.
فاديوس : يسرّني ان اخبرك انه عاملني معاملة اشرف من التي خصّك بها. هو لم يستطع أن يشوّه سمعتي بانتقاداته الهزيلة التي تطال من يضمهم العدد الكبير من جماعة المؤلّفين الذين يكرمهم أرباب القصر الملكي، اذ جَلّ من لا يخطئ في هذه الدنيا. اعلمْ ان أشعاري هي فوق كل الانتقادات، ولا بدّ من أخذها بعين الاعتبار وخصّها بمنتهى التقدير.
تريسوتان : هنا حظيت أنا بالمقام المشرّف. بينما أنت ليس من نصيبك إلّا احقر المراتب. فقد نالك التحقير، ولم يفتك رمْي أشعارك الى كومة الأقذار النتنة. قد يتطرق خصمي الى مهاجمتي، لكنه حتماً يرتدّ على اعقابه أمام جبروت قريحتي الخلّاقة ونبوغي المحلّق في سماء الفن والابداع. ولم يبلغ أي نجاح كل من حاول تهشيم قصائدي المعصومة وتشويه سمعتي العطرة التي لا تُمسّ.
فاديوس : ستخبرك ريشتي ما هي مقدرتي، عندما تقارن نتاجك في القريب العاجل.
تريسوتان : وريشتي انا ستبرهن لك من هو سيّد الشعر والنثر معاً، وسيدك ايضاً ايها العاجز في هذا الميدان الفسيح.
فاديوس : انا أتحدّاك شعراً ونثراً وفي اليونانية واللاتينية.
تريسوتان : اذاً سنتقابل قريباً وجهاً لوجه عند الناشر المعهود.

المشهد الرابع

تريسوتان وفيلامانت وأرماند وباليز وهنرييت

تريسوتان : لا تلوميني على تصرفي. فإني دافعت عن موقفكِ، يا سيدتي، بالنسبة الى القصيدة التي تجرأت على مهاجمتها.
فيلامانت : سأجتهد لتسوية هذا الخلاف. والآن دعنا نتكلم عن مسألة اخرى هامّة. تقدّمي، يا هنرييت. فمنذ زمن طويل انا قلقة على عدم إظهارك اي ميل

للثقافة والعلوم. غير أني وجدت وسيلة لكي ازرع في نفسك حب الإطّلاع والتقدّم.

هنْرييت : لا داعي لهذا الاهتمام بي، فلن يؤدّي الى اية نتيجة. أنا بطبعي لا أميل الى العلوم، بل أحب أن أعيش ببساطة وهناء. وليس لي أي طموح في دنيا الثقافة. ما دمت راضية، يا عزيزتي، بأن أظل جاهلة. ولا يهمني أبداً أن أتعلّم استخدام الكلمات الرنّانة.

فيلامانْت : انت تجرحين احساسي بقولك هذا، يا ابنتي، وتنزلين بي العار بعد ان بلغتُ انا شأوا لا بأس به في عالم الحضارة والرقي. ألا اعلمي ان جمال الوجه سمة عابرة تشبه زهرة سريعة الذبول، ورهجة آنيّة لا تلبث أن تزول. إذْ لا يتعدّى هذا الجمال كونه سطحي يتعلّق بالبشرة وهي مجرّد جلد كالذي يكسو سائر الجسم. غير أن جمال الروح ليس له آفة، وهو ثابت يدوم كجمال الفن الذي لا يمكن أن تعبث به السنون وتصيبه بأي تغيير. فعندما تختزنين كنوز العلوم تتحلّين بأطرف المعرفة في كافّة المجالات، لأن الفكر يستوعب جواهر من العلم لا تصل اليها يد سارق ولا يهددها أي عامل اهتراء. وهكذا يسعك ان تشدّي اليك رجل ثقافة مرموق يهيم بحبك. وهذا الرجل هو السيّد الذي أعيّنه لك، وقد إخترته لشخصك كي تنعمي بصحبته في جنة الحضارة على الأرض تضم سعادة العلم وسعادة الزواج معاً.

هنْرييت : أنا، يا أمي ؟

فيلامانْت : اجل أنتِ. لا تتغابي ابداً في حضوري، يا عزيزتي.

باليز (لتريسوتان) : كلّي آذان صاغية. وعيناي ترقبان تصريحك لكي اشدّ وثاق قلبي الى شخص آخر، وأنا أريد زواجاً يحظى بموافقتك.

تريسوتان (لهنريت) : لست أدري ما يجب عليّ ان اقول لك بسرور وابتهاج، يا سيدتي، فهذا الزواج يشرّفني ويسعدني. ولكن ...

هنْرييت : مهلاً. تردّين عليه هكذا ؟ هل علمتِ ؟ ... كفى. أتسمعينني ؟ (لتريسوتان) : لا بدّ من ان تحكّم عقلها في هذه القضية. دعها الآن وشأنها.

المشهد الخامس

هنرييت وارماند

أَرْمانْد : ألاحظ أن والدتنا مهتمة بك، هذه الأيام، اهتماماً خاصاً. ولا يمكنها ان تقدّم لك زوجاً أكثر شهرة من هذا الرجل.
هنْرييت : اذا كان اختيارها مناسباً الى هذا الحدّ، لماذا لا ترضين انتِ به ؟
أَرْمانْد : هو يفضّلك أنتِ، ويده ممتدة إليكِ لا اليّ.
هنْرييت : اني أتنازل عنه لكِ، بما أنك اكبر مني سنّاً.
أَرْمانْد : لو كان الزواج يبهر انظاري كما هو حالك، لرضيت بعرضه فوراً وبكل ابتهاج.
هنْرييت : لو كنت أهوى مثلك المثقفين والشعراء لوجدته ربما نصيباً ممتازاً.
أَرْمانْد : مع أن أذواقنا متباينة جداً، علينا أن نخضع، يا أختي، لمشيئة أهلنا. فإن لوالدتنا ملء السلطة على مصيرنا بصفتنا بناتها. وهل تظنّين انك بممانعتك تتوصّلين الى ...

المشهد السادس

كريزالد وأريست وكليتاندر وهنرييت وأرماند

كريزال (**لهنرييت وهو يقدّم لها كليتاندر**) : هيّا، يا ابنتي، عليكِ ان ترضي بمن اجده مناسباً لك. فاخلعي قفازك، وامسكي بيد هذا الشاب، واعتبريه من الآن وصاعداً رفيق روحك وزوجاً أريد أن تصبحي قريباً امرأته.
أَرْمانْد : من هذه الناحية، يا اختي، أنا أعرف أنك تميلين اليه.
هنْرييت : أجل، علينا أن نخضع لمشيئة وليّ أمرنا، لأن لوالدنا، فعلاً علينا سلطة كاملة يجب الازعان لها في جميع الأحوال.
أَرْمانْد : لوالدتنا ايضاً علينا حق إطاعتها.
كريزال : ما معنى هذه المداورة في الكلام ؟

أرْمانْد : اقول لك بصراحة اني اخشى ما سينجم عن إهمال موافقة والدتنا، وهي التي تصرّ على منح يد أختي لزوج آخر.

كريزال : أصمتي، ايتها الثرثارة. إذهبي وتفلسفي لدى أمك. ولا تدخلي ابداً في شؤوني وشؤون شقيقتك. قولي لوالدتك اني قرّرت نهائياً ما قررته، ونبّهيها الى وجوب الكفّ عن معارضتي والى عدم الجدوى من مناقشتي في هذا الموضوع الهامّ الذي صمّمت على البتّ فيه كما بينته الآن. هيّا إمضِ واخبريها في الحال.

أريسْت : حسن جداً. لقد تمّت المعجزة التي كنت أترقّبها.

كليتانْدر : ما اسعدني، وما أحسن حظّي. لقد حقّقت املي وبلغت امنيّتي.

كريزال (**لكليتاندر**) : هيّا، يا رجل، أمسك بيد ابنتي وسيرا امامي. (لأريست) : أوصلها الى غرفتها. ما اطيب المداعبات. ها هو قلبي يرقص طرباً للمناجاة الحلوة بين المحبّين. فإن هذه الأفراح تعيد الشباب الى شيخوختي، وتذكّرني بأيام عرسي ومسرّات لياليه البهيجة.

الفصل الرابع

المشهد الأول

ارماند وفيلامانت

أَرْمانْد : لم يوازِ شيء في ذهني تعنّتها في إطاعة والدنا، هي التي سايرت دوماً هوى قلبها امامي، وخضعت لدوافع حبها غير مبالية بتحدّي اوامر امّنا وإغضابها.

فيلامانْت : سأعلّمها لأية مشيئةٍ منا نحن الاثنين، انا أو والدها، عليها أن تزعن. هي تظن أنها بالاستماع الى صوت عقلها تحقّق احلامها. ولا تدري بعد من منا نحن الاثنين أنا أو زوجي، يفرض نفسه هنا في هذا البيت، فتطاع كلمته الأخيرة حتماً. وهي لا تعلم بعد إن كانت عوامل الروح أو الجسد، الفكر أو القلب، تسود هنا.

أَرْمانْد : أنت تستحقين الثناء، يا أمي. وهذا الشاب يعرف جيداً من أين تؤكل الكتف حتى يصبح رغماً عنك صهرك زوج ابنتك.

فيلامانْت : هو لا يعرف بعد كيف يلبي نداء القلب الذي يهواه. لقد وجدته يلائمك، لأني أعرف ميلك إليه. لكنه بتصرّفه غير الواعي، قد أزعجني من حيث لا يدري. هو يعلم أني لا أهوى تآليفه، فلم يطلب مني يوماً أن أقرأ كتاباته.

المشهد الثاني

كليتاندر (يدخل متمهلاً ويحاول ان لا يدع أحداً يبصره) :

وأرماند وفيلامنت

أرْماند : انا لا أرضى بأن يكون هذا الرجل، زوج هنرييت. وارى أن لا لزوم لمحادثتي في موضوعه، لأن هذا يزعجني. وإن اراد أن يأخذني بالحيلة والمراوغة، فلن أكون أنا مسرورة، ولن يصل هو الى غايته المنشودة، وإن استخدم كل اساليب الفلسفة في هذا السبيل. من جهة ثانية هو إنسان له صفات حميدة، وأنا أقدّر فيه هذه الميزة.

فيلامانت : صدّقيني، إنه ليس إلّا أحمق مسكين.

أرْماند : مهما قلتِ عنه، انا افهم دوافعك. لأنه لم يكن يوماً مطابقاً لرأيك.

فيلامانت : تبّاً له من خشن الطباع متعجرف.

أرْماند : اني افهم موقفك بالنسبة اليه. فكم من مرة تلوت كتاباتك عنه، وأدركت ما تضمرين له من حقد وبغض.

فيلامانت : ما أوقحه.

أرْماند : وكم من مرّة جرى بينكما نقاش حادّ، وكم من مرّة نَعَتّه بالغباء.

كليتاندر : مهلاً، مهلاً. ارجوك، يا سيدتي، ان تشمليني بحلمك، وأن تنظري اليّ بعين الحق والانصاف. أية إهانة وجهت اليك ؟ وأي شرّ اصابك بسببي حتى تناصبيني كل هذا العداء ؟ إن كنتِ بذلك تقصدين تكريه ابنتك بي وإسقاطي في نظر من أحتاج اليها كالهواء الذي أتنشقه، فأنت واهمة. كل ما اطلبه منك هو أن تعامليني بشهامة، وتنظري الى رغبتي بتجرد ونزاهة.

أرْماند : لو كنت اقصد التشهير بك وإذلالك في أعين محبيك لكنت لجأت الى طرق فعّالة. لكن ما أريده منك هو أن تفتح عينيك وأذنيك وتدرك واقع الحال الذي لا تنوي أن تراه، وهو أن هناك قلباً يخفق بحبك ويتوق اليك، وأنت متغافل عنه. فبربّك، اعلم أن كل انسان جاحد يتعامى عن الحقيقة، هو مسخ عديم الادراك ميت الضمير.

كليتاندر : هل تعتبرين، يا سيدتي، جحوداً أن لا يقبل الرجل ما عاملتِه به من

شموخ وكبرياء. إن لي كرامة غالية، وأرفض الانصياع كالأبله، والخضوع لمشيئة امرأة متعالية متجبّرة. واذا اعتبرتِ وضعي بالنسبة اليك مهيناً، فأنتِ وحدك السبب في إعراضي عنك. لا لأنك في بادئ الأمر خلبتِ لبّي وملكتِ قلبي، وكنت أنا أتجاوب ورغبتك، وأزمعت ان اكرّس حياتي لإسعادك كزوج مخلص أمين. لكن تقديم التضحيات والخدمات وتتميم الواجبات في سبيل امرأة متكبرة، أعدّها تضحيات لا جدوى منها عند أقدام هيام متغطرس مستبدّ. لأن كل ما أغدقته عليك من مودّة وتكريم قد ضاع سدىً، وأنت تطلبين مني الخضوع والازعان أوّلاً وآخراً، ضاربة عرض الحائط بأغلى أمانيّ وأعز أحلامي. وحين ثَبُت لي أن جهودي لإرضائك غير مفيدة، إذ أَبَيْتِ أن تعترفي بحقوقي وتصوني كرامتي، حوّلت عنك حبي واخترت سواك. فهل هذا هو ذنبي، يا سيدتي، أمْ ذنبك أنتِ ؟ وكما أوضحت لك مراراً وتكراراً، أنت التي تخليت عني، واقصيتني عن جنة هواك، ولم اكن ابداً أنا البادئ، والبادئ أظلم، كما تعلمين.

أَزْمائد : أنتَ تلومني على معارضتي تصرفاتك. وهل تعتبرني مخطئة إن حاولت أن أخلّصك من أفكارك السمجة، و ان ارفعك الى مستوى أعلى مما أنت فيه. ان كنتَ لا تجد أن الحب ينمو بالنزوع الى الكمال، وبتعشّق الجمال، فباطلاً تسعى الى الحصول على السعادة القائمة على اتحاد القلوب وتفاهم العقول. وإلّا كان ما تنشده من الهوى سراباً في صحراء قاحلة. أنا لا أستوعب كيف تأمل التوفيق والتفاهم بين شخصين متحابّين خارج نطاق الأفكار السامية والفنون الجميلة التي لا تقدّرها إلّا النفوس الكبيرة. وما دامت اهدافك أرضية، فلا أظن أنك تستطيع بلوغ مصافّ المحظوظين الذين ينعمون في عالم الروح والخيال والنبوغ. أنتَ تتشبّثُ بالملذات الأرضية والأحاسيس الملموسة، ولا تأبه لخلجات النفس المحلّقة في سماء الفكر والقريحة الخلّاقة. وفي ذلك برهان دامغ على أنك لن تكون أهلاً أبداً لما أحلّق أنا فيه من أجواء الحضارة والرقي. اراك كغيرك من الرجال والنساء، تتعلّق بالرغبات الحسيّة المادية وهي القشور، ولا تبالي بالمشاعر النفسية التي تفوق كافة الشؤون الزمنية. لا بد للهوى من أن يتجاوب في دنيا العواطف، والنفحات العطرة

المعبّقة في آفاق الهيام، الزاهية تحت ظلال فردوس الثقافة والعلم، وان لا تظل الحواس أسيرة متعطّشة الى ملذات الدنيا الجسدية. ان كل ما أرمي اليه الآن هو انتشالك من وهدتك المظلمة لأنقلك معي الى عالم النور والحقائق الجوهرية المترفعة عن أمور الدنيا ومشاغلها.

كليتانْدر : اسمحي لي يا سيدتي، أن أصارحك بأن لي نفساً روحانيّة، كما أن لي جسداً أرضياً. ولا سبيل في نظري لفصل الروح عن الجسد. فقد حرمتني السماء نعمة فلسفتك التي لا تؤمن إلا بمواهب الذهن، وتطمح الى اتحاد القلوب من خلال تعانق الأفكار. بينما هي تزدري بتبادل المشاعر الحسيّة. اكرر عليك أن ما ترينه رفيعاً ومميّزاً عن المبتذل الذي تُعرضين عنه، أنا لا أنظر إليه بنفس منظارك. وهنا يكمن الفرق الشاسع الفاصل الذي باعد بيننا نحن الاثنين. انت تقدّسين النبوغ والابداع، وأنا أطلب ما يطفئ ظمأ قلبي الى الحب والحنان. أنت تسرحين في آفاق الخيال البعيدة، وأنا أريد أن أعيش على الأرض بمرح وسلام. وما أبعد المسافة بين هدفينا، وما أكبر البون الشاسع بين نظرتينا الى شؤون الحياة التي لا أريد أن أستغني عنها.

أرْماند : اذاً، مع أنك، يا سيدي، لا تودّ إلّا أن تُضْفي الواقعية على مناشدتي حبك، لأن أحاسيسك الأرضية تشدّك الى اسفل، ومع أنك مصرّ على التمتع بالملذات المادية الجسدية، اذا قبلتْ امي بتلبية طلبك، فأنا لا أمانع الآن تحقيق هذه الأمنية العزيزة على قلبي أنا ايضاً.

كليتاندر : لقد فات الأوان، يا سيدتي، وصبيّة أخرى احتلت مكانك. فإن أنا بدّلت موقفي أدوس قلبي وأظلم قلب سواي. وليس من طبعي أن أتنكّر لمن أجد الآن فيها سبب سعادتي وحياة مهجتي ورفيقة عمري ولا سيما من تصون كرامتي وتحفظ عهدي.

فيلامانت : وهل تعتمد، يا سيدي على موافقتي لتحقيق حلمك في هذا الزواج ؟ ألا اعلمْ أني صممت على زفّ هنرييت لسواك.

كليتاندر : ارجوك، يا سيدتي، أن تعيدي النظر في اختيارك. وأسألك أن تصارحيني بما ترينه فيّ من الدواعي المحقّة المبرّرة لرفضك طلبي، واعتباري خصماً ومزاحماً لتريسوتان. ان ما تحفظينه من حب الثقافة، وقد رفعها زيّ

الوقت الحاضر الى أعلى المراتب، يحبّذ زوجاً لابنتك نظير تريسوتان. ولكن لا تنسي أن هذا الشخص لم يتوصّل الى خداع أحد، والكل يلمسون بعده عن الواقع في ما ينظمه من أشعار، بينما أنت تضعينها على سبيل الهواية، في مستوى النبوغ. وها هم معظم عارفيه لا يؤيدون ما ينسب اليه من قِيَم وهميّة خلاف ما تتصوّرين.

فيلامانْت : ان كنت تنظر اليه نظرة مختلفة عنّي، فلأني أراه بعين لا تشابه ابداً عينك الكليلة.

المشهد الثالث

تريسوتان وأرماند وفيلامانت وكليتاندر

تريسوتان : أتيت لأبلغكم نبأً ساراً. فقد أبصرت في الحلم، يا سيدتي، أننا نجونا من كارثة فظيعة، اذ مرّ بالقرب من عالمنا إعصار هائل، لو داهم أرضنا لكنّا هلكنا جميعنا وتناثرنا حطاماً كما ينكسر الزجاج ويتفتّت.

فيلامانْت : لنترك هذا الحديث الى فرصة أخرى. فهذا كلام لا يستند إلى أي منطق بل هو مجرد هراء صادر عن جهل لا يدرك كنه الأمور.

كليتانْدر : لا بد لهذا الحال إذاً من تغيير. وهنا أشرح قصدي، يا سيدتي. فبما أني بعيد عن جد العلم والثقافة التي تشوّه جوهر ميول البشر، أفضّل أن أظلّ في مصاف المغفّلين الجهلة عل أن أكون عالماً نظير بعض المتيّمين من عشاق الحضارة والرقي.

تريسوتان : انا لست من الرأي القائل : ان العلم يفسد الضمائر.

كليتانْدر : هذا شعوري الشخصي الصادق، وأقرّ بأن العلم لا يستبدّ إلّا بالحمقى المتغابين.

تريسوتان : هذا استنتاج خطير.

كليتانْدر : بدون أن أمتاز بأية مهارة خاصّة، أعتقد أن من السهل عليّ أن اثبت قولي، لأني امتلك الحجج الدامغة، والأمثال كثيرة على صحة كلامي.

تريسوتان : بإمكانك أن تقدم لنا بعضها بدون أن تصل الى أية نتيجة مرضية.
كليتاندر : لن أحتاج الى كبير عناء كي أبرهن على ما يدعم تأكيدي.
تريسوتان : بالنسبة اليّ، أنا لا أجد هذه الأمثلة صالحة.
كليتاندر : بينما أنا أراها قاطعة كما تظهر للعيان.
تريسوتان : لقد اعتقدت حتى الآن أن داعي الحماقة هو الجهل لا العلم.
كليتاندر : أؤكد لك أن ظنّك خاطئٌ لأن أحمق العلم يفوق غباءً احمق الجهل.
تريسوتان : العَرْف يدحض حججك، لأن الحماقة والجهل مترادفان متوازيان.
كليتاندر : ان كنت تريد أن تكتفي بالمعنى الحرفي، فالترابطِ أقوى بين الأحمق ومدّعي العلم.
تريسوتان : الغباء في احدهما ظاهر بكل جلاء.
كليتاندر : والتفلسف في الآخر يندمج بطبيعة الانسان.
تريسوتان : بينما المعرفة تحافظ على قيمتها مهما كان الأمر.
كليتاندر : أجل، لأن المعرفة في رأس الأبله تغدو وقاحة مزعجة كالسلاح الجارح في يد الجبان.
تريسوتان : لا بد من أن يكون للجهل جاذب خاص في نظرك. ما دمت تدافع عنه بهذا الحماس.
كليتاندر : اذا كان للجهل عليّ مثل هذا السحر، فالفضل لما لقيته من أثر سيّئ على بعض العلماء والمثقفين والأعياء.
تريسوتان : لا يغرب عن بالك أننا نرى ظواهر بعض العلماء بادية على كثير من الناس المخدوعين.
كليتاندر : لو كان مرجعنا بعض هؤلاء العلماء، لكنّا لَمَسْنا ذلك في العديد من البشر.
فيلامانت (لكليتاندر) : يبدو لي، يا سيدي، انّ ...
كليتاندر : ارجوك، يا سيدتي، ان تعلمي ان هذا السيد قويّ الحجة الى حدّ انه لا يحتاج الى مساعدة. فأنا لا أهتم لمهاجمة أمثاله. وللدفاع عن نفسي، يكفيني أن أتغافل عنه قليلاً.

أَزْمائد : لكن ردّ الهجوم بما تفعله ...
كليتائدر : اذا واصلتِ نقاشكِ أنسحبُ.
فيلامائت : هذه المساجلة غدت كالتراشق. والأفضل أن لا تبلغ حدّ التعرّض للأشخاص المتباحثين.
كليتائدر : يا الهي. هذا لا ينطوي على ما يغيظ. لأن ما يجري في الحقيقة هو تنكيت مرير بين رجلين متزاحمين. فإن استاء احدهما، فلا يحق له أن يعتبر ذلك أكثر من منافسة حرّة.
تريسوتان : هذه المعركة لا تدهشني، لأن كلاً من الطرفين يبرز حججه، كما يتمّ ذلك في المحكمة، حيث يَعرض كل من الخصمين قضيته من وجهة نظره. والمحكمة ليس من شأنها ان تساند الجهل وتشدّ إزره، بل على المترافع أن يدافع عن حقه.
كليتائدر : اراك تنتقد المحكمة التي لا يروق لها ان ترى كل يوم جماعة المثقّفين ينتقدونها ويصبّون جام غضبهم عليها، لأنها في خلافاتهم المتأرجحة لا تراعي شعورهم، ولا تجرّ الحق جرّاً الى جانبهم. هنا، إسمح لي، يا سيدي تريسوتان، على سبيل إسداء النصح، أن اسألك التقيّد باحترام آراء أخصامك، والامتناع عن التنديد بالمحكمة حين لا تنحاز الى مصالحك. فعليك أن تخفّف من حدّتك عندما تتكلم عنها، لأنها ليست غبيّة كما تظنّها، ولديها قوانين تضطر الى تطبيقها ومراعاتها في إصدار قراراتها، وإن لم تناسب ذوقك ومرامك. اذاً، لا بد للمرء من أن يكون نزيهاً متجرّداً، وأن لا يتحامل على أحكامها. أخيراً، إعلم أن الثقافة في هذه الدنيا نوع من الإدّعاء، ولا تحنقْ بسبب ما أقول، لأني بعيد عن أن اتملّق أياً كان، كما أني بعيد ايضاً عن ذمّ اي كان بدون سبب.
تريسوتان : هذا ينمّ على ذوقك ولطفك، يا سيدي.
كليتائدر : وأين ترى الخلل في ما بيّنته لك من تفكيري.
تريسوتان : ارى بوضوح أن بعض الرجال يرفعون بعلمهم شأن بلادهم فيعمّ فضلهم جميع مواطنيهم بدون أن يلجأوا الى طلب مساعدة اية محكمة.
كليتائدر : لا يخفى عليّ حزنك، وأرجو أن يحول تواضعك دون الإنضمام

الى هذه القافلة من الافذاذ الذين لا يفيدون الدولة بشيء من معرفتهم وعلمهم. فماذا تنفع كتاباتهم، ما داموا لأتفه الأسباب يتنكّرون لها ويهاجمون عدالتها ؟ وهم على كل حال، يتذمرون من قلّة تقديرها اياهم ومن تقصيرها في تمجيد مواهبهم النادرة، ويعتقدون أن من واجبها أن تساهم في نشر كتب المؤلفين وتغليفها بجلد العجل، بل أن تغدق عليهم المنح وفاءً لجهود شخصياتهم. مسكينة هذه الدولة التي لا تقوم بواجباتهم تجاه أمثالهم الجهابذة الذين يظنّون أن الحكام لا يمكنهم أن يحتفظوا بمناصبهم لولا كتابات أصحاب القرائح السيّالة من شعراء ومؤلّفين، لا همّ لهم سوى الاستئثار بالتكريم والمديح والمكافأة على ما يبذلونه من جهود جبّارة لإنارة الأذهان وتوطيد أركان الحكم. وهم في الحقيقة يبثّون أحياناً سموم التفرقة ويزرعون بذور الشغب بآرائهم التي لا تترفّع عن الابتزاز. ويعزون كل الفضل في استتباب الأمن والعدل، إن كان هناك من عدل وأمن، الى علمهم وثقافتهم وسعة إطّلاعهم. وقد أسكرهم ما توصّلوا الى تأليفه من كتب ونظمه من قصائد قلّ نفعها وكثر أذى بعضها بحجة نشر الثقافة والعلم.

فيلامانت : كم أثار فيك روح الحماس خصمك الذي يزاحمك ويعرقل وجوده تحقيق مشروعك ...

المشهد الرابع

جوليان وتريسوتان وفيلامانت وكليتاندر وأرماند

جوليان : حضرة العالِم زارك من عهد قريب والذي يشرّفني أن أكون خادمه، يا سيدتي، يرجوكِ ان تطّلعي على هذه الورقة.

فيلامانت : مهما كان هامّاً ما تطلب مني ان اقرأة، أعلم، يا صاحبي، أن من الحماقة مقاطعة حوار يدور بين أشخاص، عليك أن تستأذنهم لتوجّه اليهم حديثك كخادم مهذب.

جوليان : سأدوّن هذا في كتابي، يا سيدتي.

فيلامانت (**تقرأ**) : « تريسوتان، يا سيدتي الكريمة، هناك رجل دعيّ، نشر خبر إقترانه بإبنتك. فاسمحي لي أن أصارحك بأن فلسفته لا تطمع إلّا بأموالك. وأنا أسألكِ أن لا تبتّي بأمر هذا الزواج، قبل أن تطّلعي على القصيدة التي نظمتها لأشرح للجميع واقع حاله وأفضح خداعه. وبانتظار إطّلاعك على الصورة التي رسمتها له على صفحات مجلّدي، أرجوكِ ان تتفضّلي وتلقي نظرة فاحصة على مؤلفات هوراس وفرجيل وتارانس وكاتول، التي أرسلتها لك مع خادمي. وقد وضعت علامات الى جانب المقاطع التي انتحلها من الشعراء الفطاحل المذكورين، ويدّعي أنها من نظمه ».

فيلامانت (**بعد استراحة قصيرة تتابع القراءة**) : : « اليك، يا سيدتي بما وعدتك به لكي تعرفي مستوى هذا العدو الدجّال الذي يأتيك بثوب الصديق بغية الوصول الى غايته الدنيئة، كما ذكرت لك ». (لجوليان) : خذ هذا لمعلمك وقلْ له اني أقدّر مصارحته، واريد التقيد بها. (تشير الى تريسوتان) : وانت، يا سيدي، بصفتك صديق الأسرة، ادعوك الى حضور حفلة توقيع عقد العروسين أمام الكاتب العدل ... وأنتِ يا ارماند، أرجوك أن تستدعي الكاتب العدل، وأن تنقلي هذا الخبر المفرح الى شقيقتك.

أرْمانْد : لا حاجة الى تنبيه اختي، فهذا السيد يهتمّ بذلك، ويذهب بنفسه لينقل حالاً هذا النبدأ إليها هي المتشبثة برأيها.

فيلامانْت : سنرى من الذي سيكون تأثيره على تعنتها أقوى من سواه، اذا لم تزعن لما يجب عليها أن تقبل به من الاثنين. (تذهب) : .

أرْمانْد : يؤسفني أن ألاحظ ان الرياح لا تجري كما تشتهي السفن.

كليتانْدر : انا ذاهب، يا سيدتي، لأسعى بهمة، وحماس، آملاً ان لا تبقى اية حسرة في القلوب.

أرْمانْد : اخشى أن لا تسفر جهودك عن النتيجة المرضية المتوخّاة.

كليتانْدر : اتمنى أن يخيب ظنك في هذا الموضوع.

أرْمانْد : وأنا أيضاً أتمنى فشل مساعيك.

كليتانْدر : اني مقتنع بسموّ هدفي، وارجو أن تساعديني على بلوغ مرامي.

أَزْمانْد : أجل، أنا مستعدة للسعي بكل قوتي الى تحقيق أمنيتي.
كليتانْدر : وعلى هذه الخدمة الجليلة، لك منّي كل شكري وامتناني.

المشهد الخامس

كريزال واريست وهنريت وكليتاندر.

كريزال : بدون مساندتك، يا سيدي، لن أبلغ غايتي ولن أكون مسروراً، لأن السيدة زوجتك رفضت طلبي، بسبب عزمها على زفّ ابنتها الى تريسوتان الذي تُفضّل ان يكون صهرها.
كريزال : ما هذه الأهواء التي تنقاد اليها كالعميان ؟ ولماذا تُفضّل هذا اللعين تريسوتان ؟
أريسْت : لأنه يتقن رصف القوافي، وقد نال الحظوة في عينيها، وقد أقصى من ذهنها صورة خصمه ومزاحمه.
كليتانْدر : وهي منذ الليلة، تودّ أن تستعجل إتمام الزواج.
كريزال : منذ هذه الليلة ؟
كليتانْدر : أجل، هذه الليلة بالذات.
كريزال : وأنا في هذه الليلة عينها، لكي أغيظها، سأعقد قرانك على ابنتي التي تحبها وتريدها كشريكة حياتك.
كليتانْدر : ولتنظيم العقد، بادرت زوجتك الى استدعاء الكاتب العدل.
كريزال : وأنا سأستدعيه ليكتب العقد لصالح من أفضّل أنا أن يكون صهري.
كليتاندر (يشير الى هنريت) : وهذه السيدة ابنتك ستأتي شقيقتها بعد لحظة لتؤكّد لها أنها ستُزفّ عاجلاً الى من يهواه قلبها.
كريزال : وانا آمرها بكل سلطتي الأبوية ان تتهيأ للاقتران بمن افضّله أنا. وسيرى الجميع من هو السيد والآمر المطاع في هذا البيت. (لهنريت) : سأعود حالاً، ففكّري بالمسألة جيداً، وهيا، يا أخي، وأنت يا صهري العزيز، إتبعاني لنتدبّر شؤوننا.

هنرييت (**لأريست**) : على هذا الأساس أرجوك، يا عمي، أن تسهر عليه كما يجب.

أريسْت : انا مستعد لبذل كل جهودي في سبيل صيانة حبك وسعادتك.

كليتانْدر : مهما رأيت الجميع ينوون مساندتي ومساعدتي، المهمّ، يا سيدتي ويا أملي الوحيد في الحياة، أن يكون فؤادك دوماً معي.

هنْرييت : من جهة قلبي، كن على يقين بأنه لا يقوى على الابتعاد عنك.

كليتانْدر : لا تتمّ سعادتي إلّا برضاك ومؤازرتك جهودي.

هنْرييت : أنت ترى كم لقيت من المعارضة لأتخلّى عنك. لكن كن واثقاً بأني لن ارضى عنك بديلاً.

كليتانْدر : لن أخشى الفشل، ما دمتِ دائماً معي.

هنْرييت : سأحاول بذل كل ما بوسعي لتحقيق أغلى أمنياتي وأعذب أحلامي بصحبتك. واذا لم تثمر مساعيّ، فهناك حلّ يحول دون نجاح أي تبرير لِزَفّي الى احد سواك.

كليتانْدر : ارجو أن تمنّ السماء علينا بالفوز والتغلب على كل الصعاب في سبيل دوام حبّنا وتحقيق سعادتنا معاً.

الفصل الخامس

المشهد الأول

هنريت وتريسوتان

هنريت : اردت، يا سيدي، ان أكلّمك على انفراد في موضوع الزواج الذي تتوق اليه والدتي. وكل أملي، نظراً الى الفوضى السائدة على بيتنا أن أتوصل الى إقناعك بالمعقول. اني أعرف جيداً بأن ما يحملك على الاقتران بي هو مبلغ بائنتي الضخم الذي ستحصل عليه بهذه الوسيلة. لكن المال الذي يقدّره الجميع، ليس في نظر الفيلسوف سوى طُعْم لا يستحق الذكر. وأنا أعلم جيداً أيضاً ان كتاباتك تدعو الى ازدراء المادّيات والعظمة الفارغة.

تريسوتان : ليس هذا ما يجعلني أتعلّق بك واكون اسير حبك. لأن جمالك وصفاتك الحسنة ونعومتك هي الثروة الحقيقية التي أطمع بها وتشدّني الى شخصك الكريم.

هنريت : أشكرك على عواطفك وتقديرك. لكني أعتذر عن عدم امكاني تلبية رغبتك. أنا اقدّر موقفك، غير أني بكل صراحة أعلن لك أني لا أستطيع أن أحبك وارضى بك زوجاً. لأن قلبي قد مال الى سواك، كما تعلم، وقد امتلكه كليتاندر، ولا حيلة لي باسترداده منه. ربما حكمتَ عليّ بأني لم أحسن اختيار زوجي، وتتساءل كيف أتغاضى عن عبقريتك التي تفترض أنت لا بد من أن ترضيني. قد أجدني مخطئة في هذا المجال. لكني لا طاقة لي على تغيير واقعي. فكل ذرائع البشر لا تستطيع إقناعي بعكس ما ارتضاه فؤادي. وربما حكمت عليّ بأني لا أراعي صالحي. فأجيبك : حقاً، الحب أعمى.

تريسوتان : رغم أنك تحجبين عني موافقتك وتفضّلين عليّ كليتاندر، ثقي بأني، اذا قبلتِ بي، سأعرف كيف ارضيك وأسعدك.

هنْرييت : قلبي مولع به، ولا يمكنك أن تستميلني اليك، مهما فعلت. فقد سبق السيف العزل، وأنا مستعدة لأن أشرح لك وضعي بكل حرّيّة، وأملي أن لا تزعجك صراحتي. أنت تعلم جيداً ان القلب يهوى بدون أن يعبأ بالمصالح والمنافع. ولو كان كل إنسان يحب بتعقّل وتبصّر، لكان قلبي مال اليك. لكن الحب أعمى، كما قلت لك. وعلى المرء أن يرضى بهذا الواقع. وحين يكون الانسان شهماً عليه أن لا يضحّي بحبه في سبيل إرضاء أهله بل عليه أن يتبع هواه. فأرجوك أن لا تحمّس والدتي على معارضة اختياري بل أن تقنعها بالتساهل ومساعدتي على تقحيق أمنيتي العزيزة التي يجب عليك، والحالة هذه، أن تعينني انت ايضاً على تحقيقها.

تريسوتان : لكي تُرضي هوى قلبك عليك أن تطلبي المستطاع. وهل يقوى رجل مثلي على الامتناع عن حبك ؟ إلّا اذا حجبت عنه صفاتك وألطافك ومفاتنك.

هنْرييت : دعنا من هذا المديح الذي يملأ مقاطع أبيات شعرك. ولنتكلم جدّيّاً عن الواقع الملموس الذي يختلف عن تصوّرات الخيال.

تريسوتان : ان روحي تشدني اليك لا قلبي فقط. فبالشعر أكون عاشقاً متيّماً، عن طريق الوحي والإلهام. لكنني في الواقع أنا ايضاً مغرم بجمالك الفتّان، يا معبودتي هنرييت.

هنْرييت : ارجوك، يا سيدي ...

تريسوتان : اذا كان كلامي يغيظك فأنا أمتنع عن النطق، لأن حرارة هيامي بك لا تقوى على التغاضي عن حسناتك وحنين شوقي الى تحقيق حلمي بالاقتران بك. لأني لا استطيع حقيقةً أن أقاوم سحر جمالك. وأنا لا أتمكن من معارضة رغبة أمك ايضاً، لأنها تفضّل اقترانك بي. على كل حال، لا سبيل لي إلى الاقلاع عن هذه الفكرة التي لا يهمّني غيرها في الكون.

هنْرييت : لكنني أخشى من اللجوء الى العنف للبتّ في هذه القضية الشائكة، لئلّا تكون على حسابك اكثر مما هي على حسابي أنا.

(تمت)